

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مجلة تأصيل العلوم



تصدر في مركز تأصيل العلوم
بجامعة القرآن الكريم وتأصيل العلوم - السودان
السنة التاسعة - العدد الرابع عشر
رجب ١٤٣٩ هـ
مارس ٢٠١٨ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى :

﴿ مَا قَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ

ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾

الأنعام : 38

مجلة تأصيل العلوم

المشرف العام

د. محمود مهدي الشريف خالد

رئيس هيئة التحرير

د. كمال عبدالله أحمد المهلاوي

مدير التحرير

د. الهندي أحمد الشريف مختار

التدقيق اللغوي

أ. محمد زين محمد عبدالله الفكي

هيئة التحرير

- ١/ د. برير سعدالدين الشيخ السماني / ٥/ د. فوزية عمر محمد علي العوض
٢/ أ.د. محمد الفاتح زين العابدين أحمد / ٦/ د. لؤي عبدالوهاب الصقري
٣/ د. بثينة عبدالقادر عبدالكريم بابتوت / ٧/ د. فتح الرحمن عدلان موسى أحمد
٤/ د. رقية عبدالله الطيب الماحي / ٨/ د. حامد أحمد عبداللطيف محمد

الهيئة الاستشارية

- ١/ أ.د. علي العوض عبدالله / ٧/ أ.د. عبدالله الزبير عبدالرحمن
٢/ أ.د. محمد حسب الله محمد علي / ٨/ أ.د. علي الطاهر شرف الدين
٣/ أ.د. إبراهيم أحمد عمر / ٩/ أ.د. محمد الحسن إبراهيم بريمة
٤/ أ.د. يوسف الخليفة أبوبكر / ١٠/ أ.د. عبدالله محمد الأمين النعيم
٥/ أ.د. إسماعيل حسن حسين / ١١/ أ.د. الزبير بشير طه
٦/ أ.د. أحمد خالد بابكر / ١٢/ د. رحاب عبدالرحمن الشيف أحمد

فهرسة المكتبة الوطنية – السودان
مجلة مركز تأصيل العلوم
ردمك: 1858 - 6961 ISSN
جمهورية السودان – ولاية الجزيرة – ود مدني

المراسلات بإسم السيد رئيس تحرير مجلة تأصيل العلوم
مركز تأصيل العلوم – ود مدني – السودان
فاكس : 0511832715 : تلفونات : 00249123552571 – 00249125216718

التصميم والإخراج الفني
محي الدين علي فضل الله أحمد
تلفونات : 0111123923 – 0922619996
E-mail:mohie62@gmail.com

الطابعون
مطابع الفرقان
تلفونات : 0122631834 – 0122141712

قواعد النشر في المجلة

- (١) تنشر المجلة البحوث والدراسات التي تتوفر فيها الأصالة والمنهجية السليمة في مجالات المعرفة المختلفة.
- (٢) أن يخدم البحث قضايا التأصيل العلمي وفقاً للمنهجية الإسلامية .
- (٣) تنشر المجلة البحوث والدراسات التي لم يسبق نشرها .
- (٤) يجب ألا يكون أي من البحوث أو الدراسات المقدمة جزءاً من رسالة دكتوراه أو ماجستير .

إجراءات النشر :

- [١] يقدم الباحث كلما أمكن نسخة من البحث أو الدراسة مطبوعة على برنامج (Word) مع مراعاة التالي :
- [٢] يكتب البحث أو الدراسة باللغة العربية باستخدام خط (Simplified Arabic) بحجم بنط (١٦) وبهوامش ٢ سم علوي وسفلي وأيسر، و٣ سم أيمن.
- [٣] لا يزيد عدد صفحات البحث أو الدراسة عن (٤٥) صفحة ولا تقل عن (٢٥) صفحة بما في ذلك الأشكال والمراجع والملاحق .
- [٤] يقدم الباحث ملخصاً لبحثه، على أن لا يزيد الملخص عن (٢٠٠) كلمة.
- [٥] يتم توثيق وإثبات المراجع وفقاً للمهجع العلمي .
- [٦] ترسل البحوث إلى رئيس تحرير المجلة وله حق الفحص الأولي للبحث أو الدراسة وتقرير صلاحيته للتحكيم أو استبعاده.
- [٧] تخضع البحوث والدراسات المقدمة للنشر للتحكيم العلمي ويبلغ صاحب البحث أو الدراسة بنتيجة التحكيم خلال مدة أقصاها ثلاثة أشهر.
- [٨] تخضع البحوث والدراسات المقدمة للنشر للتحكيم العلمي من قبل محكمين اثنين على الأقل من المتخصصين يختارهما رئيس التحرير من قائمة المحكمين التي تعتمدها هيئة إصدار المجلة ويجوز لرئيس التحرير اختيار محكم مرجح في حالة رفض البحث أو الدراسة من قبل أحد المحكمين.
- [٩] تخضع أولويات نشر البحوث والدراسات وترتيبها لاعتبارات فنية بحتة، ولا ترد لصاحبها.
- [١٠] تؤول حقوق نشر البحوث والدراسات كاملة للمجلة.
- [١١] يمنح كل باحث ثلاث نسخ من عدد المجلة المنشور فيها بحثه .

محتويات العدد

الصفحة	الباحث	اسم البحث
ز		كلمة العدد
١	الدكتور عثمان يوسف عيسى على	اختلاف الأسماء الأعجمية في الرسم العثماني والقرآيات القرآنية
٢٩	الدكتور خالد عبد الله الريح حسين	الكلمات التي انفرد بها الإمام أبو جعفر من بين القراء العشرة من طريق الدرّة جمعاً وتوجيهاً
٥٧	الدكتور عبد الباسط إمام ثاني	ظاهرة الترادف في كتب التفسير (تفسير كفاية ضعفاء السودان نموذجاً)
٨٩	الدكتور محمد سيد أحمد شحاته	تأصيل فقه الأقليات من خلال السنة النبوية
١٢٣	الدكتور أحمد عبد الله حنشل	الاقتراض الخارجي ومخاطره، والصيغ الإسلامية البديلة منه، (دراسة تحليلية في ضوء الواقع المعاصر ونصوص الشريعة الإسلامية)
١٧٧	الدكتورة بثينة محمد الدخري يحيى	دور بصمة الجينات الوراثية في إثبات النسب
٢١٣	الدكتورة بخيته حمد أحمد الجزولي	الأثر التاريخي و الاجتماعي لبيعتي العقبة الأولى والثانية (٦٢٠م - ١٢هـ من النبوة، ٦٢٢م - ١٣هـ من النبوة)
٢٤٥	الدكتور محمد الفاضل اللافي	القضايا الجدلية بين المجلة الزيتونية ومجلة La Tunisie catholique "تونس الكاثوليكية"
٢٩٩	الدكتور خالد رحمة الله صالح عبد الله	القيم التربوية ودورها في ترسيخ السلام الاجتماعي، دراسة مسحية من وجهة نظر معلمي الدراسات الإسلامية - محلية مدني الكبرى
٣٢٣	الدكتور محمد طه أحمد المبارك	مكونات المعرفة العلمية في المناهج السودانية واتجاهات طرق تدريسها بين الحداثة والتأصيل (المكون الرياضي أنموذجاً)

كلمة العدد

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف خلق الله أجمعين سيدنا محمد بن عبد الله، معلم البشرية وهاديها بإذن ربها إلى طريق الخير والفلاح في الدارين وعلى آله وصحبه أجمعين
ويعد ...

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،،،

أيها القارئ الكريم، نحمد الله الذي وفق وأعان على إخراج هذا العدد الجديد، من مجلة تأصيل العلوم، المميز شكلاً وموضوعاً، والذي يحمل في ترتيبه الرقم الرابع عشر من جملة الأعداد التي أصدرها المركز. ولاشك أن هذا العدد - وبإذن الله تعالى- سيشكل إضافة حقيقية لحركة تأصيل العلوم والمعارف في واقعنا المعاصر في جانبها النظري والتطبيقي، وسيظهر ذلك من خلال جملة الموضوعات التي اشتمل عليها هذا العدد، والتي سكب الباحثون فيها عصارة فكرهم واستفروا فيها غاية جهدهم وخبرتهم العملية والعلمية.

ونحمد الله كذلك أن وفقنا لإختيار هذه الموضوعات والتي غطت أغلب محاور المجلة، والتي جاءت على النحو الآتي:

جاء الموضوع الأول يحمل عنوان: **اِخْتِلَافُ الْأَسْمَاءِ الْأَعْجَمِيَّةِ فِي الرَّسْمِ الْعُثْمَانِيِّ وَالْقُرَاءَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ**، للباحث الدكتور / عثمان يوسف عيسى علي، تناول الباحث فيه، التعريف للاسم العجمي والعربي، وتعريف علم الرسم، وتناول اختلاف الأسماء الأعجمية في الرسم العثماني والقراءات القرآنية، ثم قام بجمع هذه الأسماء وبيّن كيفية رسمها والقراءات الواردة فيها مع ذكر الشاهد من الشاطبية أو الدرّة المضيئة، ثم وجّه الباحث كل قراءة ذكرها في بحثه .

أما الموضوع الثاني فقد جاء تحت عنوان: **الكلمات التي انفرد بها الإمام أبو جعفر من بين القراء العشرة من طريق الدرّة جمعاً وتوجيهاً**، للباحث الدكتور / خالد عبد الله الريح حسين، تناول فيه التعريف بالإمام أبو جعفر

وراوييه، والكلمات القرآنية التي قرأ بها الإمام أبي جعفر وحده دون القراء العشرة، ثم قام الباحث بجمع هذه الكلمات وتوجيهها، مع ذكر الشاهد من الدرّة المضية.

وجاء الموضوع الثالث بعنوان: **ظاهرة الترادف في كتب التفسير (تفسير كفاية ضعفاء السودان نموذجاً) اعداد: الدكتور/عبد الباسط إمام ثاني**، هدف من خلاله الباحث إلى تتبع آراء اللغويين القدامى والمحدثين حول الترادف والتدرج به من بطون كتب التفسير وعلى الخاصة تفسير كفاية ضعفاء السودان للشيخ عبد الله بن فودي.

والموضوع الرابع جاء بعنوان: **تأصيل فقه الأقليات من خلال السنة النبوية للدكتور/ محمد سيد أحمد شحاته**، بين فيه الباحث أهمية التأصيل لفقه الأقليات من خلال السنة النبوية، وعرف ببعض الألفاظ التي يكثر إيرادها في البحث مثل فقه الأقليات، والهجرة وحكمها، وبيان تأصيل السنة النبوية لفقه الأقليات في أحكام العبادات، وتأصيل السنة النبوية لفقه الأقليات في أحكام المعاملات، وتأصيل السنة النبوية لفقه الأقليات في العادات والحياة اليومية.

أما الموضوع الخامس: **الاقتراض الخارجي ومخاطره، والصيغ الإسلامية البديلة منه، (دراسة تحليلية في ضوء الواقع المعاصر ونصوص الشريعة الإسلامية) للدكتور/ أحمد عبدالله حنشل**، حاول الباحث أن يسلط الضوء على الاقتراض الخارجي، من حيث التعريف بالقروض الخارجية واثر هذه القروض على الدول العربية والإسلامية المدينة وبيان أبرز الآثار السلبية المعرقة لعملية التنمية الاقتصادية في هذه البلدان، وتطرق في بداية بحثه إلى تجلية مفهوم الاقتراض الخارجي وتعريفه، ثم تناول مبررات الاقتراض الخارجي وكذا الآثار الناشئة عن الاقتراض الخارجي وطاقته الدول على خدمة ديونها الخارجية.

وجاء الموضوع السادس بعنوان: **دور بصمة الجينات الوراثية في إثبات النسب للدكتورة/ بثينة محمد الدخري يحيى**، تناولت في بحثها

مفهوم بصمة الجينات الوراثية وتأثيرها على النسب إثباتاً ونفيًا وموقعها من بين الطرق الشرعية لإثبات النسب التي تتضمن فراش الزوجية الصحيح، والاستلحاق، والشهادة، والقيافة، وذكرت أن هذه البيئة قد أثبتت فاعليتها في إثبات النسب للأطفال في حالة الاشتباه في مواليد المستشفيات وفي ضحايا الحروب والكوارث والمفقودين، وأكدت أنها لا تصلح وسيلة لإثبات مستقلة، في اكتشاف الجريمة، وحمل المتهم على الإقرار.

أما الموضوع السابع فقد حمل عنوان: **الأثر التاريخي و الاجتماعي لبيعتي العقبة الأولى والثانية (٦٢٠م - ١٢هـ من النبوة، ٦٢٢م - ١٣هـ من النبوة)**، للدكتورة/ **بخيته حمد أحمد الجزولي**، تناولت فيه مفهوم البيعة في التاريخ والإسلام، ثم تناولت بيعة العقبة الأولى موضحةً لتاريخها ومكانتها و بنودها، والحاضرون من الرجال والنساء، ثم علقت على ما تضمنته هذه البيعة من دروس وعبر، وتناولت الباحثة كذلك وبنفس المنهج بيعة العقبة الثانية، من حيث بنودها والحاضرون، ثم علقت على ما تضمنته هذه البيعة من دروس وعبر، ووضحت كذلك دور المرأة المسلمة في بيعتي العقبة الأولى والثانية، ثم ختمت بالأثر الاجتماعي والتاريخي لبيعتي العقبة الأولى والثانية.

وجاء الموضوع الثامن بعنوان: **القضايا الجدلية بين المجلة الزيتونية ومجلة La Tunisie catholique "تونس الكاثوليكية" للدكتور/ محمد الفاضل اللّافي**، هدف من خلاله الباحث إلى التعرف على ملامح الحضور المسيحي بتونس، ومدى استثارته للقضايا الحسّاسة، في ظلّ الاحتلال الفرنسي من خلال استنطاق نصوص الصحافة الناطقة باللّغة الفرنسية الموجّهة في عمومها للفرنسيين وطبقة النخب التونسية المتخرّجة من المؤسّسات التعليمية الفرنسية، وكذلك باستقصاء نخيرة صحفية تونسية قيّمة، متمثلة في المجلة الزيتونية.

أما الموضوع التاسع فقد جاء تحت عنوان: **القيم التربوية ودورها في ترسيخ السلام الاجتماعي**، دراسة مسحية من وجهة نظر معلمي

الدراسات الإسلامية - محلية مدني الكبرى، للدكتور/ خالد رحمة الله صالح عبدالله، وهدفت الدراسة إلى معرفة الدور الذي يمكن أن تلعبه القيم التربوية الإسلامية في ترسيخ السلام الاجتماعي، وذلك لما يمثله السلام من قيمة مهمة في المجتمع وبغيره تصبح الحياة في حكم العدم، كما هدفت الدراسة أيضاً إلى معرفة أمثل الطرق لتوظيف هذه القيم الإسلامية للوصول إلى استتباب الأمن.

وجاء الموضوع العاشر بعنوان: مكونات المعرفة العلمية في المناهج السودانية واتجاهات طرق تدريسها بين الحداثة والتأصيل (المكون الرياضي أنموذجاً) للدكتور/ محمد طه أحمد المبارك، هدف البحث إلى تحديد طبيعة أساليب تدريس مكونات المعرفة العلمية التي يتضمنها المنهج الدراسي السوداني وتحديد علاقتها بالحداثة والتأصيل واستخلاص النتائج التي تساهم في تزويد إنسان السودان بالخبرات العلمية الحديثة والقيم الإسلامية الثرة.

والله من وراء القصد،،

رئيس هيئة التحرير

اِخْتِلَافُ الْأَسْمَاءِ الْأَعْجَمِيَّةِ فِي الرَّسْمِ الْعُثْمَانِيِّ وَالْقِرَاءَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ

د. عثمان يوسف عيسى علي (١)

المستخلص

بدأ الباحث هذه الدراسة بتعريف للاسم العجمي والعربي، وتعريف علم الرسم، ثم تناول الباحث في هذا البحث اختلاف الأسماء الأعجمية في الرسم العثماني والقراءات القرآنية، ثم جمع هذه الأسماء وبين كيفية رسمها والقراءات الواردة فيها مع ذكر الشاهد من الشاطبية أو الدرّة المضية ثم وجه الباحث كل قراءة ذكرها في هذا البحث ثمّم الباحث بحثه بتوصيات ونتائج أودعها خاتمة البحث. الحمد لله الذي اصطفانا بوراثة الكتاب، وجعل حفظنا له من حفظه إياه من التّحريف والارتياب وشرفنا بما حملنا من أسانيد قراءاته وعزّو طرق رواياته وضبط أداء حروفه وكلماته فنسأله تعالى أن يمنّ علينا بحفظه والعمل بما فيه ونصلي ونسلم على سيد البشرية صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد : مما لا شك فيه أن للعلماء الدور العظيم في دراسة الإرث الإسلامي وتنقيحه وتحريره ونشره بين الأمة مما جعل المهتمين بهذا الإرث النبوي العظيم يتنافسون في خدمته وامتدادا لهذه الجهود المتواصلة فقد جاء هذا البحث محاولة لجمع الأسماء الأعجمية في القرآن الكريم والاختلاف في رسمها (الرسم العثماني) وقراءتها جمعا وتوجيها، والإسهام في خدمة هذا العلم خدمة للدين لأنه أصبح في هذا الزمان من التخصصات القليلة النادرة وذلك يستدعي بذل الجهود العلمية للمحافظة على هذا العلم ونشره بين العامة والخاصة أسأل الله تعالى أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم وأن ينفع به.

موضوع البحث:

تناول هذا البحث الأسماء الأعجمية في الرسم العثماني والقراءات القرآنية جمعا وتوجيها .

١- أستاذ مساعد : بقسم القراءات - جامعة القرآن الكريم وتأسيس العلوم .

مشكلة البحث :

الأسماء الأعجمية في الرسم العثماني والقراءات القرآنية، أما حدود المشكلة فهي معرفة اختلاف الأسماء الأعجمية في الرسم والقراءات القرآنية وبيان كيفية رسم هذه الأسماء والقراءات فيها.

أسئلة البحث :

يجيب هذا البحث على الأسئلة الآتية

ما المراد بالرسم العثماني ؟

ما المراد بالأسماء الأعجمية ؟

وكم عدد أسماء الأعلام الأعجمية في القرآن الكريم الوارد فيها الخلاف بين الرسم والقراءات؟

كيف يعرف الاسم العجمي؟

هل الأسماء الأعجمية فيها خلاف في الرسم والقراءات ؟

مثال : لم رُسِمَ اسم إبراهيم في البقرة بغير ياء وفي غيرها بالياء؟

أهداف البحث :

يهدف هذا البحث إلى جمع الأسماء الأعجمية وبيان كيفية رسم هذه الأسماء والقراءات الواردة فيها، ويمكن تلخيصها في النقاط الآتية :

- جمع ما تفرق من الأسماء الأعجمية في القرآن الكريم
- بيان رسم الأسماء الأعجمية.
- بيان القراءات الواردة فيها وتوجيهها من لغة العرب.

أهمية البحث :

تأتي أهمية البحث لصلته المباشرة بكتاب الله تعالى مصدر التشريع الأول.

ورود الأسماء الأعجمية في القرآن الكريم

بيان معرفة رسم الأسماء الأعجمية والقراءات الواردة فيها.

علم الرسم والقراءات من أهم العلوم التي ينبغي المحافظة عليها.

أسباب اختيار البحث :

سبب اختيار الموضوع نتيجة لسؤال وجهه إلى أحد الإخوة الكرام بالسعودية والسؤال هو (لمَ رُسِمَ اسم إبراهيم في البقرة بغير ياء وفي غيرها بالياء؟؟
فبعد الإجابة على السؤال قلت في نفسي لماذا لا أجمع الأسماء الأعجمية ثم أبين ما فيها من رسم وقراءات لشرف هذا العلم وخدمة لكتاب الله.

حدود البحث :

الحدود الموضوعية : اختلاف الأسماء الأعجمية في الرسم العثماني والقراءات القرآنية جمعاً وتوجيهاً

الحدود اللغوية : اللغة العربية دون غيرها من اللغات

الدراسات السابقة :

الأسماء الأعجمية تناولتها كتب الرسم وكتب القراءات ضمن مسألتها ولكني لم أفق على بحث بهذا العنوان على حسب اطلاعي .

منهج البحث :

اتبعت هذا البحث المنهج الاستقرائي الذي قام بجمع الأسماء الأعجمية في القرآن الكريم وبيان رسمها والقراءات الواردة فيها وتوجيهها من لغة العرب. أما الأسماء التي لا يوجد فيها خلاف في الرسم والقراءات فلا أتعرض لها لطول البحث.

هيكل البحث :

اشتمل هذا البحث على مقدمة وأربع مباحث وتحت كل مبحث مطالب وخاتمة كما يلي.

المقدمة : اشتملت على أهمية الموضوع، وأهدافه ومنهجه

المبحث الأول: تعريف الرسم العثماني وتعريف الاسم العربي والعجمي وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : تعريف الرسم العثماني.

المطلب الثاني: تعريف الاسم العربي.

المطلب الثالث: تعريف الاسم العجمي.

المبحث الثاني: الأسماء الأعجمية الوارد فيها الخلاف وكيف يعرف الاسم العجمي وفيه مطلبان :

المطلب الأول: الأسماء الأعجمية الوارد فيها الخلاف.

المطلب الثاني: كيف يعرف الاسم العجمي

المبحث الثالث: اختلاف الرسم العثماني والقراءات القرآنية في الأسماء الأعجمية وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول: اختلاف الرسم العثماني والقراءات القرآنية في الأسماء الأعجمية الآتية (إبراهيم جبريل) .

المطلب الثاني: اختلاف الرسم العثماني والقراءات القرآنية في الأسماء الأعجمية الآتية ((إسماعيل، وإسحاق، وعمران، وهارون، ولقمان، وسليمان، وداود، وإسرائيل)).

المطلب الثالث: اختلاف الرسم العثماني والقراءات القرآنية في الأسماء الأعجمية الآتية ((طالوت، وجالوت، ويأجوج، ومأجوج، وميكال، وهاروت، وماروت، وقارون، وهامان"، وفي هذا القسم أيضاً "إلياس"، و"إلياسين"، "بابل").

المبحث الرابع: اختلاف الرسم العثماني والقراءات القرآنية في الأسماء الأعجمية وفيه مطلبان:

المطلب الأول: اختلاف الرسم العثماني والقراءات القرآنية في الأسماء الأعجمية الآتية («سيناء» «زكريا» «أزر» «إليسع» «ثمودا»).

المطلب الثاني: اختلاف الرسم العثماني والقراءات القرآنية في الأسماء الأعجمية الآتية («يحيى» «عيسى» «موسى» «مريم» «زبورا»).

الخاتمة تتلوها أهم النتائج والتوصيات.

المبحث الأول

تعريف الرسم العثماني والمراد منه وتعريف الاسم العربي والعجمي

المطلب الأول

تعريف الرسم العثماني والمراد منه

الرسم في اللغة: هو الأثر، وقيل: بقية الأثر، وقيل: ما ليس له شخص من الآثار^(١). والرسم في الاصطلاح: قسمان: قياسي وتوقيفي.

فالرسم القياسي: هو تصوير الكلمة بحروف هجائها، على تقدير الابتداء بها، والوقف عليها.

والرسم التوقيفي: هو علمٌ تُعرفُ به مخالفاً خط المصاحف العثمانية لأصول الرسم القياسي.

وهذا الرسم التوقيفي هو الذي يعرف بـ (الرسم العثماني)، نسبة إلى عثمان بن عفان (رضي الله عنه)، إذ هو الرسم المدون في المصاحف العثمانية.

ومصطلح الرِّسْمُ أو رَسْمُ المصحف، أو الرِّسْمُ العثماني أو الاصطلاحي. على ما يبدو ظهر استعماله للدلالة على علم هجاء المصحف في وقت متأخر، لأن المؤلفات فيا لقرون الأولى لم تستخدم هذه الكلمة للدلالة على خط المصحف، بل إن المعاجم اللغوية لم تكن تذكر أي معنى لها يتعلق بالكتابة في مادة «رسم».

قال ابن دريد ت ٣٢١ هـ: «رسم كل شيء: أثره، والجمع رسوم»^(٢).

وقال الأزهري ت ٣٧٠ هـ: «الرسم هو الأثر» ورسم الدار ما كان من أثارها لاصقاً بالأرض^(٣).

قال ابن منظور ت ٧١١ هـ: «الرسم هو الأثر، وقيل بقية الأثر، وقيل ما ليس له شخص من الآثار» والجمع أَرَسْمٌ ورُسُومٌ^(٤). وهذا المعنى ينطبق على مرسوم

١- لسان العرب المؤلف: محمد بن مكرم بن منظور الأفرريقي المصري الناشر: دار صادر - بيروت الطبعة الأولى ١٢/ ٢٤١.

٢- جمهرة اللغة لابن دريد ٢/ ٢٢١.

٣- مختار الصحاح المؤلف: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي الناشر: مكتبة لبنان ناشرون - بيروت الطبعة طبعة جديدة، ١٤١٥ - ١٩٩٥ تحقيق: محمود خاطر (١/ ٢٦٧).

٤- لسان العرب ١٢/ ٢٤١.

خط المصحف، فهو أثر من آثار^(١).

قال أبو داود سليمان بن نجاح : العلاقة واضحة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي لمرسوم خط المصحف، ومن ثم صحت تسميته ب: «رسم المصحف»، فهو أثر وخط وكتابة.

وإذا كانت المصنفات الأولى في الرسم يغلب عليها مصطلح هجاء المصاحف، فإن المؤلفات المتأخرة غلب عليها إطلاق مصطلح الرسم والمرسوم، وصار علماً على هجاء المصاحف وكتابتها، فتخصص بخط المصحف. ومن ثم أضيف إلى ما يعرفه ويخصه، فقول: رسم المصحف، أو أضيف له الوصف فقيل: «الرسم العثماني»، ثم شاع استعماله دلالة على خط المصحف ولو كان مقطوعاً عن الإضافة، فشاع استخدامه للتعبير عن هجاء المصاحف، وتحددت دلالته، وقال أبو داود قد تبين لي أن علم الرسم من حيث الاصطلاح تردد في كتب القوم بأكثر من اسم، حتى اشتهر بين المتأخرين باسم «الرسم العثماني»^(٢).

والمراد بأصول الرسم القياسي قواعده المقررة فيه، ويرادف الرسم: الخط، والكتابة، والزبر والسطر، والرقم، والرشم بالشين المعجمة، وإن غلب الرسم بالسين المهملة في خط المصاحف.

وموضوع الرسم التوقيفي حروف المصاحف العثمانية من حيث الحذف والزيادة، والإبدال، والفصل، والوصل، ونحو ذلك.

ومن فوائده تمييز ما وافق رسم المصاحف من القراءات فيقبل، وما خالفه منها فيرد، حتى لو نقل وجه من القراءات متواتر ظاهر الوجه في العربية إلا أنه مخالف لرسم المصاحف، فإن كانت مخالفته من نوع المخالفات المسطورة في الفن قبلت القراءة وإلا ردت.

وموافقة القراءة لخط المصحف، ولو تقديراً هي أحد الأركان الثلاثة التي عليها مدار قبول القراءات^(٣).

١- مختصر التبيين لهجاء التنزيل (١/١٣١).

٢- مختصر التبيين لهجاء التنزيل لأبي داود سليمان بن نجاح، دراسة وتحقيق أحمد بن أحمد شرشال (١/١٣٢).

٣- دليل الحيران الكتاب: دليل الحيران على مورد الظمان المؤلف: أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن سليمان المارغني التونسي المالكي (المتوفى: ١٣٤٩هـ) الناشر: دار الحديث- القاهرة (ص: ٦٣).

وتعني كلمة (الرسم العثماني) طريقة كتابة كلمات القرآن الكريم في المصاحف التي كتبها الصحابة في خلافة سيدنا عثمان بن عفان - رضي الله عنه - وأرسلت إلى الأمصار الإسلامية واتخذها المسلمون أساساً لكتابة المصاحف وقراءة القرآن. وترجع أصول المصاحف العثمانية إلى الصحف التي جُمعَ فيها القرآن في خلافة سيدنا أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - من الرقاع^(١) التي كُتِبَ فيها في زمن النبي - صلى الله عليه وسلم - فالمصاحف العثمانية هي عين ما كُتِبَ في زمنه - صلى الله عليه وسلم - مُفَرَّقاً في الرقاع، وجمَع في الصحف في خلافة الصديق رضي الله . وإنما نُسِبَتِ المصاحف إلى سيدنا عثمان بن عفان لأن ذلك تم في خلافته وبأمر منه، على نحو ما هو مشهور ومعروف في كتب الحديث والتاريخ.

وقد حافظ المسلمون على رسم الكلمات في المصاحف على نحو ما رُسِمَت في المصاحف العثمانية، وشكّل ذلك الرسم ظاهرة اعتنى بها علماء القرآن، وكتب المصاحف، وعلماء اللغة، واختص بدراستها (علم رسم المصحف) الذي كُتِبَ فيه عشرات المؤلفات منذ بدء تدوين العلوم الإسلامية إلى عصرنا الحاضر .

المطلب الثاني

تعريف الاسم العربي

عَرَبٌ: من معجمهم: العَرَبُ والعُرْبُ والأعرابيُّ والأعراب، وتَعَرَّبَ بمعنى تشبَّه بالعَرَبِ، منشؤها جزيرة العرب، والنسب إليها: عربي، ويقال: لسان عربي، ولغة عربية^(٢).

والعرب: جيل من الناس، والنسبة إليهم عَرَبِيٌّ بَيْنَ العروبة، وهم أهل الأمصار. والأعراب منهم سُكَّانُ البادية خاصّة. وجاء في الشعر الفصيح: الأعراب. والنسبة إلى الأعراب أعرابيٌّ، لأنه لا واحد له. وليس الأعراب جمعاً لعرب، كما كان الأنباط جمعاً لنَبَطٍ، وإنما العرب اسم جنس. والعرب العاربة هم الخُلصُ منهم،

١- جمع رقعة وهي القطعة من النسيج أو الجلد، والرُقعةُ: الخرقَةُ. تقول منه: رُقَعْتُ الثوبَ بالرقاع. الصحاح في اللغة (١/٢٦٥).

٢- العامي الفصيح من إصدارات مجمع اللغة العربية بالقاهرة (٦/١٨).

وأخذ من لفظه فأكدَّ به، كقوله ليل لائل. وربما قالوا: العرب العَرَبَاء. وتعرب، أي تشبَّه بالعرب. وتعربَ بعد هجرته، أي صار أعرابياً. والعرب المستعربة هم الذين ليسوا بخلص، وكذلك المتعربة. والعربية: هي هذه اللغة. والمرأة العربية والخيال العربية... الخ.

والعربَ والعرب واحد، مثل العجم والعجم. والعرب: تصغير العرب. وعربَ لسانه بالضم عروبة، أي صار عربياً. وأعربَ كلامه، إذا لم يلحن في الإعراب. وأعرب بحجته، أي أفصح بها ولم يتق أحداً^(١).

قال أبو بكر قال الفراء: الأعراب أهل البادية والعرب أهل الأمصار فإذا نسب الرجل إلى أنه من أعراب البادية قيل أعرابي، قال الفراء ولا تقول عربي لئلا يلتبس بالنسبة إلى أهل الأمصار، قال الفراء وإذا نسبت رجلاً إلى أنه يتكلم بالعربية وهو من العجم قلت رجل عُرْباني، وإنما سميت العرب عرباً لحسن بيانها في عبارتها وإيضاح معانيها من قول العرب قد أعربت عن القوم إذا تكلمت عنهم وأبنت معانيهم^(٢).

فائدة: قال إبراهيم النخعي^(٣): (كانوا يستحبون أن يلقنوا الصبي حين يعرب لا إله إلا الله ثلاث مرات) فمعنى يعرب يبين الكلام قال الشاعر يذكر حمامتين

لا يعربان لنا قولاً فنفهمه • وما هما في مقال أعجميان

أراد لا يبينان لنا قولاً^(٤).

المطلب الثالث

تعريف الاسم الأعجمي

العُجْمُ بالضم وبالتحريك: خلافُ العَرَبِ. رَجُلٌ وَقَوْمٌ أَعْجَمٌ. وَالْأَعْجَمُ: مَنْ لَا يُفْصِحُ كَالْأَعْجَمِيِّ وَالْأَخْرَسُ^(٥).

١- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية تأليف إسماعيل بن حماد الجوهري تحقيق أحمد عبد الغفور عطار الطبعة الرابعة، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م (١/٤٥٣).

٢- الزاهر في معاني كلمات الناس (٤٦/٢).

٣- الإمام، الحافظ، فقيه العراق، أبو عمران إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود بن عمرو بن ربيعة بن ذهل بن سعد بن مالك بن النخعي النخعي، اليماني، ثم الكوفي، أحد الأعلام. سير أعلام النبلاء (٨٦/٨).

٤- تصحيقات المحدثين للإمام أبو أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد بن إسماعيل العسكري، المحقق: محمود أحمد ميرة (١/٢٦٤).

٥- القاموس المحيط للفيروز أبادي (ص: ١٤٦٦).

والأعجم أيضا: الذي لا يفصح ولا يبين كلامه، وإن كان من العرب. والمرأة عجماء، ومنه زياد الأعجم الشاعر. والأعجم أيضا: الذي في لسانه عجمة وإن أفصح بالعجمية. ورجلان أعجمان وقوم أعجمون وأعاجم. قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾ (الشعراء: ١٩٨)، ثم ينسب إليه فيقال لسان أعجمي، وكتاب أعجمي. ولا تقل رجل أعجمي فتنسبه إلى نفسه، إلا أن يكون أعجم وأعجمي بمعنى مثل دوار ودواري^(١).

وقال أبو بكر قال بعضهم الأعجمي معناه في كلام العرب الذي في لسانه عجمة وإن كان من العرب والعجمي الذي أهله من العجم وإن كان فصيح اللسان يقال رجل أعجمي ورجل أعجم إذا كان في لسانه عجمة ويقال للدواب عجم لأنها لا تتكلم ويقال للظفر والعصر العجمان لأنهما لا يجهر فيهما بالقراءة^(٢).

والخلاصة: في الفرق بينهما، الأعجم والأعجمي: أن الأعجمي الذي لا يفصح وإن كان عربي النسب. والعجمي: الذي نسبته إلى العجم وإن كان يفصح. وكذلك العرب جمع العرب، يقال هؤلاء العرب والعجم، وهؤلاء العرب والعجم. وإنما سميت العرب عربا لحسن بيانها في عبارتها وإيضاح معانيها^(٣). والعربي المنسوب إلى العرب وإن لم يكن فصيحاً وهم أهل الحضرة، والأعرابي: المنسوب إلى البادية.

المبحث الثاني

الأسماء الأعجمية الوارد فيها الخلاف وكيف يعرف الاسم العجمي

المطلب الأول

الأسماء الأعجمية الوارد فيها الخلاف

الأسماء الأعجمية في القرآن الكريم عند علماء الرسم قسمان:

- قسم كثر استعماله وهو تسعة أسماء: "إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، وعمران، وهارون، ولقمان، وسليمان، وداود، وإسرائيل".

١- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (٧/ ٢٨٤).

٢- الزاهر في معاني كلمات الناس (٢/ ٤٥).

٣- تهذيب اللغة المؤلف: أبو منصور محمد بن أحمد الأزهرى، دار النشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت - ٢٠٠١م الطبعة الأولى، تحقيق: محمد عوض مرعب (١/ ٢٤٩).

• وقسم لم يكثر استعماله وهو تسعة أسماء أيضاً: "طالوت، وجالوت، ويأجوج، ومأجوج، وميكايل، وهاروت، وماروت، وقارون، وهامان"، ومن هذا القسم أيضاً "إلياس"، و"ياسين"، "بابل" هذه الأسماء الوارد فيها الخلاف في الرسم والقراءات أما بقية الأسماء الآتية فالخلاف فيها في القراءات فقط فلا خلاف فيها بين علماء الرسم .

وهي كالاتي :

- ١- «سيناء» وردت في موضع واحد في سورة المؤمنون الآية: ٢٠
- ٢- « زكريا » ورد في خمس مواضع أول موضع آل عمران الآية: ٣٧
- ٣- «أزر» ورد في موضع واحد في سورة الأنعام الآية: ٧٤
- ٤- «واليسع» ورد في موضعين واحد في سورة الأنعام الآية: ٨٦، وسورة ص: الآية ٤٨ .
- ٥- «عزير» ورد في موضع واحد في سورة التوبة الآية: ٣٠
- ٦- «ثمود» ورد في اثنا عشرة (الثاء والميم والذال) موضعا والخلاف فيها بين التنوين وعدمه.
- ٧- «يحيى» ورد في أكثر من ثمانية مواضع والخلاف فيها بين الإمالة وعدمها .
- ٨- «عيسى» من غير ياء نداء ورد في ستة عشرة موضعا والخلاف فيها بين الإمالة وعدمها .
- ٩- «موسى» من غير نداء ورد في مائة وتسع وعشرون موضعا والخلاف فيها بين الإمالة وعدمها .
- ١٠- «مريم» ورد في إحدى وثلاثين موضعا والخلاف فيها بين التفخيم والترقيق.
- ١١- «زبوراً» مُنْكَرَةٌ وردت في موضعين سورة النساء الآية: ١٦٢، والإسراء الآية: ١٠٥ . فهذه جملة الأسماء الأعجمية الوارد فيها الخلاف بين علماء الرسم والقراءات لكنها متكررة في القرآن الكريم وسوف يأتي الحديث عن اختلاف الرسم والقراءات الواردة فيها في المبحث الثالث إن شاء الله .

المطلب الثاني

كيف يعرف الاسم العجمي

الكلام الأعجمي يخالف العربي في اللفظ كثيراً ومخالفته على ضربين : أحدهما : مخالفة البناء والآخر : مخالفة الحروف فأما ما خالف حروفه حروف العرب فإن العرب تبدلته بحروفها ولا تنطق بسواها، وربما غيروا الحرف العربي بحرف غيره لأن الأصل أعجمي.

وأما البناء فإنه يجيء على ضربين أحدهما : قد بنته العرب بناء كلامها وغيرته كما غيرت الحروف التي ليست من حروفها ومنه ما تكلمت به بأبنية غير أبنيتها^(١).

ومما يعرف به العجمي عدة أوجه منها :

- ١- نقل الأئمة الثقات .
- ٢- خروجه عن أوزان العربية، نحو : إبراهيم .
- ٣- خلوه من حروف الذلاقة، وهو رباعي، أو خماسي، وحروف الذلاقة ستة مجموعة في قولك : " مُرِبْنَفْل " .
- ٤- أن يجتمع فيه من الحروف ما لا يجتمع في العربية (كالجيم، والقاف) نحو : صَنْجِقْ وَجْرَمُوقْ، و(كالصاد، والجيم) نحو : صَوْلَجَانْ، و(كالكاف، والجيم) نحو : اسْكِرْجَة، و(كالراء بعد النون) في أول الكلمة، نحو : نَرْجِسْ، و(كالزاي بعد الدال) في آخر الكلمة، نحو مُهَنْدِزْ^(٢).

١- الأصول في النحو للبغدادي (٣/ ٢٢٣) .

٢- الأجوبة الجليلة لمن سأل عن شرح ابن عقيل على الألفية (٣/ ١٩٥) .

المبحث الثالث

اختلاف الرسم العثماني والقراءات القرآنية في الأسماء الأعجمية

المطلب الأول

اختلاف الرسم العثماني والقراءات القرآنية

في الأسماء الأعجمية الآتية (إبراهيم - جبريل)

المصاحف العثمانية التي أرسلها عثمان بن عفان رضي الله عنه في الأمصار كانت مشتملة على القراءات المشروعة بمجموعها، فقد تغيب قراءة ما عن رسم أحد المصاحف العثمانية، ولكنها تظهر جزءاً في نسخة أخرى، وقد يقصر رسم أحد المصاحف عن التعبير بالوجوه المشروعة في القراءة، ولكن يجيء رسم مصحف آخر بالتعبير عما لم يرد في سالفه^(١). فنبدأ بإبراهيم.

الاسم الأول "إبراهيم":

أ. بيان رسمه في القرآن الكريم:

ذكر الإمامين الداني^(٢) وأبوداود^(٣) أن ألفات الأسماء الأعجمية الواقعة في القرآن الكريم، المتفق على حذف ألفها تسعة أسماء هي: "لقمان، وإسحاق، وعمران، وإبراهيم، وإسماعيل، وهارون"، وسيأتي سابع متفق على حذفه وهو: "سليمان".

ويشترط في حذف ألف الأسماء الأعجمية أربعة شروط:

الأول: أن يكون الاسم الأعجمي علماً احترازاً عن نحو: "نمارق".

الثاني: أن يكون زائداً على ثلاثة أحرف احترازاً عن نحو "عاد".

الثالث: أن يكون ألفه حشواً، أي: وسطاً، احترازاً عن نحو: "يحيى، وعيسى، وموسى، وأدم وزكرياء"؛ لأن الهمز لا وجود له في المصحف، فتكون الألف في

١- القراءات المتواترة وأثرها في الرسم القرآني والأحكام الشرعية للمؤلف محمد حبش، الناشر: دار الفكر دمشق ط الأولى ١٩٩٩ م (ص: ٩٢).

٢- أبو عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان بن سعيد بن عمر الأموي مولاهم القرطبي المعروف في زمانه بابن الصيرفي وبعد ذلك بالداني ولد سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة بقرطبة وتوفي سنة أربع وأربعين وأربعمائة. تحبير التيسير في القراءات العشر (ص: ٩٤).

٣- هو أبو داود سليمان بن نجاح بن أبي القاسم الأموي، شيخ القراء. ولد سنة ٤١٣ هـ، وأخذ القراءات عن أبي عمرو الداني ولازمه كثيراً، وهو من أجل أصحابه من مؤلفاته: "كتاب البيان الجامع لعلم القرآن"، "التبيين لهجاء التنزيل". توفي ببلنسية سنة ٤٩٦ هـ.

نحو "أدم"، و"زكرياء"، ليست حشوا.

الرابع: أن يكون الاسم كثير الاستعمال، بأن يكثر دوره على السنة العرب، ويذكر في أشعارها ويقع في القرآن في مواضع^(١).

كتابتها في المصاحف:

قال أبو عمرو الداني قال أبو عبد الله محمد بن عيسى عن نصير في سورة البقرة إلى آخرها في بعض المصاحف-إبراهيم-بغير ياء وفي بعضها بالياء قال أبو عمرو ولم أجد ذلك كذلك في مصاحف العراق إلا في البقرة خاصة قال وكذلك رسم في مصاحف أهل الشام وقال أبو عبيد تنبعت رسمه في المصاحف فوجدته كتب في البقرة خاصة بغير ياء^(٢).

وقال ابن الجزري: كتب في المصاحف الشامية بحذف الياء منها خاصة وكذلك رأيتها في المصحف المدني وكتبت في بعضها في سورة البقرة خاصة وهو لغة فاشية للعرب وفيه لغات أخرى^(٣).

وحكى أبو علي الأهوازي^(٤) عن الفراء فيه ست لغات بالياء والألف والواو إبراهيم إبراهيم إبراهيم وب حذف كل واحد من هذه الحروف الثلاثة وإبقاء الحركة التي قبلها (إبراهيم-إبراهيم-إبراهيم)، قال وجملة ما في القرآن من لفظ إبراهيم تسعة وستون موضعاً.

وروى معن بن عيسى^(٥) عن عاصم الجحدري قال "إبراهيم" في البقرة بغير ياء كذا وجد في الإمام وهو في كل القرآن بالياء^(٦).

ب. بيان القراءات الواردة في إبراهيم:

(واختلفوا) في إبراهيم في ثلاثة وثلاثين موضعاً: من ذلك خمسة عشر في سورة البقرة وفي سورة النساء ثلاثة مواضع وهي الأخيرة. (ملة إبراهيم حنيفاً،

١- دليل الحيران على مورد الظمان (ص: ٩٦).

٢- شرح الشاطبية المسمى بحر الأمانى ووجه التهاني للإمام أبو شامة ١/٦٣٤.

٣- النشر في القراءات العشر ٢/٢٥٢.

٤- هو الشيخ الإمام، العلامة، مقرئ الأفاق، أبو علي الحسن بن علي بن إبراهيم بن يزداد بن هرم الأهوازي، نزيل دمشق. ولد سنة اثنتين وستين وثلاث مائة. سير أعلام النبلاء (١١/٣٥).

٥- الإمام، الحافظ، الثبت، أبو يحيى المدني، القران، مولى أشجع. ولد بعد الثلاثين ومائة. سير أعلام النبلاء (١٧/٣١٦)ى.

٦- المقنع في رسم مصاحف الأمصار للإمام الداني (ص: ٤١).

واتخذ الله ابراهيم خليلاً، وأوحينا إلى ابراهيم) وفي الأنعام موضع وهو الأخير. (ملة إبراهيم حنيفاً) وفي التوبة موضعان وهما الأخيران. (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه، وإن إبراهيم لأواه) وفي إبراهيم موضع (وإن قال إبراهيم) وفي النحل موضعان (إن إبراهيم كان أمة، وملة إبراهيم حنيفاً) وفي مريم ثلاث مواضع (في الكتاب إبراهيم، وعن آلهتي يا إبراهيم، ومن ذرية إبراهيم) وفي العنكبوت موضع وهو الأخير (ولما جاءت رسلنا إبراهيم) وفي الشورى موضع. (وما وصينا به إبراهيم) وفي الذاريات موضع (حديث ضيف إبراهيم) وفي النجم موضع (وإبراهيم الذي وفى) وفي الحديد موضع (نوحاً وإبراهيم) وفي المتحنة موضع وهو الأول (أسوة حسنة في إبراهيم).

قرأ هشام جميع ما ذكر بفتح الهاء وألف بعدها. واختلف عن ابن ذكوان في سورة البقرة فقط فله وجهان: الأول كهشام والثاني بكسر الهاء وياء بعدها كقراءة الباقيين^(١).

ج الشاهد: قال الإمام الشاطبي

- ٤٨٠ - وفيها وفي نص النساء ثلاثة ... أو آخر إبراهيم لآح وجملاً
 ٤٨١ - ومع آخر الأنعام حرفاً براءة ... أخيراً وتحت الرعد حرف تنزلاً
 ٤٨٢ - وفي مريم والنحل خمسة أحرف ... وآخر ما في العنكبوت منزلاً
 ٤٨٣ - وفي النجم والشورى وفي الذاريات وآل ... حديد ويروي في امتحانه الأولا
 ٤٨٤ - ووجهان فيه لابن ذكوان ههنا××.....

التوجيه: حذفت الياء من إبراهيم حذف إشارة، أي: إشارة إلى قراءة أخرى، وأيضا: أن إبراهيم اسم أعجمي دخل في كلام العرب والعرب إذا أعربت اسما أعجميا تكلمت فيه بلغات فمنهم من يقول إبراهيم ومنهم من يقول أبرهم قال الشاعر ... نحن آل الله في بلدته ... لم يزل ذاك على عهد أبرهم^(٢).

١ - النشر في القراءات العشر (٢/ ٢٥٢) و البذور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة (ص: ٣٩).

٢ - حجة القراءات لعبد الرحمن بن زنجلة (ص: ١١٤).

الاسم الثاني "جبريل" :

أ. بيان رسمه في القرآن الكريم:

رسمه في المصاحف على حسب القراءة الواردة فيه ولم يرد فيه خلاف بين علماء الرسم.

ب. بيان القراءات الواردة فيه

"جبريل" وردت فيها خمسة قراءات متواترة صحيحة، ووجهان شاذان غير مقروء بهما^(١)، فالمجموع سبعة أوجه. أما الأوجه المقروء بها، فهي :

الوجه الأول: (جَبْرِيلُ) بكسر الجيم والراء وحذف الهمزة، وإثبات الياء، وهي قراءة نافع وأبي عمرو وابن عامر وحفص عن عاصم وأبي جعفر ويعقوب.

الوجه الثاني: (جَبْرِيلِ) بفتح الجيم وكسر الراء وإثبات الياء من غير همز، وهي قراءة ابن كثير المكي.

الوجه الثالث: (جَبْرَيْلُ) بفتح الجيم والراء وإثبات الهمزة مكسورة والياء ساكنة وهي قراءة حمزة والكسائي وخلف.

الوجه الرابع: (جَبْرَيْلِ) وهو الوجه السابق مع حذف الياء بعد الهمزة، وهي رواية أبي بكر بن عياش عن عاصم.

الوجه الخامس: وهو الوجه السابق حال الوقف، بتسهيل الهمزة بين بين- أي بين الهمزة والياء-، وهو وجه لحمزة^(٢).

ج الشاهد : قال الإمام الشاطبي

وَجَبْرِيلَ فَتَحَ الْجِيمَ وَالرَّاءَ وَبَعْدَهَا ... وَعَى هَمْزَةً مَكْسُورَةً صُحْبَةً وَلَا
بَحَيْثُ أَتَى وَالْيَاءَ يَحْذِفُ شُعْبَةً ... وَمَكِيَّهُمْ فِي الْجِيمِ بِالْفَتْحِ وَكَلَّا^(٣)

التوجيه : وحبته في ذلك أن كل ما وجدته بألف قرأً بألف وما وجدته بالياء

قرأً بالياء اتباع المصاحف .

١- وأما الوجهان الشاذان غير المقروء بهما: فالوجه الأول: (جبرائيل) بألف قبل الهمزة وحذف الياء، وهي رواية الحسن البصري. والوجه الثاني: (جبرئيل) بفتح الجيم والراء وهمزة مكسورة، ولام مشددة، وهي رواية ابن محصين من «المبتهج» مقدمات في علم القراءات (ص: ٢٧).

٢- النشتر في القراءات العشر ابن الجزري، (٢: ٢١٩)، تحبير التيسير ابن الجزري، ص ٩٥، البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة، من طريقي الشاطبية عبد الفتاح القاضي (فريدة الدهر في تأصيل وجمع القراءات (٢/ ١٣٧).

٣- متن الشاطبية = حرز الأمانى ووجه التهاني في القراءات السبع (رقم البيت ٤٧١-٤٧٢).

المطلب الثاني

ختلاف الرسم العثماني والقراءات القرآنية في الأسماء الأعجمية الآتية

(إسماعيل، وإسحاق، وعمران، وهارون، ولقمان، وسليمان، وداود،

وإسرائيل)

أ. هذه الأسماء كثر استعمالها في القرآن الكريم واتفق علماء الرسم على حذف الألف الوارد في هذه الأسماء إلا داود فاتفق شيوخ النقل عن كتاب المصاحف على إثبات ألفه هكذا چ مع توفر شروط الحذف فيه، وعلّة إثبات الألف، لأنه حذف منه حرف في الرسم وهو أحد واويه، فلو حذفت ألفه أيضا لاجتمع فيه حذفان فلذلك امتنع الحذف وأثبتت الألف .

ب. أما القراءات فالخلاف في اثنين "عمران، وإسرائيل":

١- "عمران" راؤه مفخم لجميع القراء لكونه اسما أعجميا، وقرأ ابن ذكوان بالإمالة بخلف عنه^(١).

ج. قال الإمام الشاطبي:

٣٣٢وَالِدٌ... حِمَارٍ وَفِي الْإِكْرَامِ عِمْرَانَ مَثَلًا

٣٣٣ - وَكُلُّ بَخْلَفٍ لِابْنِ ذَكْوَانَ××.....

٢. "إسرائيل" لا تمد فيه الياء لورش لأنه مستثنى من البدل. ولا ترقق راؤه لأنه اسم أعجمي وفيه لأبي جعفر التسهيل مع المد والقصر وصلا ووقفا. ولحمزة الوجهان عند الوقف فقط^(٢).

قال الإمام الشاطبي:

١٧١ - وَمَا بَعْدَ هَمْزٍ تَابِتٍ أَوْ مُغَيَّرٍ... فَفَقَصْرٌ وَقَدْ يَرُوي لُورِشٌ مَطْوَلًا

١٧٢ - وَوَسَطُهُ قَوْمٌ كَأَمَّنْ هُوَلًا... ءِالِهَةٌ أَتَى لِلإِيمَانِ مَثَلًا

١٧٣ - سِوَى يَاءِ إِسْرَائِيلَ أَوْ بَعْدَ سَاكِنٍ... صَحِيحٌ كَقُرْآنٍ وَمَسْئُولًا

أَسْأَلَا

١- البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة (ص: ٦٢ ٦٤).

٢- البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة (ص: ٣٠).

المطلب الثالث

اختلاف الرسم العثماني والقراءات القرآنية في الأسماء الأعجمية الآتية (طالوت، وجالوت، ويأجوج، ومأجوج، وميكايل، وهاروت، وماروت، وقارون، وهامان"، ومن هذا القسم أيضا "إلياس"، و"إل ياسين"، "بابل")

أ. بيان رسم (طالوت جالوت يأجوج مأجوج) فهذه الأسماء قلَّ دورانها في القرآن الكريم كما قدمنا وألفها ثابتة عند علماء الرسم فترسم هكذا چ چ چ چ چ (١).

ب. القراءات الواردة فيها لا خلاف في اسمي طالوت وجالوت عند علماء القراءات.

وإما "يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ" فقد قرأ عاصم بالهمز المحقق فيهما والباقون بإبداله حرف مد (٢).

ج. الشاهد من الشاطبية

٨٥٢ - وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ اهِمَزِ الْكُلِّ نَاصِرًا

د. التوجيه: حجة من قرأ بالهمز فيهما هو الأصل وتركه من باب تخفيف الهمز (٣).

أ. ("قارون" و"هاروت"، و"ماروت" "هامان"،) اختلف علماء الرسم في إثبات الألف وحذفها قارون، وهاروت، وماروت، ففي بعض المصاحف بالألف وفي بعضها بغير ألف والمغاربة على إثبات الألف، والمشاركة على الحذف وعليه طبع مصحف الإمام الدوري بالسودان (٤).

أما "هامان" فلا خلاف بين كتاب المصاحف في حذف الألف الواقعة بعد الميم وأما الألف الواقعة بعد الياء والهاء ففيها خلاف بين علماء الرسم والعمل على

١- مختصر التبيين لهجاء التنزيل (٣/ ٨٢٠).

٢- البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة (ص: ١٩٦).

٣- إبراز المعاني من حرز الأمانى (٢/ ٢٦٣).

٤- دليل الحيران على مورد الظمان (ص: ٩٨).

الإثبات عند المغاربة أما المشاركة فالعمل على الحذف وطبع مصحف الدوري في السودان على الحذف.

ومن هذا القسم: "إل ياسين" قال أبو عمرو وكتبوا في جميع المصاحف "إل ياسين" في و"الصفات، بقطع اللام من الياء^(١). أما ألفها وألف إلياس وبابل فلا خلاف بين علماء الرسم في إثباتها.

ب أما القراءات الواردة فلا خلاف في قارون وهاروت وماروت إلا في "هامان" ١. "هامان" من قوله تعالى: ﴿وَنَكِّنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ (القصص: ٦) فقرأ حمزة والكسائي وخلف بياء تحية مفتوحة، وبعدها راء مفتوحة وألف بعدها مماله، مضارع «رأي» الثلاثي، ورفع الأسماء الثلاثة وقرأ الباقون بالنون وضمها وكسر الراء وفتح الياء ونصب الأسماء الثلاثة^(٢).

الشاهد: قال الإمام الشاطبي:

٩٤٥ - وَفِي نُرِيِّ الْفَتْحَانَ مَعَ أَلْفٍ وَيَا ... يَهُ وَثَلَاثُ رَفَعَهَا بَعْدُ شُكْلًا

التوجيه:

حجة من قرأه بالنون والنصب (ونرى) أنه رده على قوله تعالى "ونريد أن نمّن" و أن نرى فأتى بالكلام على سنن واحد ونصب فرعون ومن بعده (همن) بتعدي الفعل إليهم والله هو الفاعل بهم عز وجل لأنه بذلك أخبر عن نفسه والحجة لمن قرأه بالياء أنه استأنف الفعل بالواو ودل الإخبار عن فرعون ونسب الفعل إليه فرفعه به وعطف من بعده بالواو^(٣).

القراءات الواردة في "ميكال، وإلياس، إل ياسين"

١. «ميكال» قرأ «أبو عمرو، وحفص، ويعقوب» «ميكال» على وزن «مِثْقَالٍ» من غير همز ولا ياء، وقرأ «نافع، وأبو جعفر، «ميكائل» بهمزة مكسورة بعد الألف من غير ياء بعدها، وقرأ الباقون «ميكائيل» بهمزة مكسورة بعد الألف

١- المقنع في رسم مصاحف الأمصار (ص: ٤٢).

٢- النشتر في القراءات العشر (٢/ ٣٨١).

٣- الحجة في القراءات السبع لابن خالويه (١/ ٢٠٠).

وياء ساكنة بعدها^(١).

قال الإمام الشاطبي:

٤٧٣ - وَدَعِ يَاءَ مِيكَائِيلَ وَالْهَمْزَ قَبْلَهُ ... عَلَى حُجَّةٍ وَالْيَاءُ يُحَذَفُ أَجْمَلًا

التوجيه:

و"ميكال": اسم أعجمي، غير أن من قرأه «ميكال» على وزن «مفعال» فقد جاء على وزن أبنية العرب^(٢).

ومن قرأ بغير ذلك فقد جاء على غير أبنية العرب ليعلم انه أعجمي، خارج عن ابنية العرب.

٢. وإن إلياس "قرأ ابن ذكوان بخلف عنه بوصل همزة إلياس، فيصير اللفظ بلام ساكنة بعد إن. فإن وقف على إن ابتداءً بهمزة مفتوحة لأن الأصل ياس دخلت عليه أل وغيره بهمزة قطع مكسورة في الحالين، وهو الوجه الثاني لابن ذكوان، والوجهان عنه صحيحان^(٣).

قال الإمام الشاطبي

٩٩٨ - وَالْيَاسَ حَذَفُ الْهَمْزِ بِالْخَفِّ مَثَلًا

التوجيه:

حجة من قرأ بوصل الألف جعل اسمه ياسا ثم أدخل عليه الألف واللام للتعريف، وحجة من قرأ بالهمز جعلوا أول الاسم على هذه القراءة الألف كأنه من نفس الكلمة تقول إلياس كما تقول إسحاق وإبراهيم وحجته قوله بعدها سلام على إلياسين^(٤).

٣. "إلياسين" قرأ نافع وابن عامر ويعقوب بفتح الهمزة ومدها، وبعدها لام مكسورة مفصولة من ياسين كفصل اللام من العين في آل عمران؛ وعلى هذا تكون آل كلمة وياسين كلمة، فيجوز قطع آل عن ياسين، والباقون بكسر الهمزة

١- البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة (ص: ٣٧).

٢- القراءات وأثرها في علوم العربية (١/ ٢٦٨).

٣- البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة (ص: ٢٧٠).

٤- حجة القراءات (ص: ٦١٠).

وبعدها لام ساكنة فتكون كلها كلمة واحدة، فلا يجوز فصل بعضها من بعض،
فيجب الوقف على آخرها^(١).

الشاهد قال الإمام الشاطبي:

٩٩٩ وَإِلْ يَاسِينَ بِالْكَسْرِ وَصَلَا
١٠٠٠ - مَعَ الْقَصْرِ مَعَ إِسْكَانِ كُسْرِ دَنَا غِنَى
التوجيه :

حجة من قرأ بفتح الهمزة ومدّها وكسر اللام؛ أنهم يجعلونها كلمتين فأضافوا
«أل» إلى «ياسين»، فيجوز قطعها وقفا، والمراد ولد ياسين وأصحابه وقالوا أيضا
أنّها في المصحف مفصولة من ياسين، ولو كانت الألف واللام التي للتعريف لوصلت
في الخط ولم تفصل، ففي فصل ذلك في الكتاب دلالة على أل × الذي تصغيره
أهيل، وليس بلام التعريف التي تصحبها الهمزة الموصولة. وحجة من قرأ : بكسر
الهمزة وسكون اللام بعدها ووصلها بالياء واحدة، فيجب الوقف على آخرها جمع:
«إلياس» ومعناه : إلياس وأمه المؤمنون^(٢). وقيل فيه وجه آخر، يجوز أن يكون
اسم إلياس بلغتين: إلياس، وإلياسين. كما قالوا ميكال، وميكائيل^(٣).

المبحث الرابع

اختلاف الرسم العثماني والقراءات القرآنية في الأسماء الأعجمية

المطلب الأول

اختلاف الرسم العثماني والقراءات القرآنية في الأسماء

الأعجمية الآتية («سينا» «زكريا» «أزر» «إيسع» «ثمودا»)

هذه الألفاظ اتفق علماء الرسم فيها على وفق قراءتهم هكذا "سِينَاءَ. وَسَيْنَاءَ
"زَكَرِيَّاءَ" و"زَكَرِيَّاءَ" أزر "إِلْيَسَع، وَلْيَسَع" إلا (ثمودا) في هود والفرقان والعنكبوت
والنجم كتب بألف بعد الدال ليوافق قراءته بالتنوين. وبتركه قال أبو عمرو ولا خلاف

١- النشر في القراءات العشر (٢/ ٤٠١) و البذور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة (ص: ٢٧٠).

٢- الحجة للقراء السبعة (٦١/ ٦١) إتحاف الفضلاء (ص: ٣٧٠)، الإعراب للنحاس (٢/ ٧٦٦، ٧٦٨)، النشر (٢/ ٣٦٠).

٣- معاني القراءات للأزهري محمد بن أحمد الأزهري الهروي أبو منصور، الناشر مركز البحوث جامعة الملك سعود السعودية الطبعة الأولى ١٩٩١م ٣٢٢/٢.

بين المصاحف في ذلك^(١).

أما القراءات الواردة فيها كالآتي :

١. "سيناء". قرأ بكسر السين المدنيان والمكي والبصري، وفتحها سواهم^(٢).

الشاهد من الشاطبية:

٩٠٤ - وَالْمَفْتُوحُ سَيْنَاءٌ ذَلَّلَا

التوجيه :

وحجة من قرأ بكسر السين قوله " وطور سينين " و"السيناء والسينين الحسن وكل جبل نبتت الثمار فيه فهو سينين وحجة الباقون سَيْنَاءً بالفتح وهما لغتان أصله سرياني قال مجاهد الطور الجبل والسيناء الحجاره المباركة^(٣).

٢. " زكريا " قرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف بحذف همزة " زكريا " والباقون بهمزة مفتوحة غير منونة وكلهم يرفعون همزة الموضع الأول وشعبة ينصبها، وأما بقية المواضع فيرفعون الهمز في ثلاثة منها وهي: ﴿وَكَلَّمَهَا زَكَرِيَّا﴾ (آل عمران: ٣٧) و﴿وَهَذَاكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ (آل عمران: ٣٨) و﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ﴾ (مريم: ٧) وينصبونها في ثلاثة: ﴿قُلْ لَوْ أَن عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَفُضِي الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ (الأنعام: ٨٥) و﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ (مريم: ٢) و﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٩) وكل على حسب مذهبه في الهمزتين من كلمتين إذا التقيا^(٤).

الشاهد قال الإمام الشاطبي:

٥٥٣ - وَقُلْ زَكَرِيَّا دُونَ هَمْزٍ جَمِيعِهِ ... صَحَابٌ وَرَفَعُ غَيْرُ شُعْبَةَ الْأَوْلَا.

التوجيه:

إنهما لغتان بالمد والقصر والقصر أشبه بما جاء في القرآن وفي غيره من

أسماء الأنبياء كموسى وعيسى^(٥).

- ١- المقنع في رسم مصاحف الأمصار (ص: ٢٢) وسمير الطالبين في رسم وضبط الكتاب المبين (ص: ٥٢).
- ٢- البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة (ص: ٢١٨).
- ٣- حجة القراءات لعبد الرحمن بن زنجلة (ص: ٤٨٤).
- ٤- إرشاد المرید إلى مقصود القصید: شرح الشاطبية تأليف: الشيخ عبد الفتاح القاضي، تحقيق: علي محمد توفيق النحاس، دار ابن كثير الطبعة الأولى ١٤٣٦هـ / ٢٠١٤م / ٢٠٢١. والبدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة (ص: ١٩٧).
- ٥- حجة القراءات (ص: ١٦١).

٣. "أزر" قرأ يعقوب بضم الراء، والباقون بفتحها، وورش على أصله في البديل^(١).

الشاهد: قال الإمام ابن الجزري:

١٠٧ - وَالرَّفْعُ أَزَرَ حُصْلًا^(٢)

التوجيه:

حجة من قرأ بضم الراء على أنه منادى ويؤيده ما في مصحف أبي: يا أزر، بإثبات حرف النداء وافقه الحسن، والباقون بفتحها نيابة عن الكسرة للعلمية أو الوصفية والعجمة، وهو بدل من أبيه أو عطف بيان له إن كان لقبا ونعت لأبيه، أو حال إن كان وصفا بمعنى المعوج أو المخطئ أو الشيخ الهرم، وقيل اسم صنم فنصبه بفعل تقديره أتعبد^(٣).

٤. " وَالْيَسَعَ " قرأ حمزة والكسائي وخلف بتحريك اللام أي فتحها وبتثقيها وتسكين الياء والباقون بإسكان اللام مخففة وفتح الياء^(٤).

الشاهد: قال الإمام الشاطبي

٦٥١ - وَالْيَسَعَ الْحَرْفَانِ حَرْكٌ مُثَقَّلًا

٦٥٢ - وَسَكَنٌ شِفَاءً ××

التوجيه:

حجة من قرأ بتشديد اللام وسكون الياء أن اليسع أشبه بالأسماء الأعجمية ودخول الألف واللام في اليسع قبيح لأنك لا تقول اليزيد ولا اليحي وتشديد اللام أشبه بالأسماء العجمية.

وحجة من قرأ بلام واحدة ذكرها اليزيدي عن أبي عمرو فقال هو مثل اليسر وإنما هو يسر ويسع فردت الألف واللام فقال اليسع مثل اليحمد قبيلة من العرب و اليرمع الحجارة والأصل يسع مثل يزيد وإنما تدخل الألف واللام عند الفراء للمدح فإن كان عربيا فوزنه يفعل والأصل يوسع مثل يصنع وإن كان أعجميا لا اشتقاق له

١- البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة (ص: ١٠٥).

٢- إذا قلت قال الإمام ابن الجزري فالمراد كتاب الدرّة المضيئة في القراءات الثلاث المتتمّة للعشر (ص: ٢٥).

٣- إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر (ص: ٢٦٦).

٤- البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة (ص: ١٠٦) والوافي في شرح الشاطبية (ص: ٢٦٢).

فوزنه فعل تجعل الياء أصلية^(١).

٥. "ثمودا" اختلف القراء في ﴿كَانَ لَمْ يَغْنُوا فِيهَا إِلَّا إِنْ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ الْأَبْعَدَا لِيَثْمُودَ﴾ (هود: ٦٨)، ﴿وَعَادَا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ (الفرقان: ٣٨)، ﴿وَعَادَا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ﴾ (العنكبوت: ٣٨)، ﴿وَتَمُودَ فَمَا أَتَى﴾ (النجم: ٥١)، فقرأ حفص وحمزة ويعقوب بغير تنوين في الأربعة ويقفون بلا ألف كما جاء نصا عنهم وإن كانت مرسومة وقرأ أبو بكر كذلك في النجم فقط والباقون بالتنوين، ومن نون وقف على ألف بعد الدال ومن لم ينون وقف على الدال ساكنة^(٢).
واختلف في ﴿كَانَ لَمْ يَغْنُوا فِيهَا إِلَّا إِنْ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ الْأَبْعَدَا لِيَثْمُودَ﴾ (هود: ٦٨)، فقرأ الكسائي بكسر الدال مع التنوين والباقون بغير تنوين مع فتحها^(٣).

الشاهد قال الإمام الشاطبي

٧٦٢ - ثَمُودَ مَعَ الْفُرْقَانَ وَالْعُنْكَبُوتَ لَمْ ... يَنْوِنَنَّ عَلَى فَصْلِ وَفِي النَّجْمِ فَصْلًا

٧٦٣ - نَمَا لَثَمُودِ نُونًا وَأَخْفَضُوا رِضًا ...

١٣٢..... ونونوا ×× ثمودا وأترك حمى.....

التوجيه :

"ألا إن ثمود كفروا ربهم" وما شاكلة من الأسماء الأعجمية مصروفا وغير مصروف فلمن صرفه وجهان أحدهما أنه جعله اسم حي أو رئيس فصرفه والآخر أنه جعله فعولا من الثمد وهو الماء القليل فصرفه والحجة لمن لم يصرفه أنه جعله اسما للقبيلة فاجتمع فيه علتان فرعيتان منعتاه من الصرف إحداهما للتأنيث وهو فرع للتذكير والأخرى التعريف وهو فرع للتذكير، والقراء مختلفون في هذه الأسماء وأكثرهم يتبع السواد فما كان فيه بألف أجراه وما كان بغير ألف منعه الإجراء^(٤).

١- حجة القراءات لعبد الرحمن بن زنجلة (ص: ٢٥٩) إعراب القرآن للنحاس (٢/ ٢٠).

٢- المكرر في ما تواتر من القراءات السبع وتحري (ص: ١٧١).

٣- إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر (ص: ٤٥٧).

٤- الحجة في القراءات السبع (ص: ١٨٨).

المطلب الثاني

اختلاف الرسم العثماني والقراءات القرآنية في الأسماء الأعجمية

الآتية («يحيى» «عيسى» «موسى» «مريم» «زبوراً»)

أ. بيان الرسم "يحيى" إذا كان اسماً نحو: "يحيى خذ الكتاب بقوة" وشبهه من لفظه، وقوله تعالى في الأنفال: ﴿وَيَحْيَىٰ مَن حَيٍّ عَن بَيْتَةٍ﴾ (الأنفال: ٤٢)، ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ (طه: ٧٤)، و﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ (الأعلى: ١٣)، فإن ذلك كله مرسوم بالياء على الإمامة^(١).

وأما "عيسى وموسى ومريم عليهم السلام، وزبوراً" فلا خلاف فيها بين علماء الرسم كما ذكرنا سابقاً في المبحث الثاني المطلب الأول.

الأعلى: ١٣

ب القراءات الواردة في هذه الألفاظ :

١. (يحيى وعيسى وموسى) بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه، والباقون بالفتح^(٢).

الشاهد قال الإمام الشاطبي:

٢٩٢ - وَتَنْبِيَةُ الْأَسْمَاءِ تَكْشِفُهَا وَإِنْ رَدَدْتَ إِلَيْكَ الْفِعْلُ صَادَفَتْ مَنْهَلًا
٢٩٣ - هَدَىٰ وَاشْتَرَاهُ وَالْهَوَىٰ وَهَدَاهُمْ وَفِي أَلْفِ التَّانِيثِ فِي الْكَلِّ مِيَّالًا
٢٩٤ - وَكَيْفَ جَرَتْ فَعْلَىٰ فَفِيهَا وَجُودُهَا

وقال عن ورش :

٣١٤ - وَذَوَاتِ الْيَالِهِ الْخُفُّ جُمَّلًا
٣١٦ - وَكَيْفَ أَتَتْ فَعْلَىٰ وَآخِرُ أَيِّ مَا ... تَقَدَّمَ لِلْبَصْرِيِّ سَوَىٰ رَاهِمَا اِعْتِلًا

التوجيه :

هناك رأيان للعلماء: فبعضهم يرى أن كلاهما أصل قائم بذاته، والبعض الآخر يرى أن الفتح أصل والإمالة فرع عنه، وقال ابن الجزري: وإنني أرجح القول القائل بأن كلاهما أصل قائم بذاته، إذ كل منهما كان ينطق به عدة قبائل عربية

١ - مختصر التبيين لهجاء التنزيل للمؤلف: أبو داود، سليمان بن نجاح بن أبي القاسم الأموي بالولاء، الأندلسي (المتوفى: ٤٩٦هـ) الناشر:

مجتمع الملك فهد - المدينة المنورة عام النشر: ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م "٦٨/٢" القنع في رسم مصاحف الأمصار (ص: ٣٦).

٢ - البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة (ص: ٢٠٦-٢٩٢).

بعضها في غرب الجزيرة العربية، والبعض الآخر في شرقها^(١).
٢. "زبوراً" قرأ حمزة وخلف بضم الزاي، والباقون بفتحها^(٢).

الشاهد قال الإمام الشاطبي :

٦١٣ - وفي الأنبياء ضمُّ الزُّبورِ وهُنَا... زَبُوراً وفي الإسراءِ الحَمْزَةُ أُسْجِلَا

التوجيه :

حجة من قرأ برفع الزاي أي كتبها وصحفا جمع زبر وزبور كبيت وبيوت،
وحجة من قرأ بالفتح أن الآثار كذا جاءت زبور داوود وكما جاء توراة موسى
وإنجيل عيسى^(٣).
٣. وأما "مريم" الذي عليه جمهور المحققين وعليه العمل في سائر الأقطار،
وهو القياس الصحيح وغلط الداني من قال بخلاف تفخيم الراء، وذهب مكي
والمهدوي وابن شريح والأهوازي وغيرهم إلى الترقيق، وذهب ابن بليمة
وغيرهم إلى التفصيل فيأخذون بالترقيق من طريق الأزرق، وبالتفخيم لغيره،
وهذه إحدى الكلمات الثلاث^(٤) التي وقع فيها الخلاف^(٥).

الخاتمة

أحمدُ ربي في آخر ما أردته من أمري، كما حمدته في بدئه، وهو أهل
بالحمد، وأكرر صلاتي وتسليمي على خاتم أنبيائه ورسله المنزل عليه قول ربي :
﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ (ص: ٢٩). وبعد.
ففي ختام هذا البحث المبارك الذي أرجو من الله أن أكون قد وفقتُ فيه،
بحول الله وقوته قد تم لي ما أردت من إتمام هذا البحث، ولا أدعي أنني قد وفيت من
جميع نواحيه؛ بل فعلت قدر استطاعتي، وأفرغت فيه غاية جهدي فالكمال لله وحده
والنقص ملازم للإنسان، وقديماً قيل : على المرء أن يسعى إلى الخير ..

١- المغني في توجيه القراءات العشر المتواترة (١٦/١).

٢- البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة (ص: ٨٨).

٣- حجة القراءات لعبد الرحمن بن زنجلة (ص: ٢١٩).

٤- والثانية قريبة، والثالثة المرء، والمعول عليه في جميعها التفخيم والله أعلم.

٥- غيث النفع في القراءات السبع (ص: ١٢٨).

النتائج والتوصيات

النتائج :

- جملة ما ذكر في أسماء الأعلام الأعجمية إثنان وثلاثون اسماً.
- أن اسم إبراهيم مرسوم في سورة البقرة بغير ياء وفي غيرها بالياء.
- بعض الأسماء فيها خلاف في الرسم والقراءات وبعضها في القراءات فقط وبعضها في الرسم فقط.
- من أكثر الأسماء اختلافاً في القراءات اسم "جبريل عليه السلام" فيه أكثر من سبعة قراءات، خمسة متواترة واثنين من الشواذ.
- أما بقية الأسماء ففيها قراءة واحدة أو قراءتين.

التوصيات:

- أوصي نفسي وعلماء القراءات بالعكوف على القرآن لاستخراج درره وكنوزه.
- على أهل الاختصاص الاهتمام بالبحوث العلمية التي توفر الجهد لغير المختصين بمعرفة هذا العلم وخاصة علم الرسم وعلم القراءات.
- الاهتمام بتحقيق كتب الرسم وعلم القراءات التي تحل كثير من المشاكل التي تتعلق بهذا العلم.
- أوصي من أراد أن يشتغل بعلم الرسم والقراءات وتوجيهها فلا بد أن يكون ذا دراية بالعربية نحواً و صرفاً وبلاغةً ودلالة . لأن علم الرسم والقراءات يحتاج إلى رسوخ وتمكن في العربية بفروعها.
- وأوصي نفسي والمسلمين في جميع أقطار العالم الإسلامي حكماً وشعوباً بأن يتمسكوا بالقرآن الكريم ويتعلموا رسمه والقراءات الواردة فيه ويعتنوا به ويطبّقوا تعالىّ مه كما طبّقها النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام حتى وصلت إلينا.

فهرس المصادر المراجع

١. القرآن الكريم .
٢. صحيح البخاري، محمد إسماعيل، أبو عبد الله البخاري الجعفي (ت: ١٩٤-٢٥٦هـ) مراجعة مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير للنشر، بيروت، ١٤٠٧هـ -١٩٨٧م.
٣. متن الشاطبية المسمى حرز الأمانى ووجه التهاني فى القراءات السبع، تأليف القاسم بن فىره بن خلف بن أحمد الشاطبى الرعینى الأندلسى، ضبط وتحقیق محمد تمیم الزعبى ط دار المطبوعات الحدیثة سنة الطبع ١٤١٠هـ -١٩٩٠م.
٤. متن الدرّة المضیة للإمام الحجة الحافظ أبو الخیر محمد بن محمد بن محمد بن علی بن یوسف الدمشقی المشهور بابن الجزرى المولود فى لیللة السبت الخامس والعشیرین من شهر رمضان سنة إحدى وخمسين وسبعمئة هجرية والمتوفى سنة ٨٣٣هـ.
٥. النشر فى القراءات العشر للإمام الحجة الحافظ أبو الخیر محمد بن محمد بن محمد بن علی بن یوسف الدمشقی المشهور بابن الجزرى إشراف وتصحیح ومراجعة الأستاذ الجلیل علی محمد الضباع ط دار الفكر
٦. سراج القارى المبتدئ وتذكار المقرئ المنتهى.
٧. البدور الزاهرة فى القراءات العشر المتواترة الشیخ عبدالفتاح القاضى.
٨. إتحاف فضلاء البشر فى القراءات الأربعة عشر.
٩. غیث النفع فى القراءات السبع تألیف الشیخ علی النورى الصفاقسى ، تحقیق أحمد محمود عبدالشفیع الشافعى ط الأولى دار الكتب العلمیة بیروت لبنان.
١٠. المغنى فى توجيه القراءات العشرة، تألیف الدكتور محمد سالم محیسن، ط على نفقة المرحوم فتح علی عبدالله آل خاجة، ت رجب ١٤٠٣هـ الموافق مايو ١٩٨٣م.

١١. سير أعلام النبلاء، اسم المؤلف: محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي أبو عبد الله، دار النشر: مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤١٣، الطبعة: التاسعة، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، محمد نعيم العرقسوسي.
١٢. تقريب التهذيب، اسم المؤلف: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، دار النشر: دار الرشيد - سوريا - ١٤٠٦ - ١٩٨٦، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد عوامة الثقات.
١٣. إرشاد الطالبين إلى ضبط الكتاب المبين لمحمد محمد سالم محيسن، طبع بالمكتبة الأزهرية للتراث سنة ١٩٨٩م.
١٤. دليل الحيران على مورد الظمان في فني الرسم والضبط للشيخ إبراهيم بن أحمد المارغني وهو شرح على منظومة الخراز، حققه زكريا عميرات، منه ط/٢ سنة ٢٠١٢م.
١٥. التيسير في القراءات السبع لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني، نشر دار الكتاب العربي - بيروت - ط/٢، سنة ١٩٨٤م.
١٦. كنز المعاني في شرح حرز الأمانى ووجه التهاني لإبراهيم بن عمر الجعبري، بتحقيق فرغلي سيد عرباوي، طبعة مكتبة أولاد الشيخ للتراث، ط/١، سنة، ٢٠١١م.
١٧. الوافي في شرح الشاطبية، لعبد الفتاح عبد الغني محمد القاضي، نشر مكتبة السوداني، ط/٤.

الكلمات التي انفرد بها الإمام أبو جعفر من بين القراء العشرة من طريق الدرّة جمعاً وتوجيهاً

د. خالد عبد الله الريح حسين^(١)

المستخلص

يعنى هذا البحث بالتعريف بالإمام أبو جعفر وراوييه ، والكلمات القرآنية، التي قرأ بها الإمام أبي جعفر وحده دون القراء العشرة ، وجمع هذه الكلمات وتوجيهها ، مع ذكر الشاهد من الدرّة المضية . والإمام أبي جعفر هو شيخ الإمام نافع ، وأنه أدرك بعض الصحابة وسئل الامام أبي جعفر متي تعلمت القرآن قال في زمن معاوية رضي الله عنه ، وأن الإمام أبي جعفر أتى به إلى أم سلمة وهو صغير فمسحت على رأسه ودعت له بالبركة . وكان الامام أبي جعفر رجلاً عابداً ذاكراً لله تعالى ، كان يقوم الليل فإذا أصبح جلس يقرئ الناس ، فيقع عليه النوم فيقول لهم: خذوا الحصا فضعوه بين أصابعي ، قال رجل لأبي جعفر هنيئاً لك ما أتاك من القرآن ، فقال: ذاك إذا أحللت حلاله وحرمت حرامه وعملت بما في: وكان أبو جعفر يصلي خلف القراء في رمضان يلقنهم يؤمر بذلك .
لما غُسل الامام أبو جعفر نظروا ما بين نحره إلى فؤاده مثل ورقة المصحف ، فما شك من حضره أنه نور القرآن ، رحمه الله .

مقدمة البحث

الحمد لله الذي أنزل القرآن الكريم بلسان عربي مبين، هدىً وذكرى للمتقين، وشفاءً ورحمةً للمؤمنين، ونوراً وضياءً للعالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحكم، وهو علي كل شيء قدير، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله، اللهم صل وسلم وبارك عليه، وعلي آله، وأصحابه الذين نقلوا القرآن، وحافظوا عليه، ورتلوه كما أنزل وعملوا بما فيه، فاحلوا حلاله، وحرموا حرامه ،

١- أستاذ القراءات المساعد بجامعة القرآن الكريم وتأصيل العلوم.

واهتموا بهدايته ، وتخلقوا بأدابه ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون .
أما بعد : فان دراسة شخصية الإمام أبي جعفر مهمة للغاية هو أحد القراء
العشرة ، وتعريف للعامّة أن القراءات عشر وليست سبع وكلها متواترة ، عن النبي
صلى الله عليه وسلم .

أهداف البحث وأسباب اختياره :

- ١ . دراسة شخصية الإمام أبي جعفر وإبرازها لطلاب العلم .
- ٢ . التعريف بالدرّة المضيّة ومؤلفها .
- ٣ . معرفة الكلمات التي قرأ بها الإمام أبي جعفر وحده من بين القراء العشرة .
- ٤ . ارتباط هذا البحث بالقراءات العشر .

منهج البحث :

- اعتمد في هذا البحث المنهج الاستقرائي .
- أولاً أذكر الآية وبعدها أذكر الكلمة التي انفرد بها الإمام أبو جعفر، وبعدها
الشاهد من الدرّة وبعدها التوجيه .
 - عزو الآيات إلى سورها . ذكر شواهد من الدرّة .
 - ترجمة الأعلام في الهامش غير الصحابة والأئمة الأربعة .
 - اثبت المصادر والمراجع في هامش البحث .

خطة البحث :

- قسمت البحث إلى مقدمة وخمسة مباحث وتحت أي مبحث مطلبان
- المبحث الأول : التعريف بالإمام أبي جعفر وراوياه التعريف بالدرّة ومؤلفها .
- المطلب الأول : التعريف بالإمام أبي جعفر وراوياه
- المطلب الثاني : التعريف بالدرّة ومؤلفها .
- المبحث الثاني : الكلمات إنفراد بها الربع الأول من القرآن الكريم
- المطلب الأول : الكلمات التي إنفرد بها في سورة البقرة
- المطلب الثاني : الكلمات التي التي إنفرد بها في سورة آل عمران و النساء والمائدة

المبحث الثالث: الكلمات التي انفرد بها في الربع الثاني من القرآن الكريم
المطلب الأول : الكلمات التي التي انفرد بها في سور الاعراف التوبة هود
المطلب الثاني : الكلمات التي التي انفرد بها في سور النحل والاسراء
المبحث الرابع : الكلمات التي انفرد بها في الربع الثالث من القرآن الكريم
المطلب الاول : الكلمات التي التي انفرد بها في سورطه الأنبياء الحج
المطلب الثاني : الكلمات التي التي انفرد بها في سورالنور الفرقان فاطر يس
المبحث الخامس : الكلمات التي انفرد بها في الربع الرابع من القرآن الكريم
المطلب الاول : الكلمات التي التي انفرد بها في سورص الزمر الطور
المطلب الثاني : الكلمات التي التي انفرد بها في سورالحجرات القمر المجادلة المعارج
النازعات التكوير قريش

المبحث الأول

التعريف بالإمام أبي جعفر وراويه، والدره المضيه ومؤلفها

المطلب الاول

التعريف بالإمام أبي جعفر وسنده وراويه

أبو جعفر هو : يزيد بن القعقاع ويقال : اسمه جندب بن فيروز وقيل : فيروز
المخزومي، المدني، الإمام الثقة، الضابط، ضمن علماء الطبقة الثالثة من حفاظ القرآن
وصلى بآبن عمر وحدث عن أبي هريرة وابن عباس، وهو قليل الحديث، تصدى لإقراء
القرآن دهرا وأتي به إلى أم سلمة وهو صغير فمسحت على رأسه ودعت له بالبركة.
ورؤي في المنام على صورة حسنة، فقال : بشر أصحابي وكل من قرأ القرآن
على قراءتي أن الله قد غفر لهم وهو أحد الأئمة العشرة في حروف القراءات^(١).
إسناد قراءته : قرأ أبو جعفر على ابن عباس وأبي هريرة وعبد الله بن
عياش، وقرأ هؤلاء على أبي بن كعب، وقرأ أبي على رسول الله صلى الله عليه
وسلم.

١- معرفة القراء الكبار على الطبقات والإعصار للمؤلف : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي (المتوفى :
١٤٤٨هـ) الناشر: دار الكتب العلمية الطبعة: الأولى ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م ج١ ص.

قول العلماء عنه : قال ابن الجزري كان أبو جعفر تابعياً كبير القدر، انتهت إليه رئاسة القراءة بالمدينة المنورة^(١).

وروى ابن جمّاز عنه أنه كان يصوم يوماً ويفطر يوماً وهو صوم داود - عليه السلام - واستمر على ذلك مدة من الزمان فقال له بعض أصحابه في ذلك فقال: إنما فعلت ذلك أروض به نفسي لعبادة الله.

وقيل: كان أبو جعفر يقوم الليل، فإذا أقرأ، ينعس، فيقول لهم: ضعوا الحصى بين أصابعي، وضموها فكانوا يفعلون ذلك، والنوم يغلبه.

وروى عن نافع، قال: لما غسل أبو جعفر القارئ نظروا ما بين نحره إلى فؤاده مثل ورقة المصحف، فما شك من حضره أنه نور القرآن، رحمه الله.

قد اختلفوا في تاريخ وفاته، قيل: سنة إحدى وثلاثين. وقيل: سنة ثلاث وثلاثين، عن نيف وتسعين سنة، توفي أبو جعفر، سنة ١٢٨ هـ ثمان وعشرين ومائة.

رواته وله راويان :

- الراوي الأول عن الإمام أبي جعفر، ابن وردان . هو: أبو الحارث عيسى بن وردان المدني، من علماء الطبقة الرابعة . قال ابن الجزري كان، ابن وردان مقرئاً، رأساً في القرآن، ضابطاً محققاً، من قدماء أصحاب نافع، ومن أصحابه في القراءة على أبي جعفر، توفي ابن وردان سنة ١٦٠ هـ ستين ومائة^(٢).

- الراوي الثاني عن الإمام أبي جعفر، ابن جمّاز هو: سليمان بن مسلم بن جمّاز، وقيل: سليمان بن سالم بن جمّاز بالجيم والزاوي مع تشديد الميم أبو الربيع الزهري مولاهم المدني مقرئ جليل ضابط . قال: ابن الجزري كان ابن جمّاز، مقرئاً، جليلاً، ضابطاً، نبيلاً، مقصوداً في قراءة «أبي جعفر، ونافع» . توفي «ابن جمّاز» سنة ١٧٠ هـ سبعين ومائة^(٣).

١- النشر في القراءات العشر المؤلف: شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف (المتوفى: ٨٣٣ هـ) المحقق: علي محمد الضبياع (المتوفى ١٣٨٠ هـ) الناشر: المطبعة التجارية الكبرى ج١ ص ١٧٨ .
٢- انظر: معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار - المؤلف: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايّمان الذهبي (المتوفى: ٧٤٨ هـ) الناشر: دار الكتب العلمية الطبعة: الأولى ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م (١/٦٦).
٣- غاية النهاية في طبقات القراء المؤلف: شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف (المتوفى: ٨٣٣ هـ) الناشر: مكتبة ابن تيمية (١/٣١٥).

المطلب الثاني

التعريف بالدرة المضية ومؤلفها

أ- الدرة هي قصيدة من البحر الطويل وقافيتها لامية مجردة مطلقة من المتدارك ، جمع فيها الإمام ابن الجزري ، ثلاثة من القراء العشرة المشهورين ، ونظم هذه القصيدة علي حسب ما جاء في كتابه ، تحبير التيسير ، فذكر فيه ما جاء في كتاب التيسير لأبي عمرو الداني في القراءات السبع ، وزاد عليه القراءات الثلاثة المتتممة للعشرة ، فسماه كتاب تحبير التيسير لابن الجزري ، فَعُلم من ذلك أن طريق هذه القصيدة وطريق التحبير واحد ، وأن عدد أبياتها ، مائتان وأربعون وتاريخ تأليف هذه القصيدة سنة ثلاث وعشرون وثمانمائة^(١) .

ب- الأمام ابن الجزري سار علي منهج الإمام الشاطبي في منظومته حيث غَيَّرَ حروف أبجد هوز الى اصطلاح ، اصطلاحه للقراء السبعة ، فكذلك الامام ابن الجزري حيث جعل حروف ، أبجد هوز إلى القراء الثلاثة على حسب أصولهم في السبعة فصارت كالآتي :

"أبج" الألف لأبي جعفر ، والباء لابن وردان ، والجيم لابن جمان .
"حطي" الدال ليعقوب ، والطاء لرويس ، والياء لروح .
"فضق" الفاء لخلف ، الضاد لإسحاق ، القاف لإدريس .

وفي ذلك يقول الإمام ابن الجزري :

وَبَعْدُ فَحَدُّ نَظْمِي حُرُوفَ ثَلَاثَةٍ •• تَتَمُّ بِهَا الْعَشْرُ الْقَرَاءَاتُ وَانْقِلَا
كَمَا هُوَ فِي تَحْبِيرِ تَيْسِيرِ سَبْعِيهَا •• فَاسْأَلْ رَبِّي أَنْ يَمُنَّ فَتَكْمُلَا
أَبُو جَعْفَرٍ عَنْهُ ابْنُ وَرْدَانَ نَاقِلٌ •• كَذَلِكَ ابْنُ جَمَانَ ذُو الْعُلَا
وَيَعْقُوبُ قَلَّ عَنْهُ رُوَيْسٌ وَرُوحُهُمْ •• وَإِسْحَاقُ مَعَ إِدْرِيسَ عَنْ خَلْفٍ تَلَا^(٢)

التعريف بالإمام ابن الجزري :

هو محمد بن محمد بن محمد بن علي بن يوسف بن الجزري يكنى أبا الخير ، ولد في ليلة السبت الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة إحدى وخمسين

١- شرح الدرة المضية في القراءات الثلاث المروية للإمام محمد بن محمد بن محمد أبي القاسم النويري المتوفي ٥٨٩٧هـ تحقيق الشيخ - جمال الدين محمد شرف - مكتبة دار الصحابة للتراث ص ١١ وص ٤٠٣ .

٢- الدرة المضية رقم الابيات ٣-٦ .

وسبعمائة داخل خط القطاعين بين السورين بدمشق، وحفظ القرآن سنة أربع وستين وأفرد القراءات على جماعة من مشايخ عصره وألف في القراءات كتاب النشر في القراءات العشر في مجلدين ومختصره التقريب وتحبير التيسير في القراءات و تاريخ القراء وطبقاتهم وألف غير ذلك في التفسير والحديث والفقه والعربية، ونظم غاية المهرة في الزيادة على العشرة قديما، ونظم طيبة النشر في القراءات العشر والجوهرية في النحو والمقدمة فيما على قارئ القرآن أن يعلمه وغير ذلك في فنون شتى. " توفي - رحمه الله - ضحوة الجمعة سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة بمدينة شيراز، ودفن بدار القرآن التي أنشأها وكانت جنازته مشهورة تبادر الأشراف والخواص والعوام على حملها وتشيعها^(١).

المبحث الثاني

الكلمات التي إنفرد بها في الربع الأول من القرآن الكريم

المطلب الأول

الكلمات التي إنفرد بها في سورة البقرة

١- قوله تعالى: ﴿الم﴾ (البقرة: ١)، قرأ الإمام أبو جعفر بالسكت علي حروف التهجي الواردة في فواتح السور سواء كانت علي حرف واحد نحو (ص) أو أكثر نحو (الم كهيعص)^(٢).

الشاهد من الدرّة: حُرُوفُ التَّهَجِّي أَفْصَلُ بِسَكْتٍ كَمَا أَلَفَ^(٣).

التوجيه: قرأ أبو جعفر بالسكت وذلك لبيان أن هذه الحروف ليس للمعاني كالأدوات للأسماء والأفعال بل هي مفصولة معني واتصلت رسما فقط^(٤).

٢- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ (البقرة: ٣٤)، قرأ أبو جعفر «للملائكة

١- غاية النهاية في طبقات القراء المؤلف: شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف (المتوفى: ٨٣٣هـ) الناشر: مكتبة ابن تيمية ص ٢٤٧.

٢- شرح السمنودي علي متن الدرّة المضية - تأليف محمد بن حسن بن محمد السمنودي ص ٣٢.

٣- الدرّة المضية في القراءات الثلاث المنتمة للعشر المؤلف: شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف، المحقق:

محمد تميم الزعبي الناشر: دار الهدى الطبعة: الثانية، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م رقم البيت ٦٢.

٤- طلائع البشر في توجيه القراءات العشر تأليف محمد الصادق قمحاوي مكتبة الايمان ص .

اسجدوا» بضمّ التاء وكذلك في الأعراف [١٢] وسبحان (٢) [٦٢] والكهف [٥١] وطه [١١٧] (١).

الشاهد من الدرّة : اضمُّمُ مَلَائِكَةَ اسْجُدُوا ... أَزَلَّ (٢).

التوجيه : فأبو جعفر بضمّ التاء حالة الوصل في الخمسة اتباعاً لضمّ الجيم، ولم يعتد بالساكن فاصلاً (٣).

٣- قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنَّهُمْ إِلَّا يَتَنَّبَهُونَ ﴾ (البقرة : ٧٨)، قرأ الإمام أبي جعفر (إلا أمانى) وبابه، وأمانيهم، وليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب، في أمنيته "بتخفيف الياء فيهن مع إسكان الياء المرفوعة والمخفوضة من ذلك، وبكسر الهاء من أمانيهم لكونها بعد ياء ساكنة (٤).

الشاهد من الدرّة : خَفُّ الْأَمَانِي مُسْجَلًا ××× أَلَا (٥).

التوجيه : فوجه قراءة التخفيف جمعه على أفاعل، ولم يعتد بحرف المد الذي في المفرد كما يقال في جمع مفاتيح ومفاتيح (٦).

٤- قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنْ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَّبَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشْتَقُّ فَيُخْرَجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (البقرة : ٧٤)، (.....) إخفاء أبي جعفر جلي (٧).

الشاهد من الدرّة :

وَعَنَّةٌ يَا وَالْوَاوِ فَرْزٌ وَبَخَا وَغَيْدٌ ... - نِ الْإِخْفَا سَوِي يَنْغُضُ يَكُنُّ مِنْخَنُقٌ أَلَا (٨)

٥- قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ ﴾ (البقرة : ١٧٣)، قرأ الإمام

- ١- الكنز في القراءات العشر المؤلف: أبو محمد، عبد الله بن عبد المؤمن بن الوجيه بن عبد الله بن علي ابن المبارك التاجر الواسطي المرقى تاج الدين ويقال نجم الدين (المتوفى: ٧٤١هـ) المحقق: د. خالد المشهداني الناشر: مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة ج ٢ ص ٤٠٧.
- ٢- الدرّة المضوية رقم البيت ٦٥.
- ٣- إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر (ص: ١٧٥).
- ٤- إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر المؤلف: أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الغني الدمياطي، شهاب الدين الشهير بالبناء (المتوفى: ١١١٧هـ) المحقق: أنس مهرة الناشر: دار الكتب العلمية - لبنان الطبعة: الثالثة، ٢٠٠٦م - ١٤٢٧هـ - ج ١ ص ١٨٧.
- ٥- الدرّة المضوية رقم البيت ٦٧.
- ٦- إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر ص ١٨٧.
- ٧- البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة (ص: ٣٥).
- ٨- الدرّة المضوية رقم البيت ٤٣.

أَبُوجَعْفَرِ (الْمِيْتَةِ) بِالْتَشْدِيدِ حَيْثُ وَقَعَ وَالْبَاقُونَ بِالْتَخْفِيفِ (١).

الشاهد من الدرّة : الميْتَةُ أَشَدُّنَ ××× وَمِيْتَةٌ وَمِيْتًا أُد (٢)

التوجيه : قرئ بتخفيف الياء في المفرد والجمع منه علي وزن أفاعل مع إسكان الياء في المرفوع من ذلك (٣).

٦- قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ (البقرة: ٢١٠)، قرأ الإمام أبو جعفر (والملائكة وقضى الأمر) بخفض الملائكة (٤).

الشاهد من الدرّة : وَخَفَضُ فِي الْمَلَائِكَةِ انْقِلَابًا (٥)

التوجيه : قرأ أبو جعفر بخفض تاء الملائكة عطا علي ظلل أو الغمام وقرأ الباقون برفعها عطا علي لفظ الجلالة (٦).

٧- قوله تعالى : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ (البقرة: ٢١٣)، قرأ الإمام أبو جعفر (ليحكم) هنا وفي ال عمران وموضعي النور بضم الياء وفتح الكاف (٧).

الشاهد من الدرّة : لِيَحْكَمَ جَهْلٌ حَيْثُ جَا (٨)

التوجيه : قرأ أبو جعفر (ليحكم) بضم الياء وفتح الكاف هنا وفي ال عمران والنور في موضعين لأن الكتاب لا يحكم في الحقيقة إنما يحكم به وقرأ الباقون بفتح الياء وضم الكاف أي ليحكم الكتاب وذكره على سعة الكلام وقيل معناه ليحكم كل نبي بكتابه (٩).

١- تحبير التيسير في القراءات العشر للمؤلف: شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف (المتوفى: ٨٣٣هـ) المحقق: د. أحمد محمد مفلح القضاة الناشر: دار الفرقان - الأردن / عمان للطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م ج ص ٢٩٩.

٢- الدرّة المضيئة رقم البيت ٧١.

٣- طلائع البشر ص ٢٤.

٤- شرح طيبة النشر في القراءات المؤلف: شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف (المتوفى: ٨٣٣هـ) ضبطه وعلق عليه: الشيخ أنس مهرة الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة: الثانية، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م ص ١٩.

٥- الدرّة المضيئة رقم البيت ٧٧.

٦- المهذب في القراءات العشر وتوجيهها من طريق طيبة النشر تأليف محمد صالح محيسن مطبعة الكليات الازهرية ج ١ ص ٨٨.

٧- الخلاصة في تنمة القراءات الثلاثة شرح متن الدرّة المضيئة في القراءات الثلاثة المروية - تأليف علي إسماعيل السيد الهنداوي مكتبة دار الإيمان ص ١٠٠.

٨- الدرّة المضيئة رقم البيت ٩٥.

٩- تفسير البغوي المسمي معالم التنزيل للإمام أبي محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي الشافعي المتوفى سنة ٥١٦هـ إعداد وتحقيق خالد عبد الرحمن - ومروان سوار دار المعرفة بيروت لبنان ج ١ ص ١٨٦.

٨- قال تعالى : ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٨٠)، قرأ الإمام أبو جعفر بتحريك سين العسر واليسر كيفما جاء مذكراً كان أو مؤنثاً معرفاً أو منكرأ بالضم^(١).

الشاهد من الدرة : وَالْعُسْرُ وَالْيُسْرُ أُتْقَلَا^(٢)

التوجيه : قرأ أبو جعفر بضم السين وهي لغة أهل الحجاز وقرأ الباقر بإسكانها وهي لغة تميم وأسد^(٣).

٩- قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فليُمْلِلْ لِئَلَّا يَكُونَ بِالْعَدْلِ﴾ (البقرة: ٢٨٢)، قرأ الإمام أبو جعفر بإسكان الهاء هنا وفي سورة القصص في (أن يمل هو)^(٤).

الشاهد من الدرة : هُوَ وَهِيَ ... يُمِلُّ هُوَ ثُمَّ هُوَ اسْكُنَّا أَدُ وَحَمَلًا^(٥)

التوجيه : ووجه الإسكان لعدم استقلالها نزلت منزلة الجزء بما اتصلت به وهي لغة نجد ووجه التحريك انه علي الأصل وهي لغة الحجازيين^(٦).

١٠- قال تعالى : ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَبَسْنَ أَجْلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضُوا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمَ آزَمَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٣٢)، قرأ الإمام أبو جعفر (لاتضار) وكذا لا يضار بسكون الراء^(٧).

الشاهد من الدرة : وَأَقْرَأُ تَضَارَ كَذَا وَلَا يَضَارَ بِخَفٍّ مَعَ سُكُونٍ^(٨)

- ١- الغاية في القراءات العشر للحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين بن مهران النيسابوري المتوفي سنة ٢٨١ هـ تحقيق محمد غياث ص ١٢١.
- ٢- الدرة المضية رقم البيت ٧٤.
- ٣- المهذب في القراءات العشر ج ١ ص ١٠٨.
- ٤- كتاب البحور الزاخرة في شواهد البدر الزاهرة - تأليف الشيخ عبدالفتاح القاضي - قدم له الشيخ جاسم بن محمد مهلهل مكتبة الشروق للنشر والتوزيع ص ١٤٨.
- ٥- الدرة المضية رقم البيت ٦٤.
- ٦- الكوكب الدرّي في شرح طيبة ابن الجزري ص ٢٦٢.
- ٧- إيضاح الرموز ومفتاح الكنوز في القراءات الأربع عشرة - تأليف الأمام شمس الدين بن محمد القباني المتوفي سنة ٨٤٩ هـ - دراسة وتحقيق جمال الدين محمد شرف - الناشر دار الصحابة بطنطا ص ١٩٣.
- ٨- الدرة المضية رقم البيت ٧٩-٨٠.

التوجيه: قرئ بسكون الراء وهو من ضار يضر ويكون السكون لإجراء الوصل مجري الوقف^(١).

المطلب الثاني

الكلمات التي انفرد بها في سور آل عمران والنساء والمائدة

١١- قال تعالى: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (آل عمران: ٤٩)، قرأ الإمام أبو جعفر (الطائر) بألف بعد الطاء وهمزة مكسورة بعدها في مكان الياء^(٢).

الشاهد من الدرة: قُلِ الطَّائِرِ أَتْلُ طَائِرًا^(٣)

التوجيه: قرأ أبو جعفر (الطائر) بألف بعد الطاء وهمزة مكسورة بعدها في مكان الياء علي الأفراد وقرأ الباقر علي الجمع^(٤).

١٢- قال تعالى: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ (آل عمران: ١٩٨)، قرأ الإمام أبو جعفر (لكن) بتشديد النون مفتوحة^(٥).

الشاهد من الدرة: وَشَدَّدَ لَكِنَّ الذَّمَّ مَعًا أَلَا^(٦)

التوجيه: قرأ أبو جعفر (لكن) هنا وفي الزمراية ٢٠ بتشديد النون ووجه التشديد قصد المبالغة والزيادة في التأكيد ووجه التخفيف حصول المقصود من التأكيد بالخفة^(٧).

١٣- قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا﴾ (النساء: ٣)، قرأ الإمام أبو جعفر (فواحدة) برفع التاء^(٨).

١- طلائع البشر ص ٣٤.

٢- البهجة المرضية شرح الدرة المضية - لفضيلة الشيخ علي محمد الضباع - مكتبة دار الصحابة للتراث بطنطا ص ٥٨.

٣- الدرة المضية رقم البيت ٨٧.

٤- المهذب في القراءات العشر ج ١ ص ١٢٢.

٥- الخلاصة في تنمة القراءات الثلاثة ص ١١٤.

٦- الدرة المضية رقم البيت ٩٣.

٧- الكوكب الدرّي في شرح طيبة الجزري ص ٣٠١.

٨- كتاب البحور الزلخرة في شواهد البدور الزاهرة ص ١٩٥.

الشاهد من الدرّة : فَوَاحِدَةٌ مَعَهُ قِيَامًا وَجَهْلًا ××× أَحَلَّ وَنَصَبَ اللَّهُ وَاللَّاتُ أَدُ^(١)

التوجيه : فواحدة أو ما ملكت إيمانكم (قرأ أبو جعفر (فواحدة) برفع التاء علي أنها خبر لمبتدأ محذوف أي فالمقتنع واحدة أو فاعل لفعل محذوف أي فيكفي واحدة^(٢) .
١٤- قوله تعالى : ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَاتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَحَافُونَ
نُشُوزَهُنَّ فَعْظُوهُنَّ﴾ (النساء: ٣٤) ، قرأ الإمام أبو جعفر بنصب هاء الجلالة (الله)^(٣) .

الشاهد من الدرّة : وَنَصَبَ اللَّهُ وَاللَّاتُ أَدُ^(٤)

التوجيه : (بما حفظ الله) قرأ أبو جعفر بفتح هاء لفظ الجلالة وما موصولة أي بالذي حفظ حق الله أو أمر الله^(٥) .

١٥- قوله تعالى : ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ
الصَّادِقِينَ﴾ (هود: ٣٢) ، قرأ أبو جعفر «من أجل» بكسر الهمزة وحذفها ونقل
حركتها إلى النون والابتداء بكسرها^(٦) .

الشاهد من الدرّة : مِنْ أَجْلِ أَكْسَرُ أَنْقَلُ أَدُ^(٧)

التوجيه : ومعنى «من أجل ذلك» : أي من جنابة ذلك ، وجريته وقرأ الباقر «أجل»
بهمزة مفتوحة. ومعنى «من أجل ذلك» : أي من جرّ وسبب ذلك. من هذا يتبين أن
الكسر والفتح في همزة «أجل» لغتان^(٨) .

١- الدرّة المضوية رقم البيت ٩٥ .

٢- المهذب في القراءات العشر ص ١٥٠ .

٣- شرح السمنودي علي متن الدرّة المضوية .

٤- الدرّة المضوية رقم البيت ٩٥ .

٥- المهذب في القراءات العشر ص ١٥٧ .

٦- الكنز في القراءات العشر المؤلف : أبو محمد ، عبد الله بن عبد المؤمن بن الوجيه بن عبد الله بن علي ابن المبارك التاجر الواسطي المقرئ
تاج الدين ويقال نجم الدين (المتوفى : ٧٤١هـ)المحقق : د. خالد المشهداني الناشر: مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة الطبعة: الأولى ،
١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م ج ٢ ص ٤٥٨ .

٧- الدرّة المضوية رقم البيت ١٠٠ .

٨- الهادي شرح طيبة النشر في القراءات العشر ج ٢/ص ١٧١ .

المبحث الثالث

الكلمات التي إنفرد بها الإمام أبو جعفر في الربع الثاني من القرآن الكريم المطلب الأول

الكلمات التي إنفرد بها في سور الأعراف التوبة هود

١- قوله تعالى: ﴿وَالْبَدْدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ بِنَاتِهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبَثَ لَإِيْخْرُجِ إِلَّا نَكَدًا كَذَلِكَ نَصْرَفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ (الأعراف: ٥٨)، قرأ الإمام أبو جعفر (نكدا) بفتح الكاف والباقون بكسرهما^(١).

الشاهد من الدرّة: وَخَفَضَ إِلَهَ غَيْرِهِ نَكَدًا أَلَا^(٢)

التوجيه: نَكَدًا "بَفَتْحِ الْكَافِ، فَهُوَ مَصْدَرٌ بِمَعْنَى ذَا نَكَدٍ"^(٣).

٢- قال تعالى: ﴿الْهُمُّ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْتَطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تَنْظُرُونَ﴾ (الأعراف: ١٩٥)، قرأ الإمام أبو جعفر (يبطشون) بضم الطاء^(٤).

الشاهد من الدرّة: ضُمَّ طَا يَبْتَطِشُ اسْجَلًا^(٥)

التوجيه: قرأ الإمام أبو جعفر (يبطشون) بضم الطاء مضارع بطش يبطش كخرج يخرج وقرأ الباقيون بكسرهما مضارع بطش يبطش كضرب يضرب والبطش هو الاخذ بقوة^(٦).

٣- قال تعالى: ﴿الآن خَفَفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِثَّةٌ صَابِرَةً يَغْلِبُوا مِثِّيْنَ﴾ (الأنعام: ٦٦)، مائتين، مائة "أبدل أبو جعفر الهمز ياء وصلًا ووقفًا"^(٧).

الشاهد من الدرّة: وَمِثَّةٌ فَنَّهُ... فَأَطْلُقُ لَهُ أَبُو جَعْفَرٍ^(٨)

- ١- البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة من طريقي الشاطبية والدرّة - تأليف عبد الفتاح القاضي - دار الكتب العلمية ص ١٣٣.
- ٢- الدرّة المضوية رقم البيت ١١٥.
- ٣- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج٧ ص٢٣١.
- ٤- الخلاصة في تنمة القراءات الثلاثة ص ١٣٩.
- ٥- الدرّة المضوية رقم البيت ١١٧.
- ٦- المهذب في القراءات العشر ج٢ ص٢٦٠.
- ٧- البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة (ص: ١٣٢).
- ٨- الدرّة المضوية رقم البيت ٣١١.

٤- قال تعالى : ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ أَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (التوبة: ١٩)، سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام " قرأ ابن وردان
بخلف عنه سقاة بضم السين وحذف الياء وعمرة بفتح العين وحذف الألف
بعد الميم^(١).

الشاهد من الدرة : وَقُلْ عَمْرَهُ مَعَهَا سُقَاةَ الْخِلَافِ بْنِ^(٢)

التوجيه : وقرأ ابن وردان ، بضم السين وحذف الياء جمع ساق كرام ورماة
" وعمرة " بفتح العين وحذف الألف جمع عامر مثل صانع وصنعة^(٣).

٥- قوله تعالى : ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ
ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّاكِرِينَ﴾ (هود: ١١٤)، قرأ الإمام أبو جعفر (زلفاً) بضم اللام^(٤).
الشاهد من الدرة : زَلْفًا أَلَا^(٥)

التوجيه : بالفتح والضم لغتان^(٦).

٦- قوله تعالى : ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ﴾ (التوبة: ٣٦)، قرأ أبو جعفر بتسكين العين
من عشر المركب في جميع مواضعها^(٧).

الشاهد من الدرة : وَعَيْنٌ عَشْرٌ أَلَا^(٨)

التوجيه : هما لغتان^(٩)

٧- قوله تعالى : ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةً يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ
إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ (هود: ١١٦)، قرأ ابن جمان عن أبي جعفر (بقية) بكسر

١- البذور الزاهرة في القراءات العشرة المتواترة من طريقي الشاطبية والدرة - القراءات الشاذة وتوجيهها من لغة العرب المؤلف: عبد
الفتاح بن عبد الغني بن محمد القاضي (المتوفى: ١٠٣٠هـ) الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان (ص: ١٣٤).

٢- الدرة المضوية رقم البيت ١٢٢.

٣- إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر (ص: ٣٠٢).

٤- مصحف الصحابة في القراءات العشرة من طريقي الشاطبية والدرة - لفضيلة الشيخ جمال الدين محمد شرف - الناشر دار
الصحابة للتراث بطنطا ص ٢٣٤.

٥- الدرة المضوية رقم البيت ١٣٤.

٦- الكوكب الدرّي ص ٣٢٧.

٧- كتاب البحور الزاهرة في شواهد البذور الزاهرة ص ٣٣٧.

٨- الدرة المضوية رقم البيت ١٣.

٩- طلائع البشر ص ٩.

الباء واسكان القاف وتخفيف الياء^(١).

الشاهد من الدرّة : بَضْمٌ وَخَفْفٌ وَكُسْرُنُ بَقِيَّةٍ جَنَى^(٢).

التوجيه : «وقرى» بقية بتخفيفها، وهو مصدر، «بقي، يبقى، بقية» «كلقية لقية» فيجوز أن يكون على بابه، ويجوز أن يكون مصدرا بمعنى «فعليل» وهو بمعنى «فاعل» وقرأ الباقون «بقية» بفتح الباء، وكسر القاف، وتشديد الياء، البقية: اسم من الإبقاء، كأنه أراد والله أعلم: فلولا كان من القرون قوم أولوا إبقاء على أنفسهم لتمسكهم بالدين المرضي. وهو مصدر «بقي»^(٣).

المطلب الثاني

الكلمات التي إنفرد بها في سور النحل الاسراء الكهف

١- قوله تعالى : ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْغَيْهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَوُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (النحل: ٧٧)، قرأ الإمام أبو جعفر (بشق) بفتح الشين^(٤).

الشاهد من الدرّة : كَمَا الْقُدْرُ شِقٌّ أَفْتَحَ تَشَاقُونَ نُؤْنَهُ أَد ... ل^(٥)

التوجيه : الشق، بالفتح مصدر، وبالكسر اسم^(٦)

٢- قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (النحل: ١١٥)، قرأ الإمام أبو جعفر (اضطر) بكسر الطاء^(٧).

الشاهد من الدرّة : بِكُسْرٍ وَطَاءً اضْطُرُّ فَاكُسْرُهُ أَمِنًا^(٨)

التوجيه : قرى (فمن اضطر) بكسر الطاء إذا أصله اضطرر بكسر الراء ولما ادغم الراء ان نقلت حركة الراء الأولى إلى الطاء^(٩).

١- شرح السمنودي علي متن الدرّة ص ١٥١.

٢- الدرّة المضية رقم البيت (٦٧).

٣- الهادي شرح طيبة النشر في القراءات العشر المؤلف: محمد محمد محمد سالم محيسن (المتوفى: ١٤٢٢هـ) الناشر: دار الجيل - بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م ج ٢ ص ٣٢٠.

٤- الهادي شرح طيبة النشر في القراءات العشر (٢/٣٥٣).

٥- الدرّة المضية رقم البيت ١٤١.

٦- طلائع البشر ص ١٠٢.

٧- طلائع البشر ص ١٠٢ طلائع البشر ص ١٠٢ طلائع البشر ص ١٠٢.

٨- الدرّة المضية رقم البيت ٧٣.

٩- طلائع البشر ص ٣٠.

٣- قال تعالى : ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْمَنَّا طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ (الإسراء: ١٣)، قرأ الإمام أبو جعفر ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بضم الياء وفتح الراء^(١).

الشاهد من الدرة : نُخْرِجُ أَنْجَلًا^(٢)

التوجيه : قرأ أبو جعفر (ويخرج) بياء مضمومة وراء مفتوحة انه مضارع (اخرج) مبني للمجهول ونائب الفاعل ضمير يعود على الطائر^(٣).

٤- قال تعالى : ﴿مَا أَشْهَدُتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مَتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ (الكهف: ٥١)، ما أشهدتهم^(٤) قرأ أبو جعفر أشهدناهم بالنون والألف، والباقون بالتاء المضمومة وحذف الألف^(٥).

الشاهد من الدرة : وَكُنْتُ أَفْتَحُ أَشْهَدْنَا وَحَامِيَّةً وَضَمَّ ... -مَتِّي قُبْلًا أَدُ^(٥)

التوجيه : (أشهدناهم) بالنون والألف على الجمع للعظمة^(٦).

٥- قال تعالى : ﴿مَا أَشْهَدُتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مَتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ (الكهف: ٥١)، وما كنت^(٧) قرأ أبو جعفر بفتح التاء والباقون بضمها^(٧).

الشاهد من الدرة : وَكُنْتُ أَفْتَحُ أَشْهَدْنَا وَحَامِيَّةً وَضَمَّ ... -مَتِّي قُبْلًا أَدُ^(٨)

التوجيه : وما كنت» بفتح التاء، خطاباً لنبينا «محمد» صلى الله عليه وسلم، والمقصود إعلام أمته أنه عليه الصلاة والسلام لم يزل محفوظاً من أول حياته لم يعتضد^(٩).

١- المبسوط في القراءات العشر المؤلف: أحمد بن الحسين بن مهران النيسابوري، أبو بكر (المتوفى: ٢٨١هـ) تحقيق: سبيع حمزة حاكيمي الناشر: مجمع اللغة العربية - دمشق ص ٢٦٧.

٢- الدرة المضوية رقم البيت ١٤٣.

٣- المهذب في القراءات العشر ج ١ ص ٣٨٠.

٤- البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة (ص: ١٩٣).

٥- الدرة المضوية رقم البيت ١٥٠.

٦- النشر في القراءات العشر (٢/ ٣١١).

٧- البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة (ص: ١٩٣).

٨- الدرة المضوية رقم البيت ١٥٠.

٩- الهادي شرح طيبة النشر في القراءات العشر (٢/ ١٥).

المبحث الرابع

الكلمات التي إنفرد بها الربع الثالث من القرآن الكريم

المطلب الأول

الكلمات التي إنفرد بها في سور طه الأنبياء الحج

٦- قال تعالى: ﴿وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ (طه: ٣٩)، قرأ الإمام أبو جعفر (ولتصنع) بسكون اللام وجزم العين^(١).

الشاهد من الدرّة: سَكَنُ لِتُصْنَعَ وَاجْزَمَ ... كَنُخْلَفُهُ أُسْنَى^(٢)

التوجيه: قرأ أبو جعفر (ولتصنع) باسكان اللام والعين علي ان اللام لام الأمر والباقون بكسر اللام ونصب العين بان مضمرة بعد لام كي^(٣).

٧- قال تعالى: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ سِحْرٌ مِثْلَهُ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلَفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى﴾ (طه: ٥٨)، قرأ الإمام أبو جعفر (لا نخلفه) بإسكان الفاء جزماً على جواب الأمر، ويلزم من ذلك منع الصلة له^(٤).

الشاهد من الدرّة: كَنُخْلَفُهُ أُسْنَى^(٥)

التوجيه: بجزم الفاء من (نخلفه) على أن لا ناهية والنهي تحذير من إخلافه^(٦).

٨- قال تعالى: ﴿وَانظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِهًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ (طه: ٩٧)، قرأ الإمام أبو جعفر (لنحرقنه) بفتح النون وإسكان الحاء وضم الراء مخففة ورؤي عن ابن جمار بضم النون وكسر الراء مخففة^(٧).

الشاهد من الدرّة: لِنُحْرِقْ سَكَنُ خَفَّفَ أَعْلَمَهُ وَافْتَحَا ... وَضَمَّ بَدَا^(٨)

التوجيه: قرئ بفتح النون وضم الراء خفيفة من حرقت الشيء أحرقت حرقاً بمعني

١- البهجة المرضية في شرح الدرّة المضية ص ٩٠.

٢- الدرّة المضية رقم البيت ١٥٧.

٣- الكوكب الدرّي في شرح طيبة ابن الجزري ص ٩٠.

٤- إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر (ص: ٣٨٤).

٥- الدرّة المضية رقم البيت ١٥٧.

٦- الدرر الباهرة في توجيه القراءات المتواترة - إعداد - دكتور هشام عبد الجواد الزهيري - تقديم الشيخ محمد سكر - والشيخ

محمد القراجي - مكتبة دار العالمية للطباعة والنشر ج ٢ ص ٣١.

٧- تحبير التيسير في القراءات العشر (ص: ٤٦٢).

٨- الدرّة المضية رقم البيت ١٦٠.

- بردته وحككت بعضه من ببعض (١).
- ٩- قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نَعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٤)، قرأ الإمام أبو جعفر (تطوى السماء) (٢).
- الشاهد من الدرة: وَأَنْ... نَنْتَنُ جَهْلُنْ نَطْوِي السَّمَاءَ أَرْفَعُ الْعُلَا (٣)
- التوجيه: قرأ أبو جعفر (تطوي) ببناء للمجهول ورفع همزة (السماء) علي النيابة عن الفاعل وان تأنيث الفعل لإسناد للفظ السماء (٤).
- ١٠- قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَبْتَتَتْ مِنْ كُلِّ رُوحٍ يَهِيحُ﴾ (الحج: ٥)، قرأ الإمام أبو جعفر (ربأت) بهمزة مفتوحة بعد الباء (٥).
- الشاهد من الدرة: أُهُمَزُ مَعَا رَبَّاتُ أَتَى (٦)
- التوجيه: قرأ أبو جعفر «وربأت» في الموضعين بهمزة مفتوحة بعد الباء، بمعنى: ارتفعت، وهو فعل مهموز، يقال: فلان يربأ بنفسه عن كذا بمعنى يرتفع. وقرأ الباقون «وربت» في الموضعين بحذف الهمزة بمعنى: زادت، من «ربا يربو».
- ١١- قال تعالى: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ (المؤمنون: ٣٦)، قرأ أبو جعفر هيهات هيهات بكسر التاء (٧).
- الشاهد من الدرة: هَيْهَاتَ أَدُ كَلَا فَلَلَّتَا أَكْسِرَنَّ (٨)
- التوجيه: فأبو جعفر بكسر التاء من غير تنوين فيهما لغة تميم وأسد (٩).

المطلب الثاني

الكلمات التي انفرد بها في سور النور الفرقان فاطر يس

- ١- قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ (النور: ٢٢)، قرأ الإمام أبو جعفر

١- الدرر الباهرة في توجيه القراءات العشر المتواترة ج ٢ ص ٤٧.

٢- كتاب البحور الزاهرة في شواهد البذور الزاهرة ص ٥١٦.

٣- الدرة المضوية رقم البيت ١٦٣.

٤- الغرة البهية في شرح الدرة المضوية تأليف أحمد عبد الجواد عبد اللطيف تحقيق جمال السيد رفاعي مكتبة الصحابة ص ١٤٧.

٥- الخلاصة في تنمة القراءات الثلاثة ص ١٩٥.

٦- الدرة المضوية رقم البيت ١٦٤.

٧- الكنز في القراءات العشر (٢/ ٥٧٤).

٨- الدرة المضوية رقم البيت ١٦٦-١٦٧.

٩- إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر (ص: ٤٠٣).

(وَلَا يَتَّأَلُ) بتاء مفتوحة بعد الياء وبعدها همزة مفتوحة وبعدها لام مشددة مفتوحة^(١).

الشاهد من الدرّة : وَلَا يَتَّأَلُ أَعْلَمُ^(٢)

التوجيه : قرئ بتاء بعد الياء ثم همزة مفتوحة بعدها لام مفتوحة مشددة علي أنها مضارع تألي بمعني حلف أيضاً فتتحد القراءتان في المعني والألف محذوف للجزم والمعني : لا يحلف اولو الفضل والغني أن يؤتوا أولي القربى ففي الكلام لا مقدرة بين أن والفعل أو يراد بلا ياتل أي لا يقتصر وكما تجى بمعني حلف تجى بمعني لا يقتصر^(٣).

٢- قال تعالى : ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ (الفرقان: ١٨)، قرأ الإمام أبو جعفر (تتخذ) بضم النون وفتح الخاء^(٤).

الشاهد من الدرّة : وَجَهْلٌ نَتَّخِذُ ... أَلَا^(٥)

التوجيه : قرأ أبو جعفر بتجهيل (تتخذ) أي بناء الفعل علي ما لم يسم فاعله ونائب الفاعل الضمير المستتر^(٦).

٣- قال تعالى : ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ﴾ (فاطر: ٨)، قرأ أبو جعفر (فَلَا تَذْهَبُ) بِضَمِّ التَّاءِ وَكسْرِ الهَاءِ، (نفسك) بالنصب^(٧).

الشاهد من الدرّة : اخْفَضْنَ تَذْهَبُ فَضُمَّنَّ اكْسَرْنَ أَلَا^(٨)

التوجيه : قرئ (فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ) على أَنَّ النهي موجه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ذاته بالأباليغ في الأسى والتحسر علي الكفار حتى لاتهلك نفسه ،

١- الغاية في القراءات العشر ص ٩٩ .

٢- الدرّة المضيّة رقم البيت ١٧٠ .

٣- طلائع البشر ص ١٤٤ .

٤- البهجة المرضية شرح الدرّة المضيّة ص ٩٦ .

٥- الدرّة المضيّة رقم البيت ١٧٢ .

٦- الغرة البهية في شرح الدرّة المضيّة ص ١٥٤ .

٧- تحبير التيسير في القراءات العشر (ص: ٥٢٠) .

٨- الدرّة المضيّة رقم البيت ١٨٧ .

صلى الله عليه وسلم^(١).

- ٤- قال تعالى: ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ (يس: ٤٩)،
يَخِصِّمُونَ "قرأ أبو جعفر بإسكان الخاء وتشديد الصاد"^(٢).
الشاهد من الدرّة: يَخِصِّمُونَ اسْكُنَ الْأَ^(٣)
التوجيه: (يَخِصِّمُونَ) بإسكان الخاء ويكسر الصاد مشدد علي الجمع بين
الساكنين^(٤).

المبحث الخامس

الكلمات التي انفرد في الربع الرابع من القرآن الكريم المطلب الاول

الكلمات التي انفرد بها في سور ص والزمر والطور

- ١- قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (ص: ٢٩)،
قرأ الإمام أبو جعفر (ليدبروا) بقاء الخطاب وتخفيف الدال^(٥).
الشاهد من الدرّة: لِيَدَّبَّرُوا خَاطِبٌ وَفَا خَفَّ نَصَبٍ صَا ... دَهُ اضْمَمَ الْأَ^(٦)
التوجيه: قرأ أبو جعفر (ليدبروا) بقاء فوقية بعد اللام مع تخفيف الدال واصلها
(لتدبروا) فحذفت احدي التاءين وقرأ الباقيون بالياء التحتية وتشديد الدال واصلها
(ليتدبروا) فادغمت في الدال^(٧).
٢- قال تعالى: ﴿وَإِذْ كَرَّ عَبْدُنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾
(ص: ٤١)، قرأ الإمام أبو جعفر بضم النون والصاد، (بنصب)^(٨).

١- الدرر الباهرة في توجيه القراءات العشرة المتواترة ج ٢ ص ٢٥٩.

٢- البدور الزاهرة في القراءات العشرة المتواترة (ص: ٢٦٦).

٣- الدرّة المضوية رقم البيت ١٩٠.

٤- الدرر الباهرة في توجيه القراءات العشرة المتواترة ج ٢ ص ٢٧٤.

٥- كتاب البحور الزاهرة في شواهد البدور الزاهرة ص ٤١٢.

٦- الدرّة المضوية رقم البيت ١٩٦.

٧- المهذب في القراءات العشرة ج ٢ ص ١٨١.

٨- إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر (ص: ٤٧٧).

الشاهد من الدرّة : نُصِبَ صَا ××× دَهْ اَضْمَمُ الْاَ (١)

التوجيه : النَّصْبُ فُنْصَبٌ وَنَصَبٌ كَحَزْنٍ وَحَزْنٌ. وقد يجوز ان يكون نصب جمع نصب كو ثن ووثن. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ نُصْبٌ بِمَعْنَى نُصِبَ حُدْفَتْ مِنْهُ الضَّمَّةُ (٢).

٣- قال تعالى : ﴿إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا نَمًا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (ص: ٧٠)، قرأ الإمام أبو جعفر: (إِلَّا إِنَّمَا) بِكَسْرِ الهمزة وَالْباقون بفتحها (٣).

الشاهد من الدرّة : وَادُ كَسَرَ أَنَّمَا (٤)

التوجيه : قرئ بكسر الهمزة من إنما على الحكاية : أي ما يوحى إلى هذه الجملة (٥).

٤- قال تعالى : ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ (الزمر: ٥٦)، قرأ ابن جمان عن أبي جعفر (يحسراتي) بزيادة ياء مفتوحة بعد الألف ولابن وردان وجهان احدهما كابن جمان والآخر بزيادة ياء ساكنة وعلي هذا الوجه لا بد من المد المشبع (٦).

الشاهد من الدرّة : وَقُلْ حَسْرَتَايَ اعْلَمْ وَفَتَحْ جَنَىٰ وَسَكَّ ... - كَنِ الْخُلْفِ بِن (٧)

التوجيه : قرأ ابن جمان عن أبي جعفر (ياحسرتاي) وقيل : معني يا حسرتاي يا أيتها الحسرة هذا وقتك والعرب تحول ياء الكناية الفا في الاستغاثة فتقول يا ويلتي ويا ندامتا وربما الحقوا بها الياء بعد الألف ليدل على الإضافة (٨).

٥- قال تعالى : ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رِوَاسِيًا مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَانَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءٍ لِلْسَّائِلِينَ﴾ (فصلت: ١٠)، "سواء" قرأ أبو جعفر برفع الهمزة مع التنوين (٩).

١- الدرّة المضوية رقم البيت ١٩٦.

٢- تفسير القرطبي (١٥/ ٢٠٧).

٣- تحبير التيسير في القراءات العشر (ص: ٥٣٣).

٤- الدرّة المضوية رقم البيت ١٩٧.

٥- طلائع البشر ص ١٧٧.

٦- القراءات العشر المتواترة من طريقي الشاطبية والدرّة - لفضيلة الشيخ جمال الدين محمد شرف - تقديم الأستاذ الدكتور عبد الكريم صالح - مكتبة دار الصحابة للتراث بطنطا ص ٤٦٤.

٧- الدرّة المضوية رقم البيت ١٩٨.

٨- تفسير البيهقي ج ٤ ص ٨٥.

٩- البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة (ص: ٢٨٢).

الشاهد من الدرّة : سَوَاءٌ أَتَى (١)

التوجيه : «سواء» برفع الهمزة مع التنوين، على أنها خبر لمبتدأ محذوف، أي هي سواء (٢).

٦- قال تعالى : ﴿وَلَنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (الزخرف: ٨٧)،
"جئتمكم" قرأ أبو جعفر بنون مفتوحة في مكان التاء مضمومة وألف بعدها
وغيره بتاء مضمومة (٣).

الشاهد من الدرّة : وَجِئْنَاكُمْ سَقْفًا كَبِيرًا إِذَا (٤)

التوجيه : أَبُوجَعْفَرٍ : (أولو جئناكم) بنون وألف على الجمع، وَالْبَاقُونَ بِالتَّاءِ
مَضْمُومَةٌ عَلَى التَّوْحِيدِ (٥).

٧- قال تعالى : ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَيْنِ﴾ (الصافات، ١٥٣)، قرأ أبو جعفر اصطفى
بهمزة وصل (٦).

الشاهد من الدرّة : وَصَلُّ اصْطَفَى أَصْلُهُ اِعْتَلَا (٧)

التوجيه : أبو جعفر بوصل الهمزة في الوصل على حذف همزة الاستفهام للعلم
بها، والابتداء في هذه القراءة بهمزة مكسورة (٨).

٨- قال تعالى : ﴿فَذَرَهُمْ يَخْضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾
(الزخرف: ٨٣)، قرأ الإمام أبو جعفر (يَلْقُوا) بفتح الياء وسكون اللام وفتح القاف

هنا وفي سورة الطور ونوح (٩).

الشاهد من الدرّة : وَيَلْقُوا كَسَالَ الطُّورِ بِالْفَتْحِ أُصْلًا (١٠)

- ١- الدرّة المضيئة رقم البيت ٢٠٠.
- ٢- القراءات وأثرها في علوم العربية (٢/ ٢٨٩).
- ٣- البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة (ص: ٢٨٩).
- ٤- الدرّة المضيئة رقم البيت ٢٠٢.
- ٥- تحبير التيسير في القراءات العشر (ص: ٥٤٨).
- ٦- الكنز في القراءات العشر (٢/ ٦٢٥).
- ٧- الدرّة المضيئة رقم البيت ١٩٥.
- ٨- إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر (ص: ٤٧٥).
- ٩- شرح الدرّة المضيئة في القراءات الثلاثة المروية للإمام محمد بن محمد بن محمد أبي القاسم النويري المتوفي سنة ٨٩٧ تحقيق جمال الدين محمد شرف - مكتبة دار الصحابة بطنطا ص ٣٥٩.
- ١٠- الدرّة المضيئة رقم البيت ٢٠٣.

التوجيه : قرأ أبو جعفر (يلقوا) بفتح الياء وسكون اللام وفتح القاف مضارع لقي بوزن رضي يرضوا من تفرده وهو من صريح الرسم^(١).
 ٩- قال تعالى: ﴿فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمُ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمُ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ (الطور: ١٨)، قرأ الإمام أبو جعفر (فكهين) بحذف الألف بعد الفاء^(٢).
الشاهد من الدرّة : وَأَقْصُرْ أَبَا فَاكِهَيْنَ فَا... كُهُو^(٣)
التوجيه : فكهين بغير الف معناها معجبين ناعمين - يقال فكه الرجل اذا كان طيب النفس^(٤).

المطلب الثاني

الكلمات التي إنفرد بها في سور الحجرات والقمر والمجادلة والمعارج والنازعات والتكوير وقريش

١- قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ينادُونَكَ مِنَ وَّرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (الحجرات: ٤)، قرأ الإمام أبو جعفر (الحجرات) بفتح الجيم^(٥).
الشاهد من الدرّة : حُجْرَاتِ الْفَتْحِ فِي الْجِيمِ أَعْمَلًا^(٦)
التوجيه : وَقَرَأَ أَبُو جَعْفَرِ بْنِ الْقَعْقَاعِ " الْحُجْرَاتِ " بفتح الجيم استئثقالاً للضمتين. وقرى " الْحُجْرَاتِ " بسكون الجيم تخفيفاً. وَأَصْلُ الْكَلِمَةِ الْمَنْعُ. وَكُلُّ مَا مَنْعَتْ أَنْ يُوصَلَ إِلَيْهِ فَقَدْ حَجَرَتْ عَلَيْهِ. ثُمَّ يَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُنَادِي بَعْضًا مِنْ الْجُمْلَةِ فَلهَذَا قَالَ: " أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ " أَيَّ إِنَّ الَّذِينَ ينادُونَكَ مِنْ جُمْلَةِ قَوْمِ الْغَالِبِ عَلَيْهِمُ الْجَهْلُ^(٧).
 ٢- قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُمُ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ﴾ (القمر: ٣٨)، قرأ الإمام أبو جعفر: (مُسْتَقَرٌّ) بالخفض^(٨).

- ١- الجامع لأحكام القرآن ج١٧ ص٦٥.
- ٢- إيضاح الرموز ومفتاح الكنوز ص ٣٨٨.
- ٣- الدرّة المضية رقم البيت ١٩١.
- ٤- الغرة البهية في شرح الدرّة المضية ص ١٧٨.
- ٥- البهجة المرضية شرح الدرّة المضية ص ١١٥.
- ٦- الدرّة المضية رقم البيت ٢٠٩.
- ٧- تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ) تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش الناشر: دار الكتب المصرية - القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م ج٨ ص٣١٠.
- ٨- تحبير التيسير في القراءات العشر (ص: ٥٦٩).

الشاهد من الدرّة: وَمُسْتَقَرٌّ... رُ اخْفِضْ إِذَا^(١)

التوجيه: قرأ أبو جعفر (مستقر) بخفض الراء علي انها صفة لامر وخبر كل مقدر
تقديره بالغوه^(٢).

٣- قال تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ (المجادلة: ٧)، قرأ الأمام
أبو جعفر، ما تكون من نجوى بالتاء مؤنثاً^(٣).

الشاهد من الدرّة: أَنْتَ مَعًا يَكُو... نْ دَوْلَةٌ اذْ^(٤)

التوجيه: قرأ أبو جعفر بتاء التانيث والباقون بياء التذكير^(٥).

٤- قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ (المعارج: ١٠)، ولا "يسأل" قرأ أبو جعفر
بضم الياء وغيره بفتحها^(٦).

الشاهد من الدرّة: يَسْأَلُ اضْمُمًا... أَلَا^(٧)

التوجيه: بضم الياء يعني، لا يقال لحميم أين حميمك، ولا يطلب بعضهم من بعض^(٨).

٥- قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنِ يَخْشَاهَا﴾ (الأنعام: ٤٥)، قرأ الإمام أبو جعفر
(منذر) بتنوين الراء^(٩).

الشاهد من الدرّة: وَنُونٌ مُنْ... ذِرٌ قَتَلْتَ شَدِيدٌ أَلَا^(١٠)

التوجيه: قرأ أبو جعفر مُنْذِرٌ بِالتَّنْوِينِ أَي أَنْتَ مَخَوْفٌ مَنْ يَخَافُ قِيَامَهَا، أَيِ إِنَّمَا
يَنْفَعُ إِذْ ذُرَكَ مَنْ يَخَافُهَا^(١١).

٦- قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْمُؤَوَّدَةُ سُئِلَتْ﴾ (التكوير: ٨)، قرأ الإمام أبو جعفر (قتلت)
بتشديد التاء.

١- الدرّة المضوية رقم البيت ٢١٢.

٢- المهذب في القراءات العشر ج ٢ ص ٢٦٣.

٣- الكنز في القراءات العشر (٢/٦٧٧).

٤- الدرّة المضوية رقم البيت ٢٢١٦.

٥- المهذب في القراءات العشر وتوجيهها من طريق طيبة النشر - تأليف الدكتور محمد سالم محسين - مكتبة الكليات الأزهرية ج ٢ ص ٣٧٨.

٦- البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة (ص: ٢٢٧).

٧- الدرّة المضوية رقم البيت ٢٢٠.

٨- الدرر الباهرة في توجيه القراءات العشر المتواترة ج ٢ ص ٤٩٠.

٩- شرح الدرّة المضوية في القراءات الثلاثة المروية ص ٣٩٣.

١٠- الدرّة المضوية رقم البيت ٢٢٨.

١١- تفسير البغوي ج ٤ ص ٤٥٢.

الشاهد من الدرّة: وَنُونٌ مُنْدٌ ... -ذُرٌّ قُتِلَتْ شَدِيدٌ الْأَلَا^(١)
التوجيه: وَأَبُو جَعْفَرٍ يَقْرَأُ: قُتِلَتْ بِالتَّشْدِيدِ، وَمَعْنَاهُ تَسْأَلُ الْمُؤَدَّةَ، فَيُقَالُ لَهَا بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ، وَمَعْنَى سُؤْلِهَا تَوْبِيخٌ قَاتِلَهَا لِأَنَّهَا تَقُولُ: قُتِلْتُ بِغَيْرِ ذَنْبٍ^(٢).
 ٧- قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَّابٌ تَكْذِبُونَ بِالَّذِينَ﴾ (الإنطار: ٩)، قرأ الإمام أبو جعفر (يكذبون) بالياء للغيب^(٣).

الشاهد من الدرّة: يَا ... تَكْذِبُ غَيْبًا أَدُّ^(٤)
التوجيه: بياء الغيب لمناسبة علمت نفس ولأنها بمعنى الجماعة والباقون بالتاء الخطاب لمناسبة الأقرب .

٨- قَالَ تَعَالَى: ﴿لِيَلِافٍ قُرَيْشٍ • إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ (قريش: ٢-١)، قرأ: «أبو جعفر» «ليلف» بحذف الهمزة، مصدر «ألف، إءلاف» الرباعي، فأبدلت الهمزة الثانية ياء من جنس حركة ما قبلها «ليلاف قريش» بياء ساكنة ممدودة اللامين، وأقرأ «أبو جعفر» «إلفهم» بحذف الياء^(٥).
الشاهد من الدرّة: أَلَا يَعْـلُ لِيْلَافِ أَتْلُ مَعَهُ الْإِنْفَهْمُ^(٦)

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات والصلاة والسلام علي المبعوث رحمة للعالمين وإمام المتقين وقائد الغر المحجلين سيدنا محمد وعلي اله وصحبه وسلم. وفي خاتمة هذا البحث اكتب ما توصلت إليه من نتائج وتوصيات :

أولاً : النتائج :

١. إن قراءة الإمام أبي جعفر هي قراءة عشرية وصحيحة الإسناد وله كلمات انفرد بها وحده دون بقية القراء .

١- الدرّة المضوية رقم البيت ٢٢٨.

٢- تفسير اليبغوي ج ٤ ص ٤٤٦.

٣- البهجة المرضية شرح الدرّة المضوية ص ١٢٤.

٤- الدرّة المضوية رقم البيت ٢٢٩.

٥- الهادي شرح طيبة النشر في القراءات العشر (٣/ ٣٦٣).

٦- الدرّة المضوية رقم البيت ٢٣٤.

٢. إن الإمام أبي جعفر من التابعين الكبار، والذي صلى بالصحابي عبد الله بن عمر وأتى به إلى أم سلمة وهو صغير فمسحت على رأسه ودعت له بالبركة.
٣. إن الإمام أبو جعفر ليس قارئاً فقط بل كان عابداً صواماً قواماً زاهداً.
٤. إن الإمام أبو جعفر هو شيخ الإمام نافع .
٥. الكلمات التي انفرد بها الإمام أبو جعفر أوضحت تفسير بعض الآيات
٦. وجمعت في هذا البحث أربعة وخمسون كلمة انفرد بها الإمام أبو جعفر

ثانياً : التوصيات :

- أوصي بطباعة المصحف الشريف برواية الإمام أبو جعفر وتسجل مصحف مرتل بهذه الرواية.
- تعريف العامة بان القراءات عشرة وليس سبعة.
- الاهتمام بالقراءات القرآنية وتوفير الكتب والتسجيلات لها.
- وبالله حولي واعتصامي وقوتي •• وما لي إلا ستره متجلاً
- فيا رب أنت الله حسبي وعدتي •• عليك اعتمادي ضارعا متوكلاً

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- الدرّة المضيّة في القراءات الثلاث المتتمّة للعشر المؤلّف: شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف .
- ١. تفسير البغوي المسمي معالم التنزيل للإمام أبي محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي الشافعي المتوفى سنة ٥١٦هـ إعداد وتحقيق خالد عبد الرحمن - ومروان سوار دار المعرفة بيروت لبنان .
- ٢. شرح السمنودي علي متن الدرّة تأليف محمد بن حسن بن محمد السمنودي .
- ٣. طلائع البشر في توجيه القراءات العشر تأليف محمد الصادق قمحاوي مكتبة الإيمان .
- ٤. الغرة البهية في شرح الدرّة المضيّة تأليف احمد عبد الجواد عبد اللطيف تحقيق جمال السيد رفاعي مكتبة الصحابة .

٥. معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار - المؤلف: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ) الناشر: دار الكتب العلمية الطبعة: الأولى ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.
٦. المهذب في القراءات العشر وتوجيهها من طريق طيبة النشر تأليف محمد صالح محيسن مطبعة الكليات الأزهرية .
٧. النشر في القراءات العشر المؤلف : شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف (المتوفى : ٨٣٣ هـ) المحقق : علي محمد الضباع (المتوفى ١٣٨٠ هـ) الناشر : المطبعة التجارية الكبرى .
٨. العشر الهادي شرح طيبة النشر في القراءات العشر المؤلف: محمد محمد محمد سالم محيسن (المتوفى: ١٤٢٢هـ) الناشر: دار الجيل - بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.
٩. تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ) تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش الناشر: دار الكتب المصرية - القاهرة - الطبعة: الثانية، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م .
١٠. شرح الدرر المضية في القراءات الثلاثة المروية للإمام محمد بن محمد بن محمد أبي القاسم النويري المتوفى سنة ٨٩٧ هـ تحقيق جمال الدين محمد شرف شرح الدرر المضية في القراءات الثلاثة المروية للإمام محمد بن محمد بن محمد أبي القاسم النويري المتوفى سنة ٨٩٧ هـ تحقيق جمال الدين محمد شرف.
١١. الدرر الباهرة في توجيه القراءات العشر المتواترة - إعداد - دكتور هشام عبد الجواد الزهيري - تقديم الشيخ محمد سكر - والشيخ محمد القراجي - مكتبة الدار العالمية للطباعة والنشر.
١٢. المبسوط في القراءات العشر المؤلف: أحمد بن الحسين بن مهرا ن النيسابوري، أبو بكر (المتوفى: ٣٨١هـ) تحقيق: سبيع حمزة حاكيمي الناشر: مجمع اللغة العربية - دمشق.

١٣. البدر الزاهرة في القراءات العشر المتواترة من طريقي الشاطبية والدرّة -
القراءات الشاذة وتوجيهها من لغة العرب المؤلف: عبد الفتاح بن عبد الغني بن
محمد القاضي (المتوفى: ١٤٠٣هـ) الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان.
١٤. الكنز في القراءات العشر المؤلف: أبو محمد، عبد الله بن عبد المؤمن بن الوجيه
بن عبد الله بن علي ابن المبارك التاجر الواسطي المقرئ تاج الدين ويقال
نجم الدين (المتوفى: ٧٤١هـ) المحقق: د. خالد المشهداني الناشر: مكتبة الثقافة
الدينية - القاهرة الطبعة: الأولى، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م
١٥. إيضاح الرموز ومفتاح الكنوز في القراءات الأربع عشرة - تأليف الأمام
شمس الدين بن محمد القباني المتوفى سنة ٨٤٩ هـ - دراسة وتحقيق جمال
الدين محمد شرف - الناشر دار الصحابة بطنطا (المتوفى: ٨٣٣هـ) المحقق:
محمد تميم الزعبي الناشر: دار الهدى الطبعة: الثانية، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م.
١٦. إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر المؤلف: أحمد بن محمد
بن أحمد بن عبد الغني الدميّطي، شهاب الدين الشهير بالبناء (المتوفى:
١١١٧هـ) المحقق: أنس مهرة الناشر: دار الكتب العلمية - لبنان الطبعة:
الثالثة، ٢٠٠٦ م - ١٤٢٧ هـ
١٧. مصحف الصحابة في القراءات العشر من طريقي الشاطبية والدرّة - لفضيلة
الشيخ جمال الدين محمد شرف - الناشر دار الصحابة للتراث بطنطا
١٨. كتاب البحور الزاخرة في شواهد البدر الزاهرة - تأليف الشيخ عبد الفتاح
القاضي - قدم له الشيخ جاسم بن محمد مهلهل مكتبة الشروق للنشر
والتوزيع كتاب البحور الزاخرة في شواهد البدر الزاهرة - تأليف الشيخ
عبد الفتاح القاضي - قدم له الشيخ جاسم بن محمد مهلهل مكتبة الشروق
للنشر والتوزيع.
١٩. غاية النهاية في طبقات القراء المؤلف: شمس الدين أبو الخير ابن الجزري،
محمد بن محمد بن يوسف (المتوفى: ٨٣٣هـ) الناشر: مكتبة ابن تيمية.

ظاهرة الترادف في كتب التفسير (تفسير كفاية ضعفاء السودان نموذجاً)

أ. عبد الباسط إمام ثاني^(١)

المستخلص

هدفت هذه الدراسة إلى تتبع آراء اللغويين القدامى والمحدثين حول الترادف والتدرج به من بطون كتب التفسير وعلى الخاصة تفسير كفاية ضعفاء السودان للشيخ عبد الله بن فودي. واعتمد الباحث على المنهج الوصفي التحليلي. وخلصت هذه الدراسة بالخاتمة التي تحتوي على أهم النتائج التي توصل إليها الباحث ثم قائمة المصادر والمراجع.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد:
فقد اختلف اللغويون القدامى والمحدثون في وقوع هذه الظاهرة اختلافاً كبيراً، واعترف به فريق وأنكره فريق آخر، أما الذين اعترفوا به قد بالغ بعضهم في جمع تلك الألفاظ وحشد منها طائفة كبيرة لا تمت إلى المترادف الحقيقي بصلة. والقضية أكثر تشعباً عند المحدثين، وأشد إثارة للجدل لارتباطها من ناحية بتعريف المعنى، ومن ناحية أخرى بنوع المعنى المقصود، وإن كنا نجد هذه المرة محاولات صادقة عند من أثبتوا الترادف لتعريفه وتقسيمه وتوضيحه توضيحاً تاماً، لأن المحدثين من علماء اللغات يجمعون على إمكان وقوع الترادف في أي لغة من لغات البشر، بل إن الواقع المشاهد أن كل لغة تشتمل على بعض تلك الكلمات المترادفة، ولكنهم يشترطون شروطاً معينة، لا بد من تحققها حتى يمكن أن يقال إن بين الكلمتين ترادفاً.

١- أستاذ/ في قسم اللغة العربية بجامعة القلم ولاية كشنا - نيجيريا.

وبعون الله وفضله هذه الدراسة ستتبع آراء اللغويين القدامى والمحدثين حول هذه الظاهرة اللغوية.

وقد اشتملت الدراسة على هذه النقاط التالية:

المبحث الأول : توطئة عن المؤلف - نبذة من تاريخ المؤلف .

المبحث الثاني : الترادف تعريفه ودلالاته .

المبحث الثالث: الترادف عند اللغويين القدامى والمحدثين .

المبحث الرابع: الترادف ومعانيه الدلالية في تفسير كفاية ضعفاء السودان .

وفي الختام توصلت الدراسة إلى أهم نتائج البحث والتوصيات .

المبحث الأول

نبذة وجيزة عن المؤلف

أولاً: التعريف بالمؤلف:

هو أبو محمد، ويقال أبو الحسن، عبد الله بن محمد الملقب بفودي ومعناه: (الفقيه) باللغة الفلانية ابن عثمان، بن صالح بن هارون، بن محمد الملقب (غورط)، بن جب، بن محمد ثنب، بن أيوب، بن ماسران، بن بوب باب، بن موسى جكل^(١).

وأمه هي : حواء بنت محمد بن عثمان، بن حم، بن عال، بن جب بن محمد ثنب، بن ماسران بن بوب، بن موسى جكل، ويلتقي مع أمه في الخامس له والرابع لها^(٢).

ثانياً: مولده :

ولد الشيخ عبد الله بن فودي في إمارة غوبر شمال غرب نيجيريا سنة ألف ومائة وتسعة وسبعين هجرية، (١١٧٩ هـ ١٧٦٥ م، وتوفي سنة (١٢٤٥هـ-١٨٢٩م)^(٣).

ثالثاً: نشأته - تعلمه وشيوخه:

نشأ الشيخ عبد الله بن فودي في بيت معروف بالعلم والصلاح، ذاعت فيه التقوى والورع كابراً عن كابر، فتربى في بيئة متعلمة ومدنية، تلتزم بأوامر الله

١- الإسلام في نيجيريا، آدم عبد الله الورن، الطبعة الأولى، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م، ص ١٠٨ .

٢- تزيين الورقات، الشيخ عبد الله بن فودي، بدون سنة الطباعة، ص: ١٩٠، ٢٠٠.

٣- انظر ضياء التأقيل في معاني التنزيل، الشيخ عبد الله بن فودي، بدون سنة الطباعة، الجزء الأول، ١٣٨٠هـ - ١٩٦١م، ص ٣.

وتتمسك بدينه، فهو عالم كبير قوي قويم، عاش وترعرع وسط المهتمين بالتربية الإسلامية منذ نعومة أظفاره .

فقد قرأ القرآن الكريم على أبيه، ثم انتقل إلى أخيه الأكبر الشيخ عثمان وهو ابن ثلاث عشرة سنة فقرأ عليه (العشرينيات والوتريات)^(١) والشعراء الستة وأخذ منه علم التوحيد والإعراب وعلم التصوف والفقه والتفسير.^(٢) وارتحل لطلب العلم وتحصيله إلى البلدان المجاورة والقاصية، ولم يتوقف الشيخ عبد الله عند هذا الحد بل كان يكتب إلى الشيوخ والعلماء في بلاد السودان الغربي يطلب منهم مؤلفاتهم وكتبهم المفضلة، وكان دؤوباً على العلم وتحصيله^(٣).

وقد ترك لنا الشيخ عبد الله بن فودي مؤلفات كثيرة التي بلغت أكثر من مائة وسبعين مؤلفاً في مختلف الفنون الإسلامية، والعربية، وفي كل فن له كتاب شامل، وألف في التفسير وفنونه، وفي الفقه الإسلامي وأصوله والسياسة الشرعية، وفي اللغة العربية والتاريخ.

المبحث الثاني

الترادف تعريفه ودلالته

أولاً: الترادف لغة:

لا شك أن كلمة الترادف في اللغة تأتي لمعان عديدة لكنها تكاد تدور في فلك واحد، يقول الفيروز أبادي^(٤) : " والردف بالكسر الراكب خلف الراكب كالمرتدف والرديف والردافي كحباري، وكل ما تبع شيئاً وكوكب قريب من النسر الواقع وجيل والليل والنهار

١- هما كتابان مشهوران في تعليم اللغة العربية في نيجيريا وكلاهما نظم شعر.

٢- حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، الأستاذ الدكتور شيخو أحمد سعيد غلادنتشي، دار المعارف، القاهرة، بدون سنة الطباعة، ص ٧٢.

٣- المرجع السابق، ص ٧٣.

٤- هو أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي الفيروز أبادي الملقب جمال الدين، ولد في سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة بفيروز آباد، وسكن بغداد وتفقّه على جماعة من الأعيان منهم عبد الوهاب بن محمد بن أمين وغيره، وصنف البيضاوي التصانيف المباركة المفيدة منها المهدب في المهدب وتفسيره المشهور أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي، وتوفي البيضاوي ليلة الأحد الحادي والعشرين من جمادى الآخرة سنة ست وسبعين وأربع مائة ببغداد، انظر وفيات الأعيان، الجزء الأول، ص ٢٩.

وهما ردفان وجليس الملك عن يمينه يشرب بعده ويخلفه إذا غزا، وفي الشعر حرف ساكن من حروف المد واللين يقع قبل حرف الروي ليس بينهما شيء...^(١)

وإلى هذا المعنى ذاته يشير المعجم الوسيط محمداً الوضع اللغوي للفظ "ردف" فيقول: ردفه ركب خلفه وتبعه ورددته أمر دهمه، ويقال ردف له أمر دهمه وفي التنزيل العزيز: ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ (النمل: ٧٢)، وأردف: توالى وتتابع وفي التنزيل العزيز: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ﴾ (الأنفال: ٩).

ثانياً: الترادف في الاصطلاح:

وأما الترادف في الاصطلاح فقد نقل السيوطي^(٢) عن الإمام فخر الدين الرازي^(٣) تعريفه للمترادف بأنه الألفاظ المفردة الدالة على شيء واحد باعتبار واحد، وقال واحترزنا بالإفراد عن الاسم والحد فليسا مترادفين وبوحدة الاعتبار عن المتباينين كالسيف والصارم فإنهما دالا على شيء واحد لكن باعتبارين أحدهما على الذات والأخر على الصفة^(٤).

وأشار إلى ظاهرة الترادف ابن جني تحت اسم تلاقي المعاني على اختلاف الأصول والمباني، وقال: "أن تجد للمعنى الواحد أسماء كثيرة، فتبحث عن أصل كل اسم منها فتجده مفضي المعنى إلى معنى صاحبه، ومثل لها بالخليقة والسجية والطبيعة والغريزة والسليقة"^(٥).

ومن أمثلة الترادف قولهم في أسماء السيف: الرداء والخليل والقضيب والصفيحة والمغفرات والعضب والحسام والمذكر والمهند والأبيض إلخ...

١- القاموس المحيط، للفيروز أبادي، شركة القدس للنشر والتوزيع، سنة ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م، ص ٨٢٤.

٢- هو عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، عالم موسوعي في الحديث والتفسير واللغة والتاريخ والفقه، ولد في القاهرة، سنة ٨٤٩هـ، ونشأ فيها، وذكر له من المؤلفات نحو ستمائة مؤلفة، وتوفي بالقاهرة سنة ٩١١هـ، انظر الموسوعة العربية العالمية.

٣- هو الإمام فخر الدين الرازي العلامة أبو عبد الله محمد بن عمر بن حسين القرشي المفسر المتكلم صاحب التصانيف المشهورة ومن مصنفاته، التفسير المشهور بمفاتيح الغيب، ولد سنة أربع وأربعين وخمس مئة للهجرة، وتوفي سنة ٦٠٦ للهجرة، انظر شذرات الذهب في أخبار من ذهب، المجلد الثالث، ص ٢١.

٤- المزهر في علوم اللغة وأنواعها، السيوطي، بدون سنة الطباعة، ج ١، ٢٠١٠، ص ٣٣١.

٥- الخصائص لابن جني، حققه: محمد علي النجار الأستاذ بكلية اللغة العربية، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، بدون سنة الطباعة، ج ٢، ص ٧٤.

وقولهم في أسماء العسل: الضرب والشوب والورس، والدستفشار
والمستفشار، والشهد والجنى والسلافة، والرحيق إلخ...^(١)

المبحث الثاني

الترادف عند اللغويين القدامى والمحدثين

أولاً : الترادف عند اللغويين القدامى :

فمنذ أن بدأ الرعيل الأول من هؤلاء اللغويين في القرنين الثاني والثالث
الهجريين في جمع اللغة العربية من أفواه فصحاء العرب وتفريغ ألفاظ القرآن
الكريم والحديث الشريف والشعر والخطب والرسائل حتى نهاية العصر الأموي،
والبحت عن معانيها وتفسيرها من جانب آخر، أخذ العلماء في تصنيف هذه المادة
اللغوية في أنماط شتى، ويجمعوا الكلمات التي تدل على معنى واحد في العربية في
تأليف مستقل سموه أحياناً بالترادف وأحياناً أخرى باسم ما اختلف ألفاظه واتفقت
معانيه^(٢).

ويبدو أن من أقدم الكتب العربية التي حملت اسم الترادف كان كتاب أبي
الحسن علي بن عيسى الرماني (ت ٣٨٤) وعنوانه كتاب الألفاظ المترادفة والمتقاربة
في المعنى، كما يبدو أن من أقدم من أطلقوا اسم الترادف على هذه الظاهرة أبو
الحسن أحمد بن فارس في كتابه الصحابي.

وقد اختلف اللغويون القدامى في وقوع هذه الظاهرة اختلافاً كبيراً، فقد
اعترف به فريق وأنكره فريق آخر.

أما الذين اعترفوا به قد بالغ بعضهم في جمع تلك الألفاظ وحشد بينها^(٣)
طائفة كبيرة لا تمتد إلى المترادف الحقيقي بصلة، وكان فخر أحدهم على زميله أنه
يحفظ لهذا الشيء أو ذاك كذا وكذا اسماً، فقد روى ابن فارس أن هارون الرشيد
سأل الأصمعي عن شعر لابن حزام العلكي، ففسره فقال يا أصمعي إن الغريب

١- المرجع السابق، ص ٢٩٨.

٢- فصول في فقه اللغة، الدكتور رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي بالقاهرة، سنة ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ص ٣١٠.

٣- جمع طائفة كبيرة.

عندك لغير غريب قال : يا أمير المؤمنين ألا أكون كذلك وقد حفظت للحجر سبعين اسماً^(١).

ويروي أصحاب الترادف قصصاً وأحاديثاً للبرهنة على رأيهم، فمن ذلك ما رواه من أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قد وقعت من يده السكين، فقال لأبي هريرة : "ناولني السكين، فالتفت أبو هريرة يمناً ويسرة، ثم قال بعد أن كرر الرسول له القول ثانية وثالثة : ألمدية تريد فقال له الرسول : نعم ويروي أن ابن خالويه يفتخر بأنه يحفظ للسيف خمسين اسماً كما ألف في أسماء الأسد وآخر في أسماء الحية، وقد جمع في الأول خمسمئة اسم وفي الثاني مئتي اسم^(٢).

كما روى أيضاً ابن فارس عن شيخه أحمد بن محمد بن بندار أنه قال : "سمعت أبا عبد الله بن خالويه الهمداني، يقول : للأسد خمسمئة اسم وللحية مائتان^(٣). ومما يثبت الترادف ما نقله ابن فارس عن مثبتي الترادف وهو قولهم لو كان لكل لفظة معنى غير الأخرى لما أمكن أن يعبر عن شيء بغير عبارته، وذلك لأننا نقول في : لا ريب فيه : لا شك فيه فلو كان الريب غير الشك لكانت العبارة خطأ^(٤).

وهكذا أصحاب هذا الفريق أثبتوا وجود هذه الظاهرة واحتجوا لوجودها بأن جميع أهل اللغة إذا أرادوا أن يفسروا اللب قالوا هو العقل، أو الجرح قالوا هو الكسب، أو السكب قالوا : هو الصب، وهذا يدل على أن اللب والعقل عندهم سواء، وكذلك الجرح والكسب، والسكب والصب، وما أشبه ذلك^(٥).

ومن المثبتين لهذه الظاهرة كذلك الفيروز أبادي الذي ألف كتابه بعنوان : "الروض المسلول فيما له اسمان إلى ألوف" ، كما ألف كتاباً في أسماء العسل^(٦).

ومنهم الفخر الرازي الذي يقول : ومن الناس من أنكروه وزعم أن كل ما يظن من المترادفات فهو من المتباينات إما لأن أحدهما اسم الذات والآخر اسم الصفة أو

١- علم الدلالة، دكتور أحمد مختار عمر ص ٢١١-٢١٣.

٢- علم الدلالة، دكتور أحمد مختار عمر، ص ٢١٧.

٣- المرجع السابق، ص ٤٣.

٤- المرجع السابق، ص ٩٧.

٥- علم الدلالة، دكتور أحمد مختار عمر ص ٢١١-٢١٣.

٦- المرجع السابق، ص ٢١٧.

صفة الصفة ... والكلام معهم إما في الجواز ولا شك فيه أو في الوقوع إما في لغتين، وهو أيضا معلوم بالضرورة أو من لغة واحدة كالحنطة والبر والقمح ... وتعسفات الاشتقاقين لا يشهد لها شبهة فضلا عن حجة^(١).

وقد أدت مبالغة هؤلاء العلماء وغيرهم في الاعتداء بهذه الظاهرة إلى ظهور طائفة أخرى من العلماء تعارض هذا الاتجاه، وترفض ظاهرة الترادف في العربية رفضا تاما، ومن هؤلاء أبو عبد الله محمد بن زياد الأعرابي (المتوفى سنة ٣٧٧هـ)، وأبو الحسن أحمد بن فارس (المتوفى سنة ٣٩٥هـ) وغيرهم في هذه الظاهرة^(٢).

قال أبو علي الفارسي^(٣): " كنت بمجلس سيف الدولة بطلب وبالحضرة جماعة من أهل اللغة وفيهم ابن خالويه: فقال ابن خالويه^(٤): أحفظ للسيف خمسين اسما فتبسم أبو علي وقال: ما أحفظ لإسما واحدا، وهو السيف: قال ابن خالويه: فأين المهند والصارم وكذا وكذا فقال أبو علي: هذه صفات، وكأن الشيخ لا يفرق بين الاسم والصفة"^(٥).

كما يقول ابن فارس^(٦): " ويسمى الشيء الواحد بالأسماء المختلفة نحو: السيف والمهند والحسام والذي نقول في هذا: إن الاسم واحد هو السيف وما بعده من الألقاب صفات، ومذهبنا أن كل صفة منها فمعناها غير معنى الأخرى، وقد خالف في ذلك قوم، فزعموا أنها - وإن اختلفت ألفاظها - فإنها ترجع إلى معنى واحد، وذلك قولنا: سيف وعضب وحسام.

١- المزهر في علوم اللغة، السيوطي، ج ١ ص ٣٣١.

٢- فصول في فقه اللغة، دكتور رمضان عبد التواب، ص ٣١١.

٣- هو أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسي النحوي، فإنه كان من أكابر أئمة النحويين، أخذ عن أبي بكر بن السراج، وأبي إسحاق الزجاج، وعلت منزلته في النحو حتى فضله كثير من النحويين على أبي العباس المبرد، وأخذ عنه جماعة من حذاق النحويين، كأبي الفتح ابن جنى وعلي بن عيسى الربيعي وأبي الحسن الزعفراني وغيرهم، وصنف كتابا كثيرة حسنة لم يسبق إلى مثلها منها كتاب الإيضاح في النحو، وكتاب الحجة في علل القرآن السبع، وكتاب المقصور والمدود إلى غير ذلك من الكتب، وتوفي أبو علي الفارسي سنة سبع وسبعين وثلاثمائة، وذلك في خلافة الطائع لله تعالى. انظر نزهة الألباء في طبقات الأدباء، ص ٢٧٤ . ٢٧٥.

٤- هو عبد الله بن خالويه، فإنه كان من أكابر أهل اللغة، أخذ عن أبي بكر ابن دريد، وأبي عبد الله نبطويه، وعن أبي بكر الأنباري، وعن أبي عمر الزاهد، وقد صنف كتابا كثيرة في اللغة وغيرها، منها كتاب ليس وهو كتاب نفيس في اللغة، وشرح المقصورة لابن دريد، وكتاب في أسماء الأسد، وذكر فيه حسمئة اسم، وله كتاب البديع في القرآن، وله كتاب في إعراب سور القرآن، ص ٢٧٠ . ٢٧١.

٥- المزهر في علوم اللغة وفنونها، السيوطي، ج ١، ص ٣٣٣.

٦- هو أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا الرازي اللغوي، كان إماما في علوم شتى وخصوصا اللغة، فإنه أتقنها، وألف كتابه للمجل في اللغة، وله رسائل أنيقة ومسائل في اللغة، توفي سنة تسعين وثلاث مئة رحمة الل تعالى بالري، ودفن مقابل مشهد القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني. انظر وفيات الأعيان، ج (١) ص (١) ٨، ابن خلكان.

وقال آخرون : ليس منها اسم ولا صفة إلا معناه غير معنى الآخر، قالوا: وكذلك الأفعال نحو مضى وذهب وانطلق وقعد وجلس ورقد ونام وهجع قالوا ففي قعد معنى ليس في جلس، وكذلك القول فيما سواه، وبهذا نقول وهو مذهب شيخنا أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب^(١).

وممن أنكروا الترادف أو وجود هذه الظاهرة ابن السراج^(٢) وابن يعيش^(٣)، ويقول ابن يعيش : " ويحكى عن أحمد بن يحيى إنكار ذلك ومنع جوازها، ويزعم أن في كل لفظ زيادة معنى ليس في الآخر ففي ذهب معنى ليس في مضى وكذلك باقي الباب^(٤) .

ويقول ابن الأعرابي^(٥) : " كل حرفين أوقعتهما العرب على معنى واحد، في كل واحد منهما معنى ليس في صاحبه، ربما عرفناه فأخبرنا به وربما غمض علينا فلم نلزم العرب جهله .

وبعض هؤلاء الذين أنكروا الترادف كانوا من الأدباء النقاد الذين يستشفون في الكلمات أمورا سحرية ويتخيلون في معانيها أشياء لا يراها غيرهم فهم قوم شديدو الاعتزاز بألفاظ اللغة ويتبنون الكلمات ويرعونها رعاية كبيرة ينقبون عما وراء المدلولات سابحين في عالم من الخيال، يصور لهم من دقائق المعاني وظلالها ما لا يدركه إلا هم، ولا يقف عليه إلا أمثالهم.

- ١- الصحابي في فقه اللغة، ابن فارس، مكتبة مشكاة الإسلامية، بدون سنة الطباعة، ص ٤٠.
- ٢- هو أبو بكر محمد بن السري المعروف بابن السراج، فإنه كان أحد العلماء المذكورين، وأئمة النحو المشهورين، أخذ عن أبي العباس المبرد، وإليه انتهت الرياسة في النحو بعد المبرد، وأخذ عنه أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي، وأبو سعيد السيرافي، وأبو علي الفارسي، وعلي بن عيسى الرماني، وله مصنفات حسنة، وأحسنها وأكبرها كتاب الأصول، فإنه جمع فيه أصول العربية، وأخذ مسائل سيبويه ورتبها أحسن ترتيب، وتوفي أبو بكر بن السراج سنة ست عشرة وثلثمائة للهجرة في خلافة المقتدر بالله تعالى، انظر نزهة الألباء في طبقات الأدباء، ص ٢٢٠.
- ٣- هو أبو البقاء يعيش بن علي بن يعيش بن أبي السرايا موفى الدين الأسيدي، من كبار العلماء بالعربية، ولد في حلب عام ٥٥٣هـ، وكان ابن يعيش فاضلا ماهرا في النحو والتصريف، وتوفي في حلب سنة ٦٤٣هـ.
- ٤- فصول في فقه اللغة، دكتور رمضان عبد التواب، ص ٣١٢.
- ٥- هو أبو عبد الله محمد بن زياد المعروف بابن الأعرابي، فإنه كان مولى لبني هاشم، وكان من أكابر أئمة اللغة لمشار إليهم في معرفتها، ويقال: لم يكن للكوفيين أشبه برواية البصريين من ابن الأعرابي، وكان عالما ثقة، وكان ربيبا للمفضل الضبي، وسمع منه الدواوين وصححها، وأخذ عن الكسائي كتاب النوادر، وأخذ عن أبي معاوية الضرير، وأخذ عنه أبو العباس أحمد بن أحمد ابن يحيى ثعلب، وأبو عكرمة الضبي، وبراهيم الحربي، وتوفي ابن الأعرابي سنة اثنتين وثلاثين ومائتان للهجرة، وبلغ من السن على ما يقال ثمانين سنة أو إحدى وثمانين. انظر نزهة الألباء في طبقات الأدباء ص ١٣٤.

ومن هؤلاء الأدباء أبو هلال العسكري^(١) الذي ألف كتابه: (الفروق اللغوية) لإبطال الترادف وإثبات الفروق بين الألفاظ التي يدعي ترادفها، وقد بدأ كتابه بعنوان: (باب في الإبانة عن كون اختلاف العبارات والأسماء موجبا لاختلاف المعني في كل لغة، قال فيه: " والشاهد على أن اختلاف العبارات والأسماء يوجب اختلاف المعاني أن الاسم كلمة تدل على معنى دلالة الإشارة، وإذا أشير إلى الشيء مرة واحدة فعرف بالإشارة إليه ثانية وثالثة غير مفيدة، وواضع اللغة حكيم لا يأتي فيها بما لا يفيد، فإن أشير منه في الثاني والثالث إلى خلاف ما أشير إليه في الأول كان ذلك صوابا، فهذا يدل على أن كل اسمين يجريان على معنى من المعاني، وعين من الأعيان في لغة واحدة فإن كل واحد منهما يقتضي خلاف ما يقتضيه الآخر وإلا لكان الثاني فضلا لا يحتاج إليه... وكما لا يجوز أن يكون اللفظان يدلان على معنى واحد لأن في ذلك تكثير اللغة بما لا فائدة فيه^(٢).

وقد أحس العسكري وطائفة من اللغويين يخالفون إجماع القوم على القول بالترادف في العربية، ولذلك يقول: ولعل قائلًا يقول: إن امتناعه من أن يكون للفظين المختلفين معنى واحد رد على جميع أهل اللغة، لأنهم إذا أرادوا أن يفسروا اللب قالوا: هو العقل أو الجرح، قالوا: هو الكسب أو السكب قالوا: هو الصب وما أشبه ذلك قلنا ونحن أيضا نقول كذلك إلا أنا نذهب إلى أن قولنا: اللب وإن كان هو العقل فإنه يفيد خلاف ما يفيد قولنا: العقل^(٣).

ولعلنا نوضح هذا المذهب إذا ضربنا بعض الأمثلة من كتابه: يقول العسكري في الفرق بين المدح والتقريظ، إن المدح يكون للحي والميت والتقريظ لا يكون إلا للحي وخلافه التابين لا يكون إلا للميت، وأصل التقريظ من القرظ وهو شيء يدبغ به الأديم، وإذا دبغ به حسن وصلح وزادت قيمته، فشبه مدحك للإنسان الحي بذلك

١- هو الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد أبو هلال العسكري، الشاعر الناثر الأديب الفقيه، ووصفه عارفوه بالعلم والفقه معا، وكان الغالب عليه الأدب والشعر، وتوفي يوم الأربعاء لعشر خلعت من شعبان سنة خمس وتسعين وثلاث مائة، ومن كتبه كتاب الفروق اللغوية الذي ذكره بروكلمان في موسوعته بين مؤلفاته ورسائله التي جاوزت العشرين، انظر ترجمته في مقدمة كتابه الفروق اللغوية صفحة ١١٠.

٢- في اللهجات العربية، دكتور إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٢م ص ١٣.

٣- فصول في فقه اللغة، دكتور رمضان عبد التواب، ص ٢١٤.

كأنك تزيد من قيمته بمدحك إياه، ولا يصلح هذا المعنى في الميت ولهذا يقال مدح الله ولا يقال: قرظه^(١).

ثانياً: الترادف عند اللغويين المحدثين:

وإذا انتقلنا إلى علماء اللغة المحدثين نجد بينهم نفس الخلاف الذي حدث بين القدماء، وإن كنا نجد هذه المرة محاولات صادقة عند من أثبتوا الترادف لتعريفه وتقسيمه وتوضيحه توضيحاً تاماً.

ويعرف بعض المحدثين المترادفات بأنها "ألفاظ متحدة المعنى قابلة للتبادل فيما بينها في أي سياق".

وهم يرون أن الترادف التام رغم عدم استحالته نادر الوقوع إلى درجة كبيرة فهو نوع من الكماليات التي لا تستطيع اللغة أن توجد بها في سهولة ويسر، فإذا وقع هذا الترادف التام فالعادة أن يكون ذلك لفترة قصيرة محددة حيث إن الغموض الذي يعتري المدلول والألوان أو الظلال المعنوية ذات الصبغة العاطفية أو الانفعالية التي تحيط بهذا المدلول لا تلبث أن تعمل على تحطيمه وتفويضاً أركانه وكذلك سرعان ما تظهر بالتدرج فروق معنوية دقيقة بين الألفاظ المترادفة بحيث يصبح كل لفظ منها مناسباً وملائماً للتعبير عن جانب واحد فقط من الجوانب المختلفة للمدلول الواحد^(٢).

ولا نستغرب بعد ذلك أن نجد بعض علماء اللغة في الغرب يرفضون الاعتراف بالترادف لأنهم يرون الألفاظ إذا اختلفت أصواتها وجب أن تختلف معانيها^(٣). كما روى عن المازني أنه قال سمعت أبا سوار يقرأ وإذا قتلتهم نسمة فادارتهم فيها، فقلت له كيف تقرأ؟ فقال: النسمة والنفس بمعني واحد.

فقد رأى علي الجارم في بحث قدمه إلى المجمع اللغوي بالقاهرة سنة ١٩٣٥ أن الترادف موجود، ولا سبيل لإنكاره، ولكن لا تجوز المبالغة في ذلك، لأن بعض

١- الفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري، بدون سنة الطباعة، ص ٥١.

٢- فقه اللغة مناهله ومسائله، الدكتور محمد أسعد النادري، المكتبة العصرية سيديا بيروت لبنان، ١٤٣٣/٥/٢٠١٢م، ص ٢٩٨-٢٩٩.

٣- المرجع السابق، ص ٢٩٩.

ما يظن أنها مترادفات إنما هي صفات^(١).

وأشار الدكتور إبراهيم أنيس إلى أن المحدثين من علماء اللغات يجمعون على إمكان وقوع الترادف في أي لغة من لغات البشر، بل إن الواقع المشاهد أن كل لغة تشتمل على بعض تلك الكلمات المترادفة، ولكنهم يشترطون شروطاً معينة، لا بد من تحققها حتى يمكن أن يقال إن بين الكلمتين ترادفاً.

وقال الدكتور رمضان عبد التواب: "ورغم ما يوجد بين لفظة مترادفة وأخرى، من فروق أحياناً، فإننا لا يصح أن ننكر الترادف، مع من أنكروه من الجملة، فإن إحساس الناطقين باللغة، كان يعامل هذه الألفاظ معاملة المترادف، فنراه يفسرون اللفظة منها بالأخرى، كما روى عن أبي زيد الأنصاري أنه قال: "قلت لأعرابي: ما المبني؟ قال: المتكأى، قال: قلت: ما المتكأى؟ فقال: المتأزف. قال: قلت: ما المتأزف؟ قال: أنت أحمق؟"^(٢).

ومن المؤيدين لهذه الظاهرة الدكتور صبحي الصالح في إقراره بوجود الترادف في القرآن الكريم، لأنه وقد نزل بلغة قريش المثالية يجري على أساليبها وطرق تعبيرها، وقد أتاح لهذه اللغة طول احتكاكها باللهجات العربية الأخرى اقتباس مفردات تملك أحياناً نظائرها، ولا تملك منها شيئاً، أحياناً أخرى، حتى إذا أصبحت جزءاً من محصولها اللغوي فلا غضاضة^(٣) أن يستعمل القرآن الألفاظ الجديدة المقتبسة إلى جانب الألفاظ القرشية الخالصة القديمة، وبهذا نفس ترادف "أقسم" و"حلف" في قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لِيَأْمُرَهُمْ لِيَخْرُجْنَ قُلْ لَا تُقْسِمُوا﴾ (النور: ٥٣)، وقوله: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾ (التوبة: ٧٤). وترادف "بعث" و"أرسل" في قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولاً﴾ (الإسراء: ١٥)، وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧)، وترادف "فضل" و"آثر" في قوله: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ (البقرة: ٢٥٣)، وقوله: ﴿قَالُوا تَأَلَّفَ لَقَدْ أَثَرُكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ (يوسف: ٩١)، فقريش كانت تستعمل في بيئتها اللغوية

١- فصول في فقه اللغة العربية.

٢- فصول في فقه اللغة، دكتور رمضان عبد التواب، ص ٢١٦.

٣- غرابة.

الخاصة أحد اللفظين في هذه الأمثلة الثلاثة، وإنما اكتسبت اللفظ الآخر من احتكاكها بلهجة أخرى لها بيئتها اللغوية المستقلة^(١).

وواضح هنا أن الدكتور صبحي الصالح وغيره من علماء المحدثين اعترفوا بوجود الترادف، وأكد أن هذه الظاهرة موجودة في القرآن الكريم الذي نزل بهذه اللغة، والذي نطق به الرسول (صلى الله عليه وسلم) للمرة الأولى.

ويقول Blomfiel^(٢): "إننا ندعي أن كل كلمة من كلمات الترادف تؤدي معنى ثابتا مختلفا عن الأخرى وما دامت الكلمات مختلفة صوتيا فلا بد أن تكون معانيها مختلفة كذلك وعلى هذا فنحن - في اختصار - نرى أنه لا يوجد ترادف حقيقي"^(٣).

وواضح أن اللغويين المعاصرين اتفقوا على وجود كثير من الترادف، لكنهم اختلفوا في وجود الترادف الكامل أو التماثل، فهم يرون من الصعب أن يوجد هذا النوع من الترادف في أي لغة من اللغات، وقسموا الترادف إلى أنواع مختلفة من الترادف وأشبه الترادف^(٤): إلى وقوع الترادف في أي لغة من اللغات إذا تحققت الكلمة شروطا معينة كما اشترطه اللغويون المحدثون، لأن جميع هذه المحاولات لإبطال الترادف عند اللغويين القدامى لا تخلو من التكلف والتعسف.

ثانياً: شروط الترادف عند المحدثين:

ولا شك أن المحدثين من علماء اللغات ذهبوا على إمكان وقوع الترادف في أي لغة من لغات البشر بل إن الواقع المشاهد أن كل لغة تشتمل على بعض هذه الكلمات المترادفة"^(٥).

غير أن هؤلاء اللغويين يشترطون شروطا معينة إذا تحققت أمكننا القول بأن بين الكلمتين ترادفا، وفيما يلي نأتي بأهم هذه الشروط:

١- دراسات في فقه اللغة، الدكتور صبحي الصالح، دار العلم للملايين بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م ص ٢٩٩.

٢- بلو مقيل.

٣- علم الدلالة الدكتور أحمد مختار عمر، ص ٢٢٤.

٤- المرجع السابق، ص ٢٢١.

٥- في اللهجات العربية، دكتور إبراهيم أنيس، ص ١٥٩.

١- الاتفاق في المعنى بين الكلمتين اتفاقاً تاماً، فإذا تبين لنا بدليل قوي، أن العرب كان يفهم حقا من كلمة: جلس شيئاً لا يستفيده من كلمة: "قعد" قلنا حينئذ ليس بينهما ترادف^(١).

وقال الدكتور أحمد مختار عمر: "وهذا الاتفاق في المعنى بين الكلمتين يكون على الأقل في ذهن الكثرة الغالبة لأفراد البيئية الواحدة، وليس الحكم في ذلك الأدباء ذوي الخيال الخصب، وإنما جمهور الناس ومتوسطوهم"^(٢).

٢- **الاتحاد في البيئية اللغوية:** أي أن تكون الكلمتان تنتميان إلى لهجة واحدة أو مجموعة منسجمة من اللهجات يجب إذا ألا نلمس الترادف من لهجات العرب المتباينة، فالترادف بمعناه الدقيق هو أن يكون للرجل الواحد في البيئية الواحدة الحرية في استعمال كلمتين أو أكثر في معنى واحد، ويختار هذه حيناً ويختار ذلك حيناً آخر، وفي كلتا الحالين لا يكاد يستشعر بفرق بينهما إلا بمقدار ما يسمح به مجال القول.

ولم يفتن المغالون في الترادف إلى مثل هذا الشرط بل عدوا كل اللهجات وحدة متماسكة وعدوا كل الجزيرة العربية بيئية واحدة، وتعد كل لهجة أو مجموعة منسجمة من اللهجات بيئية واحدة^(٣).

٣- **الاتحاد في العصر:** فالمحدثون حين ينظرون إلى المترادفات ينظرون إليها في عهد خاص وزمن معين، وتلك هي النظرة التي يعبرون عنها بكلمة: (ساكرونك)، لا تلك النظرة التاريخية التي تتبع الكلمات المستعملة في عصور مختلفة، ثم تتخذ منها مترادفات، وهذه النظرة الأخيرة هي التي يسمونها: (دياكرونك)، فإذا بحثنا عن الترادف يجب ألا نلتمس في شعر شاعر من الجاهليين، ثم نقيس كلماته بكلمات وردت في نقش قديم يرجع إلى العهود المسيحية مثلاً: هذا هو ما جعل ابن خالويه وأمثاله يرون للسيف ونحوه أسماء عدة، فالمتنبى حين استعمل الصارم والبتار والهندي واليماني، لم يكن يعمد إلى كلمة الهندي،

١- فصول في فقه اللغة، الدكتور رمضان عبد التواب، ص ٢٢٢.

٢- علم الدلالة، دكتور أحمد مختار عمر، ص ٢٢٧.

٣- في اللهجات العربية، دكتور إبراهيم أنيس، ص ١٥٥.

وفي ذهنه صفات خاصة تتصل ببيئة الهند التي صنع فيها، ولم يكن يعمد إلى كلمة الصارم، وفي ذهنه اعتبار آخر لا يراه في كلمة أخرى كالبتار^(١).
 ٤- ألا يكون أحد اللفظين نتيجة تطور صوتي للفظ آخر، فحين نقارن بين: "الجثل" و"الجفل" بمعنى النمل، نلاحظ أن إحدى الكلمتين يمكن أن تعد أصلا، والأخرى تطور لها، فإذا كان الأصل هنا هو الكلمة الأولى، قلنا إن "الجفل صيغة حضرية نشأت في بيئة تراعي خفوت الصوت والتقليل من وضوحه، أما إذا كانت الثانية هي الأصل، رجحنا أن "الجثل" قد نشأت في بيئة بدوية تميل إلى الأصوات الأكثر وضوحا في السمع، فالجثل والجفل ليست في الحقيقة إلا كلمة واحدة، وهذا يتبن لنا مغالاة أولئك الذين اعتبروا مثل هذه الكلمات من المترادفات^(٢).
 ومن أمثلة الترادف التي أوردها القرآن والتي حققت الشروط أثر وفضل حضر وجاء بعث وأرسل، والاستعمال:

فقد قال تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ إِيمَانًا وَكُنَّا لَهُمْ نَاصِرِينَ﴾ (يوسف: ٩١)، وقال: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (البقرة: ٤٦)، كما قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يُمُوتُونَ وَهُمْ كَفَارٌ أَوْلِيكَ أَعْتَدْنَا لَهُمُ عَذَابًا لِيَمَّا﴾ (النساء: ١٨).
 وقال أيضا: ﴿حَتَّى إِذَا جَاء أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ (المؤمنون: ٩٩)، كما قال: "بعث فيهم رسولا"، وقال: "فأرسلنا فيهم رسولا"^(٣).

على أية حال، وكيفما كان نشوء هذا القدر الكبير من المترادفات في اللغة العربية، فقد أفادت هذه الظاهرة في التوسع في سلوك طرق الفصاحة وأساليب البلاغة من النظم والنثر، وذلك لأن اللفظ الواحد قد يتأتى باستعماله مع لفظ آخر السجع والقافية والتجنيس والترصيع وغير ذلك من أصناف البديع، ولا يتأتى ذلك إلا باستعمال مرادفه مع ذلك اللفظ^(٤).

١- المرجع السابق، ص ١٥٥.

٢- في اللهجات العربية، دكتور إبراهيم أنيس، ص ١٥٥-١٥٦.

٣- في اللهجات العربية، دكتور إبراهيم أنيس، ص ١٥٦.

٤- المزهر في علوم اللغة وفنونها، السيوطي، ج ١ ص ٣٣٤.

وبهذه الجدية لمناقشة آراء اللغويين القدامى والمحدثين يري الباحث ان الترادف موجود في القرآن الكريم وفي اللغة العربية.

المبحث الرابع

الترادف ومعانيه العالمية في تفسير كفاية ضعفاء السودان

ومن اطلع على تفسير كفاية ضعفاء السودان سيرى أن صاحب التفسير من مؤيدي هذه الظاهرة اللغوية في القرآن، لأنه استخدم كثيرا من المترادفات في إيضاح وبيان بعض المفردات في تفسيره، وهنا سنستعرض بعض النماذج الواردة من هذه الألفاظ للتأكيد على وجود الترادف في هذا التفسير، ولنتأكد أيضا على محاولة المفسرين في استخراج معاني مفردات القرآن:

١- الرواسي الجبال:

من صور الترادف في القرآن عموما وفي التفسير خصوصا ذلك الترادف بين الرواسي والجبال فكلاهما بدلالة واحدة، وهي: هذا العنصر الطبيعي الضخم المرتفع عاليا بشموخ في السماء، أو هو ما علا من سطح الأرض واستطال وجاوز التل ارتفاعا، وجمعه أجبل وجبال وأجبال، ويقال: فلان: جبل: ثابت لا يتزحزح، وسيد القوم والعالم، غير أن في "الرواسي" عنصر دلالي إضافيا على "الجبال"، وفي الجبال عنصر دلالي إضافي على "الرواسي"، فالرواسي جمع راسية، وأصلها من الفعل، "رسا" الذي مضارعه يرسو ويراد بها الثابت، يقال في اللغة: "رسا الجبل يرسو: إذا ثبت أصله في الأرض، ومثل قولهم: "رسا الشيء يرسو رسوا وأرسى: ثبت والرواسي من الجبال الثوابت الرواسخ^(١).

وقد وردت لفظة "رواسي" في القرآن الكريم في عشرة مواضع حاملة دلالة: الجبال الثوابت مختلفة صيغتها منها: "قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجِينَ مِثْلَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ﴾ (الرعد: ٣).

١- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، سنة ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ص ١٢٦، المرجع السابق.

فالرواسي جمع مفردة راسية، وبالعودة دائما إلى التفسير للوقوف على معنى هذه الآية، قال صاحب التفسير: " وهو الذي مد الأرض بسطها طولا وعرضا ليثبت عليها الأقدام ويتقلب فيها الحيوان وجعل خلق فيها رواسي جبالا ثوابت وشوامخ وأنهارا جارية ضمها مع الجبال لأنها أسباب لتولدها"^(١).
وفي تفسير الجلالين: " وجعل فيها رواسي قال: " خلق فيها رواسي جبالا ثوابت"^(٢).

وتتمثل العلاقة الدلالية بين الجبال والرواسي في أن القرآن قد يستغني بلفظ الرواسي عن الجبال، وذلك لتمثلها في الماهية، لأن صيغة الرسو التي تبدو واضحة فيها لما تحمله من نفس الدلالة.

وقال ابن الجوزي: " وهو الذي مد الأرض " قال ابن عباس : بسطها على الماء، وجعل فيها رواسي قال الزجاج: أي جبالا ثوابت، يقال : رسا يرسو رسوا، فهو راس إذا ثبت"^(٣).

وقال ابن عاشور في تفسيره لهذه الآية: " وهو الذي مد الأرض ... " والمعنى خلق الأرض ممدودة متسعة للسير والزرع، لأنه لو خلقها أسنمة من حجر أو جبالا شاهقة متلاصقة لما تيسر للأحياء التي عليها الانتفاع بها والسير من مكان إلى آخر في طلب الرزق وغيره... و" الرواسي " : جمع راس وهو الثابت المستقر أي جبالا رواسي، وقد حذف موصوفه لظهوره فهو كقوله: " وله الجواري " أي السفن الجارية.

وجيء في جمع راس بوزن فواعل لأن الموصوف به غير عاقل ووزن فواعل يطرد فيها مفردة صفة لغير عاقل مثل : صأهل وبازل.

والاستدلال بخلق الجبال على عظيم القدرة لما في خلقها من العظمة المشاهدة بخلاف خلقه المعادن والتراب فهي خفية كما قال: " وإلى الجبال كيف نصبت"^(٤).

- ١- كفاية ضعفاء السودان، الشيخ عبد الله بن فودي، دار الأمة كنعو نيجيريا بدون سنة الطباعة، ج ١، ص ٦٨٩، المرجع السابق.
- ٢- تفسير الجلالين، ص ٢٤٩، دار الكيان الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤٢٧/ ٢٠٠٦م، ص ٢٤٩.
- ٣- زاد المسير في علم التفسير، الإمام أبي الفرج الجوزي، المكتب الإسلامي بيروت لبنان، الطبعة الرابعة، سنة ١٤٠٧/ ١٩٨٧م، ج ٤، ص ٣٠٢.
- ٤- تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور، دار التونسية، تونس، بدون سنة الطباعة، ج ١٣، ص ٨٢.

وقال تعالى أيضاً: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (النحل: ١٥)، قال صاحب التفسير: "وألقى في الأرض رواسي، جبالا ثوابت كراهة أن تميد تضطرب بكم لأنها خلقت على وجه الماء فلم تستقر فأرسي الجبال فاستقرت" (١).

وفي تفسير الجلالين: "وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم .. أي ألقى فيها رواسي جبالا مرتفعة لئلا تتحرك وتضطرب" (٢).

وقال ابن عاشور في بيانه لهذه الآية: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (النحل: ١٥): ورواسي جمع راس وهو وصف من الرسو بفتح الراء وسكون السين، ويقال بضم الراء والسين مشددة وتشديد الواو، وهو الثبات والتمكين في المكان، قال تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبٍ وَمَثَائِلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ﴾ (سبا: ١٣)، ويطلق على الجبل راس بمنزلة الوصف الغالب وجمعه على زنة فواعل على خلاف القياس، وهو من النوادر مثل: عوانل وفوارس.

وقال صاحب التفسير محل الدراسة في تعليقه لهذه الآية: ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خَلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا إِنَّ اللَّهَ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (النمل: ٦١)، أمَّن جعل الأرض "بعد ما خلقها قرارا مكانا يستقر فيه الحيوان لا يميد به وجعل خللها بينها أنهارا جارية وجعل لها رواسي جبالا ثوابت كالأوتاد، وتتكون منها المعادن، وينبع من حضيضها المنابع فيكثر المنافع" (٣).

وواضح فيما تقدم أن الرواسي والجبال متحدان في الماهية لاشتراكهما في معنى واحد، فهما متماثلان ومتفقان دلاليا، وهذا تماما ما ذهب إليه عبد الله بن فودي كقرار غير مباشر بوقوع ظاهرة الترادف بين اللفظين، وإضافة على ذلك أن

١- كفاية ضعفاء السودان في بيان تفسير القرآن، ج ١، ص ٧٢٨.

٢- تفسير الجلالين، ص ٢٧٩.

٣- كفاية ضعفاء السودان في بيان تفسير القرآن، ج ٢، ص ٢٢١.

المفسرين ذهبوا واتفقوا على هذا المعنى كما سلف الذكر، وهذه دلالة واضحة على وجود الترادف في القرآن الكريم.

٢- الشك والريب:

وقد ورد في كتب اللغة والمعاجم ما يفيد بترادف هذين اللفظين منها ما ورد في المعجم الوسيط أن الشك في اللغة حالة نفسية يتردد معها الذهن بين الإثبات والنفي ويتوقف عن الحكم، وجمعه شكوك، الشكاك الكثير، وأما الريب هو الظن والشك والتهمة والحاجة وصرف الدهر، وريب المنون حوادث الدهر، والريبة الظن والشك والتهمة والجمع ريب^(١).

ونقل الأزهري عن بعض علماء اللغة أن "الريبة والريب الشك، وقال الله عز وجل: "لا ريب فيه" معناه لا شك فيه"^(٢).

وذكر صاحب لسان العرب: الريب صرف الدهر، والريب والريبة الشك والظنة والتهمة والريبة بالكسر، والجمع ريب، والريب ما رابك من أمر، وقد رابني الأمر وأرابني وأربت الرجل جعلت فيه ريبة وربته أوصلت إليه، وهذيل تقول أرابني فلان وارتاب فيه أي شك^(٣).

وعلى الرغم من كل هذه النصوص التي تشير إلى استعمال لفظي الشك والريب بمعنى واحد إلا أن هناك عددا من اللغويين وجهوا اهتمامهم إلى إيضاح الفرق بين هاتين اللفظتين، وقد ورد في كتاب الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري الفرق بين الشك والارتياب أن الارتياب: شك مع تهمة، والشاهد أنك تقول: إني شاك اليوم في المطر، ولا يجوز أن تقول: إني مرتاب، وتقول إني مرتاب بفلان إذا شككت في أمره والتهمة^(٤).

وبالرجوع إلى استعمال لفظي الشك والريب في هذا التفسير نرى أن صاحب التفسير تناول هاتين الكلمتين على أنهما مترادفان وعلى سبيل المثال:

١- المعجم الوسيط، ص ٥١٦، و ص ٤٠٩.

٢- تهذيب اللغة، الأزهري، المكتبة الشاملة الإصدار الثاني، ج ٥، ص ١٤٥.

٣- لسان العرب، ابن منظور المكتبة الشاملة الإصدار الثاني، ج ١، ص ٤٤.

٤- الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ص ٩٩.

قال عبد الله بن فودي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ (البقرة: ٢٣)، "وإن كنتم في ريب شك مما نزلنا على عبدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) من القرآن أنه من عند الله فاتوا بسورة من مثله أي المنزل أي من مثله في الفصاحة والبلاغة وحسن النظم والأخبار عن الغيب" (١).

وقد جاءت هذه المفردة في إجابة المؤمنين للمنافقين في قوله تعالى: ﴿يَنَادُوهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ (الحديد: ١٤)، قال صاحب التفسير: "وارتبتم شككتم في دين الإسلام" (٢).

وقال أيضاً في سورة الطلاق في بيانه لهذه المفردة في قوله تعالى: ﴿وَاللَّائِي يَسْنَنَ مِنَ الْحَيْضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ﴾ (الطلاق: ٤)، "إن ارتبتم جهلتم وشككتم في عدتهن فعدتهن ثلاثة أشهر" (٣).

وإذا تأملنا ما سبق نرى أن المفسر دل على أن الريب هو الشك، وهذه إشارة إلى أنه مال إلى وجود الترادف بين هاتين اللفظتين بإقراره أن الريب هو الشك. والمفسرون أيضاً يكادون يجمعون على وجود الترادف بين هاتين المفردتين، كما ورد ذلك في كتب التفاسير.

وقد ذكر ابن عاشور في تفسير قوله تعالى: "ذلك الكتب لا ريب فيه": "والريب الشك وأصل الريب القلق واضطراب النفس وريب الزمان، وريب المنون نوائب ذلك قال الله تعالى: "نتربص به ريب المنون، ولما كان الشك يلزمه اضطراب النفس وقلقها غلب عليه الريب فصار حقيقة عرفية يقال رابه الشيء إذا شككه أي بجعل ما أوجب الشك في حاله فهو متعد" (٤).

١- كفاية ضعفاء السودان في بيان تفسير القرآن، ج ١، ص ٩٧.

٢- كفاية ضعفاء السودان في بيان تفسير القرآن، ج ٢، ص ٥٩٨.

٣- كفاية ضعفاء السودان في بيان تفسير القرآن، ج ٢، ص ٦٤٨.

٤- تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور، ج ١، ص ٢٢٢.

وقال الزمخشري^(١): "والريب مصدر رابني إذا حصل فيه الريبة وحقيقة الريبة: قلق النفس واضطرابها، ومنه ما روى الحسن بن علي قال: "سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول: "دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الشك ريب، وإن الصدق طمأنينة" أي كون الأمر مشكوكا فيه مما تقلق له النفس ولا تستقر، وكونه صحيحا صادقا مما تطمئن له وتسكن، ومنه: ريب الزمان وهو ما يقلق النفوس ويشخص بالقلوب من نوائبه"^(٢).

وواضح هنا أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) فسر الريب بالشك في هذا الحديث، وهذا دلالة واضحة على وجود الترادف بين هذين اللفظين. وقال القرطبي: فكتاب الله تعالى لا شك فيه ولا ارتياب والمعنى: أنه من ذاته حق وأنه منزل من عند الله وصفة من صفاته غير مخلوق ولا محدث وإن وقع ريب للكفار"^(٣).

وقال المراغي في تفسير: "لا ريب فيه": والريبة: الشك وحقيقته قلق النفس واضطرابها سمي به الشك لأنه يقلق النفس ويزيل منها الطمأنينة، وقد جاء في الحديث "دع ما يريبك إلى ما لا يريبك فإن الشك ريبة والصدق طمأنينة". والمعنى أن هذا الكتاب لا يفتربه ريب في كونه من عند الله ولا في هدايته وإرشاده ولا في أسلوبه وبلاغته، فلا يستطيع أحد أن يأتي بكلام يقترب منه بلاغة وفصاحة^(٤)، وبعد هذه المناقشة من أقوال اللغويين والمفسرين نلاحظ أن كلمة "الريب ترادف الشك وتؤدي معناها وصاحب التفسير ذهب كما ذهب أكثر المفسرين إلى أن الريب هو الشك، وهذه دلالة واضحة على وجود الترادف بين هذين اللفظين في اللغة العربية وفي القرآن الكريم، وإن كان بعض المفسرين يضيف معنى أخرى لكلمة الريب كما أشار الإمام القرطبي في تفسيره.

١- هو أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي الزمخشري، إمام كبير في الحديث والتفسير والنحو والبلاغة، ولد في زمخشر سنة ٥٤٦٧هـ / ١٠٧٤م، وكان الزمخشري معتزليا في الأصول العقيدة، وقد اشتهر الزمخشري في عصره ومدحه الشعراء والأدباء وطلب العلماء أن يعلمهم الإجازة في رواية كتبه، وتوفي الزمخشري ليلة عرفة سنة ٥٣٨هـ / ١١٤٣م، وقد ترك لنا آثارا كثيرة منها: تفسير الكشف المشهور، انظر وفيات الأعيان.

٢- تفسير الكشف، الزمخشري، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى، سنة ١٤١٨/١٩٩٨م، ج ١، ص ١٤٤٠-١٤٤٠.

٣- تفسير الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى سنة ١٤٢٧م/٢٠٠٦م، ج ١، ص ٢٤٦-٢٤٥.

٤- تفسير المراغي، مصطفى المراغي، مكتبة مصطفى البابي، الطبعة الأولى، سنة ١٣٦٥هـ/١٩٤٨م، ج ١، ص ٤٠.

٣- خاشعة هامة:

وصفت الأرض بكلا هذين الوصفين في القرآن الكريم، للتعبير بذلك عن الأرض الميتة قبل نزول الغيث، وقبل نفختها بالنبات المختلفة^(١). وبالرجوع إلى كتب اللغة نرى أن الهمود بالضم يعني: "الموت والهلاك، أي بلى وذهب. وهمد الثوب يهدم هموداً، وذلك من طول الطي. تحسبه صحيحاً، فإذا مسسته تناثر من البلى. وهمد الثوب يهدم همداً: إذا بلى. والهمود: الموت؛ كما همدت ثمود، ورَماد هامد: قد تلبّد وتغير^(٢)."

وأما كلمة الخشوع تعني السكوت والإخضاع والتذلل، وقال جل وعز: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَأَعْوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ (طه، ١٠٨)، أي سكنت وكل ساكن خاضع خاشع. والتخشع لله: الإخبات والتذلل.

وإذا يبست الأرض ولم تُمطر قيل: قد خشعت. قال الله تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَبْتَّتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (الحج: ٥)، والعرب تقول: رأيت أرض بني فلان خاشعة هامة ما فيها خضراء^(٣).

وفي المعجم الوسيط خشع: خشوعاً: خضع وذل وخاف، وخفض صوته ورمى ببصره نحو الأرض وغضه، وفي التنزيل: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ (طه، ١٠٨).

وذبل الأرض إذا يبست لعدم المطر، وفي التنزيل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنْ الَّذِي أَحْيَاهَا لِحَيِّ الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (فصلت: ٣٩).

وقد وصفت الأرض الجافة اليابسة الخالية من النبات بهذين اللفظين في القرآن الكريم مما يدل على وجود الترادف بينهما كما ورد ذلك في تفسير محل الدراسة، وذلك قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَبْتَّتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (الحج: ٥).

١- قبل ان تنبت بالنبات المختلفة.

٢- تهذيب اللغة، الأزهري، ج ٢، ص ٣١٣.

٣- تهذيب اللغة، ج ١، ص ٣٤، ص ٣٤، المرجع السابق.

وصاحب التفسير لم يخرج عن هذا المعنى في تفسير هذه اللفظة حيث قال: "وترى الأرض هامة يابسة لانبات بها، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت تحركت بانبات وربت وارتفعت وزادت... (١)"

فقد وصفت الآية هنا الأرض بالجفاف أولاً والخلو من النبات ثم وصفت بعد ذلك بالحياة بالفعل "اهتز" الذي يدل في اللغة على تحريك الشيء وهذا من أساليب التشخيص الذي اتسم به التعبير والتصوير في الآية الكريمة.

وقد ذكر التفسير أن معنى لفظة هامة في الآية السابقة تعني يابسة كما عبر القرآن عن نفس المعنى الذي أدته كلمة "هامة" بلفظة أخرى في سياق آخر وهي "خاشعة" وهي اسم فاعل مؤنث أيضاً مشتق من الفعل "خشع" مفيدة لمعنى الهمود وهو الخلو من الخضرة، كما يصادف في التفسير محل الدراسة في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ﴾ (فصلت: ٣٩)، ذليلة يابسة لا نبات فيها، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت "تحركت بانبات وربت انتفخت وعلت" (٢).

والشيخ عبد الله سلك مسلك المفسرين في إثبات الترادف بين هاتين اللفظتين كما ورد في مختلف التفاسير، قال صاحب تفسير الوسيط في إثبات هذه الظاهرة بين المفردتين: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ (الحج: ٥) "أي يابسة يقال همدت الأرض تهمد بضم الميم هموداً إذا يبست". ويقول أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ﴾ (فصلت: ٣٩) "أي يابسة جذبة خشعت الأرض إذا أجدبت لعدم نزول المطر عليها" (٣).

وقال ابن عاشور في تفسير مفردة في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ (الحج: ٥) "فهمود الأرض بمنزلة موت الإنسان واهتزازها وإنباتها بعد ذلك يماثل الأحياء بعد الموت، والهمود قريب من الخمود فهمود الأرض جفافها وزوال نبتها وهمود النار خمودها" (٤).

١- كفاية ضعفاء السودان في بيان تفسير القرآن، ج ٢، ص ٨٣.

٢- كفاية ضعفاء السودان في بيان تفسير القرآن، ج ٢، ص ٤٥٣.

٣- تفسير الوسيط، بدون سنة الطباعة، ج ٩، ص ٢٨١، وانظر أيضاً ج ١٢، ص ٣٥٥.

٤- تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور، ج ١٧، ص ١٧٢.

وقال أيضاً في تفسيره لمفردة خاشعة في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ﴾ (هصت: ٣٩) "والخشوع: التذلل، وهو مستعار لحال الأرض إذا كانت مقحطة لا نبات عليها لأن حالها في تلكالخاصة كحال التذلل وهذا من تشبيهه المحسوس بالمعقول باعتبار ما يتخيله الناس من مشابهة اختلاف حال القحولة والخصب بحالي التذلل والازدهاء"^(١).

وبالتأمل في تفسير الآيتين السابقين كما سبق يتبين لنا وجه التناسق بين اللفظتين، لأن الجو في السياق الأول جو بعث وإحياء وإخراج، مما يتسق معه التصوير بأنها هامة، ثم تهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج، وأن الجو في السياق الثاني هو جو عبادة وخشوع وسجود، يتسق معه تصوير الأرض بأنها خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ثم لا يزيد على الاهتزاز والارباء هنا الإثبات والإخراج كما زاد هناك لأنه لا محل لها في جو العبادة والخشوع، وبالنظر إلى هذا كله يتبين أنه عند اجتماع لفظة بأخرى دلالية، تكونان متساويتين ومتشابهتين معنوياً، وتكون العلاقة القائمة بينهما علاقة ترادف، فيلاحظ من هذا أن الهمود والخشوع يتحdan في المعنى العام، فما هنا إلا سكون أو خمود تعقبه الحركة والحياة.

٤- هلك - تبر - تب :

وقد استخدم القرآن هذه الكلمات بمعنى واحد، وهو المعنى الكسر والهلاك كما ورد في أماكن عديدة في القرآن الكريم، وبالرجوع إلى كتب اللغة نرى أن التبر بفتح التاء تعني الكسر والإهلاك كالتعبير فيهما والفعل : كضرب و كسحاب والمتبور: الهالك^(٢).

وإلى المعنى ذاته يشير ابن منظور محددًا الوضع اللغوي للفظ "تبر" فيقول... والتَّبَارُ الهلاك وتَبَّرَهُ تَتْبِيرًا أَي كَسَرَهُ وَأَهْلَكَهُ وَهُوَ لَاءٌ مَتْبَرٌ مَا هُم فِيهِ أَي مَكْسَرٌ مَهْلِكٌ، وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ (نوح: ٢٨).

١- تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور، ج ٢٤، ص ٣٠٢.

٢- القاموس المحيط، ص ٣٥٢.

قال الزجاج^(١) معناه إلا هلاكاً ولذلك سمي كل مكسر تبراً وقال في قوله عز وجل: ﴿وَكَلَّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأُمْتَالَ وَكَلَّا تَبْرًا تَبِيرًا﴾ (الفرقان، ٣٩)، قال التتبير التدمير وكل شيء كسرتة وفتتته فقد تبرته^(٢).

وبهذا الشرح أكد ابن منظور ما نص عليه الفيروز آبادي في محيطه من أن الأصل اللغوي للفظ تبر يعني هلك وكسر.

وبالرجوع إلى محل الدراسة نرى أن صاحب التفسير قد استخدم لفظ تبر بمعنى هلك في مختلف مواضعها منها: قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُبْتَرِمًا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف، ١٣٩).

قال صاحب التفسير: "إن هؤلاء القوم متبر مهلك ما هم فيه" يهدم الله دينهم ويكسر أصنامهم^(٣).

وقال أيضاً في تفسير قوله تعالى: ﴿رَبِّ اغْزُ لِي وَلِوَالِدِيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ (نوح، ٢٨)، "هلاكا"^(٤).

والمفسرون ذهبوا إلى إثبات الترادف كما أشاروا إلى ذلك في بيانهم للفظ "تبر" في مختلف تفاسيرهم، وهنا نذكر بعضاً من أقوال المفسرين حول هذين اللفظين، وقال ابن عاشور في تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُبْتَرِمًا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف، ١٣٩) "والمتبر المدمر والتبار بفتح التاء الهلاك، ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ (نوح، ٢٨)، يقال تبر الشيء كضرب وتعب وقتل وتبره تضعيفاً للتعدية أي أهلكه والتتبير مستعار هنا لفساد الحالفبقي اسم المفعول على حقيقته في أنه وصفا للموصوف به في زمن الحال ويجوز أن يكون التتبير مستعار السوء العاقبة شبه حالهم المزخرف ظاهره بحال الشيء البهيج الأيل إلى الدمار والكسر فيكون اسم المفعول مجازاً في الاستقبال أي صائر إلى السوء^(٥).

١- هو أبو إسحاق إبراهيم بن السري بن سهل الزجاج، فإنه من أكبر أهل العربية، وكان حسن العقيدة، جميل الطريقة، وصنف مصنفات كثيرة، منها كتاب المعاني في القرآن، وكتاب الفرق بين المؤنث والمذكر، وكتاب فعلت وأفعلت إلى غير ذلك، وتوفي أبو إسحاق الزجاج في جمادى الآخرة سنة إحدى عشرة وثلاثمائة، انظر نزهة الألباء في طبقات الأدباء، ص ٢١٦.

٢- لسان العرب، ج ٤، ص ٨٨.

٣- كفاية ضعفاء السودان في بيان تفسير القرآن، ج ١، ص ٤٩٨.

٤- كفاية ضعفاء السودان في بيان تفسير القرآن، ج ٢، ص ٦٨٧.

٥- تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور، ج ٩، ص ٨٢.

وأشار أبو حيان إلى إثبات ظاهرة الترادف بين التبار والهلاك في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف: ١٣٩)، حيث قال: "الإشارة بهؤلاء إلى العاكفين على عبادة الأصنام، ومعنى متبر مهلك مدمر مكسر، وأصله الكسر" (١).

وإلى هذا المعنى ذاته ذهب القرطبي: حيث قال: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف: ١٣٩)، أي مهلك والتبار: الهلاك، وكل إناء مكسر متبر وأمر متبر أي: إن العابد والمعبود مهلكان، وقوله: وباطل أي زاهب مضمحل ما كانوا يعملون" (٢).

وواضح هنا أن صاحب التفسير ذهب إلى وجود الترادف بين هذين اللفظين بإقراره على أن التبار هو الهلاك كما سبق في تفسيره لفظ تبر، وبهذا المعنى ذهب أكثر المفسرين.

٥- القسم الحلف:

فقد ورد كلمتي الحلف والقسم في مختلف المعاجم اللغوية القديمة والحديثة بمعنى واحد، مما يدل على وجود الترادف بين هذين اللفظين . وقال ابن منظور: "والقسم بالتحريك اليمين، وكذلك المقسم وهو المصدر مثل المخرج والجمع أقسام وقد أقسم بالله واستقسمه به وقاسمه حلف له وتقاسم القوم تحالفوا وفي التنزيل قالوا تقاسموا بالله وأقسمت حلفت وأصله من القسامة" (٣). وقد أشار إلى هذا المعنى الفيروز آبادي حيث قال: "والقسم محركة وكمكرم: اليمين بالله تعالى، وقد أقسم وموضعه: مقسم كمكرم واستقسمه وبه وتقاسما تحالفا" (٤).

ونقل في المعجم الوسيط: "أقسم إقساماً ومقسماً حلف، ويقال: أقسم بالله حلف به فهو مقسم" (٥). وأما بالنسبة للفظ الحلف لغويًا فإن اللغويين استخدموا هذا

١- تفسير البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، الطبعة الأولى، سنة ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، ج ٤، ص ٣٧٧.

٢- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج ٩، ص ٣١٨.

٣- لسان العرب، ابن منظور، ج ١٢، ص ٤٧٨.

٤- القاموس المحيط، ص ١١٩٤.

٥- المعجم الوسيط، ص ٧٦٩.

اللفظ بدلالة القسم مما يدل على الترادف بين هاتين المفردتين .
قال الأزهري في تهذيب اللغة: " الحلف والحلف لغتان وهو القسم والواحدة حلفة، قال ويقال: محلوقةً بالله ما قال ذلك، ينصبون على ضمير أحلفُ بالله محلوقة أي قسماً والمحلوقة القسم^(١) .
وقال امرؤ القيس:

حلفتُ لها بالله حلفة فاجرٍ •• نناموا فما إن من حديث ولا صال^(٢)

وإلى هذا المعنى ذاته أشار الفيروز حيث قال: " حلف يحلف حلفاً ويكسر وحلفاً ككتف ومحلوفاً ومحلوقةً ويقال: لا ومحلوفائه بالمد ومحلوقةً بالله أي: أحلف محلوقةً أي قسماً^(٣) .

وبالرجوع إلى التفسير نرى أن صاحب التفسير أقرب وجود الترادف بين لفظتي القسم والحلف حيث قال في بيانه لقوله تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكَمَا لَمَنِ النَّاصِحِينَ﴾ (الأعراف: ٢١)، "وقاسمهما"، "حلف لهما بالله" "إني لكما لمن الناصحين"^(٤) .
وقد وردت هذه اللفظة بهذه الصيغة في قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ (النمل: ٤٩)، "وذكر صاحب التفسير في معنى هذه الآية: "قالوا" بيان للفساد أي قال بعضهم لبعض "تقاسموا بالله" احلفوا بالله لنبيته وأهله "لنباغتن صالحاً وأهله ليلاً بالقتل انتهازا للفرصة" ثم لنقولن لوليه "ولي دمه" ما شهدنا "ما حضرنا" مهلك أهله "أي نقسم على عدم حضورنا ذلك فضلاً عن المباشرة" و"نحلف إننا لصادقون"^(٥) .

وبالنظر إلى هذا التفسير يتبين لنا أن القسم قد أفادت معنى الحلف كما عبر القرآن عن هذا المعنى في عدة مواضع، وإذا نظرنا إلى بعض المفسرين نرى أنهم لم يخرج من هذا الإطار لأنهم استخدموا هاتين اللفظتين بدلالة واحدة كما عبر ذلك ابن عاشور في تفسيره حيث قال: "وقاسمهما" أي حلف لهما بما يوهم

١- تهذيب اللغة، ج ٢، ص ١١٩ .

٢- ديوان امرؤ القيس، تحقيق دكتور درويش الجويدي، ص ٢٥٤ .

٣- القاموس المحيط، ص ٨١٢ .

٤- كفاية ضعفاء السودان في بيان تفسير القرآن، ج ١، ص ٤٧١ .

٥- كفاية ضعفاء السودان، في بيان تفسير القرآن، ج ١، ص ٢١٩ .

صدقه، والمقاسمة مفاعلة من أقسم إذا حلف حذفته منه الهمزة عند صوغ المفاعلة كما حذفته في المكارمة والمفاعلة هنا للمبالغة في الفعل، وليست لحصول الفعل من الجانبين ونظيرها: عافاه الله وجعله في الكشاف: كأنهما قالوا له تقسم بالله إنك لمن الناصحين، فأقسم فجعل طلبهما القسم بمنزلة القسم أي فتكون المفاعلة على بابها، وتأكيد إخباره عن نفسه بالنصح لهما بثلاث مؤكدات دليل على مبلغ شك آدم وزوجه في نصحهما، وما رأى عليهما من مخائل التردد في صدقه، وإنما شكها في نصحها لأنهما وجدا ما يأمرهما مخالفاً لما أمرهما الله الذي يعلمان إرادته بهما الخير علماً حاصلًا بالفطرة^(١).

وقال الصابوني في تفسيره لهذه الآية: ﴿وَقَسَمَهُمَا إِنِّي لَكَمَا لَمَنِ النَّاصِحِينَ﴾ (الأعراف: ٢١)، أي حلف لهما بالله على ذلك حتى خدعهما وقد يخدع المؤمن بالله قال الألوسي: إنما عبر بصيغة المفاعلة للمبالغة لأن من يباري أحداً في فعل يجد فيه^(٢). وبالتأمل يدرك أن المفسرين ذهبوا وأقروا على وجود الترادف بين لفظتي: (القسم الحلف) وهذه دلالة واضحة على وجود الترادف في القرآن الكريم، وكما سبق أن صاحب التفسير أشار إلى استعمال لفظتي القسم والحلف بدلالة واحدة وهذا بإقراره أن القسم هو الحلف.

فالاستعمال القرآني لهاتين المفردتين للدلالة على معنى متحد، وهذا مما يبرهن على تفضن الشيخ عبدالله بهذه الظاهرة اللغوية التي تعد خصيصة من خصائص اللغة العربية والكتاب العزيز.

٦- أثر - فضل:

وقد وردت لفظة أثر بدلالة فضل في مختلف المعاجم اللغوية كما ورد ذلك في القرآن الكريم، وفي المعجم الوسيط أن لفظ أثر أو اثر يعني فضل ونقل في هذا المعجم أثر عليه أثراً وأثره وأثرة وأثرى: فضل نفسه عليه في النصيب فهو أثر وأن يفعل كذا فضل وعلى الأمر: عزم وأثره: إثارة: اختاره وفضله ويقال: أثره على

١- تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور، ج ٨، ص ٢٧٦.

٢- صفوة التفاسير، الصابوني، دار الصابوني، الطبعة الأولى، سنة ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م، ج ١، ص ٤٠٧.

نفسه، والشيء بالشيء خصه به^(١).

وبالرجوع إلى استعمال لفظي أثر وفضل في هذا التفسير يجد المتأمل أن صاحب التفسير تناول لفظ أثر وادل على أنه بدلالة واحدة بمعنى فضل وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ (يوسف: ٩١). حيث قال: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آتَرَكَ اللَّهُ﴾ (يوسف: ٩١) فضلك علينا بحسن الصورة والسيرة ومحاسن الأخلاق والملك وأوجنا إليك وإن أي إذا "كنا لخاطئين" أتمين في أمرك^(٢). ويتضح هنا أن المفسر قد أقر هنا أن لفظ أثر يعني فضل لأن الله سبحانه وتعالى فضل يوسف عليه السلام على سائر إخوته بالصبر والعلم والملك وحسن الصورة ومحاسن الأخلاق.

والمفسرون ذهبوا على هذا المعنى في مختلف تفاسيرهم كما ورد ذلك في زاد المسير في علم التفسير حيث أن أبو الفرج في تفسيره لهذه الآية: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ (يوسف: ٩١)، أي اختارك وفضلك، أي فضله بالملك والصبر والحلم والصفح والعلم والعقل والحسن وسائر الفضائل التي أعطاه^(٣). وذكر الصابوني في تفسيره: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ (يوسف: ٩١) اعتراف بالخطيئة وإقرار بالذنب أي والله لقد فضلك الله علينا بالتقوى والصبر والعلم والحلم^(٤). ويقول ابن عاشور في تعريفه لفظ "أثر"، "والإيثار التفضيل بالعطاء، وصيغة اليمين مستعملة في لازم الفائدة، وهي علمهم ويقينهم بأن ماله هو تفضيل من الله، وأنهم عرفوا مرتبته"^(٥).

ومما سبق يدرك أن لفظي "أثر فضل" يدوران في فلك دلالة مركزية واحدة، هي الإيثار والتفضيل، ويدرك كذلك أنهما يكاد ينتبهان في الآيتين النموذجيتين على هذه الدلالة، فلا ينبغي أن يغفل عدم صلاحيتهما للتبادل فيما بينهما في كل سياق وردتا في القرآن الكريم أو في اللغة العربية.

١- المعجم الوسيط، ص ٢٥، المرجع السابق.

٢- كفاية ضعفاء السودان في بيان تفسير القرآن، ج ١، ص ٦٨١، المرجع السابق.

٣- زاد المسير في علم التفسير، الجوزي، ج ٤، ص ٢٨٢.

٤- صفوة التفاسير، الصابوني، ج ٢، ص ٥٩.

٥- تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور، ج ١٣، ص ٥٠.

وبعد هذا العرض لأراء اللغويين والمفسرين، وملاحظات الترادف في تفسير كفاية ضعفاء السودان، يدرك أن منهج الشيخ عبد الله بن فودي هو العرض دون التصريح بأنها من الترادف المطلق، وهو في ذلك على وعي تام بأنها من الألفاظ المترادفة، وهذا يدخل القارئ لهذا التفسير في إطار الترادف المطلق.

الخاتمة

الحمد لله رب العلمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. وبعد:
في خاتمة هذا البحث أشير بإيجاز إلى أهم النتائج التي توصل إليها الباحث في النقاط الآتية:

- ١/ يعد الترادف من الظواهر اللغوية المهمة التي عنى به اللغويون القدامى والمحدثون.
- ٢/ إن منهج المفسرين حول الترادف هو العرض دون التصريح بأنها من الترادف المطلق وهم في ذلك على وعي تام بأنها من الألفاظ المترادفة .
- ٣/ إن اللغويين القدامى والمحدثين اختلفوا حول الترادف بيد أن المحدثين من علماء اللغات يجمعون على إمكان وقوع الترادف في أي لغة من لغات البشر، ولكنهم يشترطون شروطاً معينة لا بد من تحققها حتى يمكن أن يقال إن بين الكلمتين ترادفاً.

التوصيات

- ١- دعوة طلاب اللغة والباحثين بالرجوع إلى القرآن الكريم وتفسيره واتخاذهما وسيلة في الجوانب اللغوية والأدبية.
 - ٢- توصية المختصين والناخبين في فنون العلوم اللغوية والأدبية أن يرجعوا إلى القرآن الكريم لأنهم سيجدون ضالتهم السمينية في هذا الكتاب الذي فاق الكتب السماوية قدراً وإعجازاً وبلاغة وبيانا.
- وآخر دعوانا عن الحمد لله رب العلمين،،،

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- الجامع لأحكام القرآن الكريم لابن عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي المتوفى سنة ٦٧١هـ / ١٢٧٣م. الناشر مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى سنة ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م.
- الكشاف عن تحقيق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم جارالله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى، سنة ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م.
- الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق دراسة قرآنية لغوية وبيانية، الدكتورة عائشة عبد الرحمن بنت الشاطيء، الطبعة الثالثة، دار المعارف، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.
- الفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري، حققه وقدم له وعلق عليه الدكتور رمضان عبد التواب، الطبعة الأولى، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.
- الزهر في علوم اللغة وأنواعها، جلال الدين السيوطي، بدون سنة الطباعة والمطبعة.
- الصاحبى في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، الإمام العلامة أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، من لغوي القرن الرابع الهجري، علق عليه ووضع حواشيه أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، الطبعة الأولى، سنة ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م.
- القاموس المحيط، للفيروز آبادي، شركة القدس للنشر والتوزيع سنة ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م.
- المعجم الوسيط: مجمع العربية الطبعة الرابعة، مكتبة الشروق الدولية، سنة ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

- الإسلام في نيجيريا والشيخ عثمان بن فودي الفلاني، لأدم عبد الله الأوري، الطبعة الثانية: ١٣٢٨هـ / ١٩٧٨م.
- دراسات في فقه اللغة تأليف الدكتور صبحي الصالح أستاذ فقه اللغة والإسلاميات في كلية الآداب بالجامعة اللبنانية دار العلم للملايين ص.ب: ١٠٨٥ بيروت الطبعة الأولى ١٣٧٩هـ - ١٩٦٠م. الطبعة السادسة عشرة أيار مايو ٢٠٠٤.
- تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي، مكتبة مصطفى البابي، الطبعة الأولى سنة ١٣٦٥هـ / ١٩٤٦م.
- تفسير ضياء التأويل في معاني التنزيل، للشيخ العلامة أبي محمد عبد الله بن محمد بن بفودي رحمه الله، مطبعة الاستقامة بالقاهرة، ١٣٨٠هـ / ١٩٦١م.
- تفسير البحر المحيط لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي المتوفي سنة ٧٤٥هـ دار الكتب العلمية بيروت لبنان الطبعة الأولى ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م.
- تفسير التحرير والتنوير، الإمام الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، مؤسسة التونسية، تونس، بدون سنة الطباعة.
- تهذيب اللغة، الأزهرى، المكتبة الشاملة، الإصدار الثاني .
- صفة التفاسير تفسير للقرآن الكريم، الشيخ محمد علي الصابوني، دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م.
- علم الدلالة، الدكتور أحمد مختار عمر، عالم الكتب، الطبعة الخامسة سنة ١٩٩٨م.
- فصول في فقه اللغة العربية، الدكتور رمضان عبد التواب، الطبعة السادسة، مكتبة الخانجي بالقاهرة، سنة ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.
- فقه اللغة مناهله ومسائله تأليف الدكتور محمد أسعد النادري، المكتبة العصرية سيدا بيروت، سنة ٢٠١٢م. ١٤٣٣هـ.

- في اللهجات العربية د. إبراهيم أنيس أستاذ بكلية دار العلوم القاهرة وعضو مجمع اللغة العربية سابقا، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة. الطبعة الثالثة. ٢٠٠٢م.
- كفاية ضعفاء السودان في بيان تفسير القرآن، للشيخ عبد الله بن فودي المتوفى ١٢٤٥هـ تحقيق ودراسة الدكتور ثاني موسى أياغي والدكتور حامد إبراهيم حامد، الناشر دار الأمة لوكالة المطبوعات كانو نيجيريا .
- لسان العرب، للإمام العلامة ابن منظور ٩٣٠-٧١١هـ المكتبة التوفيقية القاهرة مصر.
- زاد المسير في علم التفسير، الإمام أبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي، المكتب الإسلامي بيروت، الطبعة الرابعة، سنة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

تأصيل فقه الأقليات من خلال السنة النبوية

د. محمد سيد أحمد شحاته^(١)

المستخلص

هذا البحث جاء يبين أهمية التأصيل لفقه الأقليات من خلال السنة النبوية، وأن الشريعة لم تترك شيئاً إلا وتحدثت عنه، وفي البحث تعريف ببعض الألفاظ التي يكثر إيرادها في البحث مثل فقه الأقليات، والهجرة وحكمها، وبيان تأصيل السنة النبوية لفقه الأقليات في أحكام العبادات، وتأصيل السنة النبوية لفقه الأقليات في أحكام المعاملات، وتأصيل السنة النبوية لفقه الأقليات في العادات والحياة اليومية.

وظهر من خلال البحث: أن الشريعة الإسلامية الغراء هي وحدها الصالحة والمصلحة لأهل كل زمان مضي أو سيأتي، ولكل مكان؛ اقترب أو نأى عن ديار الإسلام. ومنها: أنه ينبغي النظر إلى وجود الأقليات المسلمة اليوم على أنها سفارات إسلامية، تُعرف بحقائق الإسلام، وليست مجرد مجموعة مشكلات معقدة التركيب.

المقدمة

فلا شك أن فقه الأقليات له أصل في السنة النبوية، وهذا يعني أنه لا يوجد أمر ولا قضية إلا وفي الشريعة حكم لها إما نصاً، وإما استنباطاً، ولذلك فإن الشريعة تستوعب كل قضايا البشر في كل زمان ومكان، ولم ينشأ هذا العلم عن هوى أو لقصد التخفيف دون أصل، بل إنه ينضبط بقواعد ونصوص الشريعة؛ بعيداً عن تأثير الأهواء والرغبات والعقول، وما تميل إليه النفس، وليس الغرض من أفراد فقه الأقليات كونها مما يتغير حكمه لتغير علته فقط، فإن هذا الوصف ينطبق على مسائل فقهية كثيرة تقع في دار الإسلام وغيرها، ويجمعها ما يعرف بالأحكام المعللة والمقدرة.

١- أستاذ مشارك بجامعة الأزهر، كلية أصول الدين، حالياً: بجامعة الجمعية، كلية التربية، الزلفى.

فالأحكام الشرعية والتكاليف والمبادئ الإسلامية كما هي في أي مكان وفي أي زمان، سواء كانت دار حرب أو دار إسلام، فالحرام هو الحرام والحلال هو الحلال، لا يختلف حكمها من بلد إلى بلد والتكاليف الشرعية لا يختلف حكمها، لاختلاف مكان أو زمان.

وقد ساعدت نصوص السنة كثيراً على هذا الفهم وبينت أنه يتسق مع مقاصد الشريعة الغراء السحاء التي جاءت باليسر ولم تأت بالعسر، ولذلك كانت شريعة وسطاً، وسيهتم البحث ببيان أهمية التأصيل لفقهِ النوازل للأقليات، والتمثلة في حفظ كيان الأقليات المسلم، وإقامة الدين بينها، ولوقوع الاضطراب في كثير من المواقف والأحكام المتعلقة بالأقليات.

وبيان أن الشريعة الإسلامية الغراء هي وحدها الصالحة والمصلحة لأهل كل زمان مضى أو سيأتي، ولكل مكان؛ اقترب أو نأى عن ديار الإسلام. وغير ذلك مما اشتمل عليه ذلك البحث، والشواهد النبوية في هذا الباب كثيرة جداً.

الدراسات السابقة:

وقفت على عدد كبير من المقالات التي عرجت على موضوع الأقليات المسلمة، لكنني لم أقف على بحث أو مقال قام بتأصيل فقهِ الأقليات من خلال السنة النبوية. ولعل أهم الدراسات هي:

– فقهِ النوازل للأقليات المسلمة: تأصيلاً وتطبيقاً ط: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية – قطر

الطبعة: الأولى سنة الطبع: ١٤٣٤ هـ وأصل هذا الكتاب – رسالة علمية، تقدّم بها المؤلف لنيل درجة الدكتوراه، في الفقهِ الإسلامي من كلية الشريعة والقانون – بجامعة الأزهر.

وقد جاء الكتاب في أبواب ثلاثة في الباب الأول: تناول مفهوم نوازل الأقليات المسلمة، وأمّا في الباب الثاني: فكان الحديث فيه عن التأصيل لفقهِ النوازل للأقليات المسلمة، وأمّا الباب الثالث والأخير: فتناول فيه عدداً من أحكام نوازل الأقليات.

وهذا الكتاب وإن كان فيه جانب التأصيل إلا أنه تأصيل فقهي، ركز فيه على النوازل فقط، وأتى بالقواعد الأصولية والقواعد الفقهية واستدل على ذلك بالكتاب والسنة، وهذا وإن كان تأصيلاً إلا أن البحث سيرتكز على الجانب الحديثي، ولا شك أن المحدث يبني قاعدته على الحديث، والفقيه يبني قاعدته ثم يستدل عليها من الحديث.

أهمية الدراسة:

تأتي أهمية هذه الدراسة من طبيعة الموضوع الذي تتناوله وهو المشكلات والصعوبات التي يلاقيها قطاع كبير من المسلمين المقيمين في ديار الغرب، والذين لديهم مشكلات عويصة مستحدثة تفوق مشكلاتنا نحن في ديار الإسلام، وهم الذين يمثلون الإسلام في المجتمعات الغربية.

فينبغي على كل مسلم التعرف على أحوال ومشكلات إخوانه في المجتمعات الأخرى، ودوره الواجب عليه القيام به تجاههم.

أهداف الدراسة:

- (١) التأصيل الشرعي لفقه الأقليات.
- (٢) تحديد أهم المشكلات التي تواجه الأقليات المسلمة.
- (٣) بيان حكم الاشتغال بفقه الأقليات.
- (٤) بيان ضوابط فقه الأقليات.
- (٥) إيجاد الحلول لجميع المشاكل التي تعاني منها الأقليات المسلمة.

منهج الدراسة:

يستخدم الباحث المنهج الوصفي التحليلي فيقوم بجمع المعلومات التي تخص الموضوع، ثم تحليلها وتفسيرها وتوظيفها.

مشكلة الدراسة وتساؤلاتها:

تطرح هذه الدراسة عدداً من الأسئلة الرئيسية وتحاول الإجابة عليها وذلك

كالتالي:

- ما مفهوم الأقليات؟

- ما مفهوم الأقليات المسلمة؟
- ما هي أهم الحلول والمقترحات التي يمكن أن تساهم في التخفيف من معاناة هذه الأقليات المسلمة؟

مصطلحات الدراسة:

مصطلح الأقلية: هي مجموعة من سكان دولة أو إقليم أو قطر ما يختلفون عن غالبية سكان تلك الدولة بخاصية من الخاصيات المتمثلة في العرق أو في الثقافة، أو في الدين، ويحاولون بكل الإمكانيات أن يحافظوا عليها لكي لا تذوب في خاصيات الأغلبية^(١).
وقد جاء البحث بهذا العنوان: تأصيل فقه الأقليات من خلال السنة النبوية، وسيكون البحث إن شاء الله على هذا النحو:

خطة البحث:

يحتوي البحث على: مقدمة وتشمل: أهمية الدراسة، أسباب اختيار الموضوع، أهداف الدراسة، ومنهج البحث، ومشكلة الدراسة وتساؤلاتها، ومصطلحات الدراسة، وخطة البحث.

التمهيد: تعريف ببعض الألفاظ التي يكثر إيرادها في البحث
المبحث الأول: التأصيل النبوي لقاعدة الابتداء بالأيسر، وما يخص مراعاة المصالح والمفاسد.

المبحث الثاني: التأصيل النبوي لفقه الأقليات في أمور العبادات.
المبحث الثالث: التأصيل لفقه الأقليات في المعاملات، وأمور الحياة اليومية.

الخاتمة: وتشتمل على:

أولاً: خلاصة البحث ونتائجه.

ثانياً: التوصيات.

ثالثاً: قائمة المصادر والمراجع.

١- تاريخ الأقليات الإسلامية في العالم أ.د. العراقي: السر سيد أحمد وأ.د. جريس: غيثان بن علي - الجزء الأول (أفريقيا) الطبعة الثانية- ١٤٢٤هـ.

التمهيد

تعريف ببعض الألفاظ التي يكثر إيرادها في البحث وبيان شروط الهجرة إلى بلد غير مسلم.

التعريف بفقه الأقليات:

من الواضح أن قولك (فقه الأقليات) مركب إضافي من كلمتي (فقه) مضاف و(الأقليات) مضاف إليه.

والمركب الإضافي تتوقف معرفته على معرفة لفظيه، أو يتضح معناه ببيان معنى جزأيه.

فلا بد عند تعريفه من تعريف المضاف على حده، ثم يُعرّف المضاف إليه، ثم يعرف العلم بإضافة أحد اللفظين إلى الآخر، وعليه أقول:

الفقه لغة: يُقال: فقهه إذا فهم وزناً ومعنى. وفقهه إذا سبق إلى الفهم وزناً ومعنى أيضاً وفقهه بالضم صار الفقه سجيةً له، وهذا معنى الفقه لغةً. وتعريف الفقه لغةً: بالفهم هو رأي أكثر الأصوليين، وعرفه أبو الحسين البصري والإمام الرازي بأنه فهم غرض المتكلم من كلامه، وعرفه إمام الحرمين والجزجاني بأنه العلم^(١).

وَأَمَّا اصطلاحاً: فهو العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسبة من أدلتها التفصيلية، وموضوعه أفعال المكلفين، واستمداده من الكتاب والسنة، وغايته تكميل القوى النطقية والشهوية والغضبية المرتب عليها أبواب الفقه والفوز بالسعادة الأبدية^(٢).

المقصود بالأقليات لغة واصطلاحاً:

لغة: بفتح القاف وتشديد اللام المكسورة والياء المفتوحة، من القلة (بكسر القاف)، خلاف الكثرة^(٣).

واصطلاحاً: جماعة مميّزة بدينها أو عرقها أو لونها تعيش في مجتمع يفوقها عدداً ويخالفها خصائص ومميّزات^(٤).

١- انظر: البحر المحيط ١٩/١، وحاشيتي قليوبي وعميرة (٦/١).

٢- حاشيتي قليوبي وعميرة (٦/١).

٣- معجم لغة الفقهاء (ص: ٨٤)، وانظر: المعجم الوسيط (٧٥٦/٢).

٤- معجم اللغة العربية المعاصرة (١٨٥٣/٣).

ومن الملاحظ أن هذا المصطلح لم يكن موجوداً، وإنما هو من المصطلحات الحادثة التي ظهرت في القرن الحالي.

التعريف بفقهاء الأقليات:

يقول الباحث: "الفقه الذي يهتم فيه الفقيه بجمع المسائل الخاصة بالأقلية التي تعيش خارج ديار الإسلام".

أهمية فقه الأقليات.

فقه الأقليات له أهمية كبرى تظهر من خلال التعامل مع الواقع الذي نعيشه بل وعند سفر المسلم لبلد غير مسلم، وإذا غاب فقه الأقليات ابتعدنا كثيراً عن مقاصد الشريعة الغراء التي اهتمت بهؤلاء. وأستطيع أن أخص أهميته في التالي:
أولاً: الأخذ بفقهاء الأقليات يوضح أن الشريعة اهتمت بالمسلم وعبادته أينما حل أو ارتحل.

ثانياً: فقه الأقليات يدرّب الفقيه على التعامل مع مقاصد الشريعة، فيسلك سبيله للوصول إلى مقاصد الشريعة ومآلاتها.

ثالثاً: إغفال فقه الموازنات يتسبب في ظهور التضليل والتفسيق وربما التكفير.

رابعاً: إن مراعاة فقه الأقليات بالإضافة إلى فقه الموازنات وفقه المقاصد وفقه الواقع وفقه الأولويات هي الطريق الأمثل للنهوض بالأمة من هذا الواقع الذي نعيشه.

المقصود بالهجرة وحكمها :

الهجرة في اللغة: (الترك، فعلاً كان أو قولاً)، وتأتي بمعنى : (الخروج من أرض إلى أرض)^(١).

وفي الاصطلاح : هي هجر المقام بين الكافرين والمنافقين الذين لا يمكنونه من فعل ما أمر الله به، ومن هذا قوله تعالى: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ (النور: ٥). أو هي الخروج من دار الحرب إلى دار الإسلام^(٢). ومن دار الخوف إلى دار الأمن كالهجرة إلى الحبشة.

١- ينظر: لسان العرب (٢٥١/٥).

٢- القاموس الفقهي (ص: ٣٦٥).

حكم الهجرة :

حكم الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام، مرتبط ارتباطاً وثيقاً بمدى إمكانية المسلم ومقدرته على إقامة شعائر دينه بأمان تام، وبعدم خشية الفتنة في دينه ودين أهله وعياله، فإن كان لا يقدر على إظهار دينه ويخاف الفتنة والاضطهاد فيه أو في دين أسرته، ففي هذه الحالة تجب عليه الهجرة متى استطاع عليها، بالإجماع^(١). والأدلة من السنة كثيرة منها:

(١) عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- سَرِيَّةً إِلَى خَتَمٍ فَأَعْتَصَمَ نَاسٌ مِنْهُمْ بِالسُّجُودِ فَأَسْرَعَ فِيهِمُ الْقَتْلُ - قَالَ - فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَأَمَرَ لَهُمْ بِنِصْفِ الْعَقْلِ^(٢) وَقَالَ «أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ يُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُشْرِكِينَ». قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَ قَالَ «لَا تَرَأَى نَارَهُمَا»^(٣).

- ١- انظر: أحكام القرآن للجصاص (٢/٣٠٥)، عمدة القاري (١٤/٨٠)، تفسير ابن كثير (١/٥٤٢)، سبل السلام (٤/١٣٣).
- ٢- العقل: فهو الدية، وأصله: أن القاتل كان إذا قتل فتيلاً جمع الدية من الإبل فعقلها بفناء أولياء المقتول، أي شدها في عقلها ليسلمها إليهم ويقبضوها منه. (النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/٢٧٨)).
- ٣- أخرجه: أبو داود في كتاب الجهاد باب النهي عن قتل من اعتصم بالسجود (٢/٣٤٩) ح (٢٦٤٧)، والترمذي في كتاب السير باب كراهية المقام بين أظهر المشركين سنن الترمذي (٤/١٥٥) ح (١٦٠٤)، وقال: وهذا أصح. والمعنى: أي يلزم المسلم ويجب عليه أن يبعد منزله عن منزل المشرك، ولا ينزل بالموضع الذي إذا أوقدت فيه ناره تلوح وتظهر لنار المشرك إذا أوقدها في منزله، ولكنه ينزل مع المسلمين في دارهم. وإنما كره مجاورة المشركين لأنهم لا عهد لهم ولا أمان، وحث المسلمين على الهجرة. والتراخي: تفاعل من الرؤية، يقال: تراءى القوم إذا رأى بعضهم بعضاً، وتراءى لي الشيء: أي ظهر حتى رأيته. وإسناد التراخي إلى النارين مجاز، من قولهم داري تنظر إلى دار فلان: أي تقابلها. يقول ناراهما مختلفتان، هذه تدعو إلى الله، وهذه تدعو إلى الشيطان فكيف يتفان. والأصل في تراءى تراءى، فحذف إحدى التاءين تخفيفاً. (النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/١٧٧)).
- دراسة إسناد أبي داود: هناد بن السري بكسر الراء الخفيفة ابن مصعب التميمي أبو السري الكوفي ثقة من العاشرة مات سنة ثلاث وأربعين وله إحدى وتسعون سنة. (تقريب التهذيب (ص: ٥٧٤) ت (٧٣٢٠)).
- محمد بن حازم بمعجمتين أبو معاوية الضرير الكوفي [لقبه فافاه] عمي وهو صغير ثقة أحفظ الناس لحديث الأعمش وقد يهيم في حديث غيره من كبار التاسعة مات سنة خمس وتسعين [ومائة] وله اثنتان وثمانون سنة وقد رمي بالإرجاء. (تقريب التهذيب (ص: ٤٧٥) ت (٥٨٤١)).
- إسماعيل ابن أبي خالد الأحمسي مولاهم البجلي ثقة ثبت من الرابعة مات سنة ست وأربعين. (تقريب التهذيب (ص: ١٠٧) ت (٤٣٨)).
- قيس ابن أبي حازم البجلي أبو عبد الله الكوفي ثقة من الثانية مخضرم ويقال له رؤية وهو الذي يقال إنه اجتمع له أن يروي عن العشرة مات بعد التسعين أو قبلها وقد جاز المائة وتغير. (تقريب التهذيب (ص: ٤٥٦) ت (٥٥٦٦)).
- جرير بن عبد الله بن جابر البجلي صحابي مشهور [يقال له: يوسف هذه الأمة] مات سنة إحدى وخمسين وقيل بعدها. (الإصابة في تمييز الصحابة (١/٥٨١) ت (١١٣٩)، تقريب التهذيب (ص: ١٣٩) ت (٩١٥)).

الحكم على الإسناد:

إسناد صحيح رجاله ثقات، وقد اختلف في وصله وإرساله ورجح الترمذي إرساله، ولكن من وصله ثقة أيضاً، لذا قال ابن دقيق العيد: أخرجه أبو داود، وذكر عن [الترمذي] جماعة أنهم لم يذكروا جريراً. قلت: والذي أسنده ثقة عندهم. الإلام بأحاديث الأحكام (٢/٤٥٤)، وقال الألباني: صحيح (صحيح أبي داود (٧/٣٩٧) ح (٢٣٧٧)).

(٢) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ (النساء: ٩٨)، قَالَ: «كَانَتْ أُمِّي مِمَّنْ عَذَرَ اللَّهُ» (١).

(٣) عن محمد بن عبد الرحمن أبي الأسود قال: قُطِعَ عَلَى أَهْلِ الْمَدِينَةِ بَعَثُ، فَأَكْتَتَبْتُ فِيهِ، فَلَقِيتُ عَكْرَمَةَ، مَوْلَى ابْنِ عَبَّاسٍ فَأَخْبَرْتُهُ، فَنَهَانِي عَنْ ذَلِكَ أَشَدَّ النَّهْيِ، ثُمَّ قَالَ: أَخْبَرَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ: «أَنَّ نَاسًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا مَعَ الْمُشْرِكِينَ يُكْثِرُونَ سِوَادَ الْمُشْرِكِينَ، عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَأْتِي السَّهْمُ فِيرْمَى بِهِ فَيُصِيبُ أَحَدَهُمْ، فَيَقْتُلُهُ - أَوْ يُضْرِبُ فَيُقْتَلُ» - فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ (النساء: ٩٧).

أي مع أنهم لا يوافقونهم في قلوبهم كانوا ظالمين لأنهم أفادوهم قوة بوجودهم معهم . والسواد العدد الكثير وسواد الناس معظمهم وأكثرهم .

(٤) عَنْ مُعَاوِيَةَ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: «لَا تَنْقَطِعُ الْهَجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ وَلَا تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا» (٢).

فحمل العلماء الهجرة في هذه الأحاديث على من خاف الفتنة واضطهد، وقالوا:

١- أخرجه: البخاري في كتاب التفسير باب (إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان... الآية) (١٦٧٩ / ٤) برقم (٤٣٢١).
 ٢- أخرجه: أبو داود في كتاب الجهاد باب الهجرة هل انقطعت (٣١٢ / ٢) ح (٢٤٨١)، وأحمد في المسند (١١١ / ٢٨) ح (١٦٩٠٦)، دراسة إسناد أبي داود.
 إبراهيم بن موسى بن يزيد التميمي أبو إسحاق الفراء الرازي يلقب الصغير ثقة حافظ من العاشرة مات بعد العشرين ومائتين. (تقريب التهذيب (ص: ٩٤) ت (٢٥٩)).
 عيسى بن يونس بن أبي إسحاق السبيعي بفتح المهمله وكسر الموحدة أخو إسرائيل كوفي نزل الشام مرابطا ثقة مأمون من الثامنة مات سنة سبع وثمانين وقيل سنة إحدى وتسعين. (تقريب التهذيب (ص: ٤٤١) ت (٥٣٤١)).
 حريز بفتح أوله وكسر الراء وأخره زاي ابن عثمان الرحبي بفتح الراء والحاء المهمله بعدها موحدة الحمصي ثقة ثبت رمي بالنصب من الخامسة مات سنة ثلاث وستين وله ثلاث وثمانون سنة. تقريب التهذيب (ص: ١٥٦) ت (١١٨٤).
 عبد الرحمن بن أبي عوف الجرشي بضم الجيم وفتح الراء بعدها معجمة الحمصي القاضي ثقة من الثانية يقال أدرك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. (تقريب التهذيب (ص: ٣٤٨) ت (٣٩٧٤)).
 أبو هند البلجي شامي مقبول من الثالثة. (تقريب التهذيب (ص: ٦٨١) ت (٨٤٢٧)).
 معاوية بن أبي سفيان صخر ابن حرب ابن أمية الأموي أبو عبد الرحمن الخليفة صحابي أسلم قبل الفتح وكتب الوحي ومات في رجب سنة ستين وقد قارب الثمانين. (الإصابة في تمييز الصحابة (٦ / ١٢٠) ت (٨٠٨٧)، تقريب التهذيب (ص: ٥٣٧) ت (٦٧٠٨)).
 الحكم على الإسناد: إسناد ضعيف فيه أبو هند مقبول ولم يتابع.
 وقال الشيخ شعيب: حسن لغيره، وهذا إسناد ضعيف لجهالة أبي هند البلجي، فقد انفرد بالرواية عنه عبد الرحمن بن أبي عوف الجرشي، وقال الذهبي في اليرقان: لا يعرف، لكن احتج به النسائي على قاعدته. وقال ابن القطان: مجهول.
 وبقيّة رجاله ثقات رجال الصحيح غير عبد الرحمن بن أبي عوف الجرشي، فمن رجال أبي داود والنسائي، وهو ثقة بتوثيق أبي داود لشيوخ حريز كلهم (تحقيق مسند أحمد (٢٨ / ١١١)). وقال الألباني: صحيح (إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل (٥ / ٣٣) ح (١٢٠٨)). وله شاهد صحيح من حديث عبد الله بن السعدي أخرجه أحمد في المسند (٢٧ / ١٠) ح (٢٢٣٢٤)، من حديث عبد الرحمن بن عوف أخرجه: الطحاوي في شرح مشكل الآثار (٧ / ٤٧) ح (٢٦٣٥).
 ومن هنا نعلم أن من حسنة حسن الإسناد بالشواهد ومن صححه صححه بالشواهد، ولكن الإسناد ضعيف.

أمر المسلمون بالانتقال إلى حضرة النبي صلى الله عليه وسلم، ليكونوا معه فيتعاونوا، ويتظاهروا إن حَزَبَهُمْ أمر، وينضموا إلى المؤمنين في القيام بنصرة الرسول، ويتعلموا منه أحكام الدين ويتفقهوا فيها، ويحفظوا عنه، وينقلوه^(١). وكانت فرضاً في عهد النبي صلى الله عليه وسلم على الأعيان، واستمرت بعده لمن خاف الاضطهاد في حريته الدينية^(٢).

شروط وجوب الهجرة:

هناك شروط لا بد من تحققها حتى يهاجر المسلم إلى بلد غير مسلم وهي كالتالي:

الشرط الأول:

أمن المقيم على دينه، بحيث يكون عنده من العلم والإيمان وقوة العزيمة ما يطمئنه على الثبات على دينه، والحذر من الانحراف والزيغ، وأن يكون مضمرًا لعداوة الكافرين وبغضهم، مبتعدًا عن موالاتهم ومحبتهم، فإن موالاتهم ومحبتهم مما ينافي الإيمان.

قال الله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ (المجادلة: ٢٢).

وعن أنس بن مالك، أن أعرابياً، قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم متى الساعة؟ قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أعددت لها؟ قال: حب الله ورسوله، قال: أنت مع من أحببت^(٣).

وعن عبد الله بن مسعود، قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، كيف ترى في رجل أحب قوماً ولما يلحق بهم؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: المرء مع من أحب^(٤).

ومحبة أعداء الله من أعظم ما يكون خطراً على المسلم، لأن محبتهم تستلزم موافقتهم واتباعهم، أو على الأقل عدم الإنكار عليهم.

١- انظر: المبسوط (٦/١٠)، القدمات الممهدة (١٥٢/٢)، معالم السنن (٢٣٤/٢).

٢- تفسير القرطبي (٣٥٠/٥)، فتح العلي المالك (٣٨٧/١).

٣- أخرجه: البخاري في كتاب فضائل الصحابة باب مناقب عمر بن الخطاب (١٣٤٩/٣) ح (٣٤٨٥)، وفي كتاب الأدب باب قول الرجل ويلك (٢٢٨٢/٥) ح (٥٨١٥)، وفي كتاب الأحكام باب القضاء والفتيا في الطريق (٢٦١٥/٦) ح (٦٧٣٤)، ومسلم في كتاب الآداب (٤٢/٨) ح (٦٨٠٣).

٤- أخرجه: البخاري في كتاب الأدب باب علامة الحب في الله (٢٢٨٣/٥) ح (٥٨١٧)، ومسلم في كتاب الآداب (٤٣/٨) ح (٦٨١١).

الشرط الثاني :

أن يتمكن من إظهار دينه، بحيث يقوم بشعائر الإسلام بدون ممانع، فلا يمنع من إقامة الصلاة والجمعة والجماعات إن كان معه من يصلي جماعة ومن يقيم الجمعة، ولا يمنع من الزكاة والصيام والحج وغيرها من شعائر الدين، فإن كان لا يتمكن من ذلك لم تجز الإقامة لوجوب الهجرة حينئذ .

قال ابن قدامة في الكلام على أقسام الناس في الهجرة : أحدها من تجب عليه وهو من يقدر عليها ولا يمكنه إظهار دينه، ولا تمكنه إقامة واجبات دينه مع المقام بين الكفار فهذا تجب عليه الهجرة لقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (النساء: ٩٧). وهذا وعيد شديد يدل على الوجوب، ولأن القيام بواجب دينه واجب على من قدر عليه، والهجرة من ضرورة الواجب وتتمته، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . انتهى^(١).

فمن قدر على الامتناع والاعتزال في دار الكفر، ولم يرج نصرته المسلمين بالهجرة، كان مقامه واجباً، لأن محله دار إسلام، فلو هاجر لصار دار حرب، ثم إن قدر على قتالهم ودعائهم للإسلام لزمه وإلا فلا^(٢).

والمقصد الشرعي الأساس في الهجرة، أن تكون فراراً إلى الله، سواءً كان ذلك على مستوى النفس أو على مستوى المكان. فالرسول صلى الله عليه وسلم يعرف المهاجر بقوله : (إنَّ المهاجرَ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ)^(٣).

ليس أدل على ذلك من هجرة المسلمين الأوائل إلى أرض الحبشة^(٤). فقد كان الصحابة رضوان الله عليهم خير سفراء إلى أرض الحبشة حتى إن النجاشي أسلم وصلى عليه النبي صلى الله عليه وسلم صلاة الغائب^(٥).

١- المغني (٤٥٧/٨) المغني (٤٥٧/٨).

٢- ينظر: نهاية المحتاج (٧٨/٨)، وانظر: تحفة المحتاج (٢٦٨/٩)، مغني المحتاج (٢٣٩/٤)، فتح الباري (٢٢٩/٧).

٣- أخرجه: البخاري في كتاب الإيمان باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده (١٢/١) ح (١٠)، وفي كتاب الرقاق باب الانتهاء من المعاصي (٢٣٧٩/٥) ح (٦١١٩).

٤- ينظر: صحيح البخاري كتاب فضائل الصحابة، باب هجرة الحبشة، (١٤٠٥/٣)، وصحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أصحاب هجرة الحبشة رضي الله عنهم، (١٧١/٧).

٥- ينظر: صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب الرجل ينعي إلى أهل الميت بنفسه، (٤٢٠/١) ح (١١٨٨)، (٤٤٦/١) ح (١٢٦٣)، (١/١) ح (٤٤٧) ح (١٢٦٨)، ومسلم، كتاب الجنائز، باب ماجاء في النعي والتكبير والصفوف على الجنائز، (٥٤/٣) ح (٢١٦٢).

المبحث الأول

التأصيل النبوي لقاعدة الابتداء بالأيسر

وما يخص مراعاة المصالح والمفاسد

هذه القاعدة تعنى بها هذه الطائفة قاعدة الابتداء بالأيسر. ومما يدل على أن

الدين قدم الأيسر على غيره.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ هَذَا الدِّينَ يُسْرٌ وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا وَيَسِّرُوا وَأَسْتَعِينُوا بِالْغُدُوءِ وَالرُّوحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدَّلْجَةِ (١).

قال ابن حجر: أي دين الإسلام ذو يسر أو سمي الدين يسرا مبالغة بالنسبة إلى الأديان قبله لأن الله رفع عن هذه الأمة الإصر الذي كان على من قبلهم ومن أوضح الأمثلة له أن توبتهم كانت بقتل أنفسهم وتوبة هذه الأمة بالإقلاع والعزم والندم (٢).

وفي قوله: استعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة - كأنه خاطب مسافراً يقطع طريقه إلى مقصده فنبهه على أوقات نشاطه التي يزكو فيها عمله؛ لأن الغدو والرواح والدلج أفضل أوقات المسافر (٣).

وَعَنْ عَائِشَةَ، زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أَنَّهَا قَالَتْ : مَا خَيْرَ رَسُولٍ اللَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ ، إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا ، مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا ، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا ، كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ ، وَمَا أَنْتَقَمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِنَفْسِهِ ، إِلَّا أَنْ تَنْتَهَكَ حُرْمَةَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ (٤).

يحتمل أن يكون تخييره صلى الله عليه وسلم ها هنا من الله تعالى فيخيره

فيما فيه عقوبتان أو فيما بينه وبين الكفار من القتال وأخذ الجزية أو في حق أمته

١ - أخرجه: البخاري في كتاب الإيمان باب الدين يسر (١/ ٢٣) ح (٣٩)، والنسائي في كتاب الإيمان وشرايعه باب الدين يسر (٨/ ٤٩٦) ح (٥٠٤٩)، وابن حبان في صحيحه كتاب البر والإحسان ذكر الأمر بالغدو والرواح والدلجة في الطاعات عند المقاربة فيها (٢/ ٦٣) ح (٣٥١).

٢ - فتح الباري لابن حجر (١/ ٩٣).

٣ - شرح صحيح البخاري لابن بطال (١/ ٩٦).

٤ - أخرجه: البخاري في كتاب الحدود باب إقامة الحدود والانتقام لحرمة الله (٦/ ٢٤٩١) ح (٦٤٠٤)، ومسلم في كتاب فضائل النبي صلى الله عليه وسلم (٧/ ٨٠) ح (٦١١٥)، وأبو داود في كتاب الأدب باب في التجاوز في الأمر (٤/ ٣٩٦) ح (٤٧٨٧) .

في المجاهدة في العبادة أو الاقتصاد وكان يختار الأيسر في كل هذا، وأما قولها ما لم يكن إثماً فيتصور إذا خيره الكفار والمنافقون فأما إن كان التخيير من الله تعالى أو من المسلمين فيكون الاستثناء منقطعاً^(١).

فالشارع الحكيم قد قصد السهولة واليسر على المكلفين مما يدل على أن الأخذ بالرخصة مقدم على الأخذ بالعزيمة^(٢) على الراجح.

ولما كان مبني الشريعة على التيسير جاء في الحديث عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّهَا قَالَتْ : كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَصِيرٌ، وَكَانَ يُحَجِّرُهُ مِنَ اللَّيْلِ فَيُصَلِّي فِيهِ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَصَلُونَ بِصَلَاتِهِ، وَيَبْسُطُهُ بِالنَّهَارِ، فَتَأْبُوا ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَقَالَ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيْكُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ مَا تَطِيقُونَ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمْلُوا، وَإِنَّ أَحَبَّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ مَا دُوِّمَ عَلَيْهِ، وَإِنْ قُلَّ . وَكَانَ آلُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا عَمِلُوا عَمَلًا أَتْبَتُوهُ^(٣).

فيه دليل على الحث على الاقتصاد في العبادة واجتناب التعمق وليس الحديث مختصاً بالصلاة بل هو عام في جميع أعمال البر^(٤).

لذا فإننا إذا نظرنا إلى كليات الأعمال والدوام عليها، صارت شاقة، ولحقت المشقة العامل بها ويوجد هذا في النوافل وحدها إذا تحمل الإنسان منها فوق ما يحتمله على وجه ما، إلا أنه في الدوام يتعبه، حتى يحصل للنفس بسببه ما يحصل لها بالعمل مرة واحدة في الضرب الأول، وهذا هو الموضع الذي شرع له الرفق والأخذ من العمل بما لا يحصل مللاً^(٥).

ومن شفقتة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأتمته جاءت الأحاديث التي تحث على التخفيف في بعض الأمور فعَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ : أَدْنَى مُؤَدِّنِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالظَّهْرِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَيْرِدُ، أَيْرِدُ، أَوْ قَالَ : أَنْتَظِرُ، أَنْتَظِرُ، وَقَالَ : إِنَّ شِدَّةَ الْحَرِّ مِنْ فِيحِ جَهَنَّمَ، فَإِذَا اشْتَدَّ الْحَرُّ، فَأَبْرِدُوا عَنِ الصَّلَاةِ^(٦).

١- عون المعبود وحاشية ابن القيم (١٣/٩٩).

٢- المهذب في علم أصول الفقه المقارن (١/٤٦٠).

٣- أخرجه: البخاري في التهجد باب ما يكره من التشديد في العبادة (١/٢٨٦) ح (١١٠٠)، ومسلم في كتاب الصلاة (٢/١٨٨) ح (١٧٧٧).

٤- شرح النووي على مسلم (٦/٧١).

٥- الموافقات (٢/٢٠٧).

٦- أخرجه: البخاري في كتاب بدء الوحي باب صفة النار وأنها مخلوقة (٣/١١٨٩) ح (٣٠٨٥)، ومسلم في كتاب الصلاة (٢/١٠٨) ح (١٣٤٥).

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **إِنَّ أَحَبَّ الصِّيَامِ إِلَى اللَّهِ، صِيَامُ دَاوُدَ، وَأَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللَّهِ، صَلَاةُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَيَقُومُ ثَلَاثَهُ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ، وَكَانَ يَصُومُ يَوْمًا، وَيُفْطِرُ يَوْمًا^(١).**

وَعَنْ عُمَرَ بْنِ حُصَيْنٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: **"كَانَتْ بِي بَوَاسِيرٌ^(٢)"**، فَسَأَلْتُ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَنِ الصَّلَاةِ فَقَالَ: **صَلِّ قَائِمًا، فَإِنَّ لَمْ تَسْتَطِعْ فِقَاعِدًا، فَإِنَّ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ^(٣).**

هذا الحديث في صلاة الفريضة، والعلماء مجمعون أنه يصلحها كما يقدر حتى ينتهي به الأمر إلى الإيماء على ظهره أو على جنبه كيفما تيسر عليه، فإن صلى على جنبه كان وجهه إلى القبلة على حسب دفن الميت، وإن صلى على ظهره كانت رجلاه في قبلته ويومئ برأسه إيماء^(٤).

وهذه الأدلة مع دلالتها على أن مبنى الشرع على التيسير ابتداءً وأصلاً، فهي تدل بعموم نفي الحرج والعسر فيها على التخفيف والتيسير الطارئ لعذر، أو لمشقة عارضة^(٥). فهنا تقديم لرفع الحرج والأخذ باليسر.

ومن الواجب حقا أن تراعى الأولويات وفقا لهذه الأحاديث اقتداء بالهدى النبوي مما لا يخطئه البصير بكل مرحلة من مراحل الدعوة .

ففي المرحلة الأولى كان إخفاء الدعوة ولم يعلن عن أسماء المسلمين حتى أسلم حمزة وعمر وكانت علانية الدعوة واستمر إخفاء أسماء الضعفاء وهاجر قوم إلى الحبشة منعا للصدام وفتحا للحوار وللدعوة في أرض لا يظلم فيها أحد وكان المنهج ﴿كُفُوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ (النساء: ٧٧).

ولم يستجب النبي صلى الله عليه وسلم للظروف الخارجية من الإيذاء

١- أخرجه: البخاري في أبواب التهجد باب من نام عند السحر (١/ ٣٨٠) ح(١٠٧٩)، ومسلم في كتاب الصيام (٣/ ١٦٥) ح(٢٧٠٩).

٢- ورم في باطن المعدة، والذي بالنون قرحة فاسدة لا تقبل البرء ما دام فيها ذلك الفساد. والبواسير في عرف الأطباء نفاطات تحدث في نفس المقعدة ينزل منها مادة. (فتح الباري لابن حجر (٢/ ٥٨٥) شرح القسطلاني = إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٢/ ٣٠٤).

٣- أخرجه البخاري في أبواب تقصير الصلاة باب صلاة القاعد (١/ ٣٧٥) ح(١٠٦٤)، وابن خزيمة في صحيحه كتاب الصلاة باب صفة صلاة المريض مضطجعا إذا لم يقدر على القيام ولا على الجلوس (٢/ ٨٩) ح(٩٧٩).

٤- شرح صحيح البخاري لابن بطال (٣/ ١٠٤).

٥- انظر: القواعد الفقهية للندوي (ص ٢٦٥-٢٧٠).

والتعذيب والاستهزاء حتى قتلت سمية بنت خياط بضربة في قلبها وقتل زوجها ياسر والنبي يقول: "صَبْرًا أَلْ يَاسِرٍ، فَإِنَّ مَوْعِدَكُمْ الْجَنَّةُ"^(١).

وتساهل أيضا في بعض الكلمات والبنود في صلح الحديبية مثل كتابة باسمك اللهم، ورسول الله، أو شرط رد المسلم إلى الكفار إن وصل إلى المدينة وذلك لأولوية أكبر وهي الانتشار الدعوي داخل الجزيرة وخارجها ولم يدفعه جلد المؤمنين وبيعتهم على الموت والجهاد و صلف الكافرين في ردهم لهم عن المسجد الحرام أو الشروط لأن هناك أولوية أكبر وهي الانتشار الدعوي داخل وخارج الجزيرة ولم يصنع الى حمية عمر بن الخطاب وغيره ولم يتراجع عندما توقف الأصحاب عن التحلل بالطلق والذبح بل مضى غير مجامل ولا تابع لهداه الرغبات العامرة ويزداد الأمر وضوحا في سيرته عندما دخل مكة فاتحا ودخل الناس في دين الله أفواجا لكنه لم يهدم الكعبة ليبنيها على قواعد إبراهيم خشية أن يرتد حديثو العهد بالإسلام ولم يقتل المنافقين مراعاة لأولوية جمع الصف ولم الشمل وألا يصد هذا أحدا عن

١- أخرجه: الطبراني في المعجم الأوسط (٢/ ١٤١) ح (١٥٠٨)، والحاكم المستدرک على الصحيحين كتاب معرفة الصحابة باب مناقب عمار بن ياسر (٣/ ٤٢٢) ح (٥٦٤٦)، ووافقه الذهبي، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١/ ١٤٠) كلهم من حيث جابر. ومن حديث عثمان أخرجه: أخرجه: أحمد في المسند (١/ ٤٩٢) ح (٤٣٩)، والطبراني في المعجم الكبير (٢٤/ ٣٠٣) ح (٧٦٩). دراسة إسناد الطبراني:

أحمد بن محمد بن عبد الله بن صدقة، أبو بكر الحافظ ذكره الدارقطني فقال: ثقة مات في الحرم سنة ثلاث وتسعين- يعني ومائتين (تاريخ بغداد (٥/ ٢٤٤) ت (٢٧١٠)، وينظر موسوعة أقوال أبي الحسن الدارقطني في رجال الحديث وعلله (١/ ٨٩) ت (٣٣٥).

إبراهيم بن عبد العزيز المقوم من أهل البصرة يروي عن أبي عاصم وكان راويا لأبي بحر البكاوي ثنا عنه أحمد بن الحسن الجراذي وغيره. (التقاة لابن حبان (٨/ ٨٤) ت (١٢٣٤٦)، (التقاة ممن لم يقع في الكتب السنة لابن قطلوبغا (٢/ ٢١١) ت (١١١٢). مسلم بن إبراهيم الأزدي الفراهيدي بالفاء أبو عمرو البصري ثقة مأمون مكثر عمي بأخرة من صغار التاسعة مات سنة اثنتين وعشرين وهو أكبر شيخ لأبي داود. (تقريب التهذيب (ص: ٥٢٩) ت (٦٦١٦).

هشام بن أبي عبد الله سنبر بمهملة ثم نون ثم موحد وزن جعفر أبو بكر البصري الدستوائي يفتح الدال وسكون السين المهملتين وفتح المثناة ثم مد ثقة ثبت وقد رمي بالقدر من كبار السابعة مات سنة أربع وخمسين وله ثمان وسبعون سنة (تقريب التهذيب (ص: ٥٧٣) ت (٧٢٩٩).

محمد بن مسلم بن تدرس يفتح المثناة وسكون الدال المهملة وضم الراء الأسدي مولاهم أبو الزبير المكي صدوق إلا أنه يدلس من الرابعة مات سنة ست وعشرين. (تقريب التهذيب (ص: ٥٠٦) ت (٦٢٩١).

جابر بن عبد الله بن عمرو ابن حرام بمهمله وراء الأنصاري ثم السلمي يفتحين صحابي ابن صحابي غزا تسع عشرة غزوة ومات بالمدينة بعد السبعين وهو ابن أربع وتسعين. (الإصابة في تمييز الصحابة (١/ ٥٤٦) ت (١٠٢٨)، (تقريب التهذيب (ص: ١٣٦) ت (٨٧١).

الحكم على الإسناد: إسناد صحيح رجاله ثقات.

وقال الهيثمي: "رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله رجال الصحيح غير إبراهيم بن عبد العزيز المقوم، وهو ثقة" (مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٩/ ٢٩٣)..

الدخول في الإسلام وهو نفس المبدأ المستفاد من موقف سيدنا هارون مع بني اسرائيل لما عبدوا العجل وعاتبه سيدنا موسى .

عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ قُرَيْشًا صَالَحُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهِمْ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعَلِيِّ: اكْتُبْ، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، قَالَ سُهَيْلٌ: أَمَّا بِاسْمِ اللَّهِ، فَمَا نَدْرِي مَا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَلَكِنْ اكْتُبْ مَا نَعْرِفُ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ، فَقَالَ: اكْتُبْ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ، قَالُوا: لَوْ عَلِمْنَا أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ لَاتَّبَعْنَاكَ، وَلَكِنْ اكْتُبْ اسْمَكَ وَاسْمَ أَبِيكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اكْتُبْ مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، فَاشْتَرَطُوا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ مَنْ جَاءَ مِنْكُمْ لَمْ نُرُدَّهُ عَلَيْكُمْ، وَمَنْ جَاءَكُمْ مِنَّْا رَدَدْتُمُوهُ عَلَيْنَا، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْتَ تَهْتَبُ هَذَا؟ قَالَ: نَعَمْ، إِنَّهُ مَنْ ذَهَبَ مِنَّْا إِلَيْهِمْ فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ، وَمَنْ جَاءَنَا مِنْهُمْ سَيَجْعَلُ اللَّهُ لَهُ فَرْجًا وَمَخْرَجًا^(١).

هذه بعض الأدلة على مراعاة الأولويات.

فمن خصائص الإسلام اليسر، ومن قواعده رفع الحرج ومنع الضرر، ومن سماته الرحمة، وهذه يجب أن تبقى معالم وقواعد تحكم الاجتهاد مهما قيل: إنه تساهل وترخص وتحلل من عروة الدين، لأن هذا هو جوهر الشريعة.

ومما يدل على ذلك أن البخاري في صحيحه عنوان بهذا العنوان كتاب الإكراه، ثم بوب بهذا الباب يمين الرجل لصاحبه إنه أخوه إذا خاف عليه القتل أو نحوه^(٢)، وكذلك كل مكره يخاف فإنه يذب عنه الظالم ويقا تل دونه ولا يخذله فإن قاتل دون المظلوم فلا قود عليه ولا قصاص، وإن قيل له لتشربن الخمر أو لتأكلن الميتة أو لتبيعن عبدك أو تقر بدين أو تهب هبة أو تحل عقدة أو لنقتلن أبك أو أخاك في الإسلام وما أشبه ذلك وسعه ذلك لقول النبي صلى الله عليه و سلم (المُسلِمُ أَخُو المُسلِمِ)^(٣).

وقال بعض الناس لو قيل لتشربن الخمر أو لتأكلن الميتة أو لنقتلن أبك أو

١- أخرجه: مسلم في كتاب المغازي (١٧٤ / ٥) ح (٤٦٥٥).

٢- صحيح البخاري ط ابن كثير (٦ / ٢٥٤٩).

٣- أخرجه: البخاري، كتاب المظالم، باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه، (٢ / ٨٦٢) ح (٢٣١٠)، ومسلم، كتاب الآداب، اب كل المسلم على المسلم حرام. (٨ / ١٠) ح (٦٦٣٣) / ن حديث أبي هريرة.

أباك أو ذا رحم محرم لم يسعه لأن هذا ليس بمضطر . ثم ناقض فقال إن قيل له لنقتلن أباك أو ابنك أو لتبيعن هذا العبد أو لتقرن بدين أو تهب يلزمه في القياس ولكننا نستحسن ونقول البيع والهبة وكل عقدة في ذلك باطل . فرقوا بين كل ذي رحم محرم وغيره بغير كتاب ولا سنة. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (قال إبراهيم لامرأته هذه أختي وذلك في الله)^(١)، وقال النخعي: إذا كان المستحلف ظلماً فنية الحالف وإن كان مظلوماً فنية المستحلف^(٢).

بل وأجاز الشرع الحيل كالمعاريض التي يتخلص بها الإنسان من المآثم أو المكاره، فإذا كانت الحيل لا شبهةً فيها، ولا يترتب عليها مفسدة، وفيها مصلحة، أو رفعُ حرج، أو تيسيرٌ فهذا من الحيل المشروعة.

يقول ابن القيم -رحمه الله-: " فأحسن المخرج ما خُص من المآثم، وأقبح الحيل ما أوقع في المحارم، أو أسقط ما أوجبه الله ورسوله من الحق اللزوم"^(٣).

وعلى هذا فإذا احتال المفتي بشيء مشروع لا شبهةً فيه لتخليص من ورطةٍ أو تصحيح لمعاملة ونحو ذلك فلا حرج عليه إذا حسن قصده.

يقول النووي -رحمه الله-: " وأما من صح قصده فاحتسب في طلب حيلة لا شبهة فيها، لتخليص من ورطة يمين ونحوها فذلك حسن جميل، وعليه يُحمَل ما جاء عن بعض السلف من نحو هذا"^(٤).

وقد كان الصحابة -الذين عاينوا الوحي والتنزيل- يفتون بفتاوى تخص بعض الحوادث بناءً على المصلحة الراجحة، ودفع المفسدة؛ وهذا من الاجتهاد الذي لم يرد فيه نص. وعند التعامل مع الأقليات في الفتوى لا بد من الاحتكام إلى المذاهب التي تنسجم مع حال هذه الأقلية، فلا تلزم هذه الأقلية بمذهب معين، أو تشترط موافقة المذاهب الأربعة الفقهية، وهذا لا يعني تتبع الرخص، أو التساهل في مسائل القطعية، لكن إن وُجد ما يدعو إلى التيسير، وغلب على الظن حصول

١- صحيح البخاري، كتاب الطلاق، باب إذا قال لامرأته وهو مكروه هذه أختي فلا شيء عليه، (٥/٢٠١٧) معلقاً.

٢- صحيح البخاري ط ابن كثير (٦/٢٥٤٩).

٣- إعلام الموقعين، لابن القيم، (٤/٢٢٢).

٤- المجموع، للنووي، (١/٤٦).

المقصود منه، ولم يترتب على الأخذ بالأيسر مصادمة للشريعة، واستند التيسير إلى دليل تفصيلي، ولم تترتب مفسدة عاجلة أو آجلة - جازت الفتيا به وصحت. فمثلاً: "إذا كانت الاعتداءات على مؤسسات وبيوت المسلمين بالهند لا تتوقف، فلا حرج فيما انتهى إليه المجمع الفقهي بالهند إلى جواز التأمين على هذه المؤسسات والبيوت، مع إقرارهم بما فيه من ربا وقمار وغرر... حتى يستطيع المسلمون مواصلة الحياة، وإلا شردوا^(١).

فإذا أفتى العلماء بانتفاء الحرج عن هذه المعاملة فلا غنى بالسلمين عن السعي للدفاع عن بيوتهم ومؤسساتهم بالسبل الشرعية الممكنة، فإذا زالت تلك الضرورة التي رفعت عنهم الحرج والإثم في التعامل بالتأمين التجاري المحرم؛ فإن عليهم ترك تلك المعاملات التي أبيحت استثناءً ولظرف طارئٍ خاص، ولا يتقعد من ذلك حكم بالإباحة، بمعنى: التخيير واستواء الطرفين.

وهكذا ينسحب الكلام على كل ما أبيع للضرورة الملجئة من مسائل الأقليات ومشكلاتها المعاصرة، وهذه القاعدة لها أهميتها في دفع تلك الضرورات، ورفع تلك الإشكالات، في مختلف المجالات المالية والاجتماعية والسياسية على حدٍ سواء.

ما يخص مراعاة المصالح والمفاسد:

إن من ينظر دائماً في فقه الأقليات يحاول أن يتحرى قاعدة المصالح والمفاسد، ولا شك أن الأقلية المسلمة ينبغي أن تراعي هذه القاعدة، فعلى الرغم من أن الشريعة جاءت لجلب مصالح العباد، ودفع المفاسد عنهم إلا أنها وضعت قيوداً وضوابط تضبط هذا الأمر.

فالمَقْصُودُ بمراعاتها لمصالحهم أَنَّهَا تَقْضِي بِتَقْدِيمِ الأَهِمِّ مِنْهَا عَلَى مَا هُوَ دُونَهُ، وبالتزام المفسدة الدنيا لاتقاء الكبرى حينما تتلاقى المصالح والمفاسد في مناطٍ واحد، أو يستلزم إحداهما الأخرى لسببٍ ما.

فَإِذَا تَعَارَضَتِ مَصْلِحَتَانِ فِي مَنَاطٍ وَاحِدٍ بِحَيْثُ كَانَ لِأَحَدٍ لِنَيْلِ إِحْدَاهُمَا مِنْ تَقْوِيَةِ الأُخْرَى نَظَرَ إِلَى قِيَمَتِهَا مِنْ حَيْثُ الذَّاتُ - وَقَدْ وَجَدْنَا أَنَّ كَلِيَّاتِ المَصَالِحِ

١- الضوابط المنهجية لفقه الأقليات المسلمة، بحث للدكتور صلاح سلطان، المجلة العلمية للمجلس الأوروبي للإفتاء عدد (٤)، (ص ٤١).

المُعْتَبَرَةُ شرعاً مندرجة حسب الأهمية في خمس مَرَاتِبٍ وَهِيَ حفظ الدِّينِ وَالنَّفْسِ وَالْعَقْلِ وَالنَّسْلِ وَالْمَالِ - فَمَا بِهِ يَكُونُ حِفْظَ الدِّينِ مَقْدَمٌ عَلَى مَا يَكُونُ بِهِ حِفْظَ النَّفْسِ عِنْدَ تَعَارُضِهِمَا، وَمَا بِهِ يَكُونُ حِفْظَ النَّفْسِ مَقْدَمٌ عَلَى مَا يَكُونُ بِهِ حِفْظَ الْعَقْلِ وَهَكَذَا^(١).

فالأمور ليست كلها على ميزان واحد؛ فبعضها مهم وبعضها أكثر أهمية، وبعضها نتائجها أعظم وفضلها أكثر، والقدرة على تحقيقه في الواقع أقوى، فإذا تعارضت الأمور وضاعت، ولم يمكن تحقيقها جميعاً، إما لضيق الوقت، وإما للعجز عن القيام بذلك كله، وإما للتعارض، فإنه يقدم في ذلك الأهم أو الأولى ثم الذي يليه وهكذا، ويتحدد الأولى من خلال عدة عناصر: الفضل والأهمية، والنتائج المتوقعة، والقدرة على التحقيق والتنفيذ؛ فقد يكون أمر أفضل من أمر، لكن لا قدرة على تحقيقه، فيكون البدء بتنفيذ الأقل فضلاً في هذه الحالة أولى للقدرة على التنفيذ^(٢).

من هَذَا الْبَابِ قَوْلُ الْأُصُولِيِّينَ:

(١) دفع المفسدة أولى من جلب المصلحة.

فمثلاً سفر المرأة المسلمة لطلب العلم من حيث الذهاب إلى بلد غير مسلم، والبقاء هناك بدون محرم، وإنما يرافق في رحلة السفر فقط فهذا مما لا يجوز شرعاً.

وهنا مصلحة أقل وهي طلب العلم، ومفسدة أكبر وهي السفر بدون محرم، وقد جاء عن النبي - صلى الله عليه وسلم - النهي المؤكد عن سفر المرأة بدون محرم. عَنِ ابْنِ عُمَرَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لَا تُسَافِرِ الْمَرْأَةُ ثَلَاثًا، إِلَّا وَمَعَهَا ذُو مَحْرَمٍ^(٣).

فهذا نهى لسد الذريعة، لما يفضي إليه من فساد يتمثل في النظر إليها والخلوة

١- رعاية المصلحة والحكمة في تشريع نبي الرحمة (صلى الله عليه وسلم) (ص: ٢٤٥).

٢- الفصل في أحكام الهجرة (٤/٤٣٢).

٣- أخرجه: البخاري في أبواب تقصير الصلاة باب في كم يقصر الصلاة (١/٣٦٨) ح (١٠٣٦)، ومسلم في كتاب الحج (٤/١٠٢) ح (٣٢٣٧).

بها واحتمال الوقوع في الفاحشة.

(٢) وَيَقُولُونَ: يجوز ترك واجب لفعل الأوجب أو السُّكُوت على مفسدة لدفع مفسدة أكبر عند تعذر تحصيل جميع الواجبات أو دفع جميع المفاسد^(١).

فقد أباح الكذب في حالات وقوع مفسدة أكبر، والدليل على جواز الكذب في حالات ما روي عن أم كلثوم بنت عقبة قالت: مَا سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرْخِصُ فِي شَيْءٍ مِنَ الْكُذْبِ إِلَّا فِي ثَلَاثٍ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "لَا أَعْدَهُ كَاذِبًا الرَّجُلُ يَصْلُحُ بَيْنَ النَّاسِ يَقُولُ الْقَوْلَ وَلَا يَرِيدُ بِهِ إِلَّا الْإِصْلَاحَ وَالرَّجُلُ يَقُولُ فِي الْحَرْبِ وَالرَّجُلُ يُحَدِّثُ أَمْرَاتِهِ وَالْمَرْأَةُ تَحَدِّثُ زَوْجَهَا"^(٢).

فالكذب للإصلاح بين الناس أو التوفيق بين المرأة وزوجها أو في أمور الحرب كل ذلك جائز • بل يكون واجباً دفعاً للآثم إذ لو صدق في هذه المواطن

- ١- رعاية المصلحة والحكمة في تشريع نبي الرحمة (صلى الله عليه وسلم) (ص: ٢٤٧).
 - ٢- أخرجه: أبو داود في كتاب الأدب باب في إصلاح ذات البين (ج ٢/ص ٦٩٨) ح(٤٩٢١)، والنسائي في الكبرى كتاب الشهادات باب من يظن به الكذب وله مخرج منه لم يلزمه اسم كذاب (ج ١٠/ص ١٩٧) ح(٢٠٦٢٢)، والبخاري في الأدب المفرد (ص ١٣٩) ح(٣٨٥)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (ص: ٥٦٩) ح(٦١٣)، وابن أبي عاصم في الأحاد والثاني (٥/ ٤٧٩) ح(٣١٧٥)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٧/ ٣٦٢) ح(٢٩٢٢).
- دراسة إسناد أبي داود:
- الربيع بن سليمان بن داود الجيزي أبو محمد الأزدي المصري الأعرج ثقة من الحادية عشرة مات سنة ست وخمسين. (تقريب التهذيب (ص: ٢٠٦) ت(١٨٩٣).
- النضر بن عبد الجبار المرادي مولاهم المصري أبو الأسود مشهور بكنيته ثقة من كبار العاشرة مات سنة تسع عشرة وله أربع وسبعون. (تقريب التهذيب (ص: ٥٦٢) ت(٧١٤٣).
- نافع بن يزيد الكلاعي بفتح الكاف واللام الخفيفة أبو يزيد المصري يقال إنه مولى شرحبيل ابن حسنة ثقة عابد من السابعة مات سنة ثمان وستين. (تقريب التهذيب (ص: ٥٥٩) ت(٧٠٨٤).
- يزيد ابن عبد الله ابن أسامة ابن الهاد الليثي أبو عبد الله المدني ثقة مكث من الخامسة مات سنة تسع وثلاثين. (تقريب التهذيب (ص: ٦٠٢) ت(٧٧٣٧).
- عبد الوهاب بن أبي بكر المدني وكيل الزهري ثقة من السابعة قال أبو داود هو ابن بخت وقال الدارقطني من زعم أنه عبد الوهاب ابن بخت فقد أخطأ. (تقريب التهذيب (ص: ٣٦٨) ت(٤٢٥٥).
- محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب بن عبد الله بن الحارث بن زهرة بن كلاب القرشي الزهري [وكنيته] أبو بكر الفقيه الحافظ متفق على جلالته وإتقانه [وثبته] وهو من رؤوس الطبقة الرابعة مات سنة خمس وعشرين وقيل قبل ذلك بسنة أو سنتين. (تقريب التهذيب (ص: ٥٠٦) ت(٦٢٩٦).
- حميد بن عبد الرحمن بن عوف الزهري المدني ثقة من الثانية مات سنة خمس ومائة على الصحيح وقيل إن روايته عن عمر مرسلة. (تقريب التهذيب (ص: ١٨٢) ت(١٥٥٢).
- أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط الأموية أسلمت قديما وهي أخت عثمان لأمه صحابية لها أحاديث ماتت في خلافة علي. (الإصابة في تمييز الصحابة (٨/ ٤٦٢) ت(١٢٢٣١)، تقريب التهذيب (ص: ٧٥٨) ت(٨٧٦٠).
- الحكم على الإسناد:
- إسناد صحيح رجاله ثقات، وقال الألباني: صحيح. (صحيح الجامع الصغير وزيادته (٢/ ١٢٠٤) ح(٧١٧٠).

-التي ذكرناها- لأثم إثم المتسبب إلى تحقيق هذه المفسد.

ومن أعظم الأحاديث التي تقوم بتأصيل هذا المبحث حديث عائشة قالت : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يَا عَائِشَةُ لَوْلَا قَوْمُكَ حَدِيثُ عَهْدِهِمْ بِكُفْرِ لَنَقَضْتُ الْكُعْبَةَ، فَجَعَلْتُ لَهَا بَابَيْنِ بَابٌ يَدْخُلُ النَّاسُ، وَبَابٌ يَخْرُجُونَ، فَفَعَلَهُ ابْنُ الزُّبَيْرِ (١).

قال النووي: ^١ فيه أنه إذا تعارضت مصلحة ومفسدة، وتعذر الجمع بين فعل المصلحة وترك المفسدة بدأ بالأهم، لأن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر أن رد الكعبة إلى قواعد إبراهيم عليه السلام مصلحة، ولكن يعارضه مفسدة أعظم منه، وهي خوف فتنة بعض من أسلم قريباً لما كانوا يرون تغييرها عظيمًا فتركها النبي صلى الله عليه وسلم ^(٢).

وفيه تأليف قلوبهم وحسن حياتهم وأن لا ينفروا ولا يتعرض لما يخاف تنفيرهم بسببه ما لم يكن فيه ترك أمر شرعي ^(٣).

وفيه تعلق ولي الأمر بمصالح رعيته، وتركه ما يخاف منه تولد الضرر.

ففي هذا الحديث مفسدتان ومصليحتان متعارضتان : فالمفسدة الأولى ترك البيت على وضعه الراهن . والثانية : افتتاح الناس بهدم البيت، فارتكبت أدناهما وهي تركه على وضعه الراهن . وأما المصلحتان : فالأولى : بناء البيت على قواعد إبراهيم . والثانية : مصلحة عدم افتتاح الناس عن الإسلام وتأليفهم عليه إلى أن يقر الإيمان في قلوبهم، ولاشك أن المصلحة الثانية هي الكبرى، فلما تعارضتا روعي أكبرهما بتفويت أدناهما، فترك البيت كما هو مراعاةً لمصلحة تأليف الناس على الإسلام، والله أعلم ^(٤).

وبالجملة فقد اعتبر كثير من العلماء هذا الحديث وغيره من أعمدة الموازنة

بين المصالح .

- ١- أخرجه: البخاري في كتاب العلم، باب من ترك بعض الأخبار مخافة أن يقصر فهم بعض الناس عنه، فيقعوا في أشد منه ٣٧/١ ح(١٢٦)، ومسلم في كتاب الحج (٩٦٨/٢) ح(١٣٣٣).
- ٢- شرح النووي على مسلم (٩/٩٢).
- ٣- عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٣/٤١٦).
- ٤- تلقيح الافهام العلية بشرح القواعد الفقهية - (ج ٣/ ص ١٣).

المبحث الثاني

التأصيل النبوي لفقه الأقليات في أمور العبادات

لا شك أن العبادة هي أهم ما يشغل المسلم الذي ابتعد عن أهله وبلده، لا سيما إذا كان بين مجتمع لا تعنيه عبادته، وقد يعرض له في هذه البلاد ما يحتاج معرفته في هذا البلد أذكر منها:

التأصيل لوقت الصلاة:

التأصيل لموضوع الصلاة في البلاد التي ينعدم فيها تحديد وقت الصلاة مثل البلاد التي لا تغيب عنها الشمس لفترة ستة أشهر تقريباً، ثم تغيب مطلقاً بقية السنة.

وهذه ينسحب عليها حديث (الدجال)، فيقدر أهلها للصلوات الخمس، حيث يؤديونها كاملة في كل أربع وعشرين ساعة، معتمدين في ذلك على أقرب البلاد إليهم، والتي تتميز فيها أوقات الصلوات المفروضة بعضها عن بعض، وعليهم أن يوزعوها على أوقاتها اعتباراً بالأبعاد الزمنية التي بين كل صلاتين.

فعن النواس بن سمعان (رضي الله عنه) عن الدجال قال: ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) الدَّجَالَ ذَاتَ غَدَاةٍ، فَخَفَّضَ فِيهِ وَرَفَعَ حَتَّى ظَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ. فَلَمَّا رُحْنَا إِلَيْهِ، عَرَفَ ذَلِكَ فِينَا، فَقَالَ: ((مَا شَأْنُكُمْ؟)) قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ذَكَرْتَ الدَّجَالَ الْغَدَاةَ، فَخَفَّضْتَ فِيهِ وَرَفَعْتَ، حَتَّى ظَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ، فَقَالَ: ((غَيْرَ الدَّجَالِ أَخَوْفَنِي عَلَيْكُمْ، إِنْ يَخْرُجُ وَأَنَا فِيكُمْ، فَأَنَا حَجِيجُهُ دُونَكُمْ؛ وَإِنْ يَخْرُجُ وَلَسْتُ فِيكُمْ، فَأَمْرٌ حَجِيجُ نَفْسِهِ، وَاللَّهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ. إِنَّهُ شَابُّ قَطَطٍ عَيْنُهُ طَافِيَةٌ، كَأَنِّي أَشْبَهُهُ بَعْدَ الْعَزِيِّ بْنِ قَطَنٍ، فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ، فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ؛ إِنَّهُ خَارِجٌ خَلَّةٍ بَيْنَ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ، فَعَاتِ يَمِينًا وَعَاتِ شِمَالًا، يَا عِبَادَ اللَّهِ فَاثْبِتُوا)) قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا لِبَيْتِهِ فِي الْأَرْضِ؟ قَالَ: ((أَرْبَعُونَ يَوْمًا: يَوْمَ كَسَنَةِ، وَيَوْمَ كَشَنُورٍ، وَيَوْمَ كَجْمَعَةٍ، وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ)) قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَسَنَةَ أَتَكْفِينَا فِيهِ صَلَاةَ يَوْمٍ؟ قَالَ: ((لَا، اقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ))....

الحديث^(١).

فهنا سأل الصحابة عن أعظم العبادات عن كيفية الصلاة فبين لهم كيفية الصلاة.

قال القاضي وغيره: هذا حكم مخصوص بذلك اليوم شرعه لنا صاحب الشرع، قالوا: ولولا هذا الحديث ووكلنا إلى اجتهادنا لاقتصرنا فيه على الصلوات الخمس عند الأوقات المعروفة في غيره من الأيام.

ومعنى أقدروا له قدره أنه إذا مضى بعد طلوع الفجر قدر ما يكون بينه وبين الظهر كل يوم فصلوا الظهر، ثم إذا مضى بعده قدر ما يكون بينها وبين العصر فصلوا العصر وإذا مضى بعد هذا قدر ما يكون بينها وبين المغرب فصلوا المغرب وكذا العشاء والصبح ثم الظهر ثم العصر ثم المغرب وهكذا حتى ينقضي ذلك اليوم، وقد وقع فيه صلوات سنة فرائض كلها مؤداة في وقتها. وأما الثاني الذي كشهر. والثالث الذي كجمعة فقياس اليوم الأول أن يقدر لهما كالיום الأول^(٢). ويقاس على ذلك سائر الأحكام المتعلقة بالأيام والأهلة، من عدة وصوم وزكاة.

ومما قد يضرب مثلاً تطبيقاً ما قد يسأل عنه في صلاة الجمعة وجوازها قبل الزوال لحاجة تتعلق بضيق الوقت حيث يقصر النهار في بعض البلاد القريبة من القطب، ولا سيما في الشتاء، ومنهم من لا يجد فرصة بسبب دراسته أو عمله إلا في وقت مبكر قبل الزوال.

وقد ذهب الحنابلة إلى جوازها قبيل الزوال بيسير قال ابن قدامة: "وفي بعض النسخ في الساعة الخامسة، والصحيح في الساعة السادسة، وظاهر كلام الخرقى أنه لا يجوز صلاتها فيما قبل السادسة، وروي عن ابن سعد وجابر وسعيد ومعاوية أنهم صلوا قبل الزوال" وقال ابن قدامة: "ولنا على جوازها في السادسة السنة والإجماع"^(٣).

١- مسلم في كتاب الفتن (٤ / ٢٢٥٠) ح (٢٩٣٧).

٢- شرح النووي على مسلم (١٨/٦٦)، ومرواة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١٥ / ٤٩٣).

٣- المغني، لابن قدامة، (٣ / ٢٣٩).

التأصيل لجمع الصلاة لحاجة :

لا أقصد به جمع السفر، أو المطر، أو المرض، وإنما الجمع الذي يرفع الحرج والمشقة في غير الأعذار السابقة.

فمثلاً هناك بعض البلاد يتأخر فيها غياب الشفق إلى ما بعد منتصف الليل في بعض أيام السنة، وهناك بلاد يطول فيها بعض أشهر السنة، ويقصر الليل إلى أربع ساعات، وهناك الموظف والطالب الذي لا يتمكن من أداء الصلوات في أوقاتها لتتابع العمل وضيق الوقت المخصص للراحة، وهناك الشيخ العجوز والصبي.

فجميع هؤلاء يجدون حرجاً وعسراً ومشقة في أداء بعض الصلوات في أوقاتها المحددة شرعاً، وخاصة أنهم في بلاد غير إسلامية، لا تراعي شعور المسلم في ذلك ولا تقيم لعبادته وزناً ولا اعتباراً.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ : جَمَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ، وَالْمَغْرَبِ وَالْعِشَاءِ بِالْمَدِينَةِ، فِي غَيْرِ خَوْفٍ، وَلَا مَطَرٍ.

فِي حَدِيثٍ وَكَيْعٍ : قَالَ : قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ : لِمَ فَعَلَ ذَلِكَ ؟ قَالَ : كَيْ لَا يُحْرَجَ أُمَّتُهُ، وَفِي حَدِيثِ أَبِي مُعَاوِيَةَ : قِيلَ لِابْنِ عَبَّاسٍ : مَا أَرَادَ إِلَيَّ ذَلِكَ ؟ قَالَ : أَرَادَ أَنْ لَا يُحْرَجَ أُمَّتُهُ (١).

فدل الحديث على جواز الجمع الحقيقي، بشرط تحقق الحرج والمشقة عند عدم الجمع، لقوله : (أراد أن لا يحرج أمته)، ومن هذا الحديث استنتج الجمهور جواز الجمع للمرض وما في معناه. وقالوا : (إن مشقة المرض فيه أشد من المطر) (٢).

فإذا جاز الجمع بسبب المرض لما في الصلاة بوقتها معه من المشقة، جاز بأي عذر يترتب على ترك الجمع ضيق وحرج لا يحتمل، ويشترط ألا يتخذ ذلك عادة، وألا يتوسع فيه.

التأصيل لجواز الصلاة على الغائب .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَعَى لِلنَّاسِ النَّجَاشِيَّ فِي الْيَوْمِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، فَخَرَجَ بِهِمْ إِلَى الْمَصَلِيِّ، وَكَبَّرَ أَرْبَعَ تَكْبِيرَاتٍ (٣).

١- أخرجه: مسلم في كتاب الصلاة (١٥٢/٢) ح (١٥٧٦).

٢- شرح النووي على مسلم (٢١٨/٥)، ومعالم السنن (١/٢٦٤).

٣- أخرجه: البخاري في كتاب الجنائز باب الرجل ينعى إلى أهل الميت بنفسه (١/٤٢٠) ح (١١٨٨)، وفي باب التكبير على الجنازة أربعاً، ومسلم في كتاب الجنائز (٣/٥٤) ح (٢١٦٢).

التأصيل لاحترام جنازة غير المسلم :

من احترام الإسلام لجنازة غير المسلمين تشريع القيام لجنازة الكافر، فقد ثبت ذلك في السنة، فعن جابر بن عبد الله، قال : مرّت جنازة، فقام لها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقمنا معه فقلنا : يا رسول الله، إنها يهودية، فقال : إن الموت فزع، فإذا رأيتم الجنازة فقوموا^(١). فالمسلم أينما حل وارتحل يحترم الموت ويقدره.

ومن الأمثلة التطبيقية جاءت أحاديث النهي عن إقامة الحدود في أرض العدو: عن جنادة بن أبي أمية قال كنا مع بسر بن أرطاة في البحر فأتى بسارق يُقال له مصدر قد سرق بختية - البختية : الناقة طويلة العنق ذات السنامين - فقال قد سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول « لا تقطع الأيدي في السفر ». ولولا ذلك لقطعت^(٢).

المبحث الثالث

التأصيل لفقهاء الأقليات في المعاملات، وأمور الحياة اليومية

إن الإسلام دين استوعب الحياة كلها بتشريعاته، فنظم علاقة الإنسان بخالقه، وعلاقة الناس بعضهم ببعض، أفراداً وجماعات. ولما كان الإنسان لا تسعه العزلة، ولا يمكنه أن يحقق أمور معاشه إلا من خلال تبادل المنافع مع الآخرين، فقد وضع الشرع ضوابط تحكم أمور التعامل، وبنائها على أسس سليمة قائمة على الحق والعدل، دونما حرج أو عنت. ويدل على ذلك ما روته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم اشترى من يهودي طعاماً إلى أجل، ورهنه درعه^(٣).

١ - أخرجه: البخاري في كتاب الجنائز باب من قام لجنازة يهودي (١/ ٤٤١) ح (١٢٤٩)، ومسلم في كتاب الجنائز (٣/ ٥٧) ح (٢١٨١).

٢ - أخرجه: أبو داود في كتاب الحدود، باب السارق يسرق في الغزو يقطع (٤/ ٢٤٦) ح (٤٤١٠)، والنسائي في كتاب الحدود، باب القطع في السفر (٨/ ٤٦٦) ح (٤٩٩٤)، وأحمد في المسند (٢٩/ ١٦٨) ح (١٧٦٢٦).

٣ - أخرجه: البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب ما قيل في درع النبي I والقميص في الحرب ... ١٠٦٨/٣ ح (٢٧٥٩) وفي كتاب المغازي، باب وفاة النبي I ١٦٢٠/٤ ح (٤١٩٧)، ومسلم في كتاب المساقاة، (٣/ ١٢٢٥) ح (١٦٠٣)، والنسائي في كتاب البيوع، باب مياعة أهل الكتاب ٣٠٣/٧ ح (٤٦٥٠)، وابن ماجه في كتاب الرهون -، باب (١) ٨١٥/٢ ح (٢٤٣٦)، والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٢٢٧/٦ ح (٢٦٠٤٠)، وابن حبان كما في الإحسان - كتاب الأضحية - ذكر خبر قد شنع به بعض المعطلة على أهل الحديث حيث حرموا التوفيق لإدراك معناه ٢٦٢/١٣ ح (٥٩٣٦).

فالحديث أصل في جواز معاملة غير المسلمين إذا لم يكونوا محاربين في البيع، والشراء، والرهن، والإجارة ونحو ذلك. وهذا فقه عظيم فالآن يتعامل المسلمون مع اليهود والنصارى بيعاً وشراءً والحديث بين لهم حكم الرهن لهم، وحكم هذا التعامل. ولا شك أن بعض اليهود حاولوا قتله، ومع ذلك لم يأخذ الكل بجريرة بعضهم، وإنما تعامل مع هذا اليهودي الذي يبيع الطعام، فما أعظم هذا الدين الإسلامي، وما أعظم رسوله ﷺ الذي بين لنا كيفية التعامل مع اليهود المسلمين. والتعامل مع هؤلاء يجعلهم يستشعرون عظمة الإسلام، ويجعل من هؤلاء الذميين عناصر صالحة تعمل وتعطي دون خوف أو وجل.

عَنْ أَنَسٍ مِنْ آلِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ صَفْوَانَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ « يَا صَفْوَانُ هَلْ عِنْدَكَ مِنْ سِلَاحٍ ». قَالَ عَارِيَةَ أُمُّ غَضَبًا قَالَ « لَا بَلْ عَارِيَةَ ». فَأَعَارَهُ مَا بَيْنَ الثَّلَاثِينَ إِلَى الْأَرْبَعِينَ دَرْعًا وَغَزَا رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- حُنَيْنًا فَلَمَّا هَزَمَ الْمُشْرِكُونَ جُمِعَتْ دُرُوعُ صَفْوَانَ فَفَقَدَ مِنْهَا أَدْرَاعًا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لَصَفْوَانَ « إِنَّا قَدْ فَقَدْنَا مِنْ أَدْرَاعِكَ أَدْرَاعًا فَهَلْ نَغْرَمُ لَكَ ». قَالَ لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ لَأَنَّ فِي قَلْبِي الْيَوْمَ مَا لَمْ يَكُنْ يَوْمَئِذٍ. قَالَ أَبُو دَاوُدَ وَكَانَ أَعَارَهُ قَبْلَ أَنْ يُسَلَّمَ ثُمَّ أُسْلِمَ (١).

١- أخرجه: أبو داود في كتاب الإجارة باب في تضمين العارية (٣/ ٣٢١) ح (٣٥٦٥)، وأحمد في المسند (٢٩/ ٤٧١) ح (١٧٩٥٠).

دراسة إسناد أبي داود:

عبد الله بن محمد بن أبي شيبه إبراهيم ابن عثمان الواسطي الأصل أبو بكر ابن أبي شيبه الكوفي ثقة حافظ صاحب تصانيف من العاشرة مات سنة خمس وثلاثين ومائتين. (تقريب التهذيب (ص: ٣٢٠) ت (٣٥٧٥).

جرير بن عبد الحميد بن قرط بضم القاف وسكون الراء بعدها طاء مهمله الضبي الكوفي نزيل الري وقاضيها ثقة صحيح الكتاب قيل كان في آخر عمره بهم من حفظه مات سنة ثمان وثمانين وله إحدى وسبعون سنة. (تقريب التهذيب (ص: ١٣٩) ت (٩١٦).

عبد العزيز بن ربيع بفاء مصغر الأسدي أبو عبد الله المكي نزيل الكوفة ثقة من الرابعة مات سنة ثلاثين [ومائة] ويقال بعدها وقد جاوز التسعين. (تقريب التهذيب (ص: ٣٥٧) ت (٤٠٩٥).

أنس من آل عبد الله بن صفوان

صفوان ابن أمية ابن خلف ابن وهب ابن قدامة ابن جمح القرشي الجمحي المكي صحابي من المؤلفات أيام قتل عثمان وقيل سنة إحدى أو اثنتين وأربعين في أوائل خلافة معاوية. (تقريب التهذيب (ص: ٢٧٦) ت (٢٩٣٢)، الإصابة في تمييز الصحابة (٣/ ٢٤٩) ت (٤٠٩٣).

الحكم على الإسناد:

إسناد صحيح رجاله ثقات، وقال الشيخ شعيب: صحيح (تحقيق مسند أحمد)، وقال الألباني: صحيح (السلسلة الصحيحة (٢/ ٢٠٧) ح (٦٣١).

فدلت الواقعة على جواز الاستعارة من الكفار، لأنها من جملة العقود، والإسلام ليس شرطاً في العاقدين، ثم الأصل في المعاملات الإذن والإباحة، إلا ما دل الدليل على التحريم، ولا دليل هنا.

العادات والحياة اليومية:

فلم يكن من هديه صلى الله عليه وسلم عزل المخالف ولا الاشمئزاز منه ولا التنفير عنه؛ بل كان يخالطهم ويصبر على أذاهم ويريهم سماحة الإسلام وعدله وبره؛ ومن ذلك:

عيادة المريض:

كما في البخاري عن أنس رضى الله عنه «أن غلاماً ليهود كان يخدم النبي صلى الله عليه وسلم فمرض فأثاه النبي صلى الله عليه وسلم يعودته فقال: (أسلم) فأسلم»^(١).

الأكل من طعامهم ونكاح نسائهم:

قال تعالى: ﴿أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ وَالْمُؤْمِنَاتُ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ (سورة المائدة: ٥٠).

وفي السنة أن النبي صلى الله عليه وسلم أكل من طعامهم ومن ذلك: عن أنس، أن امرأة يهودية أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم بشاة مسمومة، فأكل منها، فجيء بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسألها عن ذلك؟ فقالت: أردت لأقتلك، قال: ما كان الله ليسطك على ذاك قال: أو قال، علي قال قالوا: ألا نقلتها؟ قال: لا، قال: فما زلت أعرفها في لهوات رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٢).

فأنت ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم أكل من طعام اليهودية، بل من ذبيحتها، وهذا من باب التيسير على الأمة وخصوصاً الذين يعيشون أقلية في بلاد أهل الكتاب.

١- أخرجه: البخاري في كتاب الطب باب عيادة المشرك (٢١٤٢/٥) ح (٥٣٣٣).

٢- أخرجه: البخاري في كتاب الهبة وفضلها باب قبول الهدية (٩٢٣/٢) ح (٢٤٧٤)، ومسلم في كتاب الطب (٧/١٤) ح (٥٧٥٦).

تأصيل فقهه الأقبليات من خلال السنة النبوية

وَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ، قَالَ : كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَلَاثِينَ وَمِئَةً، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : هَلْ مَعَ أَحَدٍ مِنْكُمْ طَعَامٌ ؟ فَإِذَا مَعَ رَجُلٍ صَاعٌ مِنْ طَعَامٍ، أَوْ نَحْوَهُ، فَعَجَنَ ثُمَّ جَاءَ رَجُلٌ مُشْرِكٌ مُشْعَانٌ طَوِيلٌ بَغَمٌ يَسُوقُهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَبِيعْ أَمْ عَطِيَّةٌ ؟، أَوْ قَالَ : أَمْ هِبَةٌ ؟ فَقَالَ : لَا بَلْ بَيْعٌ، فَاشْتَرَى مِنْهُ شَاةً، فَصَنَعَتْ وَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِسَوَادِ الْبَطْنِ أَنْ يُشَوَّى، قَالَ : وَائِمُّ اللَّهِ، مَا مِنَ الثَّلَاثِينَ وَمِئَةً إِلَّا حَزَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِزَّةً حِزَّةً مِنْ سَوَادِ بَطْنِهَا، إِنْ كَانَ شَاهِدًا أَعْطَاهُ، وَإِنْ كَانَ غَائِبًا خَبَأَ لَهُ، وَجَعَلَ قِصْعَتَيْنِ فَأَكَلْنَا مِنْهُمَا أَجْمَعُونَ وَشَبِعْنَا، وَفَضَلَ فِي الْقِصْعَتَيْنِ، فَحَمَلْتَهُ عَلَى الْبَعِيرِ، أَوْ كَمَا قَالَ (١).

الهدية إليهم:

الهدية إلى المشرك جائزه وهذا ما فعله الصحابة وفهموه، فعن عبد الله بن عمرو أنه ذبح شاة فقال أهديتم لجاري اليهودي فإني سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول « ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » (٢).

صلة ذوي القربى من غير المسلمين:

فصلة الرحم لا يمنع منها اختلاف الدين، بل الأجر فيها ثابت والثواب حاصل.

عَنْ أَسْمَاءَ، قَالَتْ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ أُمِّي قَدِمَتْ عَلَيَّ وَهِيَ رَاغِبَةٌ، أَوْ رَاهِبَةٌ أَفَأَصِلُهَا، قَالَ : نَعَمْ (٣).

قال محمد بن الحسن: يجب على الولد المسلم نفقة أبويه الذميين لقوله تعالى: ﴿وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ (سورة تقيان: ١٥)، وليس من المصاحبة بالمعروف أن يتقلب في نعم الله، ويدهما يموتان جوعاً، والنوازل والأجداد والجندات من

١- أخرجه: البخاري في كتاب الهبة وفضلها باب قبول الهدية (٢/ ٩٢٣) ح (٢٤٧٥)، ومسلم في كتاب الأطعمة (٦/ ١٢٩) ح (٥٤١٤).
٢- أخرجه: البخاري في كتاب الأدب باب الوصاءة بالجار (٥/ ٢٢٣٩) ح (٥٦٦٩)، ومسلم في كتاب الآداب (٨/ ٣٦) ح (٦٧٨٠)، أبو داود في كتاب الأدب باب في حق الجوار (٤/ ٥٠٤) ح (٥١٥٤)، واللفظ لأبي داود.
٣- أخرجه: البخاري في كتاب الهبة وفضلها باب الهدية للمشركين (٢/ ٩٢٤) ح (٢٤٧٧)، ومسلم في كتاب الزكاة (٣/ ٨١) ح (٢٢٨٧).

قبل الأب والأم بمنزلة الأبوين في ذلك، استحقاقهم باعتبار الولاد بمنزلة استحقاق الأبوين. ١.١هـ^(١).

فالإسلام حافظ على الصلات بين الأقارب، فراعى مشاعر المسلم ومشاعر غيره. ولكن ينبغي أن يعلم أن الحكم الشرعي ثابت متى اتحدت صورة المسألة وعلّة الحكم، سواء كان ذلك في دار إسلام أو دار كفر، ومتغير عند تغير المناط سواء كان ذلك في دار إسلام أو دار كفر، بمعنى أنّ المسألة محلّ التطبيق يختلف حكمها باختلاف مناط الحكم فيها لا لكون المخاطب بها أقلية مسلمة تعيش في ظل دولة كفر، أو أكثرية مسلمة تعيش في ظل دولة إسلام. ومن الأمثلة التطبيقية على ما ذكرت:

أن المجمع الفقهي التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي قد أفتى، بحرمة العمل في المطاعم من غير ضرورة (أي المطاعم التي تقدم الخمر والخنزير)، وحرمة تصميم معابد شركية، أو الإسهام فيها.

وأما إذا اضطر للعمل في تلك المطاعم فيجوز، بشرط ألا يباشر نفسه سقي الخمر أو حملها، أو صنعها، أو الاتجار بها، وكذلك الحال بالنسبة لتقديم لحوم الخنزير، ونحوها من المحرمات.

الخاتمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسوله الله صلى الله عليه وسلم. بعد هذه الرحلة العلمية التي حاولنا من خلالها التأكيد على أن فقه الأقليات له أصل في السنة ظهر من خلال البحث ما يلي:

- (١) شمولية الأحكام الشرعية وعمقها.
- (٢) جواز الإقامة بين ظهراي غير المسلمين بشرط توفر الحرية الدينية.
- (٣) الأصل في العلاقة مع غير المسلمين السلم، وأما الحرب فهي طارئة تزول بزوال أسبابها.

١- المبسوط (١٠٥/٤).

- (٤) أن الشريعة الإسلامية الغراء صالحة لأهل كل زمان مضى أو سيأتي، ولكل مكان؛ اقترب أو نأى عن ديار الإسلام.
- (٥) أنه ينبغي النظر إلى وجود الأقليات المسلمة اليوم على أنها سفارات إسلامية، تُعرف بحقائق الإسلام، وليست مجرد مجموعة مشكلات معقدة التركيب.
- ومن هنا أوصي بالتالي:

- (١) على المسلمين أن يستغلوا وجودهم في ديار غير المسلمين في الدعوة إلى الله، من خلال تصحيح المفاهيم عن الإسلام، بالفكر والسلوك، وبشتى الطرق المتاحة والممكنة.
- (٢) أن يعملوا بشكل دائم قبل كل شيء على وحدة الصف الإسلامي، ونبذ التفرق والتشتت، فإن في ذلك قوة وظهوراً، وخروجاً من الظل إلى معترك الحياة، وإثباتاً للوجود المسلم هناك، وبالتالي الحصول على كثير من الحقوق.
- (٣) الاعتزاز بالدين وبما جاء به من تكاليف، وأن المسلم هو الأعلى بما يحمله من قيم وأفكار ومناهج، وبما يقوم به من سلوكيات موافقة لمعتقده، وأن يتجنب الاعتزاز بالدنيا وزينتها، فما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع الغرور.
- (٤) عدم الركون والرضا بما هم عليه من شرك ومعاصي، فإن أقل أحوال تغيير المنكر إنكاره بالقلب، وليس بعد ذلك مثقال ذرة من إيمان. وليعلم المسلم أن حسن الخلق مع المخالفين، ليس في الموالاتة المحرمة، وأن قيمة الإنسان بقيمة عقيدته.

المراجع

- (١) القرآن الكريم.
- (٢) الأحاد والمثاني لأبي بكر بن أبي عاصم المحقق: د. باسم فيصل أحمد الجوابرة الناشر: دار الراية - الرياض الطبعة: الأولى، ١٤١١ - ١٩٩١
- (٣) الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان - للأمير علاء الدين بن علي بن بلبان الفارسي - ط/ مؤسسة الرسالة - بيروت - الثانية - ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م - الثانية - تحقيق/ شعيب الأرنؤوط .

- (٤) أحكام القرآن للجصاص ط١، (تحقيق: محمد علي شاهين)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.
- (٥) إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل للألباني إشراف: زهير الشاويش ط: المكتب الإسلامي - بيروت الطبعة: الثانية ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.
- (٦) الإصابة.
- (٧) الإلمام بأحاديث الأحكام لابن دقيق العيد حقق نصوصه وشرح غريبه: محمد خلوف العبد الله ط: دار النوادر، سوريا الطبعة: الأولى، ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م.
- (٨) البحر المحيط في أصول الفقه - للزركشي، ط: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.
- (٩) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ط: دار الكتب العلمية - بيروت دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ
- (١٠) تحفة المحتاج في شرح المنهاج لابن حجر الهيتمي روجعت وصححت: على عدة نسخ بمعرفة لجنة من العلماء الناشر: المكتبة التجارية الكبرى بمصر لصاحبها مصطفى محمد.
- (١١) التعريفات للجرجاني ط: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان الأولى ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م تحقيق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر.
- (١٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ط٢، (قدم له: عبد القادر الأرناؤوط)، مكتبة دار الفيحاء، دمشق، ومكتبة دار السلام، الرياض، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م.
- (١٣) تقريب التهذيب لابن حجر المحقق: محمد عوامة ط: دار الرشيد - سوريا الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ - ١٩٨٦.
- (١٤) تلقيح الأفهام العلية بشرح القواعد الفقهية لوليد بن راشد السعيدان راجعه وعلق عليه: الشيخ سلمان بن فهد العودة بون طبعة.
- (١٥) الجامع الصحيح المسند المختصر من أمور رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وسننه وأيامه وهو (صحيح البخاري) - للبخاري ط/ دار ابن كثير اليمامة بيروت الثالثة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م تحقيق / مصطفى ديب البغا .

- (١٦) الجامع الصحيح، هو سنن الترمذي لأبي عيسى بن سورة، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. دار الكتب العربية. بيروت - لبنان.
- (١٧) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- (١٨) حاشيتي قليوبي وعميرة المؤلف: أحمد سلامة القليوبي وأحمد البرلسي عميرة ط: دار الفكر - بيروت ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
- (١٩) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء - لأبي نعيم الأصبهاني - ط/ دار الكتاب العربي - بيروت - الرابعة ١٤٠٥هـ.
- (٢٠) رعاية المصلحة والحكمة في تشريع نبي الرحمة (صلى الله عليه وسلم) لمحمد طاهر حكيم ط: الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة الطبعة: العدد ١١٦، السنة ٣٤، ١٤٢٢هـم ٢٠٠٢م.
- (٢١) سبل السلام للصنعاني ط: دار الحديث بدون طبعة وبدون تاريخ.
- (٢٢) السلسلة الصحيحة لمحمد ناصر الدين الألباني ط: مكتبة المعارف - الرياض.
- (٢٣) سنن ابن ماجه، لابن ماجه القزويني، حقق نصوصه محمد فؤاد عبد الباقي. مطبعة دار إحياء الكتب العربية.
- (٢٤) سنن أبي داود - لأبي داود بن الأشعث - ط/ دار الفكر - تحقيق / محمد محيى الدين عبد الحميد .
- (٢٥) سنن الدارمي - لأبي محمد الدارمي ط/ دار الكتاب العربي - بيروت - الأولى ١٤٠٧هـ - تحقيق / فواز أحمد زمرلي - وخالد السبع العلمي .
- (٢٦) السنن الكبرى - لأبي بكر البيهقي ط/ مكتبة دار الباز - مكة المكرمة - ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م - تحقيق / محمد عبد القادر عطا .
- (٢٧) سنن النسائي المجتبى - لأبي عبد الرحمن النسائي - ط/ مكتبة المطبوعات - حلب - الثانية - ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦ - تحقيق / الشيخ عبد الفتاح أبو غدة.

- (٢٨) شرح القسطلاني = إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري للقسطلاني ط: المطبعة الكبرى الأميرية، مصر السابعة، ١٣٢٣ هـ.
- (٢٩) شرح صحيح البخاري لابن بطال ط: مكتبة الرشد - السعودية، الرياض الطبعة: الثانية، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م تحقيق: أبي تميم ياسر بن إبراهيم.
- (٣٠) شرح مشكل الآثار لأبي جعفر الطحاوي تحقيق: شعيب الأرنؤوط ط: مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولى - ١٤١٥ هـ، ١٤٩٤ م.
- (٣١) صحيح الجامع الصغير وزياداته للألباني ط: المكتب الإسلامي.
- (٣٢) صحيح مسلم - لمسلم بن الحجاج - ط/ دار إحياء التراث بيروت - تحقيق/ محمد فؤاد عبد الباقي .
- (٣٣) عمدة القاري شرح صحيح البخاري - لبدر الدين العيني - ط/ دار إحياء التراث بيروت (د.ت).
- (٣٤) عمل اليوم والليلة سلوك النبي مع ربه عز وجل ومعاشرته مع العباد لابن السنِّي المحقق: كوثر البرني ط: دار القبلة للثقافة الإسلامية ومؤسسة علوم القرآن - جدة / بيروت.
- (٣٥) عون المعبود شرح سنن أبي داود، لمحمد أشرف العظيم آبادي ط: دار الكتب العلمية - بيروت الثانية، ١٤١٥ هـ
- (٣٦) فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر ط دار المعرفة بيروت تحقيق/ محب الدين الخطيب.
- (٣٧) فتح العلي المالك في الفتوى على مذهب الإمام مالك لمحمد بن أحمد بن محمد عليش، أبي عبد الله المالكي (المتوفى: ١٢٩٩ هـ) ط: دار المعرفة بدون طبعة وبدون تاريخ.
- (٣٨) القاموس الفقهي لسعدي أبي جيب ط: دار الفكر. دمشق - سورية تصوير ١٩٩٣ م الطبعة الثانية ١٤٠٨ هـ = ١٩٨٨ م.

- (٣٩) لسان العرب لابن منظور ط: دار صادر - بيروت الثالثة - ١٤١٤ هـ
- (٤٠) المبسوط للسرخسي ط: دار المعرفة - بيروت ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م
- (٤١) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للهيثمي ط دار الريان للتراث، ودار الكتاب العربي القاهرة بيروت ١٤٠٧ ..
- (٤٢) المستدرک علی الصحیحین - لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري - المتوفى ٤٠٥ هـ - ط/دار الكتب العلمية - بيروت - الأولى - ١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م - تحقيق/ مصطفى عبد القادر عطا .
- (٤٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل - للإمام أحمد بن حنبل - ط/ مؤسسة قرطبة - مصر.
- (٤٤) معالم السنن، وهو شرح سنن أبي داود للخطابي ط: المطبعة العلمية - حلب الطبعة: الأولى ١٣٥١ هـ - ١٩٣٢ م.
- (٤٥) المعجم الأوسط للطبراني المحقق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني ط: دار الحرمين - القاهرة.
- (٤٦) معجم اللغة العربية المعاصرة د أحمد مختار عبد الحميد عمر (المتوفى: ١٤٢٤ هـ) بمساعدة فريق عمل ط: عالم الكتب الأولى، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م
- (٤٧) المعجم الوسيط المؤلف: مجمع اللغة العربية بالقاهرة ط: دار الدعوة.
- (٤٨) معجم لغة الفقهاء المؤلف: محمد رواس قلعجي - حامد صادق قنبي ط: دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع الثانية، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.
- (٤٩) مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج لشمس الدين الخطيب الشربيني ط: دار الكتب العلمية الأولى، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م.
- (٥٠) المغني لابن قدامة ط: مكتبة القاهرة.
- (٥١) المقدمات الممهدة لأبي الوليد بن رشد القرطبي تحقيق: الدكتور محمد حجي ط: دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان: الأولى، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م
- (٥٢) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج - للنووي - ط/ دار إحياء التراث - بيروت - الثانية ١٣٩٢ هـ .

- (٥٣) المَهْدَبُ فِي عِلْمِ أُصُولِ الْفِقْهِ الْمَقَارِنِ (تحريرٌ لمسائله ودراستها دراسةً نظريَّةً تطبيقيةً) لعبد الكريم بن علي بن محمد النملة ط: مكتبة الرشد - الرياض الأولى: ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م .
- (٥٤) الموافقات في أصول الفقه للشاطبي ط: دار المعرفة - بيروت تحقيق: عبد الله دراز.
- (٥٥) الموافقات في أصول للشاطبي فقه ط: دار المعرفة - بيروت تحقيق : عبد الله دراز
- (٥٦) نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج لشمس الدين الرملي ط: دار الفكر، بيروت الطبعة: ط أخيرة - ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م.

الاقتراض الخارجي ومخاطره، والصيغ الإسلامية البديلة منه (دراسة تحليلية في ضوء الواقع المعاصر ونصوص الشريعة الإسلامية)

د. أحمد عبدالله حنشل^(١)

المستخلص

سنحاول من خلال هذا البحث تسليط الأضواء على الاقتراض الخارجي، من حيث التعريف بالقروض الخارجية واثار هذه القروض على الدول العربية والإسلامية المدينة وبيان أبرز الآثار السلبية المعرقة لعملية التنمية الاقتصادية في هذه البلدان. وعليه، نتطرق في البداية إلى مفهوم الاقتراض الخارجي وتعريفه ثم نتناول مبررات الاقتراض الخارجي وكذا الآثار الناشئة عن الاقتراض الخارجي وطاقة الدول على خدمة ديونها الخارجية. وقد جاءت الدراسة موزعة على خمسة مباحث تناولنا في المبحث الأول: حقيقة القرض ومشروعيته وحكمه وأركانه، وفي المبحث الثاني تناولنا أسباب الاقتراض الخارجي، وفي المبحث الثالث تم التعرض لمخاطر الاقتراض الخارجي والحلول الوضعية البديلة منه، وفي المبحث الرابع بينا ابرز الحلول التي قدمتها الشريعة الإسلامية وذلك من خلال الصيغ الإسلامية البديلة للاقتراض الخارجي. وفي الأخير تطرقنا في المبحث الخامس إلى موقف التشريع اليمني من الاقتراض الخارجي.

المقدمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات والصلاة والسلام على المبعوث رحمةً للعالمين، وآله وصحبه ومن سار على نهجه إلى يوم الدين.

وبعد : فإن القروض الخارجية تعد من المصادر المهمة والرئيسية لتمويل عجز الموازنة العامة في الدول النامية، وقد تزايدت الحاجة إليها في العصر الراهن لأهميتها بالنسبة لمعظم دول العالم ولا سيما الدول الأخذة في النمو والتي تفتقر

١- قسم الدراسات الإسلامية، كلية الحقوق.

إلى موارد تمويل مشروعاتها التنموية الضخمة التي تحتاج إلى تمويل لا تقدر عليه هذه الدول، والواقع إن التزايد المستمر في الاقتراض الخارجي يمضي في اتساع مرور الوقت مما يشكل أزمة حقيقية للدول النامية الإسلامية العربية وغير العربية وبخاصة في ظل العولمة الاقتصادية ومحاولات الدول الغربية السيطرة بذريعة الإرهاب على مقدرات الدول الإسلامية، ولذا يتوقع أن تستمر وتتسع مشكلة الاقتراض من الخارج؛ ولاسيما في دولنا العربية و الإسلامية.

كل هذه الأسباب تؤدي - غالباً - إلى دفع الدول النامية إلى الاقتراض الخارجي، ومثل هذا الاقتراض قد يؤدي إلى حل جزئي للمشاكل الاقتصادية والاجتماعية التي تعاني منها هذه البلدان، والحقيقة أن هذه الطول ظاهرية فقط؛ لأن فائدة هذه القروض أنية لا تلبث أن تكشف عن جوانب أخرى سلبية، وأقل ما يمكن أن نصف به هذه القروض بأنها تفقر الدول المقترضة وتغني الدول المقرضة، إضافة إلى أن هذه القروض تصبح نزفاً حقيقياً لثروة الدول المقترضة وعبئاً ثقيلاً على الأجيال القادمة.

مشكلة البحث تتمثل مشكلة البحث في أن الاقتراض الخارجي يعمل على شل جهود التنمية الحقيقية للبلد وما يترتب عليها من انعكاسات اجتماعية، وهذا يعد من أخطر آثار وانعكاسات القروض الخارجية على تنمية البلدان المدينة، فمن الملاحظ أن الكثير من هذه الدول اضطرت إلى تأجيل تنفيذ مشاريعها الاستثمارية وخفض معدلات الاستثمار فيها، وذلك بسبب نقص السيولة والموارد الأجنبية؛ مما أدى في النهاية إلى مزيد من التبعية بمختلف أشكالها: التجارية، والمالية والتكنولوجية والسياسية ونحو ذلك .

اسئلة البحث الاقتراض الخارجي محفوف بكثير من المخاطر ولذلك فإنه تثار حوله جملة من الأسئلة من حيث ماهية هذا الاقتراض، وأسبابه والمخاطر الناجمة عنه، وما موقف الشريعة الإسلامية منه وما هو دور القروض الخارجية في تمويل التنمية الاقتصادية وما هي آثار تفاقم هذه القروض على عملية التنمية

الاقتصادية، ثم ما هي الحلول المقترحة لعلاج إشكالية القروض الخارجية كل هذه التساؤلات التي تطرح بشأن الاقتراض الخارجي وغير ذلك من الاسئلة هي التي دفعتني لاختيار موضوع القروض الخارجية ودراستها.

اهداف البحث يرجع الدافع الرئيسي والهدف الاول لاختيار هذا الموضوع لأسباب موضوعية تتجلى خاصة في بيان آثار القروض الخارجية على اقتصاديات الدول الفقيرة، وباعتبار أن هذه المشكلة لاتزال دون حل ناجع، وهي تحتاج أكثر من أي وقت مضى إلى المزيد من الدراسة والتفكير في إيجاد الحلول التي تمكن البلدان النامية المعنية من تجاوز هذه الأزمة؛ كما أن العديد من المبادرات والإجراءات الدولية المتخذة من قبل الدول الدائنة أو من قبل المؤسسات المالية الدولية استهدفت التخفيف من أعباء المديونية الخارجية لكل دولة على حده، مقابل فرض مجموعة من الإجراءات الصارمة التي سرعان ما تفقد أهميتها، وتتفاقم الأزمة بقدر أكثر خطورة مما سبق.

أهمية البحث ترجع أهمية اختيارنا لهذا البحث من خلال إعطاء صورة واضحة وكاملة عن القروض الخارجية وإبراز تأثيراتها على التنمية الاقتصادية على الدول المدينة، لأن دراسة وتحليل هذا الموضوع من جوانبه المختلفة والمتنوعة والمعقدة سيساعدنا في اتخاذ القرارات العقلانية الموحدة والصائبة لحل هذه المشكلة والإلمام بها، وقد جاءت هذه الدراسة تبياناً لخطر القروض الخارجية. من حيث المقصود بها، وأسبابها ومدى تأثيرها في اقتصاد الدول النامية، مع التركيز على تحديد موقف الإسلام منها، وكان لزاماً علي قبل الولوج في لجة البحث أن أتعرض أولاً لحقيقة القرض ومشروعيتها وأركانها، وقد حاولت كذلك تسليط الضوء على القانون اليمني بهدف تحديد موقف القانون اليمني من القرض بوصفه أحد العقود التي وردت في القانون المدني اليمني النافذ، منهج البحث وقد سلكت في هذه الدراسة المنهج العلمي المقارن الذي يعتمد على دراسة موضوع البحث دراسة تأصيلية، وتحليلية وذلك من خلال عرض المسألة محل البحث في المنظور الاقتصادي

المعاصر، وتحليلها ما أمكن الى ذلك سبيلا مع التركيز على تحديد موقف الشريعة الإسلامية منها من خلال بيان الحكم الشرعي للاقتراض الخارجي مع التركيز على ذكر أبرز الحلول التي قدمتها الشريعة الإسلامية وذلك من خلال الصيغ الإسلامية البديلة للاقتراض الخارجي، وقد اقتضت خطة هذا البحث المتواضع توزيعه على خمسة مباحث، وخاتمة، وذلك على النحو الآتي:

١- المبحث الأول: حقيقة القرض ومشروعيته وحكمه وأركانه.

٢- المبحث الثاني: أسباب الاقتراض الخارجي.

٣- المبحث الثالث: مخاطر الاقتراض الخارجي والحلول الوضعية البديلة منه.

٤- المبحث الرابع: حكم الاقتراض الخارجي، والصيغ الإسلامية البديلة منه.

٥- المبحث الخامس: موقف التشريع اليمني من الاقتراض الخارجي.

المبحث الأول

حقيقة القرض ومشروعيته وحكمه وأركانه

تمهيد:

يتطلب تحديد معنى مصطلح القرض التعرف اولا على معنا اللغوي و في اصطلاح الفقهاء المسلمين القدامى والمعاصرين مع بيان حكمه الشرعي؛ وعلى ذلك تقسم دراسة هذا المبحث الى مطلبين على النحو الآتي:

المطلب الأول

التعريف بالقرض العام الخارجي

أولاً: معنى القرض لغة:

القرض لغة يعني القطع يقال قرضت الشيء بالمقراض إذا قطعتة، ومنه قراضة الذهب، والقرض ما تعطيه الإنسان من مالك لتتقاضاه؛ وجمعه قروض، لذلك يقال استقرض منه بمعنى طلب منه القرض واقترض منه أخذ منه القرض، ويطلق عليه السلف، ولقد سمي القرض بهذا الاسم؛ لأن المقرض يقطع جزءاً من

ماله ليعطيه للمُقْتَرَضِ^(١).

ثانياً- تعريف القرض اصطلاحاً:

قبل توضيح المعنى الاصطلاحي للقرض الخارجي عند رجال الفكر المالي المعاصرين، أرى أنه من المستحسن والمناسب أولاً بيان تعريف مصطلح القرض عند فقهاء المسلمين القدامى، ثم بعد ذلك يتم تعريف القرض العام الخارجي عند المهتمين من رجال الفكر المالي المعاصر وذلك على النحو الآتي:

(أ) تعريف القرض عند فقهاء المسلمين القدامى:

عرف فقهاء المسلمين القدامى القرض بصفة عامة بعدة تعريفات متقاربة في معناها ومضمونها وإن اختلفت في ألفاظها وظاهرها، ولكي تتضح صورة القرض في الشريعة الإسلامية، سأقوم بإيراد تلك التعريفات على النحو الآتي:

ففي المذهب الحنفي يعرف القرض بأنه: « ما تعطية من مثلي لتتقاضاه»^(٢). وعند المالكية^(٣): قالوا إن القرض هو « دفع متمول في عوض غير مخالف له لا عاجلاً تفصلاً فقط لا يوجب إمكان عارية لا تحل متعلقاً بذمته». أما الشافعية: فقالوا الاقتراض هو « تمليك الشيء على أن يرد بدله»^(٤). وعرف الحنابلة القرض بأنه «دفع مال لمن ينتفع به ويرد بدله»^(٥).

(ب) تعريف القروض الخارجية عند رجال الفكر المالي:

القروض الخارجية من المصطلحات المعاصرة، حيث يلاحظ أن المهتمين من رجال

١- راجع: لسان العرب لابن منظور، باب القاف (مادة قرض)، ج ١١ ص ١١١-١١٢، دار أحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٧م، وأساس البلاغة للزمخشري، ج ٢ ص ٣٦٢، كتاب القاف، (مادة قرض)، دار المعرفة، بيروت، د- ت، ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس، كتاب القاف، باب القاف والراء وما يثلاثهما، (مادة قرض)، بيروت، د- ت.

٢- راجع: حاشية رد المحتار على الدر المختار لابن عابدين ج ٧ ص ٢٨٨، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م.
٣- راجع: التاج والإكليل لمختصر خليل لأبي عبد الله محمد بن يوسف بن أبي القاسم العبدري الشهير بالموثق ج ٤ ص ٥٤٥، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥م، البهجة في شرح التحفة لأبي الحسن علي بن عبد السلام التسولي ج ٢ ص ٥٤١-٥٤٢، دار الرشد الحديثة، المغرب، ١٤١٢هـ، ١٩٩١م. والذمة يقصد بها لغة: هي العهد والكفالة وجمعها ذملم وفلان له ذمة أي حق، أما اصطلاحاً فهي وصف يصير الشخص به أهلاً للإيجاب والاستيجاب راجع عند أصحاب اللغة، لسان العرب لابن منظور، (مادة ذم)، ج ١٢ ص ٢٢٠، واصطلاحاً، كشف الأسرار لأصول البرزوي، لعبد العزيز البخاري ج ٤ ص ٢٢٧، دار الكتاب الإسلامي، د. ت.

٤- راجع: أسنى الطالب شرح روض الطالب للقاضي أبي يحيى زكريا الأنصاري ج ٩ ص ٩٦، المطبعة الميمنية، القاهرة، ١٣١٢هـ، ونهاية المحتاج للرمل ج ٤ ص ٢١٩، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م، ومغني المحتاج للشربيني ج ٢ ص ١٥٣، دار المعرفة، بيروت، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، والمهذب للشيرازي، ج ٣ ص ١٨٥، دار القلم، دمشق، ١٤١٧/١٩٩٦م.

٥- راجع: الروض الربع للبهوتي ج ٢ ص ٣٠٤، مكتبة نزار الباز، الرياض، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

الفكر المالي المعاصر هم من تصدوا لبيان المقصود به، إذ عرف بعض رجال الفكر المالي المعاصر القروض الخارجية بأنها: « تلك القروض التي تصدرها الدولة خارج حدودها الإقليمية ويكتتب فيها الأفراد أو الهيئات الخاصة أو العامة الأجنبية، وقد يتم الاقتراض من الهيئات والبنوك الدولية، كالبنك الدولي أو صندوق النقد الدولي»^(١).

وقال آخرون القروض الخارجية: « هي القروض التي تحصل عليها الدولة من شخص طبيعي أو اعتباري مقيم في خارج البلاد، أو من حكومات أجنبيه، مع التعهد بوفاء القرض وفوائده للدائنين في التاريخ المحدد للتسديد وفقاً لشروط العقد، وتلجأ الدولة إلى مثل هذه القروض لسببين: الأول: حاجة الدولة إلى رؤوس أموال، وعدم كفاية الإيرادات الداخلية، والمدخرات الوطنية، والثاني: حاجة الدولة إلى عملات أجنبية لتغطية العجز في ميزان المدفوعات^(٢) أو لدعم نقدها الوطني، وحمايته من تدني قيمته أو من أجل الحصول على ما يلزمها من سلع إنتاجية و سلع استهلاكية ضرورية لتلبية حاجة السوق»^(٣).

وقال بعضهم هي «الأموال التي تقترضها الدولة من الدائنين من الخارج»^(٤).

ج- تعريف القرض في القانون المدني اليمني:

عرف المشرع اليمني القرض في المادة (٦٠٦) التي نصت على أن ”القرض هو دفع المقرض مالا مثلياً جماداً أو حيواناً لا تتفاوت أحادة تفاوتاً عظيماً تختلف به القيمة كالحيوان بخلاف الدور والأراضي والجواهر التي تتفاوت قيمتها فلا يصح القرض بها ويلزم المستقرض أن يرد للمقرض عوضاً مماثلاً معلقاً في ذمة المستقرض“^(٥).

- ١- راجع: مبادئ الاقتصاد العام للدكتور حامد دراز، ص٢٤٧، مؤسسة شباب الجامعة، مصر، الإسكندرية ط١٩٨٤م.
- ٢- ميزان المدفوعات هو سجل تسجل فيه قيمة جميع الصادرات والواردات من السلع والخدمات التي تنشأ بين المقيمين والعالم الخارجي خلال السنة راجع: معجم المصطلحات الاقتصادية علي بن محمد الجمعة، ص٤٧٢، مكتبة العبيكان الرياض، ٢٠٠٠م.
- ٣- راجع: المالية العامة للدكتورين أحمد زهير شامية وخالد الخطيب، دار زهران للنشر، عمّان، ١٩٩٢م. ص٢٢٦، ٢٢٦، وعجز الموازنة وعلاجه في الفقه الإسلامي للدكتور حسين راتب يوسف ريان، ص٢٩٧، دار النفائس، الأردن، ١٩٩٩م.
- ٤- راجع: الاقتصاد المالي الوضعي والإسلامي للدكتورين محمد عبد النعم عمر وأحمد فريد مصطفى، ص٢٦٣-٢٦٤، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٩م.
- ٥- راجع: القانون المدني اليمني رقم ١٤ لسنة ٢٠٠٢م، ص ٩٩، منشور بالجريدة الرسمية، مطبوعات التوجيه المغنوي، صنعاء، ٢٠٠٢م.

وهناك حالة يمكن فيها اعتبار الوديعة قرضاً وصورتها أن يأذن المودع للمودع عنده في استعمال الشيء المودع لديه على أن يرد مثله قدرًا ونوعاً وصنفًا ففي هذه الحالة قرر المشرع اليمني اعتبار العقد الذي ينشأ في هذه الحالة عقد قرض يخضع للقواعد الخاصة بالقرض؛ حيث قضى في المادة (٩٥٢) أنه: «إذا كانت الوديعة مبلغاً من النقود، أو مالا يتلف بالاستعمال وأذن المودع للمودع باستعماله اعتبر التصرف قرضاً لا وديعة»^(١).

فالمودع في هذه الحالة ينتفع بالوديعة ويستهلكها، ومن ثم فهو ضامن لها في كل الأحوال، وهذه صفة القرض وليست صفة الوديعة؛ لأنها لا تنطبق عليها أحكام الوديعة بالمعنى الحقيقي.

من هذه التعاريف يمكن استخلاص الأمور الآتية:

١- أن مصطلح القرض الخارجي (القروض الخارجية) من المصطلحات المعاصرة التي لم يعرفها فقهاء الشريعة الإسلامية، حيث لم أجد فيما اطّلت عليه من مراجع ومصنفات دليلاً واحداً يبين معنى هذه القروض (القروض الخارجية)، فمصطلح القروض الخارجي من المصطلحات الحديثة، فهذه القروض لم تكن معروفة في عهد النبي (ﷺ)، ولا في عهد الصحابة الكرام من بعد ذلك، ولكن المهتمين بالفكر المالي المعاصر هم من تصدوا لبيان المقصود بها، فلفظ القرض عند فقهاء الشريعة الإسلامية ينصرف إلى معنى القرض الخاص، وهو القرض الذي يتم بين الأفراد فقط دون أن تكون الدولة طرفاً فيه خلافاً للقروض الخارجية، كما تبين لنا كذلك أن التعاريف التي أوردها فقهاء المسلمين للقرض متقاربة في معناها ومضمونها وإن اختلفت في ألفاظها.

٢- إن القرض في العرف يسمى السلف أيضاً، فالقرض والسلف كلمتان مترادفتان؛ فكما أن القرض يرد فيه المقترض بدل ما أخذ من المقرض؛ فكذلك السلف^(٢)، كما لا يشترط أن يكون القرض من المثليات فحسب، بل يجوز أن

١- وقد عرفت المادة (٩٢٨) من القانون المدني اليمني الوديعة بأنها: "ترك المودع مالا لدى غيره مجرد حفظه بالتراضي وتكون إما مع تسليم المال للمودع أو التخلية بينه وبين المال والأصل في الوديعة أن تكون بغير أجر..."

٢- راجع: بلغة السالك لأقرب المسالك لحمد الصاوي، على الشرح الصغير لأحمد الدردير ج ٢ ص ١٠٤، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٨م.

- يكون من القيميات؛ كالحيوان ونحو ذلك^(١)، وهذا ماذهب إليه جمهور الفقهاء من غير الحنفية وسيتم التعرض تفصيلا لذلك في موضعة لاحقا.
- ٣- القرض العام الخارجي عقد بين طرفين، أحدهما الدولة الخارجية، أو المنظمات الدولية مثل صندوق النقد الدولي أو البنك الدولي ومايلحق بهما؛ (كنادي باريس ونايدي لندن) وبموجب هذا العقد تتعهد الدولة (الطرف الأول) برد مثل القرض مع الفوائد عند حلول الأجل المتفق عليه، وهذا ماظهر جليا من خلال تعاريف علماء الفكر المالي الوضعي للقرروض الخارجية الذين قالوا بجواز الفائدة أو الزيادة التي ترد على أصل القرض، والتي يردها المقترض مع أصل القرض، وهذه الزيادة (الفائدة) هي عين الربا المحرم، وهم بذلك قد خالفوا قواعد الشرع الحنيف الذي يعتبر الزيادة على أصل القرض من باب الربا المحرم الذي لا تجيزه الشريعة الإسلامية.
- ٤- أما بالنسبة لتعريف القرض في القانون المدني اليمني فالملاحظ ان المشرع اليمني لم يجز القرض بفائدة وذكر أن العوض لا بد أن يكون مماثلا لما أخذه المستقرض، فلا يجب أن يزيد العوض عما أخذ المستقرض، وهذا ما بينته المادة (٦٠٦)، إذ نصت على أنه « يلزم المستقرض أن يرد للمقرض عوضاً مماثلاً معلقاً في ذمة المستقرض»، كما أن الفقرة (٥) المادة (٦١٠) نصت على أنه « إذا أقرن القرض بشرط ربوي يلغى الشرط ويصح القرض ويلزم المستقرض رد مثل ما قبض، علاوة على ذلك فإن القانون المدني اليمني قد حرم الفائدة الربوية بصورة جلية وواضحة، وهذا ما ذكرته المادة (٣٥٦) التي نصت على أن « كل اتفاق على فائدة ربوية باطل ولا يعمل به، وكل اتفاق تبين أنه يستر فائدة ربوية غير صحيح كذلك ولا يعمل به، ومع ذلك يجوز لصاحب الحق أن يتفق على عمولة في مقابل أي عمل يقوم به لمنفعة المدين بالوفاء، ولا يجوز أن تزيد النسبة المتفق عليها في مقابل الامور المنصوص عليها في الفقرة السابقة عن (٥٪) من قيمة الحق، ويجوز للقاضي أن يرفض الحكم بالمقابل المتفق عليه إذا تبين أنه لا يمثل اتفاقاً حقيقياً من قبل صاحب الحق، أو ينقصه بنسبة ما تبين أنه نقص من الاتفاق الحقيقي عن

١- راجع: القوانين الفقهية لابن جزي ص ٣١٠، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ٢٠٠٥م.

النسبة المتفق عليها مع مراعاة العرف التجاري فيما لا يخالف شرعا» .
وذكرت المادة (٣٥٧) من القانون المدني أن المسائل التجارية يتبع فيها ما هو منصوص عليه في القانون التجاري فيما يتفق مع الشرع ولا يخالفه، ومع ذلك فالواقع يكذب هذه النصوص؛ فمعاملات المصارف حالياً الموجودة في اليمن وفي غيرها من البلدان العربية ما تزال محكومة بالربا؛ ومع ذلك يلاحظ أن المصارف التجارية ما زالت تتعامل بالقروض الربوية غير أبهة بالنصوص القانونية التي تحرم مثل هذه القروض التي تمت الإشارة إليها، لذا نأمل من المشرع اليمني مراعاة ذلك والنص في قانون المصارف على تجريم الفوائد الربوية حتى لا يحدث التضارب بين القواعد العامة في القانون المدني اليمني، وما يجري في المصارف التقليدية. ولذا فإن هذه المعاملات غير جائزة قانوناً، فضلاً على مخالفتها الصريحة، لاحكام الشريعة الإسلامية التي تحرص دائماً وابدأ على سد باب الحرام بأي شكل وأي صورة كان.

المطلب الثاني

مشروعيته القرض وحكمته واركانه

الفرع الأول : مشروعيته القرض

علمنا سلفاً أن الشريعة الإسلامية قد عرفت القرض الخاص الذي يبرمه الافراد فيما بينهم وأما مشروعية هذا القرض فقد ثبتت بالكتاب الكريم، والسنة النبوية الشريفة، والإجماع، والقياس والمعقول .

أولاً- من القرآن:

١- **قَالَ تَعَالَى ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾** ^(١). تأمر هذه الآية الكريمة المسلمين بالتعاون، ومن صور التعاون

والتكافل بينهم مساعدة المحتاجين إلى المال بإقراضهم، وإنظار المعسرين منهم.

٢- **قَالَ تَعَالَى : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيَضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾** ^(٢).

١- راجع: سورة المائدة - الآية رقم (٢).

٢- راجع: سورة البقرة: الآيتان ٢٤٤ - ٢٤٥.

وفي هذه الآية القرآنية الكريمة نلاحظ أن الله سبحانه وتعالى قد حث على الإنفاق في سبيله، وسبل الله كثيرة، كالحث على إنفاق المال على الفقراء والمحتاجين والتوسعة عليهم، وفي سبيل الله بنصرة الدين الإسلامي وهو أول السبل وأعظمها لتكون كلمة الله هي العليا، وقد كنى الله سبحانه وتعالى عن الفقير بنفسه العلية المنزهة عن الحاجات ترغيباً في الصدقة كما كنى عن المريض والجائع والعطشان بنفسه المقدسة عن النقائص والآلام^(١).

كذلك نلاحظ في هذه الآية الكريمة أن الله سبحانه وتعالى ألزم على نفسه أن يأجر كل من أقرض بالإنفاق في سبيله، وهذا الأجر ليس بالمثل فقط ولكن بأضعاف ما قدمه المقرض أضعافاً كثيرة لا تحصى من الثواب وحسن الجزاء، وذلك لما في القرض من خير واجر عظيم عند الله سبحانه وتعالى^(٢).

ثانياً: من السنة النبوية:

هناك العديد من الأحاديث النبوية التي دلت على جواز الإقراض للمصلحة العامة، وهذه الأحاديث لم تفرق بين قرض لشخص أو قرض لدولة فهي مطلقة لم يرد ما يقيدنها إلا أنني وجدت في السنة النبوية ما يوحى إلى أن النبي (ﷺ) اقترض من أناس وأن هذا الاستقراض إنما قام به النبي (ﷺ) بصفته حاكماً ورئيساً للدولة وهذه الأحاديث هي:

(أ) عن أبي رافع أن رسول الله (ﷺ) أستسلف من رجل بكرة^(٣) فقدمت عليه إبل من إبل الصدقة فأمر أبا رافع أن يقضي الرجل بكره فرجع إليه أبو رافع فقال: ما أجد فيها إلا خياراً رباعياً فقال: أعطه إياه فإن خيار الناس أحسنهم قضاءً^(٤). والذي يستفاد من هذا الحديث النبوي الشريف أن سداد القرض من إبل

١- راجع: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج ٣ ص ٢٤٠، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، ٢٠٠٢ م، أحكام القرآن لابن العربي ج ١ ص ٣٠٥-٣٠٧، دار الفكر العربي، بيروت، د-ت، وجامع البيان في تأويل أي القرآن الكريم للطبري، ج ٢، ص ٦٠٦-٦٠٧، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨ هـ، ١٩٩٧ م.

٢- راجع: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج ٣ ص ٢٤٠.

٣- البكر من الإبل - بفتح الباء - هو الصغير منها كالغلام من الأدميين، والأثنى بكرة وقلوص، وهي الصغيرة بمنزلة الجارية من الإناث، فإذا استكمل ست سنين، ودخل في السابعة فهو رباع والأثنى رباعية (راجع: شرح النووي على صحيح مسلم ج ٧ ص ٤٣٤٩، دار الغد العربي، القاهرة، ١٤٠٨ هـ، ١٩٨٨ م).

٤- أخرجه مسلم في صحيحة في كتاب المساقات، باب جواز اقتراض الحيوان واستحباب توفيته خيراً مما عليه " راجع صحيح مسلم بشرح النووي ج ٧ ص ٤٣٤٨.

الصدقة دليل على أن استقراض النبي (ﷺ) لم يكن لنفسه وذلك لأن الصدقة لا تحل له بل كان بصفته رئيساً للدولة ومن أجل الإنفاق فيما يخص ذلك من سد حاجات الفقراء من الرعية^(١).

(ج) روى أن النبي (ﷺ) قال لعمر: «إنا قد أخذنا زكاة العباس عام الأول للعام»^(٢)، وفي رواية^(٣) «إن العباس قد أسلفنا زكاة ماله العام والعام المقبل»^(٣).

والحديث النبوي الشريف يؤكد على أمرين مهمين ألا وهما أولاً جواز أخذ الحاكم الزكاة قبل حلول وقتها وثانياً جواز الاستقراض من أجل سد حاجات الناس^(٤).

(د) عن عبدالله ابن أبي ربيعة المخزومي عن أبيه عن جده^(٥) «إن النبي (ﷺ) استلف حين غزا حنيناً ثلاثين أو أربعين ألفاً، فلما قدم قضاها إياه ثم قال له النبي (ﷺ) «بارك الله لك في أهلك ومالك، وإنما جزاء السلف الوفاء والحمد»^(٥).

وجه الدلالة في الحديث أن تجهيز الجيش في الحروب من مسؤوليات الدولة وقيام النبي (ﷺ) بالسلف لهذا الهدف دليل على جواز قيام الحاكم بالاقتراض من أجل سد حاجات الدولة.

(هـ) عن ابن مسعود أن النبي (ﷺ) قال^(٦) «ما من مسلم يقترض مسلماً قرضاً مرتين إلا كان كصدقتها مرة»^(٦).

١- راجع: نيل الأوطار لشوكاني، ج ٥ ص ٥١٤.

٢- رواه الترمذي في الجامع الصحيح - عن علي رضي الله عنه - في كتاب الزكاة، باب ما جاء في تعجيل الزكاة، برقم ٦٧٩، ج ٣، ص ٥٤، دار الحديث، القاهرة، د- ت، وقال عنه ((لا أعرف حديث تعجيل الزكاة من حديث إسرائيل عن الحجاج بن دينار إلا من هذا الوجه)).

٣- رواه الدارقطني في سننه - عن عبدالله بن عباس - في كتاب الزكاة، باب تعجيل الصدقة قبل الحلول، برقم ١٩٩٣، ج ١، ص ١٠٨، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

٤- راجع: شرح النووي على صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب في تقديم الزكاة ومنعها برقم ٢٢٤، ج ٤، ص ١٦.

٥- رواه ابن ماجه في سننه، في كتاب الصدقات باب حسن القضاء، برقم ٢٤٢٤، ج ٢، ص ٣٦١، دار الحديث، القاهرة، ط ١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، وقد ذكر الألباني هذا الحديث في سلسلة صحيح سنن ابن ماجه، ج ٢، ص ٢٨٢، مكتبة المعارف، الرياض، ١٩٩٧م، وقال عنه ((حسن)).

٦- رواه ابن ماجه في سننه في كتاب الصدقات، باب القرض برقم ٢٤٣٠، ج ٢، ص ٣٦٤، وقال عنه الألباني ((حسن)) راجع صحيح سنن ابن ماجه تأليف الألباني، ج ٢، ص ٢٨٤، وقال عنه ابن حجر ((ضعيف)) راجع مجمع الزوائد ومنبع الفوائد لابن حجر الهيثمي، كتاب البيوع، باب ما جاء في القرض، ج ٤، ص ١٢٦، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨م.

ويدل هذا الحديث على فضيلة القرض وأن موقعة أعظم من الصدقة؛ إذ لا يقترض إلا محتاج^(١)، لأن بعض الناس قد يستعفف عن تناول الزكاة والصدقات حياءً وخجلاً من شدة الحاجة، أما في القرض الحسن فإنهم ينالون ما فيه سداً لحاجاتهم مع صيانة حيائهم وعزتهم وكرامتهم^(٢)، فإذا نظم القرض وعرف أحكامه الدقيقة وأشير إلى بواعثه الدقيقة كان القرض نفعاً للمسلمين، نفعاً للمقرض ونفعاً للمقترض .

(و) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله (ﷺ): ” من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر، يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه“^(٣).

فهذا الحديث عام وشامل، فهو يحث على أهمية التراحم والتكافل بين المسلمين ومن أهم الصور الأساسية لهذا التكافل والتعاون الإقراض بين أفراد المجتمع، فالقرض يدخل في باب التخفيف والتيسير ولذلك فالمسلم بالقرض يرفع العوز والحاجة عن أخيه المسلم ويتحصل على الثواب الكبير في الدنيا والآخرة، وعلى رضا الله عز وجل مما يؤدي إلى زرع المحبة والألفة في قلوب الناس^(٤).

ثالثاً: الإجماع:

انعقد إجماع المسلمين على جواز القرض، واستحبابه لما فيه من تفريح للكروب، ومساعدة للمحتاجين^(٥) ولما فيه من توسعة على المقرض؛ لأنه لا يقترض إلا من حاجة، والفقهاء يقرونه من غير إنكار أحدهم^(٦)، و الأمة الإسلامية لاتزال تتعامل به منذ عهد رسول الله عليه الصلاة والسلام إلى عصرنا هذا، فقد اقترض

- ١- راجع: نيل الأوطار للشوكاني، كتاب القرض، برقم ٢٢٨٠، ج ٥، ص ٢٤٤، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٥م.
- ٢- راجع: القرض ثوابه وأحكامه لعمار موشلي ص ٥٣، دار الألباب، دمشق، ١٩٩٣م.
- ٣- أخرجه مسلم في صحيحة في كتاب الدعوات، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر برقم ٢٦٩٩ ج ١١ ص ٦٧٨٥، مكتبة الباز، الرياض، ط ١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.
- ٤- راجع: نيل الأوطار للشوكاني، كتاب القرض، باب الاستقراض ج ٥ ص ٢٤٤.
- ٥- راجع: الإقناع في مسائل الإجماع لعلي بن القطان الفاسي ج ٣ ص ١٦٦٤، دار القلم، دمشق، ٢٠٠٣م.
- ٦- راجع: المغني والشرح الكبير لابن قدامة ج ٤ ص ٣٥٣، دار الكتاب العربي، بيروت، دون تاريخ نشر، وشرح منتهي الإرادات لمنصور البهوتي ج ٢ ص ٦٩٧، مكتبة نزار مصطفى الباز، الرياض، ط ١، ١٩٩٧م.

الصحابة رضوان الله عليهم واقترضوا، وكان معنى الإقراض لديهم دليلاً على التقوى والمروءة وطريقاً من طرق فعل الخير بالناس والتخفيف عن كاهل المسلمين وهذا السلوك الطيب اكتسبوه من هدي (ﷺ) وهو أيضاً قرابة يتقربون به إلى الله سبحانه لما فيه من أبواب الرفق والرحمة والإحسان بالغير، فعن مجاهد انه قال: «إستسلف عبد الله بن عمر من رجل دراهم، ثم قضاها دراهم خيراً منها، فقال الرجل: يا أبا عبد الرحمن، هذه خير من دراهمي التي أسلفتك، فقال عبد الله بن عمر: قد علّمت، ولكن نفسي بذلك طيبة»^(١).

رابعاً: القياس:

قال ابن تيمية وابن القيم الجوزية أن القرض عقد شرع وفق القياس^(٢).

خامساً: المعقول:

القرض قرابة يتقرب بها العبد إلى الله سبحانه لما فيه من الرفق بالناس والرحمة بهم، وتيسير أمورهم، فحاجة الناس إليه واضحة لا لبس فيها ولا غموض^(٣). فالقرض له فوائد واهداف عظيمة ففيه تعويد للإنسان على البذل والعطاء، ونزع بذور الشح والبخل من نفسه، كما أن فيه إبرازاً لمبدأ الأخوة الذي ينبغي أن يسود في المجتمع الإسلامي تحقيقاً وتطبيقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾^(٤)، والإخوة تقتضي وجوب التعاون بين المسلمين في حل مشاكلهم، كما أن فيه تخفيفاً عن المحتاجين وتفريجاً لكرهم، فالمسلم بالقرض يرفع العوز والحاجة عن أخيه المسلم ويتحصل على الثواب الكبير في الدنيا والآخرة، وعلى رضا الله عز وجل مما يؤدي إلى زرع المحبة والألفة في القلوب، لذلك فإن من يمتنع عن اقراض المحتاج وهو قادر على القرض فقد فاته الأجر الذي أعده الله للمتقين؛ بل إنه أثم في نظري؛ لأنه بفعله هذا قد خالف كلام الله وسنة لرسوله.

١- راجع: مؤطأ الإمام مالك، مالك بن انس ص: ٣٦٧ برواية يحيى بن يحيى الليثي الأندلسي، دار الفكر، بيروت لبنان، ١٩٨٩ م.
٢- راجع: مجموع فتاوى ابن تيمية ج ٢٠ ص ٥١٤، دار عالم الكتب للطباعة، السعودية، الرياض، ١٤١٣ هـ، وإعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم الجوزية، ج ١ ص ٣٩٠، ج ٣ ص ١١ مطبعة السعادة مصر، ١٣٥٣ هـ.
٣- راجع: الموافقات للشاطبي ج ٤ ص ١١٧، دار الفكر للطباعة والنشر، دون تاريخ نشر.
٤- سورة الحجرات: الآية: (١٠).

أما بالنسبة لموقف المشرع اليمني من القرض يتضح أنه يتفق مع ما قرره فقهاء الشريعة الإسلامية حيث أجاز القرض لماله من أهمية كبيرة في حياة الناس، وقد أحسن بذلك صنعا.

الفرع الثاني: الحكمة من الاقتراض :

إن الحكمة من الاقتراض تتمثل في سد حاجات المحتاجين، وعدم جعلهم فريسةً سائغةً للطرق غير المشروعة في الحصول على المال، وتعويد المسلم على البذل والإحسان، والتيسير على المسلمين، ومساعدتهم في تفريج كروبهم، وفتح طريق الأجر والثواب للأغنياء كما تتجلى الحكمة من القرض في تنشيط الحركة الاقتصادية والتجارية وإنعاشها، وفك أسر الدول الفقيرة التي سيطرت عليها الدول الغنية من خلال القروض الربوية التي كانت ومازالت وسيلة من وسائل الاحتلال الحديثة،. ومن ثم إخراج هذه الدول من الاستعباد والظلم و بسط قيم العدالة، والمساواة^(١).

الفرع الثالث : أركان عقد القرض:

يعد القرض عقدا من العقود الرضائية لذلك فلا بد له من أركان يقوم عليها، وشروط لصحة كل ركن ، وذلك حتى ينعقد ويتصف بصورته الإلزامية، وتختلف نظرة الفقهاء لهذه الأركان بحسب اختلاف مذاهبهم، ولكن هذا الخلاف بين الفقهاء ليس خلافا جوهريا بل خلافا اصطلاحيا فقط لايؤثر كثيرا في النتيجة ومع ذلك فقد سلكت مسلك الجمهور وقسمت الأركان إلى ثلاثة وهي: الصيغة والعاقدان والمعقود عليه.

الركن الأول: الصيغة وشروطها.

المقصود بالصيغة هو كل ما يتحقق به عقد القرض ويوجد سواء أكان ذلك باللفظ أو الكتابة بكل صورها القديمة منها أو الحديثة أو الإشارة المفهمة. المهم هو التعبير الواضح والجلي عن إرادة العاقدين بإنشاء العقد، وذلك لأن الرغبة أمر خفي غير ظاهر فلزم الاستعاضة عنها بما هو ظاهر، فما يظهر الإرادة يسمى بالصيغة^(٢).

١- راجع: للمالية العامة للدكتورين: أحمد زهير شامية وخالد الخطيب مرجع سابق، ص ٢٢٥، والمالية العامة للدكتور حامد عبد المجيد دراز، ص ٣٦٧، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٤م. ٣٥٣٥.

٢- راجع: بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع للكاساني ج: ٦، ص: ٥١٧.

والصيغة هي الإيجاب والقبول ، فالإيجاب ما صدر أولاً عن أحد الطرفين كقول المقرض أقرضتك هذا الشيء أوخذ هذا الشيء قرضاً ، والقبول ما صدر عن الآخر ، كأن يقول المقترض واستقرضت أو قبلت أو رضيت. ولا خلاف بين الفقهاء في صحة الإيجاب والقبول بلفظ القرض والسلف وبكل ما يؤدي معناهما^(١).

الركن الثاني: العاقدان وشروطهما.

العاقدان هما المقرض والمقترض المنشآن لعقد القرض ، ولا بد أن تتوافر فيهما أهلية التعاقد؛ لأن الأهلية شرط أساسي في العقود لكنها في عقد القرض يجب أن تكون أهلية تبرع ، فلا يجوز القرض إلا ممن يجوز تبرعه، وهو كامل الأهلية بأن يكون عاقلاً بالغاً، أما أهلية المقترض فهي أهلية المعاملة دون أهلية التبرع، وأهلية المعاملة هي أهلية التصرف، فيجوز للمأذون له أن يقترض ولو كان صغيراً^(٢).

الركن الثالث: المعقود عليه وشروطه.

اجمع العلماء على أن قرض المكيل والموزون جائز من غير خلاف^(٣)، ولكن وقع الخلاف بين الفقهاء في قرض الأعيان القيمية، فالحنفية يرون وجوب اقتصار القرض على المثليات فقط، وهي الأشياء التي لا تتفاوت أحادها تفاوتاً تختلف به القيمة، كالمكيلات والموزونات^(٤)، ويرى جمهور الفقهاء أن القرض يصح في الأشياء المثلية وكذلك القيمية وهي التي تتفاوت تفاوتاً تختلف به قيمتها^(٥).

والذي يبدو لي والله أعلم بالصواب أن ما ذهب إليه الجمهور من جواز قرض الأشياء المثلية والقيمية، هو الأولى بالاتباع؛ لأن الحاجة تدعو إلى ذلك، ولفعل الرسول (ﷺ) ذلك باستقراضه للإبل كما مر في الأحاديث الصحيحة، ويلتحق به سائر الحيوانات وسائر الأموال القيمية.

١- راجع: رد المحتار على الدر المختار لابن عابدين ، ج ٧، ص: ٣٩٢، ٣٨٨، ونهاية المحتاج للرملي ج: ٤، ص ٢١.

٢- راجع بدائع الصنائع للكاساني ج٧ ص٣٩٤، ونهاية المحتاج للرملي ج٤ ص ٢١٩.

٣- قال ابن المنذر: "أجمع كل من نحفظ عنه من أهل العلم على أن استقرض ما له مثل من المكيل والموزون والأطعمة جائز". راجع: المغني والشرح الكبير لابني قدامة ج٤ ص ٣٨٥.

٤- راجع: رد المحتار على الدر المختار، لابن عابدين: ج: ٧، ص ٣٨٨، وبدائع الصنائع للكاساني ج٧ ص ٣٩٥.

٥- راجع: مواهب الجليل لشرح مختصر خليل، للحطاب ج٤ ص ٥٤٥، القوانين الفقهية لابن جزي ص ٣١٠، ونهاية المحتاج للرملي ج٤ ص ٢٢٢، والمغني والشرح الكبير لابني قدامة ج٤ ص ٣٨٥.

كذلك يشترط أن يكون محل الشيء المقرض معلوما علما نافيا للجهالة وذلك؛ لأن المعلم تشمل معرفة قدر الشيء المقرض ووصفه وإقراض ما هو غير معلوم القدر والوصف يؤدي إلى عدم معرفة رد المثل، وبالتالي عدم القضاء أو إلى النزاع بسبب عدم الاتفاق على قدر ووصف الشيء المقرض^(١). ومن شروط المعقود عليه كذلك أن يكون المال المقرض عينياً لا منفعة^(٢).

الفرع الرابع: أركان القرض في القانون المدني اليمني:

ذكر القانون اليمني اركان القرض في المواد (٦٠٧ - ٦٠٩)؛ حيث نصت المادة ((٦٠٧)) على أن أركان القرض هي: (١- المقرض (دافع المال). ٢- المقترض (أخذ المال). ٣- القرض (المال المنتفع به).

وبينت المادة (٦٠٨) (أن القرض ينعقد بما يدل على التراضي به، وقبض المستقرض للمال ويملك المال للمقترض). وذكرت المادة (٦٠٩): شروط صحة القرض إذ جاء فيها: (يشترط لصحة القرض أربعة شروط هي:

١- أن يكون المقرض أهلاً للتصرف والتبرع .

٢- أن يكون القرض فيما يجوز بيعه .

٣- أن يبين جنس القرض ونوعه وصفته .

٤- أن يبين مقدار القرض بمعيار معروف كميلاً أو وزناً أو عدداً أو ذرعاً .

ومن خلال ما سبق يظهر أن المشرع اليمني قد ذهب مذهب جمهور فقهاء الشريعة في ما يخص أركان القرض حيث ذكر أن أركان القرض تتمثل في: (الصيغة والعاقدان والمعقود عليه)،. وكذلك ما ذهب إليه في صحة القرض سواء كان محله من الأعيان القيمة أو المثلية، على عكس فقهاء المذهب الحنفي الذين لا يجيزون قرض ما لا مثل له من المذروعات والمعدودات المتقاربة.

١- راجع: روضة الطالبين للنووي ج ١ ص ٢٣، وشرح منتهى الإرادات للبهوتي ج ٢ ص ٢٢٠.

٢- وفي مسألة كون المال المقرض عيناً أم منفعة لم تتفق كلمة الفقهاء إذ جاءت على رأيين. الأول يرى عدم صحة القرض في المنافع. وهو للحنفية والحنابلة على المعتمد في المذهب فالحنفية قالوا: بعدم صحة القرض في المنافع؛ لأن القرض عندهم إنما يرد على دفع مالٍ مثلي لاخر ليرد مثله؛ والمنافع لا تعتبر أموالاً في مذهبهم. أما الحنابلة فكان مستندهم أن إقراض المنافع غير معهود في عرف الناس، والرأي الثاني للمالكية والشافعية وقالوا بصحة القرض في المنافع. راجع: رد المحتار على الدر المختار، لابن عابدين: ج ٧، ص ١٠، والقوانين الفقهية لابن جزي ص ٢١١، روضة الطالبين للنووي ج ٤ ص ٢٢، وشرح منتهى الإرادات للبهوتي ج ٢ ص ٢٢٠.

وقضت المادة (٦٠٩): بأن الأهلية الواجب توافرها في المقرض، هي أهلية التصرف، لأن الأهلية شرط أساسي في العقود لكنها في عقد القرض يجب أن تكون أهلية تبرع، كما بينا ذلك سلفاً، فلا يجوز القرض إلا ممن يجوز تبرعه، وهو كامل الأهلية بأن يكون عاقلاً بالغاً. مختاراً غير محجور عليه، وأخيراً بينت المادة (٦٠٦) مشروعية محل القرض ومعلوماته، فيجب أن يكون سبب عقد القرض مشروعاً، غير مخالف للنظام العام وللأخلاق الحميدة وللقانون، وعلى هذا الأساس يكون عقد القرض عقداً باطلاً إذا كان قصد المقرض منه مخالفاً لقواعد الشريعة والقانون، فالشريعة الإسلامية تنظر إلى الدوافع المؤدية إلى الإقراض، فإذا كانت موافقة لها صح القرض وإلا اعتبر عقد القرض باطلاً.

والذي يبدوا لي أن المشرع اليمني قد سلك مسلك جمهور المسلمين ولم يشذ عنهم فيما قرره من أركان القرض، وقد أحسن صنعا في هذه المسألة .

المبحث الثاني

اسباب الاقتراض الخارجي

يدرس هذا المبحث أهم الاسباب القهرية التي تدفع الدول النامية إلى اللجوء إلى الاقتراض الخارجي وهذه الاسباب كثيرة ومتعددة بعضها داخلية كالعجز في الموازنات العامة والتضخم الذي أثر في قيمة العملات الوطنية والركود الاقتصادي المحلي والعالمي، والآخرى خارجية كالركود العالمي الحالي وانخفاض أسعار المواد الخام الأولية وارتفاع قيمة الفائدة وغير ذلك وسيتم في هذا المبحث التعرض لأهم الاسباب الداخلية والخارجية وذلك في مطلبين هما :

المطلب الاول

الأسباب الداخلية

أولاً: الاستثمار من أجل التنمية :

من الاسباب التي تدفع الدول النامية الى الاقتراض الخارجي الميل الى الاستثمار من أجل تحقيق التنمية الاقتصادية وهذا يتطلب رساميل ضخمة

وتكنولوجيا متقدمة وهو ما تفتقر إليه تلك الدول، مما اضطرها إلى الاقتراض الخارجي لشراء الآلات والمعدات والتعاقد مع الخبراء الأجانب وشراء برآءات الاختراع وحقوق الصنع^(١) ونحو ذلك.

ولذلك فإنه كلما كانت الموارد المحلية للدول النامية غير كافية لتمويل الاستثمارات المطلوبة فإنها حتما ستلجأ إلى مصادر التمويل الخارجي (القروض الخارجية، الاستثمارات الأجنبية، المساعدات وغيرها)، والتي يفترض أن تقوم بدور مهم وكبير في تسريع عملية التنمية الاقتصادية والاجتماعية.

ثانياً: الانفجار السكاني:

تعد الزيادة السكانية المفرطة في الدول النامية الفقيرة إحدى العقبات الأساسية في طريق التنمية الاقتصادية والاجتماعية؛ إذ تفرض عبئاً ثقيلاً على الاقتصاد الوطني، مع استنفاد أسرع للموارد الاقتصادية المتاحة، وبالطبع فإن ارتفاع معدل النمو السكاني وتضاعف عدد السكان لهذه الدول مقابل اتجاه معدل النمو الاقتصادي للانخفاض سبب مشكلة حقيقية تمثلت في عدم إمكانية توفير الاحتياجات الاستهلاكية المتنوعة والمتزايدة للمواطنين من جهة؛ وتوفير مستلزمات عملية التنمية من جهة أخرى، ومن هنا تنشأ الحاجة إلى التمويل الخارجي بسبب عدم كفاية الموارد المحلية لهذه الدول، وتشير الإحصائيات الدولية أن عدد سكان العالم عند نهاية ٢٠٠٦ يقدر بحوالي ستة مليارات نسمة، ويزداد عددهم بحوالي المئة مليون نسمة سنوياً، ومما يزيد خطورة الموقف أن حوالي ٨٥٪ من الزيادة السكانية تقع في البلدان النامية التي يعيش فيها أكثر من ٨٠٪ من سكان العالم الذي يعانون أصلاً من سوء أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية^(٢).

ثالثاً: سوء توظيف القروض:

يعد سوء توظيف القروض من قبل الدول المقترضه، وكذلك سوء التخطيط وتغير السياسات الاقتصادية وتخبطها من فلسفة اشتراكية إلى رأسمالية، ومن

١- راجع: الديون والتنمية للدكتور رمزي زكي، ص ١٩، دار المستقبل العربي، مصر، ط١، ١٩٨٥م.

٢- راجع: النمو الاقتصادي والتحويلات السكانية في سورية لعصام خوري، ندوة الثلاثاء الاقتصادية العاشرة، دمشق، ١٩٩٥م.

راسمالية إلى اشتراكية من الاسباب الرئيسية التي أدت إلى فشل كثير من المشروعات التي تم الاقتراض من أجلها، فهذه القروض كان المأمول منها أن تستغل استغلالاً صحيحاً في مشروعات تنموية طموحه ولكن سوء التوظيف لهذه القروض وعدم التخطيط السليم كبد خزينة الدولة أموالاً طائلة مما دفع بهذه الدولة إلى السير في طريق الاستدانة الوعر سنوات طويلة ومن ثم وضع هذه الدول المقترضه في مفترق الطرق فلا هي حققت التنمية ولا هي قادرة على الوفاء بديونها الخارجية، بل إن هذه الديون وقفت حجر عثرة في طريق التنمية الاقتصادية لهذه الدول، يضاف إلى ذلك أن عملية الاقتراض في العديد من الأحيان قد اقترنت بزيادة كبيرة في الاستهلاك الترفي وفساد الحكومات التي تقترض كثيراً للرفع من مستوى معيشة شعوبها بشكل مصطنع كرشوة لشراء ولاء الشعب وسكوته^(١).

وإذا قمنا بعقد موازنة بين توظيف الأموال الأجنبية في الدول الرأسمالية وبين توظيفها في الدول النامية سنلاحظ أن الأولى ركزت على استيراد المواد الخام الأولية ذات الأسعار المنخفضة اللازمة للتنمية الصناعية وأخذت بتصدير السلع ذات الأسعار المرتفعة، لتنتقل في مرحلة لاحقة إلى تصدير رأس المال الأجنبي إلى الدول النامية، فقد أدركت أن الدول النامية تعتبر أرضية خصبة لاستثماراتها. أما الدول النامية فقد ركزت على استيراد السلع الاستهلاكية والرأسمالية ذات الأسعار المرتفعة وأخذت بتصدير الكثير من مواردها الطبيعية على شكل مواد خام وبأسعار زهيدة. هذا التخصص في إنتاج المواد الأولية أدى إلى تعريضها إلى آثار الأزمات الاقتصادية التي تعرضت لها أسواق هذه المواد والتناقضات التي شهدتها الأنظمة الاقتصادية^(٢).

رابعاً: تهريب رؤوس الأموال إلى الخارج :

في الوقت الذي تعاني منه الدول النامية عبء المديونية الخانق نتيجة لاقدامها على سياسة الإقتراض بشكل كبير لسد الفجوة التمويلية للمشروعات التنموية،

- ١- راجع: أثر الديون الخارجية على الدول النامية للفايدي ص ٦ بحث مقدم الى منتدى كلية الحقوق جامعة المنصورة ٢٠١٢م، وانظر البحث في الموقع الالكتروني الآتي: law.net/law/threads/63877، والهيكلمؤسسي لإدارة الدين الخارجي للدكتور يسوف بطرس غالي ص ٨، بحث مقدم في إطار ندوة إدارة الدين الخارجي، القاهرة، تموز ١٩٩٢م.
- ٢- راجع: إشكالية الديون الخارجية وأثارها على التنمية الاقتصادية في الدول العربية للدكتورة فضيلة جنوحات ص ١٢١ ومابعدها، مطبوعات الجامعة الجزائرية ٢٠٠٦م.

كان الفساد الإداري والمالي والسياسي على الجانب الآخر يعم أجهزة الدولة ومؤسساتها في معظم الدول النامية. وقد نجم عن هذا الفساد نهب جانب كبير من القروض الخارجية وتهريبها إلى الخارج وتم إيداعها في البنوك الأجنبية لحساب المسؤولين الحكوميين الكبار ولرجال الأعمال القريبين منهم وذلك لضمان مستقبلهم في حال تعرضهم لأي انقلاب أو تغيير نظام الحكم، وهذه الظاهرة أدت إلى تراكم الديون وفشل التنمية^(١)، والواقع ان هذه الظاهرة لاتزال متفشية ومستمره على نطاق واسع حتى وقتنا الراهن، ولكن الشيء المؤسف والمحزن في هذا الموضوع أن اقتصاديات البلدان المدينة التي حرمت من هذه الأموال التي هربت وأدعت في المصارف الأجنبية في الخارج والتي كانت في أشد الحاجة إليها هذه الدول قد أعيد تدويرها إلى البلاد التي خرجت منها من جديد على شكل قروض^(٢).

خامساً: الاهتمام بالصناعة على حساب الزراعة :

أدى الاهتمام بالصناعة على حساب الزراعة إلى تزايد الحاجة إلى الواردات الغذائية وإهمال الزراعة كدعامة مهمة لاقتصاديات تلك الدول، والاهتمام بالصناعات التي تحتاج إلى رساميل ضخمة لإنشائها وتشغيلها، كما يعتمد تشغيل الطاقات الإنتاجية في هذه الصناعات على استمرار تدفق السلع الوسيطة والموارد الأولية وقطع الغيار، واستقدام الخبرات الأجنبية وهذه الامور تتجاوز مقدرة الاقتصاد الوطني للبلدان النامية مما أدى إلى اللجوء إلى الاقتراض الخارجي لتمويل هذه الصناعات^(٣). وهذا بدوره أدى إلى إهمال التنمية في القطاع الزراعي، ومن ثم إلى تدني النتاج الزراعي، وانخفاض الصادرات الزراعية. الأمر الذي انعكس بدوره على زيادة العجز في الموازين التجارية، مؤدياً إلى وجود اختناقات في الموارد الخام الزراعية اللازمة للصناعات المحلية، وتفاقم مشكلة الغذاء. ومن ثم هبوط نسب الاكتفاء الذاتي وظهور مشكلة الأمن الغذائي، وبالطبع انعكس سوء

١- راجع: ديون البلدان النامية ومواقف الجهات الدولية والإقليمية منها لمحسن فؤاد صيادي ص ١٥٠-١٥٢، والتكاليف الاجتماعية للإنفاق العام مع الإشارة لمصر للدكتور المرسي حجازي ص ٢٢، مجلة الحقوق للبحوث القانونية والاقتصادية، كلية الحقوق، جامعة الإسكندرية، العدد الرابع ١٩٩٥م.

٢- راجع: إشكالية الديون الخارجية وأثارها على التنمية الاقتصادية في الدول العربية للدكتورة فضيلة جنوحات ص ٧٠.

٣- راجع: مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية، الأمم المتحدة تقرير أقل البلدان نموا لعام ١٩٨٩م ص (٢٣-٢٥)، نيويورك، ١٩٩٠م.

الأداء الزراعي على زيادة الفجوة الغذائية لدى البلدان النامية؛ فقد انخفضت نسبة الاكتفاء الذاتي من الحبوب لأقل نموًا من متوسط ٩٥٪ للفترة ١٩٧٠-١٩٨٠م. إلى ٩٣٪ خلال الفترة ١٩٨١-١٩٨٧م، ويلعب التخلف التكنولوجي دورًا بارزًا في انخفاض معدلات التنمية والإنتاج خاصة في بلدان الوطن العربي التي تعد الأسوأ من بين البلدان النامية بصفة عامة فغلة الحبوب مثلًا تمثل حوالي ٥٧٪ من غلة الحبوب في الدول النامية، وحوالي ٤٤٪ في الدول المتقدمة. وتمثل غلة الهكتار الواحد من القمح في الوطن العربي عام ١٩٩٢ حوالي ٧٠٪، و٧٦٪ من نظيرها في الدول المتقدمة والدول النامية على التوالي^(١)، ويعود السبب في انخفاض الإنتاجية الزراعية في الوطن العربي إلى عدد من العوامل أهمها ضعف الاستثمارات الموجهة إلى القطاع الزراعي. فقد قدرت بحوالي ١٠٪/٠ خلال الفترة من ١٩٨٦-١٩٨١م من حجم الاستثمارات العربية. في حين بلغت النسبة في القطاع الصناعي ٢١٪، وفي قطاع المواصلات والنقل ١٤٪، وفي قطاع التشييد والبناء ١٣٪. وإلى جانب ذلك، هناك انخفاض في مستوى البحث العلمي الزراعي، وتخلف وسائل الإنتاج، وعدم تحسين طرق الإنتاج في معظم الأقطار العربية. لهذا يعاني الوطن العربي من عجز في معظم سلع الغذاء وتشير البيانات أن القيمة التراكمية للفجوة الغذائية بلغت خلال الفترة ١٩٨٥-١٩٩٢م حوالي ٨٨ مليار دولار، منها حوالي (٤٢ مليار) للحبوب^(٢).

سادسًا: العجز المتزايد في ميزان المدفوعات :

تعاني غالبية دول العالم العربي والإسلامي من مشكلة العجز المتزايد والمستمر لموازين المدفوعات، نظرًا لتزايد الواردات السلعية على حساب الصادرات وهذا بالتأكيد سيؤدي إلى اختلال تجاري واضح مما دفع هذه الدول إلى الاقتراض الخارجي وتفاقم مديونيتها، يضاف إلى ذلك أن انخفاض أسعار المواد الخام المصدرة إلى الأسواق العالمية؛ كالبتروول والمواد الخام الأخرى أدى إلى تدهور

١- مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية، الأمم المتحدة تقرير أقل البلدان نموًا لعام ١٩٨٩م ص (٢٣-٢٥)، نيويورك، ١٩٩٠م.

٢- راجع: صندوق النقد العربي، الاقتصاد العربي الموحد ص (٣٣-٣٦)، ١٩٩٣م.

شروط التبادل التجاري للبلدان المصدرة، مما أدى إلى تفاقم عجز ميزان المدفوعات الذي يزيد من الميل إلى الاستدانة الخارجية^(١).

المطلب الثاني

الأسباب الخارجية

أولاً: ارتفاع أسعار الفائدة :

يعود السبب الرئيس لاستفحال أزمة المديونية للدول النامية إلى الارتفاع الشديد الذي طرأ على أسعار الفائدة في أسواق المال الدولية؛ حيث يلاحظ أن ارتفاع معدلات الفائدة قد تجاوزت في العديد من البلدان الفوائد الزائدة المدفوعة لقاء قيمة التمويل الإضافي الصافي وتكبدت البلدان المدينة مبالغ متزايدة عبر السنين وأصبح يمثل بند خدمة الدين نصيباً مهماً من صافي الديون ويستحوذ على مبالغ كبيرة من النقد الأجنبي. وعند استعراض تطور سعر الفائدة منذ أن بدأت البلدان النامية بالاقتراض الخارجي لتمويل التنمية وسد العجز في موازين المدفوعات من خلال الدراسة التي قام بها البنك الدولي والتي تغطي الفترة من عام (١٩٦٥-١٩٨٣) يلاحظ أن متوسط سعر الفائدة الحقيقي^(٢) كان في حدود ١,٤٪. هذا في الوقت الذي كان فيه سعر الفائدة الاسمي على القروض لستة أشهر فيما بين مصارف لندن بالدولار يبلغ ٩,٣٪. مع الإشارة إلى أن هذه الفترة قد شهدت تسارعا لآباس به في نمو البلدان النامية ولكن مع مطلع الثمانينات اتجه سعر الفائدة الاسمي على القروض نحو الارتفاع الشديد؛ إذ وصل سعر الليبور خلال الفترة من (١٩٨١-١٩٨٦م) في المتوسط ١١,١٪. بينما كان سعر الفائدة الحقيقي خلال - الفترة نفسها ٦٪ وقد شهد سعر الليبور أعلى مستوى له، عام (١٩٨٢) أي عام انفجار أزمة الديون الخارجية للبلدان النامية، فبلغ ١٣,٥٪ مقابل سعر فائدة حقيقي ٧,١٪. وتشير بيانات جداول الديون العالمية الصادرة عن البنك الدولي

١- راجع: أزمة القروض الدولية، الأسباب والطلول المطروحة مع مشروع صياغة لرؤية عربية للدكتور رمزي زكي، ص ٩٤، ٩٥، دار المستقبل العربي، ١٩٨٧م، وإشكالية الديون الخارجية وأثارها على التنمية الاقتصادية في الدول العربية للدكتورة فضيلة جنوحات ص ١٣٥.

٢- نقصد بالفائدة الحقيقية الفرق بين سعر الفائدة الاسمي ومعدل التضخم السائد في الولايات المتحدة الأمريكية، راجع: إشكالية الديون الخارجية وأثارها على التنمية الاقتصادية للدكتورة فضيلة جنوحات ص ٥٥.

لعام (١٩٩٣-١٩٩٤م) إلى أن متوسط سعر الفائدة الحقيقي لمجمل ديون البلدان النامية خلال الفترة من عام (١٩٨٧-١٩٩٢م) بقيت في حدود ٦,٥^(١)، وبالتأكيد فإن الارتفاع الذي طرأ على أسعار الفائدة الحقيقية يعني زيادة المبالغ التي يجب على البلدان النامية تخصيصها لدفع أعباء الديون. مما أدى إلى تراكم متأخرات المدفوعات للفوائد على البلدان المدينة، يأتي ذلك في الوقت الذي تعرضت فيه موارد القطع الأجنبي لتلك البلدان إلى التدهور والتقلب.

ثانياً: آثار الركود التضخمي السائد في معظم الدول الرأسمالية :

يعد الركود الاقتصادي في البلدان النامية سبب من أسباب الاستدانة الخارجية، فالمعلوم أن معظم الدول النامية أن لم تكن كلها - ومنها الدول العربية- تندمج في النظام الاقتصادي العالمي وتتبعه وتبعيتها له تتعدد أشكالها من تبعية تجارية إلى غذائية إلى نقدية إلى تكنولوجية، فضلاً عن التبعية العسكرية والسياسية، لذلك فإن ما يحدث في هذا النظام الاقتصادي من تقلبات وأزمات في كل مدة زمنية من الطبيعي أن يؤثر سلباً في الأوضاع الاقتصادية لهذه البلدان^(٢).

المبحث الثالث

مخاطر الاقتراض الخارجي والحلول الوضعية البديلة منه

المطلب الأول

مخاطر القروض الخارجية

على الرغم من أن القروض الخارجية تحقق بعض الفوائد من الناحية الاقتصادية منها تمكين الدولة المقترضة من تقوية أرصدها من العملة الخارجية، و شراء بعض السلع التي تحتاجها، وهذا يؤدي بدوره إلى تقوية مركز ميزان المدفوعات للدولة المقترضة^(٣)، إلا إن هناك العديد من المخاطر التي تنجم عن

١- راجع: البنك الدولي، التقرير السنوي، واشنطن، عام ١٩٨٧، ص ٥٩. وعام ١٩٨٩، ص ٣٧، ويقصد بالليبور (libor) هو سعر

الفائدة الاسمي الذي تتعامل به البنوك في لندن للودائع مطروحة منه معدل ارتفاع أسعار الجملة في الولايات المتحدة الأمريكية.

٢- راجع: أعمال مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية، الأمم المتحدة، ج ٢، ص ٣٥، نيويورك، ١٩٨٩م.

٣- راجع: الاقتصاد الإسلامي لعون محمود الكفراوي، ص ٢٦٤، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، د- ت.

الاقتراض الخارجي، ولا تنحصر هذه المخاطر في الجوانب الاقتصادية فحسب؛ بل تشمل الجوانب السياسية والاجتماعية إذ أصبحت ظاهرة الاقتراض الخارجي بالنسبة للبلدان النامية من أعقد المشاكل التي تواجهها في العصر الحاضر، وسيتم عرض أهم المخاطر الناجمة عن الاقتراض الخارجي على النحو الآتي:

١- تمثل القروض الخارجية عبئاً حقيقياً بالنسبة لاقتصاد الدولة المقترضة؛ إذ يتعين عليها دفع الفوائد، ورد أصل الدين مما يتطلب اقتطاع جزء من ثروة الدولة، وتصديره إلى الخارج وفاءً لما على الدولة من التزامات برد القرض مع الفوائد.

٢- إن خطورة القرض العام الخارجي تتفاقم وتزداد عندما تقوم الدولة المقترضة باستخدام حصيلة القرض الخارجي في استيراد سلع استهلاكية، وهذا يؤدي إلى زيادة المعروض من السلع الاستهلاكية في السوق المحلية، ولا بد من التخلي عن مثل هذه السياسة؛ لأن استخدام القرض الخارجي في شراء السلع الاستهلاكية لا ينتج عنه في واقع الحال أي زيادة في الطاقة الإنتاجية للدولة المقترضة^(١).

٣- حدوث الإنكماش في الاقتصاد الوطني، وانخفاض في معدل الانتاج، وهذا بدوره يؤدي إلى التضخم^(٢) الأمر الذي يؤدي إلى تدني قيمة النقد وارتفاع الأسعار^(٣).

٤- قد تواجه الدولة المقترضة بعض المشاكل العويصة؛ كحلول أجل السداد قبل أن تبدأ المشروعات التي مولها القرض في الانتاج بطاقتها الاقتصادية، ومن ثم عدم توافر عمله صعبه بالقدر الكافي لتسديد فوائد القرض، وأقساطه، وقد تتركز مواعيد فوائد أكثر من قرض خارجي في آن واحد نتيجة عدم التنسيق

١- راجع: المالية العامة للدكتور حامد عبد المجيد دران، مرجع سابق، ص ٣٧٦.

٢- يقصد بالانكماش الاقتصادي هي فترة متميزة بهبوط النشاط التجاري وانخفاض مستواه ويستمر لفترة زمنية وذلك نظراً للتقلبات الاقتصادية، أما التضخم فيقصد به الإفراط في الطلب على السلع والخدمات وبالتالي يؤدي إلى الارتفاع العام للأسعار ويكون هذا الارتفاع نتيجة للتدهور قيمة النقود، وللتضخم تأثير خطر حيث يؤدي إلى انخفاض القوة الشرائية للعملة وعجز مزمّن في الميزانية
راجع: معجم المصطلحات الاقتصادية علي بن محمد الجمعة ص ١٨١، ١٨٢، ٩١.

٣- راجع: المالية العامة للدكتورين أحمد زهير شامية وخالد الخطيب، مرجع سابق، ص ٢٤٣ - ٢٤٤.

في أجال السداد^(١).

٥- يعد القرض الخارجي سلاحاً فتاكاً بيد الدولة الدائنة-وخاصة البلدان المتطورة- إذ تتخذ منه ذريعة للتدخل في شئون، واختصاصات البلدان المقترضة (المدينة)، وهذا يؤدي إلى الحد من حرية الدول المقترضة فتصبح هذه الدولة تحت سيطرة الدول الأجنبية^(٢)، تتحكم في السياسات الاقتصادية المحلية لهذه الدول المدينة، من غير مراعاة للاعتبارات الاجتماعية مما يهدد الاستقرار الاجتماعي والسياسي للمجتمع بل يمكن أن يصل الأمر إلى سيطرة الدول الدائنة على الإدارة السياسية للدول المدينة في مجال العلاقات السياسية الدولية ولقد كانت ديون مصر الخارجية لبريطانيا وفرنسا في القرن التاسع عشر (لتمويل مشروع حفر قناة السويس) سببا مباشرا لاحتلال مصر عسكريا بواسطة بريطانيا عام ١٨٨١م^(٣)، كما أن هذه القروض من قبل الدول الدائنة لا تقدم بدون مقابل أو بدون ضمانات، فهنا يفرض الطرف الأقوى المقدم لهذه القروض شروطه على الطرف الأضعف المتلقي لهذه القروض، ومن أمثلة هذه الشروط ذلك الشرط الذي وضعه البنك الدولي عندما طلبت الأردن قرضاً لبناء سد على نهر الأردن فقد اشترط هذا البنك موافقة إسرائيل على بناء السد وتعهدها بعدم تدميره وهو بالطبع الأمر الذي منع إتمام هذا القرض . وسياسة لي الذراع التي تمارسها الدول الدائنة على الدول المدينة تعد من أبرز نتائج الاستعمار الأجنبي، وتظهر هذه السياسة بوضوح من خلال التأثير السلبي على حرية صناعة القرار السياسي لهذه الدول وتعرضه للمزيد من الضغوطات، وفي كل ذلك مساس بالسيادة الوطنية واستقلال القرار السياسي، فمن المعروف تورط العديد من الشركات وبتشجيع من حكومات

١- راجع: الاقتصاد المالي الوضعي والإسلامي للدكتورين محمد عبدالمنعم عفر، وأحمد فريد مصطفى، مرجع سابق، ص ٢٨٤-٢٨٥.

٢- راجع: عجز الموازنة وعلاجه في الفقه الإسلامي للدكتور يوسف الريان، مرجع سابق، ص ٢٩٧.

٣- راجع: اتساع نطاق الدين العام في دول العالم الإسلامي المشكلة والحلول للدكتور المرسي حجازي ص ٣٢، ٣٨، بحث مقدم الى المؤتمر العالمي الثالث للاقتصاد الإسلامي، جامعة أم القرى، السعودية، ٢٠٠٨م، وإشكالية الديون الخارجية وأثارها على التنمية الاقتصادية في الدول العربية للدكتورة فضيلة جنوحات ص ١٤٦ وما بعدها .

الدول الدائنة في تمويل الأحزاب الموالية لها والتدخل في الانتخابات في الدول النامية والتشكيك في نزاهتها وشراء ذمم العديد من القائمين عليها، وظهر بوضوح ما يعرف بسياسة ازدواجية المعايير كأبرز سمات العولمة والنظام العالمي الجديد، وأصبح هذا النظام يبيح لدولة معينة ما يحرمه على غيرها حسب ما تمليه المصالح الاستراتيجية للدول المهيمنة^(١).

٦- إن الاعتماد على القروض الخارجية من شأنه أن يؤدي إلى فقدان الاقتصاد القومي لدرجة سيولته، ومن ثم اللجوء إلى الاستدانة بصفة مستمرة لسداد عبء الدين السابق مما يدخله في حلقة الاستدانة الدائمة، والعجز المستمر عن سداد الالتزامات الخارجية وهذا يؤدي إلى إفلاس الدولة، وبذلك تفقد حريتها الاقتصادية، فقد ذكرت بعض التقارير إلى أن ديون بعض الدول النامية تصل إلى ٢٠٠٪ من ناتجها القومي^(٢)، وحجم الديون الخارجية للدول العربية في بداية السبعينات كان لا يتجاوز ٦,٤ مليار دولار أميركي، ثم تطور فيما بعد ليبلغ حوالي ١٢٨,٧ مليار دولار في نهاية عام ٢٠٠٠، ثم وصل إلى حوالي ١٤٧,٧ مليار دولار في نهاية عام ٢٠٠٣، وقفز أخيراً ليبلغ حوالي ١٧٨,٧ مليار دولار في عام ٢٠٠٤م^(٣).

٧- القروض الخارجية ذات ارتفاع ملحوظ في أسعار الفائض، وهذا يؤدي إلى صعوبة سداد الدين ناهيك عن أنه ينص غالباً في القرض على ضرورة سداه بالدولار أو الاسترليني مما يؤدي إلى استنزاف جزءاً كبيراً من موارد الدولة من هذه العملات^(٤).

٨- إن المخاطر السلبية للقروض الخارجية لا تقتصر على الجوانب الاقتصادية فقط في الدول النامية وإنما تتعداها إلى الأبعاد الاجتماعية، فنتيجة لتفاقم الديون

١- راجع: أثر الديون الخارجية على الدول النامية للفايدي ص٦، وإشكالية الديون الخارجية وأثارها على التنمية الاقتصادية في الدول العربية للدكتورة فضيلة جنوحات ص١٤٦، وما بعدها، والتقارير الصادر عن البنك الدولي لسنة ٢٠٠٠م، ص١٥.

٢- راجع: الاقتصاد المالي الوضعي والإسلامي للدكتورين/ محمد عبد المنعم عفر، أحمد فريد مصطفى، مرجع سابق، ص ٢٨٩-٢٨٧.

٣- راجع: التقرير الاقتصادي العربي الموحد لعام ٢٠٠٥، ص ٣٥٠.

٤- راجع: الاقتصاد المالي الوضعي والإسلامي للدكتورين/ محمد عبد المنعم عفر، أحمد فريد مصطفى، مرجع سابق.

الخارجية لدول النامية، والنتائج المترتبة عليها، فقد أثرت سلباً على مستويات المعيشة لغالبية الدول المدينة وأدت إلى تفاقم البطالة والفقر في هذه الدول، فأغلب الدول النامية ومنها البلدان العربية التي لجأت إلى تطبيق برامج التثبيت الاقتصادي والإصلاح الهيكلي تحت وطأة ارتفاع مديونيتها الخارجية وبمباركة من المؤسسات الدولية الدائنة (صندوق النقد الدولي والبنك الدولي ونادي باريس ونادي لندن) عانت من معدلات بطالة أصبحت تهدد استقرارها الاجتماعي والسياسي، حيث تشير البيانات المتعلقة بالتشغيل والبطالة في البلدان العربية إلى اتجاه تصاعدي لحجم البطالة؛ إذ تراوحت معدلات البطالة في البلدان العربية ما بين ١٥٪ و ٢٠٪ خلال التسعينات، وهي الحقبة التي شهدت ارتفاع حجم الدين الخارجي^(١).

المطلب الثاني

الحلول البديلة لمشكلة القروض الخارجية

سيتم التعرض في هذا المطلب لأهم الحلول البديلة لمشكلة القروض الخارجية، وهي الحلول المقترحة من المؤسسات الدولية، كالبنك الدولي والصندوق الدولي وما يرتبط بهما: (نادي باريس ونادي لندن)، وكذلك مقترحات الدول المدينة، وذلك على النحو الآتي:

أولاً: الحلول المقترحة من المؤسسات الدولية :

وهي الحلول المقترحة من البنك الدولي والصندوق وما يرتبط بهما: (كنادي باريس ونادي لندن)، وترتكز هذه الحلول في المقام الأول على منهج المنافسة الاقتصادية الحرة في السوق ويتمثل ذلك في رفع القيود عن المعاملات الخارجية وتحرير التجارة الخارجية، فالاقتصاد الرأسمالي قادر على أن يتوازن ويستقر ألياً بشرط احترام الحرية الاقتصادية وآليات السوق والمنافسة الحرة وإلغاء تدخل الدولة في النشاط الاقتصادي (الاستيراد والتصدير)، ووفقاً لهذا المنهج فإن سبب عجز الموازنة هو تدخل الدولة في النشاط الاقتصادي ومحاولتها تحقيق الرفاهية الاقتصادية، لذلك فإنه يقع على الدول المدينة كشرط أولي للإصلاح المالي الموافقة على

١- راجع: تقرير البنك الدولي لسنة ١٩٥٠م، وإشكالية الديون الخارجية وأثارها على التنمية الاقتصادية في الدول العربية للدكتورة فضيلة جنوحات ص١٤٦ وما بعدها.

برنامج الصندوق للتثبيت الاقتصادي من أجل إعادة جدولة ديونها الخارجية^(١). كما يرى الصندوق والبنك الدولي أن الحل يكون من خلال القضاء على فائض الطلب لاستعادة التوازن الداخلي والخارجي؛ لأن فائض طلب في الاقتصاد الوطني يفوق المقدرة الحقيقية للعرض الكلي في الداخل، وهو ما يسبب تضخماً ومديونية خارجية، ولذا ينبغي القضاء على هذا الفائض من خلال الحد من سرعة نمو الإنفاق العام الجاري والاستثماري عن طريق تحجيم نمو القطاع العام (الخصخصة) وذلك عن طريق نقل الملكية من العام إلى الخاص، والتخلص من الدعم الاقتصادي لوحدة القطاع العام من خلال تصفية الوحدات والخصخصة والإدارة التجارية ورفع الأسعار، وكذلك خفض الأجور ووضع حد أقصى لها أو تجميدها وإلغاء الوظائف الشاغرة والمؤقتة وتجميد التعيين، والحد من الخدمات العامة الاجتماعية؛ كخفض النفقات التمويلية ذات الطابع الاجتماعي من خلال إلغاء الدعم السلمي، وزيادة أسعار الطاقة خصوصاً المرتبطة بالاستهلاك العائلي مع زيادة رسوم استخدام المرافق العامة وإعادة النظر في فلسفة التعليم المجاني، وزيادة فئات بعض الضرائب غير المباشرة على السلع الضرورية وغير ذلك من الإجراءات التي يرى الصندوق أن من شأنها استعادة التوازن الداخلي ومن ثم التوازن الخارجي^(٢).

وعلى الرغم من هذه الإجراءات التي يزعم البنك الدولي والصندوق أنه من خلالها سيتجه العجز الخارجي نحو الانخفاض، ولكن ثمة مشكلة كبيرة وعظيمة تجاهلها البنك الدولي والصندوق وهي أن الجانب الأكبر من مشكلات الديون يرجع أساساً إلى تأثير العوامل الخارجية التي لا تستطيع الدول المدينة التحكم بها أو التنبؤ بحدوثها مثل ارتفاع أسعار الفائدة على القروض وتقلب أسعار العملات الأجنبية وارتفاع قيمة الدولار وعدم استقرار حصيلة صادراتها ونحو ذلك، وهي عوامل تشير بشكل كبير إلى خطورة التبعية للاقتصاد العالمي.

١- راجع: اتساع نطاق الدين العام في دول العالم الإسلامي المشكلة والحلول للدكتور المرسي حجازي ص ٢٣، وعلاج عجز الموازنة العامة للدولة في ضوء النهج الانكماشية والنهج التنموي للدكتور رمزي زكي ص ١٥٣-١٩٥، دار الندى للثقافة والنشر، دمشق، سوريا، ٢٠٠٠م.

٢- راجع: اتساع نطاق الدين العام في دول العالم الإسلامي المشكلة والحلول للدكتور المرسي حجازي ص ٢٣.

وقد لجأت معظم الدول النامية إلى تطبيق هذه الإجراءات تحت وطأة ضغوط الديون الخارجية فعمدت إلى خصخصة المنشآت العامة وتقليص العمالة والضغط على الإنفاق العام وكل هذه الأمور انعكس سلبياً على مستويات المعيشة لغالبية الدول المدينة مما أدى إلى تفاقم الفقر وارتفاع الأسعار وزيادة معدلات البطالة وارتفاع أسعار الخدمات الاجتماعية.... وبالطبع استمرار مشكلة الديون الخارجية!، مما يعنى أن هذا المنهج من الناحية العملية والتطبيقية يسبب مشاكل اجتماعية وسياسية خطيرة^(١). والواقع يشهد بأن هذه الحلول بكل تأكيد تخدم بالدرجة الأولى مصلحة الدائنين والجهات التي تمثل رأس المال الدولي والتي تزعم أنها تهدف إلى إصلاح الأوضاع الاقتصادية ودفع عجلة التنمية في البلدان المدينة.

ثانياً: الحلول المقدمة من الدول المدينة:

تستند هذه الحلول في الأساس على مبدأ وجود الرؤية المتكاملة والشاملة لعلاج مشكلة الديون الخارجية، وذلك من خلال تفعيل المسؤولية المشتركة بين الدول الدائنة والمنظمات الدولية المختلفة والدول المدينة؛ فمعالجة أزمة المديونية تتطلب المساهمة الفعلية لكل من الدول النامية المدينة، والدول الدائنة، والبنوك الخاصة والمؤسسات المالية الدولية. فالدول المدينة يقع على عاتقها تطبيق سياسات التصحيح الاقتصادي الهيكلي؛ وهي تشمل كافة الميادين الاقتصادية المالية والسياسة الضريبية، الاستثمارات الداخلية والخارجية وغيرها. وفي المقابل يقع على الدول الدائنة: باعتبارها المحرك الرئيسي للاقتصاد العالمي مساعدة الدول المدينة، خاصة منها الأكثر فقراً؛ وذلك بالتخفيض من أسعار الفائدة. وهذا ما يساعد على تخفيف ثقل المديونية الخارجية للدول النامية. كما على الدول الدائنة أن تعمل على تسهيل وتخفيف عمليات إعادة جدولة الديون الخارجية للبلدان النامية، وإعادة الجدولة تعني إعادة صياغة الديون القديمة في جداول جديدة، مع إعادة تشكيل شروط الدين وتأجيل السداد، كما يقع على الدول الدائنة، ضرورة تحسين شروط التبادل التجاري الدولي، والسماح لصادرات البلدان النامية بالدخول إلى

١- راجع: أثر الديون الخارجية على الدول النامية للفايدي ص ٨.

أسواق البلدان الرأسمالية المصنعة؛ وذلك بإلغاء القيود الحمائية وتقليص الرسوم والتعريفية الجمركية إلى المستويات التي لا تعرقل صادرات البلدان النامية المدينة، والعمل على استقرار أسعار صادراتها، ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه المطالب لم تلق استجابة من الدول الدائنة .

وعلى الدول المدينة مسؤولية القيام بالإصلاحات المالية الآتية:

١- تنمية الموارد المالية للدولة من خلال قوانين الضرائب ومكافحة التهرب الضريبي ورفع كفاءة الإدارة الضريبية^(١)، فمسألة التهرب الضريبي، أمر شائع في الدول النامية وله العديد من الآثار السلبية، مثل تقليص الإيرادات العامة للدولة مما يؤدي إلى العجز ومن ثم يكون تمويل هذا العجز عن طريق اللجوء إلى الاقتراض الخارجي .

٢- العمل على تشجيع التعاون الاقتصادي بين الدول النامية المدينة، والعمل على تشجيع التبادل التجاري ودعم إنتاج المواد الأولية وتبادل التكنولوجيا والمعارف والخبرات العلمية لهذه الدول وتشجيع الصناعة المحلية وحمايتها .

٣- إعادة ترتيب أولويات الإنفاق العام بالتركيز على إنشاء المشروعات الحكومية الأكبر أهمية وضرورة تقليص الإنفاق العسكري، فالدول النامية تعتمد في المجال العسكري والتسليح على استيراد هذه الأسلحة من الدول الدائنة، فقد ذكرت إحدى الإحصائيات أن الدول العربية فقط استوردت ما بين عام ١٩٧٨ و١٩٨٨م أسلحة بمبلغ يعادل ١٤٪ من الناتج المحلي الإجمالي مؤل نصفه عن طريق القروض الخارجية وقد كان ذلك على حساب الإنفاق الإنمائي^(٢) .

٤- الحد من تهريب رؤوس الأموال للخارج للتخفيف من تأثير تهريب هذه الأموال السلبى على ميزان المدفوعات للدول التي خرجت منها هذه الأموال، وإيجاد حلول للتخفيف من هذه الظاهرة كتخفيض الضرائب المرتفعة على الدخل

١- راجع: اتساع نطاق الدين العام في دول العالم الإسلامي المشكلة والحلول للدكتور المرسي حجازي ص ٢٢، وأثر الديون الخارجية على الدول النامية للفايدي ص ٦، وصندوق النقد الدولي، مجلة التمويل والتنمية، واشنطن، سبتمبر/أيلول ١٩٩١م.

٢- راجع: أثر الديون الخارجية على الدول النامية للفايدي ص ٦، وصندوق النقد الدولي، مجلة التمويل والتنمية، واشنطن، سبتمبر/أيلول ١٩٩١م.

وتخفيف القيود المفروضة على القطاع الخاص.

وفي ما يخص المديونية للوطن العربي فإن هذه المشكلة في المقام الأول تتطلب موقف ورؤية عربية موحدة لإيجاد الحلول المناسبة لحل هذه المشكلة لكي تتجنب الدول العربية المدينه الضغوط الخارجية والداخلية التي تتعرض لها بسبب العجز المتفاقم والمتنامي في موازين مدفوعاتها بسبب ديونها الخارجية. والواقع أن الوطن العربي يملك من المقومات والإمكانات الاقتصادية والاجتماعية والبشرية والجغرافية ما يؤهله لان يصبح دولة قوية ومتقدمة تحقق التكامل الاقتصادي العربي وذلك كما هو الحال لدى الدول الاوربية، فالوطن العربي يملك مساحة كبيرة تبلغ حوالي (١٤,٢ مليون كم ٢) ونسبتها إلى العالم (٢,١٠ /٠) في المائة. ولديه سكان وعمالة يبلغ حوالي ٢٠٦,٤ مليون نسمة، يشكلون ٠/٠٥ من سكان العالم، منها (١١٥) مليون عامل، ولديه النفط إذ تبلغ عائدات النفط العربي حوالي ٢٤٨,٥ مليار دولار لعام ٢٠٠٤، يتوفر للعالم العربي . على حوالي (٠/٠ ٥٩) من الاحتياطي النفطي العالمي ويسهم أيضا بحوالي (٨,٣٥ /٠) من الإنتاج العالمي للغاز الطبيعي بالنسبة لعام ٢٠٠٣، و(٠/٠٣١) من الاحتياطي العالمي للغاز الطبيعي لعام ٢٠٠٤ م^(١).

وهذه المؤشرات الاقتصادية والاجتماعية للوطن العربي إذا تم استغلالها بشكل سليم فإنها وبكل تأكيد ستعمل على الاعتماد على الذات والتخلص من أزمة الديون الخارجية بل وستعمل على الحد من التبعية الخارجية، والاتجاه نحو إستراتيجية تصحيحية تهدف إلى رفع معدل الصادرات، وكذلك العمل على تحرير تجاري ومالي عربي كشكل من أشكال التكامل الاقتصادي العربي وهذه الاستراتيجية يمكن تنفيذها على ثلاثة مستويات:

المستوى العالمي و المستوى الإقليمي و المستوى المحلي، فعلى المستوى العالمي، يقع على الدول العربية إنشاء نادي دولي يهتم بحقوق جميع المدينين صغيرهم وكبيرهم، وذلك للدفاع عن مصالحهم وحماية جهودهم التنموية وتطلعاتهم

١- راجع: التقرير الاقتصادي العربي الموحد مؤشرات عامة عن الدول العربية، ص د، سبتمبر لعام ٢٠٠٥ م.

المشروعة في تحقيق التقدم الاقتصادي والاجتماعي للدائنين، ويقوم هذا النادي بمناقشة أزمة المديونية العالمية برمتها، والبحث عن الطرق السليمة لحل مشاكل المديونية، ومن هذه الحلول تجميد الديون الخارجية لفترة متفق عليها وتخفيف أعبائها، وإلغاء بعضها، وتعديل طرق سدادها مثل الدفع بالصادرات، كما يجب أن يشترك الدائنين في تحمل عبء أزمة المديونية، وعلى المستوى الإقليمي يجب تشجيع التعاون الاقتصادي بين البلدان العربية وبين مختلف مجموعات دول العالم النامية المدينة، ومناقشة أزمة الديون الخارجية، وسبل تسهيل حلها والعمل على تشجيع التبادل التجاري فيما بين هذه الدول دون أن يمر عبر وسيط ثالث، ودعم إنتاج المواد الأولية وتبادل التكنولوجيا والمعارف والخبرات العلمية الموجودة في هذه الدول بعيدا عن وساطة وسيطرة الشركات متعددة الاستيطان^(١). ولمعالجة مشكلة الديون الخارجية على المستوى المحلي يجب الإسراع في تبني السياسات المستعجلة التصحيحية لمحاصرة هذه الديون وحماية الجهد التنموي، وضع سياسة فعالة ورشيده للاقتراض الخارجي تستهدف وضع حد لنمو الديون الخارجية القصيرة الأجل، وأن تكون الديون الجديدة من طبيعة إنتاجية وليست استهلاكية، وتنويع مصادر الإقراض، وعدم الاقتصار على دول أو كتلة اقتصادية معينة، ومحاربة الاستهلاك غير الضروري، سواء في القطاع العام أو الخاص، ومحاربة الاستيراد الترفي وفرض عليه رسوم كبيرة وتبني إستراتيجية إشباع الحاجات الأساسية للسكان من المسكن والمطعم، وضرورة توفير وتطوير البنية التحتية، خاصة منها المواصلات وخدمات الصحة والثقافة، وبشكل خاص التعليم بأطواره المختلفة، وهذه الإستراتيجية تركز في الأساس على فكرة الاعتماد على الذات، أي على تعبئة الفائض الاقتصادي المتاح في الداخل وليس إلى الخارج، كما تتطلب التخطيط السليم للموارد المحلية وكيفية استخدامها؛ وكذلك تشجيع الصناعة المحلية وحمايتها وتوسيع السوق الداخلي من خلال عدالة التوزيع^(٢).

١- راجع: إشكالية الديون الخارجية وأثارها على التنمية الاقتصادية في الدول العربية للدكتورة فضيلة جنوحات ص ٢٠٣، ٢٠٤.

٢- المرجع السابق ص ٢٠٣، ٢٠٤.

ولذلك فإن استغلال عناصر القوة الكامنة في الدول العربية واكتشافها هو الذي سيكفل لها الحفاظ على مصالحها وتطلعاتها بعيداً عن التبعية والتدخل الخارج خاصة وأن الإمكانيات العربية متوافرة كما تمت الإشارة، من حيث رأس المال والعمالة ومصادر الطاقة، ونحو ذلك وما تحتاج إليه هو الإرادة الحقيقية، التي تعمل على توظيف وتوجيه هذه الإمكانيات العربية الضخمة لبناء اقتصاد عربي قوي ومتميز من شأنه السماح بالتعامل مع التجمعات العالمية على قدم المساواة، ومن ثم يكون له دوره في وضع معالم النظام الاقتصادي العالمي الجديد.

المبحث الرابع

حكم الاقتراض الخارجي، والصيغ الإسلامية البديلة له

المطلب الأول

الحكم الشرعي للاقتراض الخارجي

التأمل في موقف الشريعة الإسلامية من القروض الخارجية ومن خلال ما اطلعت عليه من مراجع ومصنفات فقهية لم أجد دليلاً واحداً يبين جواز هذا النوع من القروض؛ لأن هذه القروض لم تكن معروفة في عهد الرسول (ﷺ)، ولا في عهد الصحابة الكرام من بعد ذلك ولكن تبين من خلال النظر في السنة النبوية وأقوال السلف الصالح أن الدولة الإسلامية قد لجأت إلى الاقتراض الداخلي ويدل على ذلك فعل النبي (ﷺ) إذ اقترض من المسلمين بل واستعجل زكاتهم كما ثبت في الأحاديث التي تقدم ذكرها⁽¹⁾ فدل ذلك صراحة على أن اقتراض الدولة من الداخل جائز شرعاً، وقد تناول فقهاء المسلمين القدامى القرض الداخلي واجازوه فذكروا أنه يجوز لولي الأمر أن يقترض داخلياً في حالة الحروب والأزمات والنوائب، وهذا ما ظهر صراحة في أقوالهم، من ذلك على سبيل المثال لا الحصر، ما ذكره الإمام الشاطبي عند حديثه عن الاقتراض بهدف تكثير الجنود لسد الثغور وحماية الملك عندما يكون بيت المال خالياً من المال، إذ قال في هذا الصدد: "إذا قررنا إمامنا

١- تقدم في ص ٧-٨.

مطاعاً مفتقراً إلى تكثير الجنود لسد الثغور وحماية الملك المتسع الأقطار وخلا بيت المال، وارتفعت حاجات الجند فللإمام إذا كان عدلاً أن يوظف على الأغنياء ما يراه كافياً لهم في الحال إلى أن يظهر مال بيت المال .

وقال في موضع آخر ” الاستقراض في الأزمات إنما يكون حيث يُرجى لبيت المال دخل ينتظر أو يرتجي وأما إذا لم ينتظر، شيء، وضعفت وجوه الدخل بحيث لا يعني كبير شيء فلا بد من جريان حكم التوظيف“^(١).

وذكر الماوردي^(٢) هذا الأمر فقال: «جاز لولي الأمر إذا خاف الفساد أن يقترض علي بيت المال ما يصرفه في الديون دون الارتفاق“ ومن اقوال الفقهاء يتبين أنهم اجازوا القرض الداخلي في أحوال معينة؛ كالإزمات التي تلم بالبلد، شريطة أن تسدد الدولة ديونها من دخلها المرتقب، إن كان هناك دخلاً يرتجى وصله في مدة زمنية، كالزكاة، ومع ذلك اجازوا للدولة أن تفرض على الاغنياء بعض الضرائب الزائدة لمجابهة الظروف الطارئة كالكوارث ونحو ذلك.

لذلك يلاحظ أن الدولة الإسلامية لم تلجأ إلى القروض الخارجية البتة ولعل في هذا دليلاً ضمناً بمحذورات ومخاطر تلك القروض على مستقبل الأمة فهي وسيلة من وسائل الغزو المقنع والسيطرة على مقدرات الشعوب ومواقفه من القضايا المختلفة، فهذه القروض بالتأكيد تشكل عبئاً ثقيلاً على اقتصاد البلدان الإسلامية الفقيرة، وهي مشكلة خطيرة في حد ذاتها، غير أنه لا يوجد نص شرعي صريح يمنع جواز مثل هذه القروض،، ولكن الأمر في هذا النوع من القروض متروك للحاكم وأهل الحل والمشورة في الدولة فيجب على الحاكم أن يوازن بين ضرر هذه القروض وفوائدها فإن تبين له أن ضررها أعظم من فوائدها، وجب عليه عدم الاقتراض، ولا يجب أن يلجأ إليها إلا عند الضرورات والنوائب، وعلى ذلك فإن تصرف الإمام على الرعية منوط بالمصلحة؛ فيجب أن يكون فعل الإمام مبنياً على المصلحة فيما يتعلق بالأمور العامة^(٣) كما ذكر الفقهاء والقرض الخارجي من الأمور العامة فمتى رأى الحاكم أن حاجة الناس إلى القرض

١- راجع: الاعتصام للإمام الشاطبي، ج ٢، ص ١٢١-١٢٢، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، د- ت.

٢- راجع: الأحكام السلطانية للماوردي، ص ٣٥٦، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٢، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م.

٣- راجع: كتاب الأشباه والنظائر لابن نجيم الحنفي، ص ١٢٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م.

الخارجي ملحة متى كان الاقتراض من الداخل عسيرا، عندها فإن الحاجة تنزل منزلة الضرورة عامة أو خاصة^(١)؛ فالإمام إذا خاف الفساد له أن يقترض على بيت المال^(٢)، ولكن لا ينبغي أن يقوم بالاقتراض الخارجي في أمور استهلاكية لا جدوى منها؛ لأن هذا من الفساد الذي سيجر البلاد إلى الذل والتبعية للدول الأجنبية، ودرء المفسد أولى من جلب المصالح^(٣) عند تعارض المفسده الناجمة عن القرض الخارجي، والمصلحة التي يحققها للمجتمع متى كانت المفسدة أعظم من المصلحة؛ فالشرع الإسلامي ينظر إلى مصالح العباد بعين الاعتبار، ويضع في سبيل تحقيق هذه المصالح جملة من المبادئ والقيم التي إذا تم تطبيقها ساد العدل، وانتشرت الفضيلة بين أفراد المجتمع، ولعل مبدأ الموازنة بين المصلحة والمفسدة، أو بين الضررين هو من أهم مبادئ الشريعة الإسلامية حيث يتم من خلال هذا المبدأ الموازنة بين المفسدة، والمصلحة عند تعارضهما.

ومما تقدم يتضح بجلاء أن مخاطر القروض الخارجية أعظم من فوائدها باعتراف المختصين من رجال الفكر المالي والسياسي، وعلى ذلك فإن موقف الشريعة الإسلامية منها واضح لا لبس فيه ولا غموض، وقد بينت سلفا ان تصرف الحاكم على الرعية منوط بالمصلحة؛ اذ يجب عليه عدم اللجوء الى الاقتراض العام الا في حالة الحاجة الملحة؛ فيستطيع الحاكم أن يحدد الغرض من القرض الخارجي، بناء على الحاجة الاقتصادية التي دعته الى الاقتراض الخارجي، وراي المختصين من علماء الشرع والاقتصاد، واهل الشورى، على ان الاقتراض الخارجي يعد مسئولية كبيرة لاينبغي ان ينفرد بها الحاكم دون مشاورة جهات الاختصاص، واذا انفرد واقترض من الخارج دون حاجة؛ فقد يناله الاثم والسخط من الله العلي القدير، كما يحق للامة محاسبة الحاكم اذا عمد الى الاقتراض من غير حاجة؛ لأن ذلك تفريط في حقوقها؛ وخاصة الاجيال اللاحقة، وفي هذه الحالة فان تصرف الحاكم يعد من

١- راجع: القواعد الفقهية المستخرجه من كتاب إعلام الموقعين لابن قيم الجوزية إعداد عبدالرحمن الجزائري، ص٢١٧، دار بن عفان، القاهرة، ط١، ١٤٢١هـ.

٢- راجع: الأحكام السلطانية للماوردي، ص٣٥٦.

٣- راجع: القواعد الفقهية لمستخرجة من كتاب إعلام الموقعين لابن قيم الجوزية، مرجع سابق، ص٣٣٩-٣٤٠. راجع: شرح فتح القدير لابن الهمام، ج٧، ص٦٦، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٥م، وجاء في الاختيار لابن مودود ج١ ص٣٧٠، دار الفكر، عمان، ١٩٩٩م.

قبيل تصرفات السفية الذي يتصرف في المال على غير مقتضى الشرع والعقل، كما أن الشريعة الإسلامية لا تجيز للحاكم أن يقترض بفائدة بسبب الربا.

المطلب الثاني

الصيغ الإسلامية البديلة للاقتراض الخارجي

إذا كان ماسلف قد كشف لنا الحكم الشرعي للقروض الخارجية وقد تبين لنا كذلك أن هذه القروض تعد مشكلة خطيرة وعبئاً ثقيلاً على اقتصاد البلدان المدينة، ومن ثم فإن خطرها أعظم من فائدتها، كما أن الحلول التي قدمتها الدول الدائنة ولاسيما تلك الحلول المقدمة من صندوق النقد الدولي والبنك الدولي ونادي باريس ونحو ذلك لم تعط ثمارها حتى الآن، ولم تحل المشكلة، وإلا فلماذا تستمر هذه المشكلة حتى الآن في تلك البلدان؟ فهذه المشكلة في الحقيقة تحتاج، إلى فكر جديد وطرق جديدة لحلها، فبات من الواضح أن الحلول التي اقترحت لحل مشكلة الديون الخارجية لم تجدي وأن الحل الناجع لهذه المشكلة يكمن في تفعيل قواعد ومبادئ الشريعة الإسلامية الغراء في مختلف الجوانب الاقتصادية للأمة الإسلامية، ولحل مشكلة عجز الموازنة واتساع المديونية في العالم الإسلامي والبلدان العربية خاصة يجب أن ينطلق من قواعد ومبادئ الشريعة الإسلامية وذلك عن طريق أولاً معرفة الواجبات والتكاليف المالية الشرعية على أفراد المجتمع وتأثيرها على النمو الاقتصادي، وكذلك التعرف صيغ التمويل الإسلامية البديلة للتمويل عن صيغ التمويل الربوي المعاصر وذلك على النحو الآتي:

أولاً: الواجبات والتكاليف المالية في الإسلام

نظام الزكاة : فريضة الزكاة ذات شأن كبير بالنسبة لغيرها، فهي تخفف عن كاهل الدولة عبئاً كبيراً لأنها تغطي حاجات التكافل الاجتماعي التي كان على الدولة القيام به للفقراء إضافة إلى مصارف أخرى هامة كالدفاع عن الإسلام. و الزكاة فريضة حولية مستمرة، وتجبي من جميع الأموال النامية فهي مورد دوري متجدد وينمو بنمو الدخل الفردي، وتعادل ربع عشر ثروة الأمة على الأقل وهو

الحد الأدنى من إنفاق الفريضة أما إنفاق التطوع فلا حدود له، ولذا تعد الزكاة مورداً مالياً ضخماً للدولة فريداً في الشريعة الإسلامية^(١).

كذلك نظام الإرث في الإسلام: وهو نظام فريد من نوعه، ولا مثيل له من حيث دقة وعدالة توزيعه حيث يقسم ثروة المرء بعد وفاته بين ورثته ولا يحصرها في يد واحدة أو في أيدي قليلة - عند تعدد الورثة - خلافاً لما نجده عند بعض الأمم الأوروبية. ولذا فهذا النظام يساعد بدوره في التخفيف من مشكلة الفقر وتحقيق عدالة توزيعية أكبر^(٢).

أما ما يخص الضرائب والتوظيف، فإنه يجوز للحاكم أن يفرض على الأغنياء ما يراه كافياً إلى أن يظهر مال في بيت المال عند حاجة الإمام إلى تكثير الجند للدفاع عن الثغور وحماية الملك المتسع^(٣).

كما يجب أن لا ننسى المبدأ الإسلامي العظيم الذي قرره رسول الله (ﷺ) في قوله «إن في المال حقاً سوى الزكاة»^(٤). وقد استشهد الرسول الكريم بعد إيراد هذا القول بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ ۖ ۝٥٠٠﴾^(٥). وقوله تعالى: ﴿مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾^(٦) فالإسلام يفرض على أفرادها حقوقاً أخرى تقلل مرة أخرى من الحاجة إلى مساعدة الدولة، منها حقوق الوالدين والأقربين وحقوق اليتامى والجار ذي القربى والجار والضعيف والسائل والمضطر، فهذا الحق مستقل قائم بذاتها (من غير الصدقة

١- راجع: الكسب والافتاق للدكتور للدكتور محمود محمد يابلي ص ١١٧، ١١٨، دار المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٨٨م.

٢- راجع: خصائص الاقتصاد الإسلامي وضوابطه الأخلاقية للدكتور محمود محمد يابلي ص ١٨٧، دار المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٨٨م.

٣- راجع: راجع: الاعتصام للإمام الشاطبي ج ٢، ص ١٢١-١٢٢، والأحكام السلطانية للماوردي، ص ٣٥٦.

٤- رواه الترمذي في كتاب الزكاة باب ما جاء إن في المال حقاً سوى الزكاة، ولفظ الحديث "عَنْ فَاطِمَةَ بِنْتِ قَيْسٍ عَنِ النَّبِيِّ (ﷺ) قَالَ: إِنْ فِي الْمَالِ حَقًّا سِوَى الزَّكَاةِ ثُمَّ تَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى: (لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ)" قَالَ أَبُو عِيَسَى هَذَا حَدِيثٌ إِسْنَادُهُ لَيْسَ بِذَلِكَ وَأَبُو حَمْرَةَ مِمَّنْ الْأَعْوَرُ يُضَعَّفُ وَرَوَى بَيَّانٌ وَإِسْمَاعِيلُ بْنُ سَالِمٍ عَنِ الشَّعْبِيِّ هَذَا الْحَدِيثُ قَوْلُهُ وَهَذَا أَصَحُّ. راجع سنن الترمذي ج ٢ ص ٤٠، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٨م.

٥- سورة البقرة - الآية (١٧٧).

٦- سورة البقرة - الآية (٢١٥).

والزكاة والكفارة والقرض ونحو ذلك من أبواب الانفاق) يتولى تحصيله ولي الأمر من المسلمين عند اقتضاء الحاجة وعدم توفر المال في خزينة الدولة وضمن حدود المصلحة العامة للمسلمين^(١).

ولا شك في أن قواعد الشريعة تسهم في تحقيق معدلات عالية من النمو الاقتصادي ومن إيرادات الدولة ومنها تحريم الربا، وفرض الزكاة، واسترداد الموارد الاقتصادية المقطوعة للأفراد من قبل الدولة إذا عجزوا عن الاستثمار فيها خلال فترة زمنية معينة، وتحريم اكتناز الأموال والذهب والفضة، مما يقلل من حاجة المجتمع للاستدانة لتغطية عجز الموازنة العامة أو ميزان المدفوعات .

والحقيقة أننا نواجه هذه الأيام صعوبات جمة في السعي نحو تطبيق قواعد الشريعة في مجال الاقتصاد (وفي غيره من المجالات) وذلك بسبب هيمنة النظام الرأسمالي على العالم في ظل محاولات العولمة القائمة، ونتيجة لذلك ظهرت هيبة و سيادة لعنصر الفائدة في النظام الاقتصادي والمصرفي العالمي وقيادته لنظم وأساليب التمويل والتنمية الدولية.

ولكن مع كل هذه الصعوبات فقد واجهت الأمة الإسلامية منذ نشأتها تحديات كثيرة ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾^(٢). ولكنها بفضل الله تغلبت عليها . إن أهمية اتباع قواعد الشريعة الغراء في مجال الاقتصاد والذي اعتبره جهادا اقتصاديا ضروريا لكي يتكامل الجانب الاقتصادي والشرعي في إنجاح برامج التنمية الاقتصادية والاجتماعية والتخلص من مشكلات التبعية الاقتصادية للغرب وضخامة اتساع الديون العامة . أما الصعوبة الحقيقية فهي كيف يمكن الابتعاد عن (وإزاحة) النموذج الرأسمالي الربوي المسيطر على مقدرات العالم ولاسيما في زمن العولمة وتشابك الاقتصاديات الدولية^(٣).

١- راجع: خصائص الاقتصاد الاسلامي وضوابطه الاخلاقية للدكتور محمود محمد يابلي ص ١٨٩، دار المكتب الاسلامي، بيروت، ط١، ١٩٨٨م.

٢- سورة البقرة - الآية (٢١٧).

٣- راجع: اتساع نطاق الدين العام في دول العالم الإسلامي للمشكلة والطول للدكتور المرسي حجازي ص ٣١.

ثانياً: التمويل على أساس البيع:

يكون التمويل عن طريق البيع من خلال تقديم السلعة إلى الحكومة إما مباشرة من قبل المقاولين مع الحكومة، أو بواسطة البنوك الإسلامية مع تأجيل دفع الثمن، وينتج عنها مديونية ثابتة محددة، لذا يمكن تقديم الضمانات والكفالات والرهن للممول . وهو نوعان عرضان بيع مؤجل وإجاره والإجارة من صيغ التمويل بالبيع وإن كان المبيع هو المنفعة فقط . وللممول بالبيع ثلاثة أشكال هي بيع المرابحة للأمر بالشراء وبيع الاستصناع وبيع السلم ويمكن بيانها في الآتي:

١- بيع المرابحة للأمر بالشراء وهو البيع برأس المال مع ربح معلوم أو هو البيع بمثل الثمن الأول وزيادة ربح، وهذا البيع جائز، ولا يوجد خلاف بين الفقهاء حول مشروعيته لتطافر الأدلة على جواز البيع بصفة عامة، ويشترط لصحة هذا البيع أن يكون العقد الأول صحيحاً غير فاسد، وأن يكون الثمن موجوداً، كما يجب العلم بالربح الذي يستحقه البائع. فإذا توافرت شروط هذا البيع كان صحيحاً يعتد به شرعاً^(١)، وهذا العقد يمكن أن يستخدم لتمويل الاحتياجات الاستهلاكية والإنتاجية (كمستلزمات الصناعة والتجارة الداخلية والخارجية). ويأخذ هذا الشكل صورة قيام البنك الإسلامي بشراء هذه السلع وإعادة بيعها للحكومة مع الدفع الأجل أو بالتقسيط، فيكون التمويل هنا لمدة بيع الأجل ويكون ربح البنك هنا ربها تمويلياً شرعياً وذلك لامتلاكه السلعة قبل إعادة بيعها للدولة .

٢- بيع الاستصناع : يكون التمويل فيه من بائع السلعة إلى الحكومة (إذا حدد فيه تاريخ الدفع بعد التسليم)، وقد يتوسط البنك الإسلامي في الاستصناع فيكون صانعاً في علاقته بالدولة مع تأجيل الثمن، ويكون مستصنعاً في علاقته بالمقاول مع تعجيل الثمن ويرتبط عقد الاستصناع بالمواد المصنوعة سواء كانت منمطة أم غير منمطة كبناء دائرة أو آلة بأوصاف معينة . ولا يشترط فيه أن يكون المستصنع هو الذي يقوم بنفسه فعلاً بصناعة السلعة التي التزم ببيعها وتسليمها في موعد

١- راجع: بدائع الصنائع للكاظمي، ج٧، ص٣٩٣ والقوانين الفقهية لابن جزي، ص٢٦١-٢٦٢، والغني لابن قدامة، ج٤، ص٢٥٩ وما يليها .

مستقبلي، ومعنى ذلك أنه يستطيع أن يعهد بأمر صناعتها لشخص آخر يعقد استصناع آخر تذكر فيه نفس أوصاف السلعة وموعد تسليمها ولذا يستطيع المصرف الإسلامي في هذه الحال أن يمول المشتري والبائع معا أو أي منهما^(١).
 ٢- بيع السلم ويقصد به «شراء أجل بعاجل»^(٢) أي بيع مال أجل بمال عاجل، فالأجل هو المبيع،، وأما العاجل فهو الثمن وهو مشروع لقول ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنه قدم المدينة والناس يسلفون في الثمر العام والعامين أو قال عامين أو ثلاثة.. فقال (ﷺ): «من سلف في تمر فليسلف في كيل معلوم ووزن معلوم» وعنه في رواية: «إلى أجل معلوم»^(٣).
 فهنا يقع على الدولة الالتزام بتسليم سلعة ما (كالمشتقات النفطية) مثلا في وقت محدد في المستقبل، فالديونية فيه عينية على الدولة، وقد سمي سلما لضرورة تسليم رأس المال أي الثمن في مجلس العقد كما أن رأس مال السلم (الثمن) يدفع في مجلس العقد؛ لأن الافتراق من دون قبض رأس مال السلم يؤدي إلى بطلان العقد، وهو بذلك يختلف عن عقد الاستصناع، وأن تكون السلعة محددة الوصف والمقدار (أي محددة أوصافها و مما هو موجود في السوق)، ولا يشترط فيه وجود عنصر مصنع في السلعة.

ثالثاً: التمويل على أساس المشاركة في الربح:

ويشمل التمويل بالشركة والمضاربة ويوزع فيهما الربح حسب الإنفاق أما الخسارة فتوزع حسب أسهم رأس المال. والفرق بينهما من الناحية التمويلية - أن الشركة يشارك فيها جميع أرباب المال في الإدارة، لأن الشركة هي تعاقد عدد من الأفراد على خلط أموالهم وجهودهم، أما في المضاربة فإن هناك انفصلاً تاماً بين ملكية رأس المال (والتي يقدمها أحد الأطراف) وإدارته (والتي يقدمها المضارب). ولا يتعاد رب المال عن الإدارة أثر مهم، بالنسبة لتغطية العجز في الموازنة

١- راجع: اتساع نطاق الدين العام في دول العالم الإسلامي المشكلة والحلول للدكتور المرسي حجازي ص ٣١.
 ٢- راجع: شرح فتح القدير لابن الهمام، ج ٧، ص ٦٦، وجاء في الاختيار لابن مودود ج ١ ص ٣٧٠، دار الفكر، عمان، ١٩٩٩م: (السلم هو اسم لعقد يوجب الملك في الثمن عاجلاً، وفي الثمن أجلاً).
 ٣- أخرجه البخاري في صحيحة في كتاب السلم، باب السلم في كيل معلوم، برقم ٢٢٣٩ (راجع مختصر صحيح البخاري للزيدي، ص ٢٠٤، دار المنار، مصر، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م).

العامة نظراً لأن هذا يحفظ للسلطات العامة حرية التصرف بمشروعات الموازنة كلها، وعدم تدخل الجهة الممولة بالقرار الإداري للجهة الحكومية الأمره بالصرف. وتعد صيغة المشاركة في الربح والخسارة من أكثر الطرق تعبيراً عن روح الإسلام ومبادئه الاقتصادية في توظيف المال وتحقيق العدالة وهي مشروعة بنص الحديث الشريف الذي رواه أبي هريره عن النبي (ﷺ) قال : (يقول الله أنا ثالث الشريكين ما لم يخن أحدهما صاحبة فإذا خان أحدهما صاحبه خرجت من بينهما^(١)). ويستعمل شكل الشركة في تمويل رأس المال الثابت والعامل بحسب مدتها وهدفها التمويلي، ويحصل فيها دائماً تقييم للمؤسسة بتاريخ بدء المشاركة التمويلية - تكون حصة المستفيد من التمويل ويقابله المبلغ الذي يقدمه البنك الإسلامي، وتمارس الشركة نشاطها في كافة مجالات التجارة والصناعة والخدمات وكافة المعاملات الناشئة عنها.

أما المضاربة فهي مشروعة بالسنة التقريرية؛ إذ بعث رسول الله (ﷺ) إلى الناس وهم يتعاملون بهذا النوع من الشركات فأقر معاملاتهم بها دون أن يجرمها عليهم، كما أنه قد مارس المضاربة بمال السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها التي أرسلت معه غلامها ميسرة وذلك قبل بعثته بالرسالة، فكان يتاجر في مالها مضاربة، كما أن أفعال الصحابة تدل على مشروعيتها من ذلك العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، فقد كان إذا دفع ماله مضاربة شرط على المضارب إلا يسلك به بحراً أو ينزل به وادياً، ولا يشتري ذات كبد رطبه، فإن فعل ذلك ضمن، فبلغ ذلك الرسول (ﷺ) فاستحسنه، فصارت شركة المضاربة مشروعة بالسنة^(٢)، وللمضارب أن يتصرف في رأس المال بالعمليات التي تقتضيها عملية المتاجرة والاستثمار، فله أن يبيع ويشترى ويوكل الغير، وأن يودع ويرهن ويؤجر. وتصلح في تحريك الموارد الاقتصادية لمشروعات القطاع العام التي تحقق دخلاً بشرط

١- رواه أبو داود برقم ٣٢٨٢، والدارقطني ج ٤، ص ٣٢، والحاكم في المستدرک ج ٥ ص ٥٢، وقال الحاكم صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، وقال ابن حجر " وفيه أبو حيان والد سعيد بن حيان أعله ابن القطان (تلخيص الحبير لابن حجر ج ٣، ص ٤٩. مكتبة نزار مصطفى، مكة المكرمة، ط ٢، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

٢- راجع: نصب الراية لأحاديث الهداية للزيلعي، ج ٤ ص ١٤، ط ١، مؤسسة الريان للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، لبنان، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

قيام الحكومة باتخاذ خطوات جادة لتوفير المهارات الإدارية والتي تزيد وتدعم الممولين . ويمكن أن يستخدم هذا الشكل لأي نوع من الاستثمار سواء كان قصير أو متوسط، أو طويل الأجل وتستخدم في عمليات كبيرة (مثل شركات السكك الحديدية والطيران والاتصالات) . وتصدر شهادات المضاربة بواسطة مستخدمي الأموال أنفسهم أو بواسطة المؤسسات المتخصصة من أجل تجميع الأموال لتمويل الحكومة على أساس الاستصناع أو الإجارة . ويمكن لعقود المضاربة أن تكون محددة المدة أو غير محددة، وينبغي دعم المضاربة بواسطة الحكومة إذا ما قامت الشركات بإصدارها وذلك من أجل تغطية بعض الأخطار خصوصاً الأخطار غير التجارية^(١).

وأخيراً فإن الفقه الإسلامي قد توسع في مسألتين أولهما أنه أباح خلط أموال أرباب المال المتعددين مع بعضهما في الاستثمار، وثانيهما السماح بخلط مال المضارب مع أموال أرباب الأموال المضاربة . وبفضل هذا التيسير أقيمت البنوك الإسلامية وأمكنها تكوين صيرافة للاستثمار تتألف من أموال الودائع الاستثمارية وجزء من أموال البنك نفسه .

رابعاً: التمويل على أساس المشاركة في الإنتاج:

من مميزات هذه الصيغة عدم الحاجة لحساب الأرباح والخسائر، أو تقييم الأصول الثابتة التي تم تقديمها في العمليات التمويلية؛ لأن المشاركة هنا في الإنتاج وليس الربح، وهذه الصيغة في الأساس تصلح لتمويل المشروعات الكبيرة القابلة للتشغيل والتي تحتاج إلى استثمارات ضخمة في الأصول الثابتة، مقابل رأس مال عامل صغير نحو جسر أو نفق أو سكة حديد، وخصوصاً إذا تم تمويلها من قبل الجمهور عن طريق إصدار شهادات ملكية بمساهمة أصحابها في المشروع . وتكون لأصحاب هذه الشهادات حصة في الإيرادات الإجمالية للمشروع، وتقوم السلطة العامة على إدارته على أساس المشاركة في العائد الإجمالي، وهو واضح في المزارعة والمساقاة حيث توضع الأرض والشجر تحت تصرف الزارع الذي

١ - راجع: نطاق الدين العام في دول العالم الإسلامي المشكلة والحلول للدكتور المرسي حجازي ص ٣١.

يتقاسم مجمل الإنتاج مع المال حسبما اتفقا عليه^(١).

خامساً: القروض الشرعية:

وهي القروض التي لا يشترط فيها الزيادة (الربا) أي القروض التي تقوم على المنفعة المشتركة بين المقرض والمقترض (أي على الإحسان)، ولذا يطلق عليه القرض الحسن والقرض يعد نوع من انواع توزيع الثروة،ويمكن أن تلجأ الدولة إليها لسد عجز الموازنة ولهذه القروض أنواع عديدة منها القرض الاختياري والقرض الاجباري، فالقرض الحسن الاختياري الذي يقوم في الاساس على حرية التعاقد بين الدولة والمقترضين، فعمل المقرض في القرض الاختياري من المنذوبات حيث يجوز للفرد أو المؤسسة التجارية التطوع بالقرض لمصلحة الدولة في الظروف العادية، وهذا من باب الأحسان وتفريج الكرب حيث سينالون من الله الأجر العظيم والثواب^(٢).

والقرض الإجباري يمكن أن يفرض على أفراد المجتمع ويمكن، في الحقيقة، اللجوء إلى الاقتراض من الأفراد بتحريك الدوافع الوطنية لديهم للحفاظ على الصالح العام . وأيضاً من باب التعاون والتكافل بين أفراد المجتمع بعضهم مع البعض الآخر أو من المؤسسات المالية والاقتصادية التجارية والصناعية أو المصارف التجارية ونحو ذلك لقوله تعالى: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾.

فالقرض الإجباري، موقف الشريعة الإسلامية منه واضح، فقد نبه الفقهاء إلى وجوب القرض في حالة الاضطرار للحفاظ على المقاصد الشرعية الضرورية كالحفاظ على الدين والنفس والمال، فيرى الفقهاء كما مر أنه يجوز للإمام أن يقترض إذا كان محتاجاً للقرض بهدف تكثير الجنود وسد الثغور، وحماية الملك حيث يأخذ من الأغنياء ما يكفي لمجابهة هذه الظروف؛ لأن الإمام إذا لم يفعل مثل ذلك بطلت شوكته وصارت الديار عرضة لاستيلاء الكفار، وعند استيلاء الكفار على الديار ستنقطع شوكة الإمام ويستحقرون الأغنياء والفقراء دون تمييز^(٣). ولو

١- المرجع السابق ص ٣١.

٢- راجع: الموافقات للشاطبي، مرجع سابق، ج ٢ ص ٢٦٨.

٣- راجع في هذا المعنى: الاعتصام للشاطبي، مرجع سابق، ص ١٢١-١٢٢، والأحكام السلطانية للماوردي، ص ٣٥٦.

قارنا في هذه المسألة بين ضرر الحاكم فيما أخذه من مال الأغنياء والضرر الناجم عن الاحتلال لوجدنا أن ضرر الحاكم أخف، ومن ثم يجوز ارتكاب أخف الضررين بأخذ القرض من الأغنياء حفاظاً على المصلحة العامة؛ لأن المصالح العامة مقدمة على المصالح الخاصة^(١).

وهذا يعد مبدأً عظيم من مبادئ الشريعة الإسلامية، وهو ما يسمى بمبدأ الموازنة بين المصالح حيث تقدم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة عند التعارض، وإنطلاقاً من هذا فإن تصرف الحاكم منوط بالمصلحة، إذ يجب عليه أخذ المال من الأغنياء على سبيل القرض لمجابهة الكوارث والظروف الاستثنائية، ومع ذلك يتوجب على ولي الأمر أن يرد ما أخذه من أموال الأغنياء عند الميسرة؛ لأنه لا ينبغي التكليف على الناس - وإن كانوا أغنياء - بما يشق عليهم ويوقعهم في الضيق والحرَج .

وذا اخذنا الاقتراض من المصارف التجارية بدون فائدة وبخاصة في الأجل القصير يمكن ملاحظة الآتي: ١ - الانتفاع من ودائع الحساب الجاري لصالح المجتمع بكامله متمثلاً ببنود الموازنة العامة بدلاً من تركه لأصحاب البنوك وخصوصاً أن الودائع الجارية تعتمد على الاستقرار النقدي الذي تحققه السلطات المتقدمة في الدولة . ٢ - لما كانت البنوك التجارية تخلق الائتمان فإن عليها أن تعطي الحكومة قروضاً إلزامية بدون فوائد مقابل ما استفادته البنوك من توسيع القاعدة النقدية^(٢).

سادساً : موازنة :

عند الموازنة بين صيغ التمويل الإسلامي وصيغ التمويل الربوي المعاصر يتضح الآتي:

١ - الربا هو زيادة في الدين وهو شيء ليس من طبيعته النماء، بينما الزيادة في مجال التمويل الإسلامي في شيء مملوك من طبيعة النمو .

١ - الموافقات للشاطبي، مرجع سابق، ج ٢ ص ٢٤٣ .

٢ - راجع: اتساع نطاق الدين العام في دول العالم الإسلامي المشكلة والحلول للدكتور المرسي حجازي ص ٣١ .

- ٢- لا يضمن الدائن في العلاقة الربوية تحمل الخسارة بعكس المالك الممول في التمويل الإسلامي.
 - ٣- الزيادة في العلاقة الربوية افتراضية تحكمية في حين أن الزيادة في التمويل الإسلامي - إن وجدت - هي زيادة حقيقية فعلية .
 - ٤- يستند التمويل الربوي على القدرة على السداد وحدها لذا يمكن استخدامه لمشروع استثماري أو لسداد ديون سابقة أو حتى للمقامرة، بينما لا بد أن يمر التمويل الإسلامي عبر السلع والخدمات (مشروع إنتاجي) .
 - ٥- يسمح في التمويل الربوي بالاقتراض من البنوك وبتداول الديون (لأن تداول الديون من البنوك يقوم على أساس فكرة الخصم الزمني رهون الربا). بينما لا تسمح الشريعة الإسلامية بتداول الدين (لأنها ستنتقل فقط بقيمتها الاسمية بغض النظر عن تاريخ الاستحقاق^(١)).
- ومما تقدم يتضح أن مشكلة اتساع الدين العام الخارجي في بلدان العالم الإسلامي يمكن علاجها تدريجياً وعلى مدى فترة زمنية ممتدة، شرط الالتزام بأحكام الشريعة الإسلامية في مجالات اكتساب المال العام وإنفاقه مع ضرورة تحمل الدول الدائنة لجزء من مسؤولية تفاقم المشكلة.

المبحث الخامس

موقف القانون اليمني من الاقتراض الخارجي

نظم المشرع اليمني أحكام القرض في المواد من (٦٠٦-٦١٨)..وقد بينت هذه المواد تعريف القرض، وشروطه وأركانه والأثار المترتبة عليه، ومع هذا فإن النصوص القانونية التي سبق وان ذكرنا بعضها في ثنايا هذا البحث^(٢) لم تتعرض لمفهوم القرض الخارجي أو (القروض الخارجية)، ومع ذلك يمكن تطبيق القواعد العامة الوارد في المواد المذكورة على القرض الخارجي، لاسيما وان احكام الشريعة

١- راجع: اتساع نطاق الدين العام في دول العالم الإسلامي المشكلة والحلول للدكتور المرسي حجازي ص٣١.

٢- سبق بيان هذه المواد في ص٢٠٤، ص١٢٠، ١١٢ من البحث.

الإسلامية مبنية على رعاية مصالح الناس ودرء الضرر عنهم، كما ان تصرف الحاكم أو ولي الأمر منوط بالمصلحة ودفع الضرر إذ وجد وهذا أكدته المادة (١٥) من القانون المدني اليمني التي نصت على أن « تصرف الدولة منوط بالمصلحة والولاية الخاصة أقوى من الولاية العامة » ونصت المادة (٣) على أن: « الشريعة الإسلامية مبنية على رعاية مصالح الناس ودرء المفاسد عنهم والتمسك في معاملاتهم، وعدم تكليفهم بما يشق عليهم ويوقعهم في الضيق والحرَج بما يخالف الشريعة الإسلامية».

ولذا فإنه يجوز للحاكم ان يلجا للقرض الخارجي متى كانت الحاجة ملحة ودعت الضرورة والنوائب لذلك، بشرط ان تكون تلك القروض خالية من الربا (الفائدة) وشبهته وخاصة وان نصوص القانون المدني اليمني جميعها تحرم القرض بشرط ربوي وهو الفائدة على أصل القرض وفقاً للمادة (٣٥٦) التي تحرم كل اتفاق على فائدة، وفقاً للفقرة (٥) من المادة (٦١٠) التي نصت على أنه: «إذا اقترن القرض بشرط ربوي يلغي الشرط ويصح القرض ويلزم المستقرض رد مثل ما قبض».

وعلى ذلك فلا يجوز عقد هذه القروض المقترنة بشرط ربوي (فائدة)؛ لأن هذا الأمر فيه مخالفة صريحة وواضحة لأحكام الشريعة الإسلامية، وكذلك نصوص الدستور والقانون المدني اليمني النافذ المأخوذ منها هذا القانون بموجب المادة الثالثة من الدستور اليمني التي نصت على أن: « الشريعة الإسلامية مصدر جميع التشريعات»

الخاتمة

بعد أن تم التعرف على ماهية الاقتراض الخارجي وحكمه الشرعي وكذا الصيغ الإسلامية البديلة عنه اود في هذه الخاتمة أن اسجل ماخرجت به هذه الدراسة من نتائج وتوصيات بادناً بالنتائج ثم التوصيات على النحو الآتي:

أولاً: النتائج:

١. القرض بصفة عامة جائز شرعاً، ولا خلاف بين الفقهاء في مشروعيته.

٢. إن إقراض الدولة من قبل الأفراد والتجار أمر في غاية الأهمية؛ لأن مدخراتهم حين تذهب إلى الدولة في صورة قروض تعد في مكان أمين، كما أنهم حين يقرضون الدولة دون فوائد محدده سينالون الأجر والثواب من الله العلي القدير.
٣. لقد ثبت بالسنة أن النبي (ﷺ) اقترض لتغطية حاجيات الدولة وسد عوز الفقراء والمحتاجين .
٤. يلاحظ أن الدولة الإسلامية قد لجأت إلى القروض الداخلية ويدل على ذلك فعل النبي (ﷺ) حيث استقرض من المسلمين بل واستعجل زكاتهم، ولم يلجأ إلى القروض الخارجية البتة، وذلك لما لهذه القروض من مخاطر على مستقبل الأمة الإسلامية، غير أنه لا يوجد نص شرعي صريح يمنع جواز مثل هذه القروض، ولذلك فإن حكم مثل هذه القروض متروك للحاكم وأهل الحل والعقد في الدولة.
٥. تفضيل فقهاء الشريعة الإسلامية اللجوء إلى القرض الداخلي أولاً متى كان ذلك متحققاً، حيث إن الاقتراض الداخلي يساهم في معالجة عجز ميزانية الدولة، ولا يحمل الدولة أعباءً سياسية أو اقتصادية واجتماعية، كما هو الحال في القروض الخارجية، التي تشكل عبئاً ثقيلاً على اقتصاد البلدان الإسلامية الفقيرة.
٦. أسباب الاقتراض الخارجي كثيرة ومتعددة بعضها داخلية كالعجز في الموازنات العامة والتضخم الذي أثر في قيمة العملات الوطنية والركود الاقتصادي المحلي والعالمي، إضافة إلى سوء توظيف أموال القروض وتهريب رؤوس الأموال للخارج، والآخرى خارجية كالركود العالمي الحالي وانخفاض أسعار المواد الخام الأولية وارتفاع قيمة الفائدة وغير ذلك .
٧. إن السبب الحقيقي لأزمة الديون الخارجية لبلدان العالم الإسلامي (وإن ظهرت أسبابها المباشرة في الفجوات الاقتصادية) هو الابتعاد عن مبادئ واهداف الشريعة الإسلامية في مجالي جمع الأموال وإنفاقها.

٨. لم يكن الغرض من الاقتراض في عهد رسول الله (ﷺ) أو الصحابة الحصول على المواد الاستهلاكية الترفيحية، وإنما كان القرض للحاجة الماسة إليه، كتجهيز الجيش في الحروب، وغير ذلك.

٩. اتضح أن الشريعة الإسلامية لا تجيز أي قرض ربوي؛ لأن الربا حرام في الشريعة الإسلامية، كما أن القانون المدني اليمني لا يجيز أي قرض ربوي ومع ذلك فالقروض العامة التي تجريها الدولة في عصرنا الحالي لا تخلو من فوائد ربوية وهذا الأمر يخالف أحكام الشريعة الإسلامية، ويخالف كذلك نصوص القانون المدني اليمني الذي لا يجيز أي قرض ربوي.

ثانياً: التوصيات:

من خلال نصوص الفقهاء المتقدمة اتضحت لي جملة من التوصيات التي من الممكن أن نعول عليها في مسألة الاقتراض الخارجي، وهي على النحو الآتي:

١- يجب على الدولة الإسلامية أن تبادر دائماً إلى الإنتاج المستمر، وتحسين مستوى التنمية من خلال الاعتماد على مواردها الذاتية التي حددها الشرع الإسلامي كالزكاة، والوقف والضرائب، والخراج... وغير ذلك.

٢- لا يجب اللجوء إلى القرض العام الخارجي إلا بعد أن تستغل الدولة كل مواردها وأموالها بل وتدعو المسلمين إلى التبرع بل وتستعجل الزكاة فإذا لم يف كل هذا بالقرض عندئذ تلجأ إلى الاقتراض إذا كانت الدولة في حاجة ملحة للقرض الخارجي لتجهيز الجيوش للحرب، ومواجهته الأزمات؛ كالفيضانات وغيرها من الكوارث.

٣- ينبغي على الدولة الإسلامية تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية في الأنشطة التمويلية والبنكية والأنشطة الاقتصادية المختلفة، من أجل تحريك الموارد الاقتصادية للاستخدام العام للدولة.

٤- يجب على الدولة الإسلامية عندما تفكر في الاقتراض أن تلجأ أولاً إلى الاقتراض من الداخل، وخاصة المؤسسات التجارية وأصحاب رؤوس الأموال تأسيساً برسول الله (ﷺ).

- ٥- ينبغي على الدولة الإسلامية تفعيل الصيغ الإسلامية في التمويل لتغطية عجز الموازنة العامة خاصة التمويل بالمشاركة في الربح والخسارة والإجارة والقرض الحسن.
 - ٦- ينبغي على الدولة الإسلامية القيام بتشجيع البحث العلمي لدراسة وتقديم حلول وبدائل للقروض خاصة الخارجية.
 - ٧- يجب استخدام القرض العام الخارجي في المشاريع الاقتصادية المثمرة التي تعود بالنفع العام، وتحقق التنمية الطموحة، ولا يجب استخدامه في الموارد الاستهلاكية أو الترفيهية.
 - ٨- يجب على الدولة الإسلامية أن تضع في حساباتها عند الاقتراض الخارجي المقدرة على سداد مثل هذه القروض، لأن اللجوء إلى الاقتراض العام مع عدم المقدرة على السداد من شأنه أن يضع الدولة في شرك التبعية السياسية والاقتصادية للدول الخارجية.
 - ٩- يجب على المشرع اليمني أن يحدد ضوابط، وشروط الاقتراض الخارجي؛ لأن السكوت عن هذه المسألة يجعل الدولة تتصرف في القروض الخارجية خبط عشواء مما يحمل الأجيال القادمة مزيداً من الأعباء والديون المتراكمة .
 - ١٠- يجب على الدولة قبل أن تفكر في الاقتراض الخارجي أن تلجأ أولاً إلى فرض الضرائب على التجار من أجل مجابهة العجز في الميزانية العامة للدولة، وكذا بهدف مجابهة الظروف الطارئة كالكوارث ونحو ذلك.
 - ١١- يجب على نواب الشعب عدم السكوت، أو الموافقة على الاقتراض من الخارج إذا تبين لهم عدم ضرورة هذا الاقتراض؛ لأن الساكت عن الحق شيطان أخرس كما أخبرنا به رسولنا الكريم.
- هذا ما ظهر لي والله من وراء القصد

المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم :

ثانياً: كتب التفسير واحكام القرآن

- ١- احكام القرآن لابن العربي، دار الفكر العربي، بيروت، دون تاريخ نشر.
- ٢- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج للدكتور وهبة الزحيلي، دار الفكر العربي، دمشق، ١٤١٨ هـ / ١٩٩٨ م.
- ٣- تفسير المنار لمحمد رشيد رضا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦ م
- ٤- جامع البيان في تأويل أي القرآن للطبري، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م

ثالثاً : كتب الحديث النبوي وعلومه :

- ١- أرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل لمحمد ناصر الدين الالباني، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥ م
- ٢- الجامع الصحيح للترمذي، دار الحديث، القاهرة، دون تاريخ نشر.
- ٣- سنن ابن ماجه، دار الحديث، القاهرة، ط١، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م.
- ٤- سنن الدار قطني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م.
- ٥- سنن ابي داود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م.
- ٦- شرح السنة للبخاري، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢ م.
- ٧- صحيح مسلم بشرح النووي، دار الغد العربي، القاهرة، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م.
- ٨- عون المعبود شرح سنن ابي داود للابادي، دار الكتب العلمية، بيروت، دون نشر.
- ٩- المستدرک على الصحيحين للحاكم، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١١ هـ / ١٩٩٠ م.
- ١٠- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد لابن حجر الهيثمي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨ م.

- ١١- نيل الاوطار للشوكاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٥ م.
- ١٢- النهاية في غريب الحديث والاثر لابن الاثير، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ/١٩٩٧ م.
- ١٣- نصب الراية لأحاديث الهداية للزيلعي، ط ١، مؤسسة الريان للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، لبنان، ١٤١٨هـ/١٩٩٧ م.

ثالثاً : كتب الفقه :

- ١- الاشباه والنظائر لابن نجيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٣ م.
- ٢- الاحكام السلطانية للماوردي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٢، ١٤١٥هـ/١٩٩٤ م.
- ٣- الاعتصام للشاطبي، مكتبة الرياض، دون تاريخ نشر .
- ٤- البهجة في شرح التحفة للتسولي، دار الرشاد، المغرب، ١٩٩١ م .
- ٥- بلغة السالك لا قرب المسالك للصاوي، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٨ م .
- ٦- حاشية رد المحتار على الدر المختار لابن عابدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ .
- ٧- مغني المحتاج للشربيني، دار المعرفة، بيروت، ١٤١٨هـ/١٩٩٧ م .
- ٨- المغني والشرح الكبير لابني قدامة، دار الكتاب العربي، بيروت، دون تاريخ نشر .

- ٩- الموافقات للشاطبي، دار الفكر العربي، بيروت، دون تاريخ نشر .
- ١٠- المهذب للشيرازي، دار القلم، دمشق، ١٤١٧هـ/١٩٩٦ م .
- ١١- الروض المربع للبهوتي، مكتبة نزار الباز، الرياض، ١٤١٨هـ/١٩٩٧ م .
- ١٢- نهاية المحتاج للرملّي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٤هـ/١٩٩٣ م .

رابعاً : كتب اللغة العربية:

- ١- اساس البلاغة للزمخشري، دار المعرفة، بيروت، دون تاريخ نشر .
- ٢- معجم مقاييس اللغة لابن فارس، دار الجيل، بيروت، دون تاريخ نشر .

٣- لسان العرب لابن منظور، دار احياء التراث العربي، بيروت،
١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

خامساً كتب حديثة :

- ١- أزمة القروض الدولية، الأسباب والحلول المطروحة مع مشروع صياغة لرؤية عربية للدكتور رمزي زكي، دار المستقبل العربي، ١٩٨٧م
- ٢- إشكالية الديون الخارجية وأثارها على التنمية الاقتصادية في الدول العربية للدكتورة فضيلة جنوحات، مطبوعات الجامعة الجزائرية ٢٠٠٦م.
- ٣- الاقتصاد الاسلامي لعون محمد الكفراوي، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، دون تاريخ نشر.
- ٤- الاقتصاد المالي الوضعي والاسلامي للدكتورين محمد عبد المنعم عمر واحمد فريد مصطفى، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، ١٩٩٩م.
- ٥- التكاليف الاجتماعية للإنفاق العام مع الإشارة لمصر للدكتور المرسي حجازي، مجلة الحقوق للبحوث القانونية والاقتصادية، كلية الحقوق، جامعة الإسكندرية، العدد الرابع ١٩٩٥م.
- ٦- عجز الموازنة وعلاجه في الفقه الاسلامي للدكتور حسين راتب يوسف ريان، دار النفائس، عمّان، ١٩٩٩م.
- ٧- فقه الاقتصاد العام لمحمد يوسف كمال، ستابرس للطباعة، عمّان، دون تاريخ نشر.
- ٨- المالية العامة للدكتور حامد عبد الحميد دراز، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، ١٩٨٤م.
- ٩- المالية العامة للدكتورين احمد زهير الشامية وخالد خطيب، دار زهران للنشر، عمّان، ١٩٩٣م.
- ١٠- مبادئ الاقتصاد العام للدكتور حامد دراز، مؤسسة شباب الجامعة، مصر، الإسكندرية ط ١٩٨٤، ١م.

- ١١- مؤسسة الاقتصاد الاسلامي للدكتور محمد عبد المنعم الجمال، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٦م .
- ١٢- النمو الاقتصادي والتحويلات السكانية في سورية لعصام خوري ندوة الثلاثاء الاقتصادية العاشرة، دمشق، ١٩٩٥م .

دور بصمة الجينات الوراثية في إثبات النسب

د. بثينة محمد الدخري يحيى (١)

المستخلص

تناول البحث مفهوم بصمة الجينات الوراثية وتأثيرها على النسب إثباتاً ونفياً وموقعها من بين الطرق الشرعية لإثبات النسب التي تتضمن فراش الزوجية الصحيح، والاستلحاق، والشهادة، والقيافة، البينة وقد أثبتت فاعليتها في إثبات النسب للأطفال في حالة الاشتباه في مواليد المستشفيات وفي ضحايا الحروب والكوارث والمفقودين، لكنها لا تصلح وسيلة إثبات مستقلة، في اكتشاف الجريمة، وحمل المتهم علي الإقرار. وقد أدلى الفقهاء بدلوهم في حجية بصمة الجينات الوراثية فمنهم من رأى أنها قرينة قطعية في إثبات النسب وأورد الأدلة على ذلك، ومنهم من رأى أنها قرينة ظنية لا ترقى إلى حد القرائن القطعية، لأنها قد يشوبها الخطأ، ومنهم من رأى قياسها على القيافة، ومنهم من رأى استخدامها تحت شروط معينة. كما وضح البحث مزايا بصمة الجينات الوراثية وبالمقابل المثالب التي قد ترد نتيجة لعدم إتباع الطرق الصحيحة والتقنية والدقة المطلوبة لإجراء الفحص الجيني، وبالتالي وضع المختصون والفقهاء ضوابط لا بد من التقيد بها عند استخدام هذه التقنية حتى لا تكون نعمة على الناس والظن أنها نعمة. وأخيراً أورد البحث وقائع في المجتمع استخدمت فيها البصمة الوراثية سواء لاكتشاف المجرمين أو لإثبات نسب أنكره الوالد بعد العقد الصحيح للزواج، وزُيل البحث بأهم النتائج والتوصيات.

مقدمة

يأمر الإسلام في كثير من آياته بطلب العلم و الاستفادة منه في أمور الدين والدنيا حيث أن الاثنين يكملان بعضهما ويشكلان منهج حياة متكامل باعتبار

١- د. بثينة محمد الدخري يحيى - استاذ مساعد - جامعة القرآن الكريم وتأسيس العلوم - كلية الشريعة قسم الفقه وأصوله.

أن العلم يهدف إلى خدمة الإنسانية ورفاهيتها ، وإلا لما حثَّ عليه الشرع داعياً إلى تعلمه رافعاً أولي العلم درجات عليا في قوله تعالى : ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (المجادة: ١١) . وفي آية أخرى قرنهم بالملائكة قائلاً: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (آل عمران: ١٨) .

لذا طلب العلم النافع من أجل الأعمال وذلك لاستكمال رسالة المسلم في إعمار الأرض التي استخلف فيها كل حسب عصره وما يستجد فيه ، وقد هداهم الله سبحانه وتعالى لإكمال هذه الرسالة بأن يريهم آيات وأسرار عن النفس والكون يوماً بعد يوم حتى يثبت لهم أن الله هو الخالق وذلك قي قوله تعالى : ﴿سُنُّرِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمُ اللَّهُ الْحَقُّ﴾ (فصلت: ٥٣) .

وعلى هدى ذلك استطاع الإنسان الكشف عن خبايا النفس البشرية وما أودعه الله فيها من أسرار، مما يدل على التوافق التام بين ما ورد في القرآن الكريم والاكتشافات الحديثة ذات التأثير القوي في تغيير حياة الناس في شتى المجالات، الطبية منها والاقتصادية والاجتماعية، إلا أن الاكتشاف الذي تفرّد واكتسب شهرة فائقة ذلك هو موضوع الدراسة، لأنه تعلق بالنفس البشرية، تلك التي أودع فيها المولى سبحانه وتعالى أسرار عجز العقل البشري في الوصول إلى كثير من خباياها، وصدق المولى حيث قال: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء: ٨٥) . ذلك الاكتشاف هو التوصل إلى أنسجة الجسم وكيف أنها تتكون من خلايا وفي كل خلية نواة وكل نواة تحتوي على الخريطة الإرثية بين السلالات المتقاربة من حيث الصفات المميزة لكل شخص لا يشترك فيها معه شخص آخر، تلك هي بصمة الجينات الوراثية التي أصبحت من القضايا المستجدة، وقد اختلف فيها الفقهاء وتنازعوا في مجالات استخدامها مع شيوع استخدامها في الدول الغربية منذ فترة، وها هي الدول الإسلامية تأخذ بها، فالدراسة تتطرق إلى هذه الاستخدامات وما قيل حولها .

مشكلة الدراسة:

- تكمن مشكلة الدراسة في كيفية الاستفادة من تقنية بصمة الجينات الوراثية وقدرتها على إثبات النسب في حالة عجز وسائل الطب الشرعي التقليدي في إيجاد حل لإثبات نسب المولود لوالده، وفي حالة الحروب وتشتت الأسر وإنكار الأب بنوة ابنه، وفي حالات ضحايا الكوارث وتحطم الطائرات وغيرها.
- ينتظر من هذه التقنية حل الغموض الذي يكتنف بعض القضايا الجنائية عبر التحليل الجيني، وبالتالي تكون قد ساهمت في بعض الإشكالات التي تواجه المختصين في مجال الطب الشرعي والإثبات الجنائي.

أهمية الدراسة:

جاءت أهمية هذه الدراسة عن كونها تعلقت بمقصد من مقاصد الشريعة فجاءها ينصب في كليات حث الشرع على المحافظة عليها لتعلقها بضروريات النفس البشرية من نسب وعرض وكيفية المحافظة عليها، وكذلك تعقب المجرمين والكشف عن جرائمهم التي يرتكبونها ضد الإنسانية و في ذلك حفظ للنفس والأموال في زمن كثرت فيه الجرائم المنظمة من سطو، وحوادث تفجير وغيرها.

أسباب اختيار الدراسة:

- اكتشاف بصمة الجينات الوراثية واحدة من آيات الله الكثيرة في إثبات هوية الإنسان في زمن أضحى الناس في أمس الحاجة لمثل هذه الاكتشافات، فقد ظهرت الفواحش والمنكرات وضاعت كثير من الحقائق، فكم من برئ اتهم بجرائم لا قبل له بها وعجز عن تبرئة نفسه، وكم من مولود الحق بقوم ليس منهم فيمكن لهذا الاكتشاف أن يساعد في إمطة اللثام عما خفي من هذه الجرائم وكشف الحقائق.
- تري الباحثة أن هذا العلم يمكن أن يستثمره المسلمون في كافة بقاع الأرض في زيادة الإيمان بالله، لأنه مكسب للعلماء والباحثين في التخصصات الفقهية والطبية والجنائية على حد سواء.

- هذا الاكتشاف قد يساعد في علاج كثير من الأمراض المستعصية في الوقت الحاضر، وما أكثرها وما أكثر ما يكتنفها من غموض وتعقيد .

منهج الدراسة:

المنهج الاستقرائي، التحليلي وذلك ببيان ما ذكر عن الموضوع وعرضه عرضاً دقيقاً وتتبع التوسع الكبير الذي شهده استخدام هذه التقنية وذلك من خلال الرجوع الى المراجع الفقهية والدراسات الحديثة وأحكام القضاء المعاصر.

حدود الدراسة:

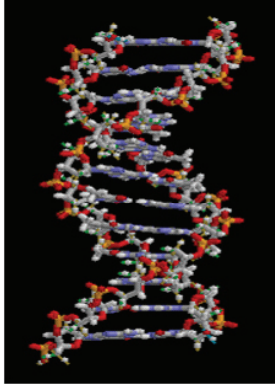
تقتصر الدراسة على معرفة استخدامات بصمة الجينات الوراثية في إثبات النسب ونفيه وكذا الإثبات الجنائي وأقوال الفقهاء فيها .

مصطلحات الدراسة:

الدنا (الحمض النووي)، الجينوم ، الكروموسومات.

الحمض النووي (DNA):

هو الحمض النووي الريبوزي منقوص الأكسجين، الحروف الثلاثة اختصاراً للاسم العلمي (Deoxy Ribo Nucleic Acid) وقد سمي بالحمض النووي نظراً لوجوده في أنوية خلايا جميع الكائنات الحية بدءاً من البكتيريا والفطريات والنباتات والحيوانات إلى الإنسان^(١).

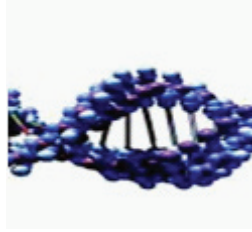


نموذج يوضح بنية جزء من (DNA) الدنا

١- ابراهيم صادق الجندى، البصمة الوراثية كدليل فني أمام المحاكم، سلسلة إصدارات كلية الملك فهد الأمنية، شعبان ١٤٢٢ هـ المجلد ١٠ ص ٢١.

الجينوم:

هو الذخيرة الوراثية التي تتواجد في كل خلية من خلايا الإنسان، وتحدد صفاته العضوية، وغير العضوية، فهي الهوية الحقيقية للإنسان أو البصمة التي تميز كل إنسان عن غيره من بني جنسه^(١).



الكروموسومات:

تركيب داخل النواة يظهر أثناء انقسام الخلية، أما الوصف العلمي للكروموسومات عبارة عن شريط الوحدات البنائية للحمض النووي تلتف حول مركبات بروتينية تسمى (الهستونات) بشكل متكرر لتشكل وحدات تسمى (النيكليوموسات) التي تلتف أيضاً لتعطي الشكل النهائي للكروموسوم .
أو هي: حاملات المورثات ، تشبه في عملها رفوف الكتب في المكتبة وتحمل على هذه الرفوف الجينات المحملة للمعلومات الضرورية لإنشاء مكونات أو أعضاء الجسم الأساسية^(٢).



كروموسوم كامل

نصف كروموسوم

١- أحمد محمد كنعان، الجينوم البشري وتقنيات الهندسة الوراثية، مقاربات فقهية، مطابع دار البحوث، الرياض ٢٠٠٣م، ص ٧٢.

٢- شريف فهمي بدوي، معجم مصطلحات البيولوجيا، ط ١، دار الكتاب المصرية، القاهرة، ٢٠٠٠م ص ٦٩.

هيكل البحث:

اشتمل البحث على سبعة مباحث وعدد من المطالب جاءت كالاتي :

المبحث الأول: مفهوم بصمة الجينات الوراثية : مطلبان

المطلب الأول : تعريف اللفظ كمركب إضافي .

المطلب الثاني :تعريف اللفظ في اصطلاح العلماء .

المبحث الثاني: الوسائل الشرعية لإثبات صحة النسب : مطلبان

المطلب الأول :طرق إثبات النسب بالعقد والاستلحاق .

المطلب الثاني :طرق إثبات النسب عن طريق الشهادة والقيافة .

المبحث الثالث: أقوال العلماء في حجية بصمة الجينات الوراثية وأثرها في إثبات

النسب :أربعة مطالب .

المطلب الأول : الرأي الأول .

المطلب الثاني : الرأي الثاني والثالث .

المطلب الثالث :الرأي الرابع .

المطلب الرابع :الرأي الرابع .

المبحث الرابع: نفي النسب في الشرع وبالوسائل الحديثة :مطلبان .

المطلب الأول : نفي النسب في الشرع .

المطلب الثاني : نفي النسب ببصمة الجينات الوراثية .

المبحث الخامس: أقوال العلماء في حجية بصمة الجينات الوراثية في مجال

إثبات الجرائم.

المطلب الأول : أقوال العلماء في حجية بصمة الجينات الوراثية .

المبحث السادس: مزايا بصمة الجينات الوراثية ومثالبها : مطلبان .

المطلب الأول : مزايا بصمة الجينات الوراثية .

المطلب الثاني : مثالب بصمة الجينات الوراثية

المبحث السابع: نماذج تطبيقية للأخذ ببصمة الجينات الوراثية : مطلب واحد .

المطلب الأول : تطبيق لإنكار نسب .

الخاتمة.

النتائج والتوصيات.

المراجع.

المبحث الأول

مفهوم بصمة الجينات الوراثية

يتركب اللفظ من ثلاثة ألفاظ: (بصمة - جينات - وراثية) وهناك ألفاظ قال العلماء^(١) أنها ترد بمفهوم هذا اللفظ في بعض الأحيان منها ، البصمة الوراثية، بصمة الحمض النووي الوراثي، وبصمة DNA أي بصمة الحمض النووي الريبوزي المختزل، وكذلك السمات الوراثية.

المطلب الأول

تعريف اللفظ كمركب إضافي ونبدأ بالبصمة في اللغة

جاء في كتب اللغة^(٢) أن كلمة بصمة مشتقة من الفعل الثلاثي بَصَمَ، يقال رجل ذو بَصْمٍ: غليظ، وثوب له بَصْمٌ: إذا كان كثيفاً كثير الغزل، والبُصْمُ: فوت ما بين طرف الخنصر إلى طرف البنصر، وبهذا تكون البصم كلمة عربية أصيلة تعني الفارق بين الأصبعين ، أو تعني الغلظة والكثافة.

وجاء في مجمع اللغة العربية أن البصمة أثر الختم بالأصبع^(٣)، كما نرى في كثير من المؤسسات بل الدوائر الحكومية أن هناك مداداً يكون على علبة فغالبا ما يكون باللون الأزرق يضع فيه الشخص أصبعه فتنتطب على الورق بصمات أصابعه، وقد سمي العلماء هذه الخطوط بالبصمة وأوضحوا أن لكل إنسان بصمة خاصة به تميزه عن غيره.

الجينات:

تسمى المورثات الجينية وهي الأحماض الأمينية الموجودة لدى كل إنسان، فتوصف بأنها صفات وراثية أو وحدات وراثية توجد على الكروموسومات وتكون مسؤولة عن تصنيع البروتينات أو الأنزيمات في الجسم بواسطة الأحماض النووية^(٤).

١- مصلح بن عبد الحي النجار ، البصمة الوراثية في الفقه الإسلامي، ط ١، مكتبة الرشد ، الرياض ، ٢٠٠٥م، ص ١٦٣ .

٢- محمد بن أحمد الأزهرى ، تهذيب اللغة ، ط ١ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ٢٠٠١م ، ٤ / ٢١٥ .

٣- مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، ط ، دار الدعوة ، ١٩٨٠م ص ٦٢ .

٤- محمد حسين غزال ، مفسر المصطلحات العلمية، ط ١، العقبة، الأردن، ١٤٠٩هـ، ص ٢٨٥ .

الوراثية:

من وراث ، يرث ، ميراثاً ، والوارث اسم من أسيماء الله وهو الباقي الدائم الذي يرث الأرض ومن عليها ، كما في قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (ال عمران : ١٨٠٠) وقيل أن الوراثة كاللغة ، كيان من المعلومات ينتقل عبر الأجيال لها مفرداتها (الجينات نفسها) ولها طريقتها التي تنظم بها المعلومات الوراثية ، ولها أدبياتها ، آلاف التعليمات اللازمة كي تصبح بشراً^(١).

المطلب الثاني

تعريف بصمة الجينات الوراثية اصطلاحاً

عرفها المعاصرون بتعريفات متقاربة وإن تباينت في عبارتها إلا أنها تعطي نفس المعنى ، ومن أبرز هذه التعريفات : (هي المادة المورثة الموجودة في خلايا جميع الكائنات الحية^(٢)) وقيل أنها : الشفرة التي تحدد مدى الصلة بين المتماثلات وتجزم بوجود الفرق أو التباين بين المختلفات عن طريق معرفة التركيب الوراثي للإنسان في ظل علم الوراثة^(٣)) وقيل هي : (البنية الجينية — نسبة إلي الجينات — أي المورثات التي تدل على هوية كل إنسان بعينه) وهذا التعريف الذي أقر في الندوة التي عقدتها المنظمة الإسلامية للعلوم بدولة الكويت^(٤) . كما أقر أيضاً في المجمع الفقهي لرابطة العالم الإسلامي^(٥).

ومن كل هذه المعاني التي وردت يتضح أن بصمة الجينات الوراثية هي عبارة عن خريطة توضيحية لبيان الخصائص والصفات الوراثية التي تقوم بتحديد هوية شخص ما ، والتعرف عليه ومن ثم فهي تشبه بطاقة الهوية الشخصية ولكنها لا تبين عناصر الحالة المدنية للشخص (كالاسم ، والكنية ، والموطن ، الخ) وإنما

- ١- مصلح عبد الحي النجار ، البصمة الوراثية في الفقه الإسلامي ، ص ١٦٧ .
- ٢- صالح بن عبد العزيز ، الكائنات وهندسة المورثات ، بحث مقدم لندوة الهندسة الوراثية الجينوم البشري والعلاج الجيني ، رؤية إسلامية ، ١١١/١ .
- ٣- وجدي عبد الفتاح السواحلي ، الهندسة الوراثية والتقنية الحيوية : رؤية عربية ، الجينوم ، سلسلة مجلة عالم الفكر ، الكويت ، ٢٠٠٦ ، المجلد ٣٥ ، ص ٢٦ .
- ٤- الندوة الوراثية للمنظمة الإسلامية للعلوم الوراثية بدولة الكويت ، الفترة ٢٣ - ٢٥ جمادى الآخرة ١٤١٩ هـ ، سلسلة مطبوعات المنظمة ، ١١١/١ .
- ٥- رابطة العالم الإسلامي ، قرار المجمع الفقهي الإسلامي في دورته الخامسة عشر المنعقد خلال الفترة ١١ - ١٥ رجب ١٤١٩ هـ ، ص ٣١٦ .

تحدد خصائصه الوراثية كلون عينيّه ، وبشرته ، ودرجة ذكائه ، ونوع هرموناته ، وبروتيناته ، وحالته الصحية وما شابه ذلك^(١) .

وقد دلت الاكتشافات الطبية أنه يوجد داخل النواة التي تستقر في خلية الإنسان ست وأربعون من الصبغات (الكروموسومات) التي تتكون من المادة الوراثية وتحمل الحمض النووي الريبوزي للأكسجيني (الدنا) وكل واحد من هذه الكروموسومات يحتوي على عدد كبير من الجينات الوراثية قد تبلغ في الخلية الواحدة إلى مائة ألف مورثة جينية تقريباً تتحكم في صفات الإنسان الوراثية^(٢) ، فأصبح لكل إنسان جينوماً بشرياً يختص به دون غيره ، ولا يمكن البتة أن يتشابه فيه مع غيره ، أشبه ما يكون ببصمة الأصابع في خصائصها بحيث لا يمكن تطابق الصفات الجينية بين شخص وآخر حتى وإن كانا توأمين ، هذه الجينات التي يحملها الإنسان عن أبيه وأمه فهو يرث نصفها وهي ثلاثة وعشرين كروموسوماً عن أبيه والنصف الآخر أيضاً ثلاثة وعشرين عن أمه فينتج عن ذلك كروموسومات خاصة بالجنين لا تتطابق مع أبيه ولا مع أمه من كل وجه ، وإنما جاءت خليطاً^(٣) كما ذكر ذلك في القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ (الإنسان: ٢) ، وبهذا الاختلاط اكتسب صفة الاستغلاية عن كروموسومات كل من والديه مع بقاء التشابه معهما في بعض الوجوه ، لكنه مع ذلك لا يتطابق مع أي من كروموسومات والديه فضلاً عن غيرهما^(٤) .

هذا هو خلق سبحانه وتعالى فقد خلق الناس جميعاً مشتركين في وحدة الخلق والتراكيب ، ووحدة وظائف كيميائ الخايا ، فالناس جميعاً من دم وعظم ولحم وروح أصلهم جميعاً من تراب كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾ (الروم: ٢٠) ومع هذا التشابه في الخلق العام ، لا يتطابق إنسان مع غيره تطابقاً تاماً في كل التفاصيل الجزيئية كالمزاج والطباع ،

١- عمر بن محمد سبيل، البصمة الوراثية ومدى مشروعيتها استخدامها في النسب والجنائية، بحث مقدم للدورة السادسة عشرة للمجمع الفقهي الإسلامي المنعقد في مكة خلال الفترة ٢٦-٢١/١٠/١٤٢٢، ص٢.
٢- مجموعة كتاب، الفقه الميسر، نشر مدار الوطن، الرياض، ١٤٣٢هـ، ١٢/١٢٧.
٣- المرجع السابق، ١٢/١٢٧.
٤- حميد علي الخفيف ، البصمة الوراثية واستخدامها في الطب الشرعي ، بحث منشور في مجلة المرجع ، دار إيجي ، القاهرة.

ولحن الصوت ، والقسمات ، وشكل العظم ، والرائحة ، فكما انفرد في تفاعله الكيميائي انفرد كذلك في بصماته التي يحملها دون سائر البشر^(١).
ومما يجدر ذكره أن الأستاذ الدكتور إليك جفرين، عالم الوراثة في جامعة ليستر البريطانية هو أول مكتشف لخاصية الجزء المميز في تركيب البصمة الوراثية عام ١٩٨٤م كما أول من أطلق اصطلاح البصمة الوراثية^(٢)، وجاء إليك لاندر ليطلق اصطلاحاً آخر لهذه التقنية وهو محقق الهوية الأخير، وقد سجل جفرين براءة اكتشافه عام ١٩٨٥م^(٣).

المبحث الثاني

الوسائل الشرعية لإثبات صحة النسب

النسب هو : (القربة والمراد بها الرحم وهي يشتمل كل من بينك وبينه قرابة قربت أو بعدت، كانت من جهة الأب أو من جهة الأم)^(٤).

ولأن الشرع اهتم بالنسب وشدد على الحفاظ عليه ورعايته فقد ركز على العلاقة الشرعية بين الرجل والمرأة وصيانتها في قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ • إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ • فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ (المؤمنون، ٥-٧).

ومن مظاهر اعتناء الإسلام شدد على الآباء والأمهات في مسائل إنكار النسب الثابت لأولادهم أو إلحاق أبناء ليسو منهم في قول المصطفى صلى الله عليه وسلم : (أيما امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم فليس من الله في شيء ولم يدخلها جنته، وأيما رجل جحد ولده وهو ينظر إليه، احتجب منه يوم القيامة وفضحه على رؤوس الخلائق)^(٥) وكذلك قوله: (ومن ادعى إلى غير أبيه وهو يعلم

١- الأرمي فيصل ، البصمة معجزة الله في خلقه، مجلة الفيصل، العدد ١٨٧، ص ١١٥.

٢- معوض عبد التواب ، الطب الشرعي في التحقيق الجنائي والأدلة الجنائية، منشئة المعرفة، الإسكندرية، ١٩٨٧م ص ٢٠٣.

٣- د. حسان حتوت، قراءة الجينوم البشري، بحث مقدم لندوة المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية ، ص ٥.

٤- الشيخ محمد بن عمر البقري على شرح الرحبية، للأمام سبط المارديني، ط، مصطفى الباوي الطلبي، مصر، ص ٣٢.

٥- محمد بن أحمد بن أبي بكر العسقلاني، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، ط، المطبعة الأميرية، مصر، ١٧٢/٨.

فالجنة عليه حرام^(١) لذا كانت الحكمة الرشيدة في تحريم الإسلام للتبني الذي كان يسود مجتمعات الجاهلية آنذاك واستمر إلى صدر الإسلام ذلك لأنه ينشئ علاقة بين الابن المتبني والذي تبناه على غير وشائج القرابة، ولكن مع ذلك فإن الإسلام يلحق المجهول بمن ادّعاه بمجرد الدعوة، وكل ذلك من عناية الشريعة بالنسب ورعايتها له تحقيقاً لمقاصد عظيمة وحكم جليلة جاءت بها الشريعة.

المطلب الأول

طرق إثبات النسب بالعقد والاستلحاق

١- عقد الزواج الصحيح: تأتي صحة العقد من توفر شروطه وأركانه وإنتفاء موانعه على تفصيل وخلاف بين الفقهاء في المذاهب الفقهية ، فهذا العقد الصحيح هو الذي يثبت به صحة نسب الولد الذي أنجبته المرأة المتزوجة بهذا العقد بعد ستة أشهر من الدخول بها وهو ثابت بالإجماع لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (الولد للفراش وللعاهر الحجر)^(٢) ودلالة الحديث أنه إذا كان للرجل زوجة أو مملوكة صارت فراشاً له فأنت بولد لمدة الإمكان وهي ستة شهور لحقه الولد^(٣) ولصحة هذا النسب لا بد من إمكانية حمل الزوجة من الزوج وذلك بتحقق أمرين:

أولهما: أن يكون الزوج ممن يُتصور منه الحمل، فإن كان الزوج صغيراً غير بالغ، ولا مراهق وجاءت زوجته بولد، فإن نسب هذا الولد لا يثبت منه لعدم إمكان الحمل منه، إذ أنه في تلك الحال لم يكن زواجهما فراشاً يثبت به النسب^(٤).

ثانيهما: إمكان التلاقي بينهما، وقد اختلف فيه الفقهاء فمنهم من اشترط العقد فقط كالحنفية^(٥) ومنهم من اشترط الدخول الحقيقي كالأمامية^(٦) وابن تيمية،

١- صحيح البخاري، ط١، دار طوق النجاة، مصر، ١٤٢٢هـ، ١٥٦/٨.

٢- أبو زكريا محي الدين النووي، المنهاج شرح صحيح المسلم، ط٢، دار اجياد التراث العربي، بيروت/١٢٩٢هـ، ٣٧/١٠.

٣- المنهاج، المصدر السابق، ٣٧/١٠.

٤- عثمان بن علي الزليعي، تبين الحقائق شرح كنز الدقائق، ط١، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٣١٣هـ، ٣٨/٣.

٥- ابن عديين، حاشية رد المحتار على الدر المختار، شرح تنوير الأبصار، ط١، دار الكتب.

٦- نجم الدين جعفر بن الحسن الحلبي، شرائع الإسلام في مسائل الحلال والحرام، ط١، مكتبة الحياة، طهران، ١٩٨٦م، ٩٤/٣.

- ووافقه تلميذه ابن القيم^(١) ومنهم من اشترط إمكانية الوطاء مع العقد^(٢).
- ٢- الاستلحاق: جاء من اللحاق الذي يطلق عند العرب ويراد به الانتساب والسين والتاء للتأكيد، واستلحقه أي ادّعاه ويعبر عنه بالإقرار بالنسب^(٣).
- والإقرار في اللغة بمعنى الإثبات يقال: أقر بالشيء أي أثبته، وأقر بالحق اعترف به وأثبته^(٤).
- والإقرار شرعاً: هو إخبار عن ثبوت حق للغير على نفسه^(٥) وقد وضع العلماء أن الإقرار نوعان :
- الأول:** إقرار يحمله المقر على نفسه فقط كالإقرار بالبنوة أو الأبوة.
- الثاني:** إقرار يحمله المقر على غيره وهو ما عدا الإقرار بالبنوة والأبوة كالإقرار بالأخوة والعمومة ، وهناك شروط يجب توفرها لصحة الإقرار بنوعيه منها^(٦) :
- ١/ أن يكون المقر بالنسب بالغاً، عاقلاً، فلا يصح إقرار الصبي ولا المجنون باعتبار أنهما لم يبلغا حد التكليف .
- ٢/ أن يكون المقر له بالنسب ممن يمكن ثبوت نسبه من المقر وذلك بأن يولد مثله مثله فلو أقر من عمره عشرون ببنوة من عمره خمسة عشر لم يقبل إقراره لاستحالة ذلك عادة.
- ٣/ أن يكون المقر له مجهول النسب، لأن معلوم النسب لا يصح إبطال نسبه السابق بحال من الأحوال ،
- ٤/ أن لا يكذب المستلحق إن كان أهلاً لقبول قوله، فإن كذبه لا يصح إقراره عندئذ ولا يثبت به النسب. فإذا توفرت هذه الشروط عندها يثبت نسب المقر له من المقر .

١- ابن القيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، ط٢٧، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٤م، ٢٧٢/٥.

٢- الحطاب الرعييني، مواهب الجليل لشرح مختصر خليل، ط٢، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٨م، ٤٦٠/٢.

٣- علي بن محمد بن علي الجرجاني، التعريفات، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣م.

٤- المعجم الوسيط، ٧٢٥/٢.

٥- كمال الدين ابن الهمام ، فتح القدير / ط دار الفكر ، بيروت / ٣١٧/٨.

٦- ابن الهمام، فتح القدير، ١٤/٦.

المطلب الثاني

طرق اثبات النسب عن طريق الشهادة والقيافة

١- **الشهادة:** يثبت النسب بشهادة رجلين إجماعاً، واختلف الفقهاء في إثباته بشهادة رجل وامرأتين، أما إثبات الولادة فتثبت بشهادة امرأة عند جماعة من الفقهاء منهم الحنفية^(١).

٢- **القيافة:** وهي مصدر من قافة بمعنى تتبع أثره ليعرفه، ويقال فلان يقوف الأثر ويقتافه، والقائف هو الذي يتتبع الآثار ليعرف شبه الشخص بأبيه أو أخيه^(٢). وفي الاصطلاح: القائف (هو الذي يعرف النسب بفراسسته ونظره إلى أعضاء المولود)^(٣). وقد اختلف الفقهاء في إثبات النسب بالقيافة، فذهب جمهور من العلماء إلى الأخذ بها لدلالة السنة والآثار عليها، ومنها حديث السيدة عائشة رضي الله عنها، قالت أن رسول صلى الله عليه وسلم دخل علي ذات يوم مسروراً تبرق أسارير وجهه، فقال: (ألم تري أن مجزراً المدلجي نظر أنفاً إلى زيد بن حارثة وأسامة بن زيد وعليهما قطيفة قد غطيا رؤوسهما وبدت أقدامهما فقال: إن هذه الأقدام بعضها من بعض)^(٤). وجه الدلالة: أن سرور النبي صلى الله عليه وسلم دال على إقراره بالقيافة فإن كان باطلاً ما سمعه فلا يقره أو يسكت عنه^(٥).

٣- **البينة:** أجمع الفقهاء على أن النسب يثبت لمدعيه بناءً على شهادة العدول بصحة ما ادّعاه، ويكفي في ذلك الاستفاضة بمعنى الشهادة بالسماع، بأن يشتهر الأمر بين الناس حتى يصير معروفاً بينهم ويقول جمع كبير من الناس، سمعنا أن فلاناً ابن فلاناً^(٦).

١- المصدر السابق، ٧/٦.

٢- ابن منظور، لسان العرب ٢٣٩/٩.

٣- علي بن محمد بن علي الجرجاني، التعريفات، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣م، ص ١٧١.

٤- صحيح البخاري، ٢٣/٥.

٥- الحطاب، مواهب الجليل، ٢٤/٥.

٦- ابن القيم الجوزية، المعاد، ٤١٥/٥.

المبحث الثالث

أقوال العلماء في حجية بصمة الجينات الوراثية

وأثرها في إثبات النسب

ينبغي أن يعلم أن بصمة الجينات الوراثية تعتبر نازلة من النوازل الفقهية كسائر المستجدات التي جاءت نتيجة التطور والتقدم العلمي، لذلك لا بد أن يسرى عليها ما يسرى علي سائر النوازل من أحكام، ولقد دارت المناقشات العلمية والفقهية من أجل التكييف الفقهي لهذه النازلة التي أظهرت التجارب المخبرية والفحوصات أن نتيجة بصمة الجينات الوراثية يمكن أن يكون لها موقعا بين الأدلة، لذا لا بد من استعراض أقوال الفقهاء في كيفية اعتبار البصمة طريقاً من طرق إثبات النسب فمن آراءهم:

المطلب الأول

الرأي الأول

يرى أصحابه أن بصمة الجينات الوراثية قرينة قطعية^(١) في إثبات النسب، وحجتهم في ذلك الكتاب، والعقل والواقع العملي، فمن الكتاب قوله تعالى ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ (الأحزاب: ٥)، وجه الدلالة: في قوله تعالى، (ادعوهم لأبائهم) هو أمر من الله بأن ينسب الولد لأبيه الحقيقي (الأب البيولوجي) فهو الصواب والحقيقة، فلطالما هناك وسيلة تقنية حسب العصور يمكن أن تحقق هذا الهدف فلا مانع من استخدامها مما يصب في نافذة تنفيذ أمر الله تعالى^(٢) كذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ (البقرة: ١٥٩).

وجه الدلالة: أن ما تقدمه تقنية بصمة الجينات الوراثية من دقة في كشف الحقيقة ومعرفة الأب الحقيقي في نزاع النسب يفوق بدرجات كبيرة الوسائل التقليدية الظنية لذلك لا بد أن نبين ذلك للخلق^(٣).

١- عبد القادر الخياط، تقنيات البصمة الوراثية في قضايا النسب وعلاقته بالشريعة الإسلامية، بحث مقدم لمؤتمر الهندسة الوراثية بين الشريعة والقانون، المنعقد بجامعة الإمارات ٢٢. ٢٤ صفر ١٤٢٣هـ.

٢- ملخص أعمال الحلقة النقاشية حول حجية البصمة الوراثية في إثبات النسب، كلية الشريعة والقانون، جامعة الإمارات، ١٤٢٢هـ، ص ٤٦.

٣- ملخص أعمال الحلقة النقاشية، ص ٤٦.

أما الواقع العملي والعقلي فيمكن أن يستمد من عدة نقاط:

١- أن قوة الدليل في هذه التحاليل تصل إلى نسبة قطعية في النفي أو الإثبات للبنوة والنسب وهي تختص بدقة عالية جداً يستحيل أو ينذر جداً أن تكون نتيجة فحص البصمة الوراثية خطأ وتفوق نسبة النجاح فيها ٩٩,٩٩٪، بدليل أن المحاكم الأوروبية والأمريكية تأخذ ببصمة الجينات الوراثية ليس على أنها دليل وإنما هي قرينة نفي وإثبات، فما المانع من الأخذ بها خاصة وأن فيها مزيداً من الضمانات وتقليل السلطة التقديرية في يد القضاء^(١).

٢- إن منزلة بصمة الجينات الوراثية بين الطرق الشرعية الأربعة لإثبات الأبوة لا يجوز أن تقدم عند التعارض على فراش الزوجية الصحيح لأنه الأصل المقرر في إثبات النسب، وقد قال ابن القيم: (نقول نحن وسائر الناس إن الفرائش الصحيح إذا كان قائماً فلا يعارض بقيافة ولا شبه)^(٢) فلا يجوز مع استقرار العلاقة الزوجية طلب الفحص الطبي للتأكد من النسب مما يؤدي إلى تصدع الأسرة وعدم استقرارها.

ويقول أيضاً أن الحق كما يثبت بالبينات كذلك يثبت بالقرائن القاطعة، والقرينة القاطعة هي التي تدل على المطلوب دون احتمال، كذلك البينة هي كل ما يبين الحق ويظهره ولا تختص بشهادة الشهود ومن خصها بالشهادتين أو الأربعة أو الشاهد والمرأة لم يوفّ مسماها حقه، ولم تأتي قط في القرآن مراداً بها الحجة والدليل والبرهان مفردة ومجموعة، وكذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (البينة على المدعي)^(٣) المراد به: أن عليه بيان ما يصح دعواه ليحكم له، والشاهدان من البينة، والبينة، والدلالة، والحجة، والبرهان، والآية، والتبصرة، والعلامة، والأمانة، متقاربة المعنى^(٤).

١- سعد الدين هلال، البصمة الوراثية وعلاقتها الشرعية، مجلس النشر العلمي بجامعة الكويت، ٢٠٠٠م، ص ٢٧٣.

٢- ابن القيم، زاد المعاد، ١١٨/٤.

٣- صحيح البخاري، ١٦٧/٣.

٤- ابن القيم الجوزية، الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، ط١، دار الأرقم، بيروت، ص ١٢.

وبهذا يكون المستند الفقهي لحجية بصمة الجينات الوراثية أن المقصد الشرعي من البينة هو ظهور دليل واضح يدل على صاحب الحق، أو الجريمة ومن هنا فلا ينبغي حصر طرائق البينة في أنواع معينة، فكل ما يبين الحق ويظهره فهو دليل صالح لأن يقضي به القاضي ويبني عليه الحكم إلا إذا وجد له معارض، وهناك كثير من الأمثلة استشهد بها الفقهاء في إعمال الأمارات في مسائل كثيرة في الفقه منها :

ففي قوله تعالى: ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ (يوسف: ١٨) قال القرطبي (لما أرادوا أن يجعلوا الدم علامة على صدقهم قرن الله بهذه العلامة علامة تعارضها وهي سلامة القميص من التنييب إذ لا يمكن افتراس الذئب ليوسف وهو لابس القميص ويسلم القميص من التخريق) كذلك لما تأمل يعقوب عليه السلام فلم يجد فيه خرقاً ولا أثراً استدل بذلك على كذبهم، وقال لهم: متى كان هذا الذئب حكيماً يأكل يوسف ولا يخرق القميص؟^(١) وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (يوسف: ٢٧).

قال الشنقيطي: (يفهم من هذه الآية لزوم الحكم بالقرينة الواضحة الدالة على صدق أحد الخصمين وكذب الآخر، لأن ذكر الله لهذه القصة في معرض تسليم الاستدلال بتلك القرينة على براءة يوسف يدل على أن الحكم بمثل ذلك حق وصواب، لأن كون القميص مشقوقاً من جهة دبره دليل واضح على أنه هارب عنها وهي تنوشه من خلفه^(٢)).

• كما ورد أيضاً في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (كانت امرأتان معهما ابناهما، جاء الذئب فذهب بابن إحداهما، فقالت لصاحبتها: إنما ذهب بابنك، وقالت الصغرى: إنما ذهب بابنك، فتحاكما إلى داود عليه السلام فقضى به للكبرى، فخرجتا على سليمان بن داود عليهما السلام فأخبرتا، فقال أئتوني بالسكين أشقه بينهما، فقالت

١- محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ط٢، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٦٤م ١٤٩/٩.

٢- محمد الأمين مختار الشنقيطي أضواء البيان في إيضاح القرآن ٢/٢١٥.٢١٦.

الصغرى: لا تفعل يرحمك الله هو ابنها فقضى به للصغرى فاستدل برضا الكبرى بذلك وبشفقة الصغرى عليه وامتناعها على أنها أمه^(١).

- كذلك حكم سيدنا عمر رضي الله عنه برجم الحامل بلا زوج ولا سيد اعتماداً على القرينة وكذلك حد الخمر على من تقيئها أو فاحت رائحتها من فيه، وذلك في قوله: (من قاءها فقد شربها)^(٢) فضربه الحد.
- فإذا كان الأمر كذلك في مثل هذه القرائن، فإن موضوع بصمة الجينات الوراثية أقوى بكثير منها ومن الشهادة التي تحتل الصدق والكذب، لأن نتائج البصمة قطعية .

٣- الشريعة أجازت العمل بغلبة الظن في الأحكام ومنها الإثبات لأن الحاجة وتحقيق مصالح الناس وإقامة الحق والعدل والحفاظ على الأنفس والمال والأعراض يقتضي قبول الأدلة الظنية في الإثبات مع مراعاة الاحتياط والحذر وتوفير الشروط التي ترجح جانب الصدق في الدليل الظني على جانب الكذب^(٣). لذلك أجاز أصحاب هذا القول نتائج بصمة الجينات الوراثية في تحديد أنساب الأشخاص الذين ماتوا أو قتلوا في ظروف غامضة كالحروب والفتن وحوادث السير سقوط الطائرات والغرق، وكذلك عند اختلاط المواليد في المستشفيات والحضانات وفي حالات الاشتباه في أطفال الأنابيب، كذلك في تحديد أم اللقيط، وعند التنازع في إلحاق مجهول النسب^(٤).

٤- أن الفقهاء من الشافعية والحنابلة وغيرهم قبلوا القيافة طريقاً لإثبات النسب شرعاً، والقائف إنما يتكلم عن حدس وتخمين وفراسة ولا يندم احتمال الخطأ في حكمه بحال، بل قد يقول الشيء ثم يرجع عنه إذا رأى أشبه منه^(٥).

أما بصمة الجينات الوراثية المستعملة أصولاً يكاد أن يندم فيها احتمال الخطأ على ما أظهرته الأبحاث المتقدمة.

١- عبد العظيم المنذري، مختصر صحيح مسلم، ط٦/ المكتب الاسلامي، بيروت، ١٩٨٧ م، ٢٨١/٢.

٢- سنن البيهقي، ٣١٦/٨.

٣- محمد مصطفى الزحيلي، وسائل الإثبات في الشريعة الإسلامية، ط١، مكتبة البيان، دمشق، ١٩٨٢م، ص٧٤٢.

٤- عمر بن محمد السبيل، البصمة الوراثية، ص٢١.

٥- الماوردي، الحاوي الكبير في فقه الإمام الشافعي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٠٩/٧.

المطلب الثاني الرأي الثاني والثالث

الرأي الثاني:

يرى أصحاب هذا الرأي أن بصمة الجينات الوراثية قرينة ظنية لا ترقى إلى حد القرائن القطعية، لأنها قد يشوبها الخطأ ثم أنها لا تعد من البيئات التي صادق عليها الشرع في إثبات النسب لكن يمكن أن يترك تقديرها للقاضي، وقد استدلوا بعدة نقاط منها^(١):

- أ - أن الفقهاء حددوا الأدلة الشرعية المعتبرة في إثبات النسب وهي التي ذكرت آنفاً لذلك لا يمكن اعتبار بصمة الجينات الوراثية من بينها.
- ب - قد يحدث هناك خطأ في مراحل الفحص المختلفة أو اختلاط العينات عند رفعها من مظانها أو حتى اختلاطها في المختبرات.
- ج - أن فحوصات بصمة الجينات الوراثية أو تحاليل الدم من قضايا العرض التي لا تتعلق برجل أو امرأة فقط، بل تتعدى إلى العشائر، والقبائل لذلك يمكن أن تكون عامل مساعد يفيد في حالة الخصوم بين رجلين على طفل.

الرأي الثالث:

يرى أصحاب هذا الرأي أن بصمة الجينات الوراثية وسيلة شرعية جديدة لإثبات النسب، وتأتي في منزلة متأخرة من الوسائل التي اتفق عليها الفقهاء، فإذا وجدت لا يعتد القاضي بها، لكنهم يرون إجازة بصمة الجينات الوراثية في إثبات النسب بشروط ومن هؤلاء مفتي جمهورية تونس الأسبق الشيخ مختار السلامي الذي قال، يجب مراعاة الأمور التالية عند استخدام هذه التقنية^(٢):

- ١ - التأكد الكامل والاطمئنان التام أن القائمين على قراءة بصمة الجينات الوراثية موثوق في كفاءتهم في الميدان، ذلك أنه لما كان موضوع إثبات النسب أو نفيه من القضايا الهامة التي تقع ضمن الضروريات الخمس، فإنه لا يجوز أن

١- وليد عاكوم، البصمة الوراثية وأثرها في الإثبات، بحث مقدم لمؤتمر الهندسة الوراثية ص ١٢٩.

٢- محمد مختار السلامي، إثبات النسب بالبصمة الوراثية، بحث مقدم لندوة الوراثة والهندسة، ١/٤٠٤ وما بعدها.

- يتدخل فيه إلا إذا كان هذا التدخل قد توفرت فيه جميع الضمانات المعرفية والمخبرية، وأن النتائج التي يتوصل إليها هي نتائج يقينية لا ظنية .
- ٢- أن يكون اللجوء إلى قراءة بصمة الجينات الوراثية في أحوال محددة وهي:
- أ- إذا تيقن الزوج أن زوجته لم تحمل منه، لأنه استبرأها بحيضة ولم يمسهها بعد ذلك وظهر بها حمل، فإنه يلجأ إلى البصمة.
- ب- إذا اختلط المولود بغيره، وتنازع الآباء في الأطفال المختلطين، هذا الأمر وإن كان قليل الحدوث إلا أنه ممكن.
- ج- أن يكون طلب الأب مبنياً على يقين لا على شك أو خيال وأوهام، ذلك أن النسب ثابت اتصاله بين الزوج والمولود بمتقضى العقد، فلا ترتفع الحصانة إلا إذا قابل هذا اليقين بيقين معاكس من الزوج أن الولد لا يتبعه.
- د- أن الذي له حق في الإحالة على الاختبار الجيني إنما هو الأب وحده وليس لأحد غيره، لا من أعضاء العائلة ولا من القضاة ولا المولود ذاته أن يلجأ إلى الاختبار الجيني للتأكد من النسب، ذلك أن اللعان هو الاستثناء لا القاعدة، وإن الأصل هو أن الزوج يتبعه ثبوت النسب في كل ما جاء بعد ستة أشهر فأكثر من دخوله على زوجته.

المطلب الثالث

الرأي الرابع

من أصحاب هذا الرأي الدكتور حسن الشاذلي الذي أجاز الاعتماد على بصمة الجينات الوراثية في إثبات النسب بشروط القيافة، حيث يقول: (أرى أن البصمة الوراثية تلتقي مع القيافة في عدة جوانب، بحسب ما نص عليه الفقهاء، فالقيافة علم من العلوم يقوم على معرفة الشبه بين الولد والوالدين على أساس الصفات الظاهرة أو الباطنة، كذلك البصمة الوراثية ولكن عن طريق النمط الوراثي للحامض النووي، فالبصمة الوراثية نوع من القيافة وإن تميزت بالبحث في خفايا وأسرار النمط الوراثي للحامض)^(١) وتتجلى شروط القائف في كونه أهلاً للشهادة

١- حسن الشاذلي، البصمة الجينية وأثرها في إثبات النسب، بحث مقدم لندوة الوراثية، ١/٢٩٤.

والحكم، وذا خبرة وتجربة، وأن يتعدد القائف الذي يحكم نسب مجهول النسب الشهادة وهو اثنان فأكثر، وأن يكون عالماً في فنه، مجتهداً بالمعنى الشرعي في العلم الذي يختص به^(١).

وهنا لا بد من وقفة في ميزة بصمة الجينات الوراثية على القيافة:

- فالبصمة تقوم على أساس محسوس فيه دقة متناهية والخطأ فيه مستبعد جداً، بخلاف القيافة التي تقوم على الاجتهاد والفراسة، وهي مبنية على غلبة الظن، والخطأ فيها وارد، ففرق بين ما هو قطعي ومحسوس وبين ما بني على الظن والاجتهاد.

- أن القيافة يعمل بها في مجال الإنسان فقط، بخلاف البصمة الوراثية فإنها تتعدى إلى مجالات أخرى كتحديد الجاني وتحديد شخصية المفقود.

- أن القيافة تعتمد على الشبه الظاهر في الأعضاء كالأرجل، وفيها قدر من الظن الغالب، أما البصمة الوراثية فهي تعتمد اعتماداً كلياً على بنية الخلية الجسمية الخفية، وهي تكون من أي خلية في الجسم، ونتائجها تكون قطعية لكونها مبنية على الحس والواقع.

- أن القافة يمكن أن يختلفوا، بل العجيب أنهم يمكن أن يلحقوا الطفل بأبوين لوجود الشبه فيهما^(٢)، أما البصمة فلا يمكن أن تلحق الطفل بأبوين البتة، وقد نقل بعض الفقهاء إجماع الأطباء على استحالة تخلق الجنين من ماء الرجلين، لأن الوطاء في نفس الطهر لا بد أن يكون على التعاقب، وإذ اجتمع ماء الأول مع ماء المرأة انعقد الولد منه عندها تحصل عليه غشاوة تمنع من اختلاط ماء الثاني بماء الأول^(٣) وهذا ما قرره الطب الحديث حيث أكد استحالة أن يتخلق الإنسان من مني رجلين مختلفين^(٤). وبناءً على ما تقدم فالقيافة باب و بصمة الجينات الوراثية باب آخر.

١- عبد القادر عمر، نيل المأرب بشرح دليل الطالب، ط١، مكتبة الفلاح، الكويت، ١٩٨٣م، ٤٨٠/١.

٢- منصور بن يونس البهوتي، كشاف القناع عن متن الإقناع، ط، دار الكتب العلمية، بيروت، ٤٢٦/٥.

٣- ابن الهمام، فتح القدير، ٤٦/٥.

٤- مؤتمر الهندسة الوراثية بين الشريعة والقانون المجلد ٤ ص ٦٢١.

المطلب الرابع الرأي الراجح

والذي يبدو أن الرأي الراجح من هذه الأقوال هو ما ذهب إليه أصحاب الرأي الأول الذي جعل بصمة الجينات الوراثية قرينة قطعية لقوة الأدلة التي أوردوها في ذلك الشأن لكن لا بد أن يصاحب ذلك شروط وضوابط وضعها أصحاب الاختصاص عند تحليل بصمة الجينات الوراثية من الناحية العلمية منها:

١/ أن تكون المختبرات والمعامل الفنية تابعة للدولة وتحت رقابتها حتى لا يتم التلاعب فيها لمجرد المصالح الشخصية والأهواء الدنيوية وبالتالي يكون النسب عرضة للضياع^(١).

٢/ أن تكون هذه المختبرات والمعامل الفنية مزودة بأحسن الأجهزة ذات التقنية العالمية والفنية القابلة للاستمرارية والتفاعل مع العينات والظروف المحيطة بها في الدولة^(٢).

٣/ طلب التحليل يكون من قبل الأب فقط، لأن هذا في معنى اللعان الذي لا يقوم به إلا الزوج لكونه صاحب الحق، والأمر بإجرائه يصدر من القاضي.

٤/ أن يكون العاملون في هذه المختبرات من خبراء وفنيين ممن يتسمون بصفات الأمانة والخلق الحسن والعدل في العمل، وكل ما يتطلبه الشرع في سبيل درء المفسد وجلب المصالح^(٣).

٥/ أن يكون العاملون في مختبرات بصمة الجينات الوراثية من أصحاب الخبرة العالية والمستوى الرفيع، وممن يُشهد لهم بالتقدم العلمي والتقني، وقد اشتهر عنه الإصابة حتى لا يؤدي عدم ذلك إلى تدهور النتائج الفنية وبالتالي ضياع الحقوق من أصحابها^(٤).

١- خليفة علي الكعبي، البصمة الوراثية وأثرها على الأحكام الفقهية، ط١، دار النفائس، الأردن ٢٠٠٦م، ص٤٩-٥٠.

٢- وهبة مصطفى الزحيلي، البصمة الوراثية ومجالات الاستفادة منها، بحوث مؤتمر الهندسة الوراثية، ص١٨.

٣- نصر فريد واصل، البصمة الوراثية ومجالات الاستفادة منها ص٩٨.

٤- المرجع السابق، ص٩٧.

- ٦/ أن يكون الخبير مسلماً لأن قوله يتضمن خبراً ورواية، وأن يكون عدلاً لأن الهوى في هذا الباب قد يحمله على قول غير الحق^(١).
- ٧/ التحليل على التوائم المتطابقة ينبغي ألا يقع إلا في إثبات النسب، وأما في مجال الجرائم والجنايات، فلا يؤدي إلى غرضه إذ من الممكن الوقوع في ظلم أحد التوأمين الذي لم يرتكب الجريمة^(٢).
- ٨/ توثيق كل خطوة من خطوات تحليل بصمة الجينات الوراثية بدءاً من نقل العينات إلى ظهور النتائج النهائية، حرصاً على سلامة تلك العينات وكذلك إجراء الفحص بأكبر عدد من الطرق وبعده أكبر من السمات الوراثية ضماناً لصحة نتائجها، مع حفظ هذه الوثائق للرجوع إليها عند الحاجة^(٣).

المبحث الرابع

وسائل نفي النسب

المطلب الأول

نفي النسب في الشرع

مر بنا من قبل اهتمام الشريعة بالنسب والمحافظة عليه واحاطته بشتى أنواع الحماية والرعاية، ومع ذلك أعطت الحق في نفي النسب والتبرؤ منه إذا لم يثبت بالأسباب الشرعية التي سبقت. وقد ثبت هذا الحق عن طريق اللعان: وهو في اللغة الإبعاد والطرده من الخير أو الإبعاد والطرده من رحمه الله تعالى^(٤).

أما في الاصطلاح فقد عرفه الحنفية بأنه: (شهادات مؤكدة بالإيمان مقرونة باللعن من جهة الزوج وبالغضب من جهة الزوجة قائمة مقام حد القذف في حق الزوج ومقام حد الزنا في حق الزوجة)^(٥).

١- محمد الأشقر، إثبات النسب بالبصمة الوراثية، ص ٤٤١.

٢- نور الدين الخادمي، الجنوم البشري وحكمه الشرعي، بحث مقدم لمؤتمر الهندسة الوراثية بين الشريعة والقانون / المجلد الأول، ص ٤٢-٤٣.

٣- خليفة على الكعبي، البصمة الوراثية وأثرها على الأحكام الشرعية، ط ١، دار النفائس، الأردن، ٢٠٠٦ م، ص ٥٠.

٤- القاموس المحيط ٤/٢٦٩.

٥- حاشية ابن عابدين ٣/٤٨٢.

ودليله من القرآن قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ • وَالْخَامِسَةَ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ • وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ • وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (النور، ٦-٩).

وجه الدلالة: أفادت الآيات أن اللعان جعله الشارع طريقاً لإسقاط الحد عن الزوج الذي قذف زوجته، إن لم تكن له بيينة على زناها ويفهم منها كما قال الفقهاء أن اللعان جعل أيضاً طريقاً لنفي الزوج نسب ولده منه، وأنه وسيلة الزوجة لدرء العذاب عنها بعد ملاءنة الزوج^(١).

أما دليله من السنة: (ما روي عن عبد الله بن عباس أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي صلى الله عليه وسلم بشريك بن السحماء، فقال النبي: البيينة أو حد في ظهرك فقال يا رسول الله، إذا رأى أحدنا على امرأته رجلاً ينطق يلتمس البيينة؟ فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول: البيينة وإلا حد في ظهرك، فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصادق، ولينزلن الله ما يبرئ ظهري من الحد)^(٢) فنزلت الآيات. فأرسل إليهما الرسول صلى الله عليه وسلم، فجاء هلال فشهد والنبي يقول: إن الله يعلم أن أحدكما كاذب فهل من تائب. ثم قامت فشهدت فلما كانت عند الخامسة وقفوها، وقالوا إنها موجبة فتلكأت ونكصت حتى ظننا أنها ترجع ثم قالت: لا أفصح قومي سائر اليوم فمضت، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أبصروها فإن جاءت به أكحل العينين سابغ الإليتين^(٣) خدلج الساقين^(٤) فهو لشريك بن سحماء، فجاءت به كذلك، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (لولا الأيمان التي سبقت لكان لي ولها شأن)^(٥). وقيل نزلت في عويمر بن أشقر.

١- الفقه الإسلامي، وهبة الزحيلي ٥٦٠/٧.

٢- الجامع لأحكام القرآن أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي ١٨٣/١٢ ط ٢ دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٦٤م.

٣- عظيمهما، النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين أبو السعادات، ٢٣٨/٢ ط، الدار العلمية للكتب، بيروت ١٩٧٩م.

٤- ضخم الساقين، لسان العرب، ابن منظور ٢٠٩/٢.

٥- صحيح مسام بشرح النووي.

إذن اللعان يكون : إما برؤية الزوجة وهي على حالة الزنا ، أو أن ينفي حملاً يدعي استبراء قبله ، أو يقذفها بالزنا ولا يدعي رؤية ولا نفي حمل على خلاف بين الفقهاء في أحكامه من الوجوب إلى النذب^(١) والذي نحن بصدده نفي نسب الولد من الزوج القاذف وهذا لا يتحقق إلا بشروط معينة بعضها محل اتفاق بين الفقهاء والبعض الآخر محل اختلاف.

من هذه الشروط:

- ١ / إمكان كون الولد للنافي ، فإن لم يمكن أن يكون منه انتفي عنه بغير لعان ، كما لو جاءت الزوجة بولد لأقل من ستة أشهر من عقد النكاح^(٢).
- ٢ / ألا يتقدمه إقرار بالولد أو بتوأمه أو ما يدل عليه صراحة كقبول التهنة ، أو دفع رسوم الولادة فإن صدر منه ذلك كان إقراراً منه به^(٣).
- ٣ / أن ينفي الولد وقت الحمل واشترط الإمام مالك أنه متى لم ينفيه وهو حمل لم يجز له أن ينفيه بعد الولادة بلعان ، وهذا عند الجمهور^(٤) غير الحنفية.
- ٤ / أن يوجد التلاعن منهما جميعاً . وغيرها من الشروط يضيق المجال بذكرها.

المطلب الثاني

نفي النسب ببصمة الجينات الوراثية

شدّد الشارع في نفي النسب بعد ثبوته ، لذلك حصر نفيه بطريق واحد فقط وهو اللعان ، واشترط لإقامته شروطاً تحد من حصوله وتقلل من وقوعه ، وبناءً على ذلك ذهب كثير من الفقهاء المعاصرين ومنهم عمر محمد سبيل ، استناداً على ما جاء في المجمع الفقهي لرابطة العالم الإسلامي على أنه لا يجوز استخدام البصمة الوراثية في نفي نسب ثابت ، كما لا يجوز الاكتفاء بالبصمة الوراثية في نفي النسب بمقتضى نتائجها الدالة على انتفاء النسب بين الزوج والمولود على فراشه ، وذلك لأن اللعان حكم شرعي ثابت بالكتاب والسنة والإجماع ، وله صفة تعبدية في إقامته ،

١- حاشية الدسوقي ٧٢٤/٢.

٢- المرجع السابق ٧٢٣/٢.

٣- المهذب في فقه الإمام الشافعي ، أبو اسحق إبراهيم بن علي الشيرازي ٨٤/٣. ط دار الكتب العلمية بيروت .

٤- بداية المجتهد ، ١١٧/٢.

فلا يجوز إلقاءه وإحلال غيره محله، أو قياس أي وسيلة عليه مهما بلغت من الدقة والصحة في نظر المختصين بها^(١).

وقد اتفق الفقهاء على أن النسب بعد ثبوته بالفراش لا ينفى شرعاً باللعان لما بُني على اللعان من التغليظ للردع والزجر، لذلك يجوز أن يكون في المسجد وأمام الناس، لما يحمله من حكم ومقاصد معتبرة للشارع، وردع كبير لمنع التسرع في نفي النسب فلو فُتح الباب للاعتماد على بصمة الجينات الوراثية لنفي النسب والاكتفاء بها دون اللجوء إلى اللعان لأدى ذلك إلى حالات خطيرة من حيث استسهال هذا اللجوء، والتساهل في نفي النسب الذي يعتبر الحفاظ عليه من الضروريات. وبالتالي إلى فوضى واضطراب في هذا الأمر الخطير، الذي تترتب على أي تساهل فيه مفسد عظيمة، ولذلك لا بد من سد الباب ومنع هذه الوسيلة والذريعة المؤدية على ذلك^(٢).

يقول الشيخ عمر محمد سبيل: (كيف يجوز إلغاء حكم شرعي بناءً على نظريات طبية مظنونة ولله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ (الأحزاب: ٣٦). وقد جاء مشروع توصية المجمع الفقهي لرابطة العالم الإسلامي في دورته الخامسة: (أنه لا يجوز استعمال البصمة الوراثية في نفي النسب استقلالاً، ولا استعمالها في نفي نسب من ثبت نسبه بأي دليل شرعي^(٣)).

وقال الشيخ محمد الأشقر: (أنه لن يكون مقبولاً شرعاً استخدام الهندسة الوراثية، والبصمة الوراثية لإبطال الأبوة التي تثبت بطريق شرعي، ولكن مجال العمل بالبصمة الوراثية سيكون في إثبات أو نفي أبوة لم تثبت بطريق شرعي صحيح^(٤)). لكن يحسن الاستعانة بها على اعتبار أنها قرينة قد تحمل الزوج على العدول عن اللعان فيما إذا ثبت من خلال نتائج البصمة الوراثية أن المولود على

١- عمر محمد السبيل، البصمة الوراثية، ص ٢٧.

٢- المرجع السابق، ص ١٨٤.

٣- مناقشات جلسة المجمع الفقهي عن البصمة الوراثية في دورته الخامسة ص ٢١.

٤- إثبات النسب بالبصمة الوراثية ضمن ثبوت أعمال ندوة الوراثة والهندسة الوراثية ١/٤٥٤.

فراشه هو ابنه، قد تخلق من ماءه، وهذه مصلحة شرعية يدعو إليها الشرع المطهر. ويتشوف إليها^(١). والذي يبدو أن هناك توجه عام عند العلماء على عدم اعتبار الحقائق العلمية في نفي النسب، حيث ثبت نسب المولود عن أبيه بالطرق الشرعية وعلى رأسها الولادة علي فراش الزوج. وقد كان التوجه العام لدى معظم المشاركين في المؤتمر الذي عقدته المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية هو الاعتراض على اعتماد البصمة الوراثية في نفي النسب.

وقد استدلل العلماء على عدم الأخذ بالحقائق العلمية المعاصرة بشأن نفي

النسب بالآتي :

أولاً : معارضة اللعان الثابت قطعاً، فإن المشرع جعل اللعان سبيلاً للزوج إذا قذف زوجته بالزنا أو نفى نسب ولدها عنه، وهذا ثابت بالكتاب والسنة والإجماع فإثبات نفي النسب بالحقائق العلمية فيه إبطال لحكم اللعان وهذا باطل، فيبطل العمل بتلك الحقائق في نفي النسب^(٢).

ثانياً : معارضة الستر الثابت للمرأة باللعان فالمشرع قد كفل الستر للمرأة من خلال اللعان، فإذا حدث اللعان بينهما فلا يعرف الكاذب منهما، وهذا ما جاء على لسان زوجة هلال بن أمية كما سبق. فالرجوع إلى الحقائق العلمية في نفي النسب يفضي إلى إهدار هذا الستر، وفضح الأعراض، وهذا مناقض لمقصد الشرع وما ناقض مقصد الشرع لا يجوز الأخذ به^(٣).

١- المرجع السابق ٤٥٤/١.

٢- ثبوت النسب بالبصمة الوراثية، القرضاوي، موقع الإسلام أون لاين.

٣- عدنان عزائرة، حجية القرلن في الشريعة الإسلامية ص ٢٠١ ط ١، دار عمان، عمان، ١٩٩٠م.

المبحث الخامس

أقوال العلماء في حجية بصمة الجينات الوراثية في إثبات الجرائم

المطلب الأول

أقوال العلماء في حجية بصمة الجينات الوراثية

لم يتأخر الفقه الإسلامي في مجارة العلم الحديث، والإدلاء برأيه في حجية الأخذ ببصمة الجينات الوراثية في الإثبات عموماً والإثبات الجنائي بشكل خاص، وهذا دليل على مرونة الفقه الإسلامي ومسايرته لقضايا العصر وبالتالي ظهرت كثير من الأقوال والفتاوى في هذا الخصوص ومن بينها المجمع الفقهي السعودي فقد أفتى بجواز الاعتماد على بصمة الجينات الوراثية واعتبارها وسيلة إثبات في الجرائم التي ليس فيها حد شرعي ولا قصاص^(١) للحديث: (ادروا الحدود ما استطعتم)^(٢) كما أفتى الدكتور نصر فريد واصل مفتي الديار المصرية الأسبق بجواز الأخذ ببصمة الجينات الوراثية: (لا مانع شرعاً من إجراء البحوث على توسيع البصمة الوراثية في المجالات الطبية المختلفة، لأن التصرفات المستخدمة النافعة مباحة شرعاً للقاعدة الشرعية: (الأصل في الأشياء الإباحة)^(٣) واستصحاباً لبراءة الذمة ومبدأ سلطان الإرادة في الإسلام، إذ يحق لكل إنسان أن يبرم ما يراه من العقود ويُنشئ ما يراه من التصرفات في حدود عدم الضرر بالنفس أو الغير، ولا يحرم منها ولا يبطل إلا ما دل الشرع على تحريمه وإبطاله، وإلى هذا ذهب أكثر أهل العلم^(٤).

كما رأى الدكتور عمر بن محمد السبيل، جواز الأخذ ببصمة الجينات الوراثية في المجال الجنائي حيث قال: (وبناءً على ما ذكر عن حقيقة البصمة الوراثية فإن استخدامها في غير قضايا الحدود والقصاص، أمر ظاهر الصحة والجواز، لدلالة الأدلة الشرعية الكثيرة من الكتاب والسنة على الأخذ بالقرائن، والحكم

١- سلسلة مطبوعات رابطة العالم الإسلامي، المجمع الفقهي مكة المكرمة ٢٠٠٤م، المجلد الثاني ص ٣٥٨.

٢- السنن الكبرى للبيهقي ط ٢، دار الكتب العلمية بيروت، ٢٠٠٣م، ٢٠٧/٩.

٣- ابن نجيم المصري، الأشباه والنظائر على مذهب أبي حنيفة النعمان ط دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٩م ٩٣/١.

٤- نصر فريد واصل، البصمة الوراثية ومجالات الاستفادة منها، ص ٨٩-٩٠.

بموجبها ومشروعية استعمال الوسائل المتنوعة لاستخراج الحق ومعرفته^(١) وذلك يحقق العدالة والأمن للمجتمع، ويؤدي على نيل المجرم عقابه وتبرئة المتهم، وهذا مقصد من مقاصد الشريعة.

وأضاف فضيلته: (والقول بجواز الأخذ بالبصمة الوراثية في المجال الجنائي في غير قضايا الحدود والقصاص، هو ما ذهب إليه الفقهاء في المجمع الفقهية والندوات العلمية الشرعية التي تم بحث هذه المسألة فيها، ولم أقف على خلاف لأحد في حكم هذه المسألة حتى في البحوث المفردة لبعض الفقهاء)^(٢).

ويزداد الأمر وضوحاً برأي الدكتور وهبة الزحيلي رحمه الله: بأنه يصعب القول بإقامة حد الزنا وغيره بمجرد البصمة، لوجود احتمالات أو شبهات لا في نتيجة البصمة ذاتها، وإنما فيما يلابسها أو يخالطها من شبهات تتعلق بظروف محيطتها بها من الطبيب، والآلة ونحوها، فالبصمة تتطلب خبرة علمية، ومخبراً دقيقاً جداً، لذا يمكن الاعتماد على البصمة في التحقيق مع المتهم بحمله على الإقرار بجريمته لأن البصمة عامل دافع واثبات قوي، وكذلك الأمر في تقدير قيمة البصمات في القضاء الشرعي، حيث لا تعتبر البصمات وحدها بينات، وإنما هي مجرد قرائن تساعد قضاة التحقيق في إثبات الجريمة، وتظل طرق الإثبات المقررة شرعاً من شهادة وإقرار ويمين هي الأساس في تطبيق العقوبات مع الالتزام بما قرره الشرع من ضرورة وجود نصاب معين في الشهادة^(٣). وإنما قبل بمشروعية الأخذ ببصمة الجينات الوراثية كقرينة من القرائن التي يُستدل بها على المتهم في قضايا الجرائم المختلفة، لكن لا يثبت بموجبها حد ولا قصاص لأمرين:

الأول: أن الحد والقصاص لا يثبتان إلا بشهادة أو إقرار، دون غيرهما من وسائل الإثبات عند كثير من الفقهاء.

الثاني: أن الشارع يتشوّف إلى درء الحد والقصاص، لأنها يُدرءان بأدنى شبهة أو احتمال، والشبهة في بصمة الجينات الوراثية ظاهرة، لأنها إنما تثبت بيقين هوية

١- عمر السبيل، البصمة الوراثية: ص ٢١٠-٢١١.

٢- عمر السبيل، المرجع السابق، ص ٢١٠-٢١١.

٣- وهبة الزحيلي، البصمة الوراثية ومجالات الاستفادة منها ص ١٧.

صاحب الأثر في محل الجريمة ، أو ما حوله، لكنها مع ذلك تظل ظنية عند تعدد أصحاب البصمات على الشيء الواحد ، أو وجود صاحب البصمة في مكان الجريمة قبل أو بعد وقوعها ، أو غير ذلك من أوجه الظن المحتملة^(١).

المبحث السادس

مزايا بصمة الجينات الوراثية ومثالبها

المطلب الأول

مزايا بصمة الجينات الوراثية

لبصمة الجينات الوراثية مزايا عديدة جملها الفقهاء في الآتي^(٢):

- ١ . تنوع مصادر بصمة الجينات الوراثية يجعل من الممكن عمل هذه البصمة من أي مخلفات بشرية سائلة أو أنسجة أو أي جينوم.
- ٢ . أن الحمض النووي يقاوم عوامل التحلل ، والتعفن ، لفترات طويلة ، تصل إلى عدة شهور.
- ٣ . تظهر بصمة الجينات الوراثية على هيئة خطوط عريضة في تقنيات فيسهل قراءتها وحفظها وتخزينها في الكمبيوتر لحين طلب المقارنة.
- ٤ . رغم أن جزء DNA صغير إلى درجة فائقة إلا أن البصمة تعتبر كبيرة نسبياً وواضحة.
- ٥ . مهما كانت العينة صغيرة فإن من الممكن استخدامها ، وذلك عن طريق إجراء اختبار محدد يتم فيه مضاعفة كمية الـ DNA في العينة.
- ٦ . يتيح استخدام بصمة الجينات الوراثية اكتشاف آلاف الجرائم التي قيِّدت ضد مجهول.
- ٧ . بصمة الجينات الوراثية أحد الأساليب التي تُسهم في مساعدة ضحايا الجريمة.

١ - سعد الدين هالالي، البصمة الوراثية وعلاقتها الشرعية، ص ١٨٤.

٢ - عبد الله عبد الغني غانم، دور البصمة الوراثية في مكافحة الجريمة ، بحث مقدم لمؤتمر الهندسة الوراثية بين الشريعة والقانون، المجلد الثالث، ص ١٢٣٥.

٨. ببصمة الجينات الوراثية يمكن تحديد جنس صاحبها (ذكر، أنثى) وهذه نقطة هامة في التوصل إلى كشف الجاني في كثير من الجرائم.
٩. بصمة الجينات الوراثية تتجاوز ما يوجه إلى الأساليب الأخرى من طعن في مشروعيتها في الكشف عن الجريمة، إذا ما تمت الضوابط المحددة.
١٠. بصمة الجينات الوراثية تساعد في التوصل إلى نتائج قاطعة وشاملة في كثير من القضايا الغامضة، وكذلك في القضايا التي صدرت فيها أحكام بالإدانة لكنها لم تحسم وهي قد تتيح التعرف على مشتبه بهم في قضايا استعصى حلها في السابق، أو في تبرئة من أدين ظلماً وبهتاناً^(١).

المطلب الثاني

مثالب بصمة الجينات الوراثية

- ومع هذه الميزات الجيدة لبصمة الجينات الوراثية إلا أن هناك أشياء تؤخذ عليها ومن ضمن هذه الأشياء :
- تلوث العينات واختلاطها بعينات أخرى.
 - إمكانية تبديل العينات عمداً أو سهواً مثل ما يحدث عادةً في المختبرات الطبية فالخطأ من الإنسان وارد.
- تماثل البصمات في التوائم المتطابقة فهذه تشكل تحدي آخر للعمل بالبصمة لذلك نجد من قرارات الدورة السادسة عشر للمجمع الفقهي الإسلامي:
- يجب منع الانتحال والغش.
 - ومنع التلوث وكل ما يتعلق بالجهد البشري في حقل مختبرات بصمة الجينات الوراثية حتى تكون النتائج .
 - أن يتم التأكد من دقة المختبرات وأن يكون عدد المورثات (الجينوم المستعمل في الفحص) بالقدر الذي يراه المختصون ضرورياً دفعاً للشك^(٢).

١- نور الدين الخادمي، الجينوم البشري وحكمه الشرعي، ص ٤٨.

٢- رابطة العالم الإسلامي، قرارات المجمع الفقهي الإسلامي، ص ٣١٦.

المبحث السابع
نماذج تطبيقية للأخذ ببصمة الجينات الوراثية
المطلب الأول
تطبيق لإنكار نسب
رقم القضية [١]

وقائع القضية:

راجعت المدعية (ح) رفق شقيقها المحكمة العامة، مدعية على زوجها (س) بأنه بعد تزوجها بتاريخ ١٤٢٤/٣/٢هـ دخل بها ثم هجرها، وتركها عند أهلها من غير نفقة وقد حملت منه وأنجبت طفلاً بتاريخ ١٤٢٥/١/١٣هـ إلا أنه لم يعترف بالمولود ولم يستخرج له شهادة ميلاد وترغب أن يستخرج لابنه شهادة ميلاد، ويضيفه لدفتر العائلة الخاص به ويطلقها، وعند سؤال الزوج (س) أقر بزواجه من المدعية (ح) بالتاريخ المذكور، وإنه هجرها لاعتبارات لديه بعد دخوله بها، وقد تركها عند ذويها طوال الفترة المنصرمة دون السؤال عنها أو زيارتهم، وقد علم مؤخراً أنها قد أنجبت طفلاً، ونظراً لقصر الفترة التي أمضتها معه فإنه يشك في كون المولود ابنه، ولقطع الشك باليقين فقد وجهت المحكمة بإجراء فحص الجينات الوراثية للطفل فتم إحالتهم إلى إدارة الأدلة الجنائية وأخذت العينات اللازمة من قبل الخبراء المختصين.

الفحوصات البيولوجية الوراثية :

رقم التقرير الفني D.١٠ فحوصات وراثية ١٤٢٥هـ :

العينات الواردة للفحص:

رقم العينة	وصف العينة
D2501001	عينة دماء قياسية مأخوذة من والد الطفل(س)
D2501002	عينة دماء قياسية مأخوذة للطفل(ي)
D2501003	عينة دماء قياسية مأخوذة من والدة الطفل(ح)

بعد الفحص جاءت النتيجة النهائية للتقرير الفني لبصمة الجينات الوراثية بناءً على تحليل الحمض النووي الوراثي DNA الموضح أعلاه تبين ما يلي:

اشتركت الأنماط الوراثية للعينة رقم ((٢٥٠١٠٠٢ عينة دماء قياسية مأخوذة للطفل في نصف أنماطها الوراثية مع الأنماط الوراثية للعينة رقم (٢٥٠١٠٠١). عينة دماء قياسية مأخوذة من المدعو(س) كما اشتركت في نصف أنماطها الوراثية الأخرى مع العينة رقم (٢٥٠١٠٠٣) عينة دماء قياسية للمدعوة(ح) مما يثبت أن المدعو(س) والمدعوة(ح) هما الأبوان الحقيقيان للطفل موضوع الفحص بنسبة ٩٩،٩٩٪ وبالتالي ألزمت المحكمة المدعى عليه بإضافة ابنه المذكور في بطاقة عائلته وكذلك استخراج شهادة ميلاد له^(١).

الخاتمة

تناول البحث تعريف بصمة الجينات الوراثية وتأثيرها في إثبات النسب ونفيه كما وضح أنها تلعب دوراً كبيراً في الكشف عن الجرائم التي يكتنفها كثير من الغموض.

تحدث البحث أيضاً عن وسائل إثبات النسب في الشرع وكيف أن البصمة لها وجود بينها بشهادة أكثر الفقهاء الذين يرون حجية بصمة الجينات الوراثية، وحتى الذين لا يرون أن نتائجها قطعية فيقولون يمكن أن تكون عامل مساعد في الكشف عما خفي. كما تناول البحث مزايا بصمة الجينات الوراثية وبعض مثالبها، وأورد تطبيقات من قضايا المجتمع الذي كان فيه دور البصمة حاضراً ومؤثراً، وكذلك ذكر البحث أهم الضوابط التي وضعها الفقهاء لضمان نتائج البصمة بعيداً عن المؤثرات التي تقدر في صحتها.

١- مريع عبد الله سعيد، خريطة الجينوم البشري والإثبات الجنائي، دراسة تأصيلية تطبيقية، رسالة ماجستير، ٢٠٠٧م، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية قسم العدالة الجنائية، ص ١٥٧.

وقد توصل البحث إلى النتائج والتوصيات الآتية:

أولاً النتائج :

- عناية الشرع بالنسب والمحافظة عليه وذلك بوضع المحاذير الرادعة من التلاعب به باعتبار أنه مقصد من مقاصد الشريعة والتي ينبغي الحفاظ عليها.
- اكتشاف بصمة الجينات الوراثية يعتبر إضافة حقيقية لسجل الاكتشافات التي تعنى بالنفس البشرية وكشف خباياها، فهي نعمة كبرى لها أثر باق في إحقاق الحق ودفع الباطل، وبموجبها سيق المجرم إلى السجن وبها بُرئ المتهم من جرائم كادت تؤدي بحياته.
- حجية بصمة الجينات الوراثية اختلف فيها الفقهاء، فمنهم من جعلها قرينة قطعية ومنهم من جعلها قرينة ظنية، ومنهم من قاسها على القيافة لكن الراجح جواز استخدامها تحت الضوابط الشرعية التي وضعها العلماء.
- في الشرع رحمة للعباد فإثبات النسب بالفراش من السبل الكفيلة بحفظ الأسرة من التصدع والانهييار وقطع دابر القيل والقال، فما أجمله الشرع يحفظ للإنسان كرامته في كل أحواله، ويدعم صلاته بذوي أرحامه ليظل موصل النسب في المجتمع .
- نتائج بصمة الجينات الوراثية يقينية حيث بلغت نسبة صحتها ٩٩,٩٩٪ مما لا يدعو مجالاً للشك أنها يقينية.
- كما ورد في حثيثيات البحث فإن بصمة الجينات الوراثية تنير الطريق للعدالة وترشدهم إلى الأشخاص الذين مروا بالفعل على مسرح الجريمة أو جسم الضحية و للقاضي برؤيته الثقافية يستطيع مؤاخذه المتهم أو تبرئته.
- طرق إثبات النسب التي وردت ،إذا وجدت فهي تقدم على البصمة، أما إذا تعارضت فإنه يحتكم إلى البصمة في هذا العصر فهي أدق من القيافة.

ثانياً: التوصيات:

- أهيب بالباحثين المهتمين بهذا النوع من القضايا من الإكثار من الكتابات عن بصمة الجينات الوراثية لأن الاكتشافات الخاصة بالنفس البشرية كل يوم في تطور، لذلك ننتظر أن تأتي الأبحاث القادمة بما يزيد من الاستفادة من البصمة في مجالات أخرى غير التي وردت في البحث.
- ينبغي أن تفرد إمكانيات تقنية عالية الدقة للمؤسسات في الدولة الخاصة بتحليل البصمات حيث يكون لها كيان قائم بذاته تشرف عليه كفاءات عالية لنضمن النتائج المرجوة من استخدامات البصمة.
- الاهتمام بتشييع البصمة لتدخل مجال المستشفيات ودور الملاجئ وتُفعل بصورة ممتازة عليها تفيد في إثبات نسب مجهولي النسب.
- ينبغي على الدولة توفير كوادر مؤهلة وذلك ببعثهم لتلقي تدريبات عالية في مستشفيات عالمية لمواكبة كل تطور يحدث في استخدامات بصمة الجينات الوراثية.

فهرس المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- إبراهيم صادق الجندي، البصمة الوراثية كدليل فني أمام المحاكم، سلسلة إصدارات كلية الملك فهد الأمنية، شعبان ١٤٢٢هـ، المجلد ١٠،
- ابن القيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد ط٢٧، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٩٤م.
- ابن عابدين، حاشية رد المحتار على الدر المختار شرح تنوير الأبصار ط١ دار الكتب العلمية بيروت، ١٩٩٤م.
- ابن نجيم المصري، الأشباه والنظائر على مذهب أبي حنيفة النعمان ط دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٩م.

- أبو زكريا محي الدين النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم ط ٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٣٩٢هـ.
- أحمد محمد كنعان، الجينوم البشري وتقنيات الهندسة الوراثية مقاربات فقهية، مطابع دار البحوث، الرياض بدون.
- خليفة علي الكعبي، البصمة الوراثية وأثرها على الأحكام الفقهية ط ١، دار النفائس، الأردن ٢٠٠٦م.
- السنن الكبرى للبيهقي ط ٢، دار الكتب العلمية بيروت ٢٠٠٣م
- شريف فهمي بدوي، معجم مصطلحات البيولوجيا، ط ١، دار الكتاب المصرية، القاهرة ٢٠٠٠م.
- الشيخ محمد بن عمر البقري على شرح الرحبية للإمام سبط المارديني، ط، مصطفى البابي الحلبي مصر بدون.
- عثمان بن علي الزيلعي، تبين الحقائق شرح كنز الدقائق، المطبعة الأميرية، القاهرة ١٣١٣هـ.
- عمر بن محمد سبيل، البصمة الوراثية ومدى مشروعيتها استخدامها في النسب، الدورة السادسة للمجمع الفقهي الإسلامي، مكة المكرمة، ٢٦/١٠/١٤٢٢هـ
- محمد بن أحمد الأزهرى، تهذيب اللغة، ط ١، إحياء التراث العربي، بيروت ٢٠٠٠م.
- محمد بن أحمد بن أبي زكريا العسقلاني، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، ط ٧ المطبعة الأميرية مصر بدون.
- محمد بن محمد المغربي الحطاب الرعيني، مواهب الجليل لشرح مختصر خليل ط ٢، دار الفكر بيروت، ١٩٧٨م .
- محمد بن مكرم بن علي جمال الدين بن منظور، لسان العرب ط ٣، دار صادر بيروت، ١٤١٤هـ.

- محمد حسين غزال، مفسر المصطلحات العلمية ،ط١ العقبة ، الأردن ١٤٠٩هـ.
- محمد مصطفى الزحيلي، وسائل الاثبات في الشريعة الاسلامية ط٢، مكتبة البيان دمشق ١٩٨٢م.
- مصلح بن عبد الحي النجار، البصمة الوراثية في الفقه الإسلامي، ط١، مكتبة الرشد، الرياض ٢٠٠٥م.
- معوض عبد التواب، الطب الشرعي في التحقيق الجنائي والأدلة الجنائية، ط منشئة المعرفة، الاسكندرية ١٩٨٧م.
- منصور بن يونس البهوتي، كشاف القناع عن متن الإقناع ط١، دار الكتب العلمية بيروت بدون.
- المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية، الكويت جمادي الآخرة ١٤١٩هـ
- نجم الدين بن الحسن الحلي، شرائع الإسلام في مسائل الحلال والحرام ط١، مكتبة الحياة، طهران ١٩٨٦م.
- وجدي عبد الفتاح السواحلي الهندسة الوراثية والتقنية الحيوية، رؤية عربية، الجينوم، سلسلة مجلة عالم الفكر، الكويت ٢٠٠٦م.

الأثر التاريخي والاجتماعي لبيعتي العقبة الأولى والثانية (٦٢٠م-١٢هـ من النبوة / ٦٢٢م-١٣هـ من النبوة)

د. بخيته حمد أحمد الجزولي^(١)

المستخلص

تكمن أهمية هذه الدراسة في إيضاح دور الأثر التاريخي والاجتماعي لبيعتي العقبة الأولى والثانية، وهدف البحث إلى الترغيب في الدعوة إلى الله (سبحانه وتعالى) والتمكين لها، والتخلي بصفات الرسول (صلى الله عليه وسلم) من أجل الدعوة، الدعوة إلى الشعور بالمسئولية تجاه الإسلام، واتبعت فيه اتبعت المنهج التحليلي والوصفي والتاريخي، وتوصلت من خلال البحث إلى جملة من النتائج والتوصيات، من أهمها، بجهود الرسول (صلى الله عليه وسلم) من أجل نصرته الإسلام ودين الله سبحانه وتعالى تمت الهجرة التي أدت لتأسيس الدولة الإسلامية في المدينة المنورة. أن توكل على الله وعلمه بأن الله سبحانه وتعالى يفصل بالحق بين الإيمان والباطل واستعصامه بإيمانه وثقته بالله ساعده على أن يصد الطواغيت الذين يجبرون الداعية أن يكف عن دعوته، ومن النتائج، على قادة الدعوة الإسلامية أن يتأسوا بالرسول (صلى الله عليه وسلم) في مسيرتهم الدعوية في كل زمان ومكان. على المسلم أن يحمي قائد الدعوة الإسلامية ويشد من أزره كما كان يفعل زيد بن الحارثة. على الداعي أن يكثر من الثقة بالله ويتحلى بالصبر لأن طريق الدعوة إلى الله محفوف بالمخاطر منذ عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأن يكون الداعي على يقين من نصر الله له.

المقدمة

إن الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه ونصلي ونسلم على سيدنا محمد (ﷺ) بن عبد الله النبي الأمي الصادق الأمين.

١- استاذ مساعد- جامعة القرآن الكريم وتأسيس العلوم- كلية التربية- قسم التاريخ.

كما هو معلوم أن الرسول (ﷺ) نجح في الصومود من أجل الحق مستحصناً بتوجيه القرآن الكريم وقدراته الذاتية ولقد جاء إسهام الرسول (ﷺ) في القضايا الكبرى التي شهدتها مكة المكرمة آنذاك وكان إسهاماً متنوعاً وشاملاً متخطياً شتى مساحات العمل البشري الجماعي وكأنه أريد له أن يجرب كل شيء وأن يسهم عاملاً في كل اتجاه، وأن يبني عبر نشاطاته المتنوعة جميعاً شخصيه قادره على التصدي لكل المشاكل والإسهام الإيجابي الفعال في كل ما من شأنه أن يعيد حقاً أو يقيم عدلاً فكانت هذه المشاركة قد اكسبته خبرة طيبة في مجال التعامل مع الأحداث قام الرسول (ﷺ) بعقد المؤاخاة بين المسلمين.

فقد كان للرسول (ﷺ) العديد من الأساليب من أجل نشر الدعوة الإسلامية فقد كان (ﷺ) صاحب حكمة وحذاقة أرسى بها قواعد مجتمع جديد، ولكن كانت هذه الظاهرة أثراً للمعاني التي كان يتمتع بها (ﷺ)، فقد شهد (ﷺ) مثل هذه البيعات والأحلاف قبل الرسالة، والتي من بينها حلف الفضول فقد كان (ﷺ) يشارك قومه في همهم وأعمالهم الخيرة وهو لم يزل شاباً. وقد جاء هذا الحلف على أثر حرب الفجار وكان بين القبائل الآتية :

بنو هاشم ثم بنو عبد المطلب وأسد بن عبد العزى، وزهرة بن كلاب، وغيرهم، فقد اجتمع هؤلاء في دار عبد الله بن جدعان فتبايعوا وتعاهدوا على نصره كل مظلوم في مكة من أهلها أو غيرهم وقال (ﷺ) بعد أن أكرمه الله بالرسالة: (ولقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلف ما أحب أن لي به حمر النعم ولو دُعيت له في الإسلام لأجبت)⁽¹⁾ وهذا الحلف روجه تنافى الحمية الجاهلية التي كانت تثيرها العصبية.

ولقد تميز الرسول (ﷺ) بالقدرة التفاوضية قبل البعثة النبوية عندما حكم (ﷺ) في أصعب قضية في التاريخ واجهت قريش وكادت تفنى القبائل في شرف وضع الحجر الأسود، وكما مارس (ﷺ) العمل السياسي والدبلوماسي منذ

١- أبو محمد عبد الله بن هشام بن أيوب الحميري، السيرة النبوية، مصر ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م، ص: ١١٢-١٣٥ -- صفى الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم، الطبعة الثانية، قطر ٢٠٠٩م، ص: ٥٣.

شبابه وتعلم كثيراً من أسرار التفاوض وعليه أصبح (ﷺ) مؤهل تأهيلاً كاملاً بما مارسه من قبل البعثة النبوية. وكان (ﷺ) ثابت في كل المفاوضات التي خاضها تلك في المفاوضات التي اكتسبته تجارب قيمة كان لها دورها الفعال في مسيرة حياته في عصر نبوته.

مشكلة البحث:

تكمن مشكلة البحث في الآتي:

١. عدم تحلي الكثير من الدعاة بالصبر أثناء مسيرتهم الدعوية.
٢. عدم اليقين بأن الله تعالى ينصر من ينصره وأن رحمة الله واسعة.
٣. مثل هذه البيعات مفقودة في عالمنا الإسلامي.
٤. عدم تتبع كثير من الدعاة خطى النبي (ﷺ) في أسلوبهم.

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى الآتي:

- أولاً: الترغيب في الدعوة إلى الله (سبحانه وتعالى) والتمكين لها.
- ثانياً: التحلي بصفات الرسول (ﷺ) من أجل الدعوة.
- ثالثاً: الدعوة إلى الشعور بالمسئولية تجاه الإسلام.
- رابعاً: اتباع القدوة الحسنة المتمثلة في رسولنا الكريم (ﷺ).
- خامساً: حققت البيعتان معنى الوحدة والتناصر في الحثق امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٣).

حدود البحث:

يقتصر هذا البحث على الأثر الاجتماعي والتاريخي لبيعتي العقبة الأولى والثانية في مكة ٦٢٠م إلى موسم الحج سنة ١٢هـ من النبوة - ٦٢٢م لسنة ١٣هـ من النبوة.

الدراسات السابقة:

حسب علم الباحثة وتقصياها أنه لم يتطرق أحد لموضوع هذا البحث من ناحية مستقلة، ولكن تم استعراضها وتحليلها من قبل كثير من المؤرخين المحدثين..
منهج البحث:

اتبعت الباحثة المنهج التحليلي والوصفي والتاريخي.

هيكل البحث:

يتكون البحث من سبعة مباحث على النحو التالي:

المبحث الأول: الإطار العام للبحث - مقدمة، مشكلة البحث، أهداف البحث، حدود البحث، الدراسات السابقة، منهج البحث

المبحث الثاني: مفهوم البيعة في التاريخ والإسلام.

المبحث الثالث: بيعة العقبة الأولى:

(أ) تاريخها. (ب) مكاتها.

(ج) بنودها (د) الحاضرون من الرجال والنساء.

(هـ) تعليق على ما تضمنته هذه البيعة من دروس وعبر.

المبحث الرابع: بيعة العقبة الثانية:

(أ) بنودها (ب) الحاضرون.

(ج) تعليق على ما تضمنته هذه البيعة من دروس وعبر.

المبحث الخامس: دور المرأة المسلمة في بيعتي العقبة الأولى والثانية.

المبحث السادس: الأثر الاجتماعي والتاريخي لبيعتي العقبة الأولى والثانية.

المبحث السابع: الخاتمة - النتائج - التوصيات - المصادر والمراجع.

المبحث الثاني

مفهوم البيعة في التاريخ والإسلام

أولاً: معنى البيعة في الاصطلاح:

هي اقتراح أهل الحل والعقد رجلاً يتولى أمر الأمة لجلب المنافع الدينية والدينية ودفع المضار عنها، وقمع الفتن وإقامة الحدود وتحقيق العدل بينهم ورد الظالم^(١).

والحضارة الإسلامية تفردت عن مثيلاتها من الحضارات الإنسانية، فمما أبدعته هذه الحضارة وقدمته سائناً ميسوراً للمسلمين وغير المسلمين نظام البيعة واللافت للنظر في هذا أن الحضارات السابقة لم تعرف نظام البيعة على الإطلاق، فإذا كانت البيعة تعني المبايعة والطاعة، فإنها من جانب آخر تعني إشراك الرعية في المنظومة السياسية الحاكمة ولو بقدر ضئيل^(٢).

وعليه أصبحت البيعة في التاريخ الإسلامي من أهم مميزات النظام السياسي والإسلامي^(٣).

مفهوم البيعة في الإسلام:

البيعة في الإسلام بيعة عهد على الطاعة من الرعية للرعي، وإنفاذ مهمات للرعي على أكمل وجه أهمها سياسة الدين والدنيا على مقتضى شرع الله، وأن البيعة في الإسلام لم تفرق بين الرجل والمرأة، أو بين الصغير والكبير وهذا حس تربوي للرعية حيث يعلم الإسلام المسلمين ضرورة المشاركة فيما بينهم على الارتقاء بمجتمعهم وأمتهم^(٤).

ولقد كانت البيعة منذ فجر التاريخ في الحضارة الإسلامية حيث بايع النبي ﷺ الصحابة وجميع المسلمين، وكان عدد الذين بايعوه (ﷺ) عدداً لا يمكن حصره وقد احصى الإمام الجوزي عدد من بايع الرسول ﷺ من النساء بلغن

١- الدوري، محمد محمود، الرسائل الفنية في العصر العباسي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٩٩٩م، ص٣٠-٣١.

٢- ابن منظور محمد بن مكرم الانصاري، لسان العرب، بيروت، ص: ٢٩٨.

٣- منير محمد الغضبان، المنهج الحركي للسيرة النبوية، دار الوفاء، ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م، ص: ١٣٣.

٤- مرجع سابق نفسه، ص: ١٣٥.

سبع وأربعين امرأة ولم يصفح (ﷺ) ببيعة امرأة وكن يبايعن بالكلام، وكان (ﷺ) يبايع الأطفال حيث بايع عبد الله بن الزبير وهو ابن سبع سنوات^(١).

أهمية البيعة في الإسلام:

ومن هنا ندرك أن الحضارة الإسلامية حضارة بناء، فهي صنعت قيمة الفرد والجماعات وأكدت على ضرورة مشاركتهم في الأحداث المحيطة بهم، ومن قدوة الرسول (ﷺ) يرسى مبدأ البيعة من اليوم الأول لقيام الدولة الإسلامية ولأهمية أمر الدعوة في المنظور الإسلامي الحضاري ووجدنا القرآن الكريم يشير إليه في أكثر من موضع، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ (الفتح: ١٠). فالبيعة التزام إيماني خالص وقوله تعالى: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ هو نوع من التأكيد عن حقيقة البيعة والعهد للنبي (ﷺ)^(٢).

إن اجتماع النبي (ﷺ) في العقبة مع المبايعين يمثل فريضة دينية يؤسسها عهد البيعة على الالتزام بتكاليف الدين والسير فيها نحو المقصد المرتجى، كما أشار النبي (ﷺ) إلى بيعة النساء الأولى على أهمية دورهن الفاعل في بناء الحضارة الإسلامية قال تعالى: ﴿فَبَايَعْنَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (المتحنة: ١٢).

وإن تاريخ البيعة في العهد النبوي، يؤكد أن الصحابة بايعوا الرسول (ﷺ) رجالاً ونساءً بيعات مختلفة غير مكررة، كبيعة العقبة الأولى والثانية، وبيعة الرضوان، ثم بيعات الأفراد والجماعات والقبائل المتيقنة بالإسلام بل كانت هذه البيعات مرة واحدة في العمر. وجلّ مراسم هذه البيعات كانت بالمصافحة يداً بيد ويقول: (أشهد ألا إله إلا الله وإنك رسول الله ونبايعك على السمع والطاعة؛ وكذلك تأسى المسلمون برسول الله (ﷺ) وأصبحت البيعة ركناً لا فكاك منه في المنظومة الإسلامية)^(٣).

١- أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزية، تلقيح فهوم أهل الأثر، الهند، دار الكتب، ص: ١٢٢.

٢- أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزية، تلقيح فهوم أهل الأثر مرجع سابق، ص: ١٢٣.

٣- صفى الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم، دار الوفاء للطباعة والنشر، ط ١٤٢٢/٥٤، ٢٠٠١، ص: ١٥٣.

المبحث الثالث

بيعة العقبة الأولى وقيمها الجديدة

(٦٢٠م إلى موسم الحج سنة ١٢هـ من النبوة)

إن العديد من آيات القرآن الكريم تؤكد حقيقة تاريخية قائمة في كل زمان ومكان وتقول ما من داعية إلى فكرة حديثة أو دعوة جديدة يترتب عليها تحولا اجتماعيا جديداً إلا وتعرض أصحابها إلى شتى أنواع المقاومة والاستنكار والإيذاء قال تعالى: ﴿وَكَايِنٍ مِنْ نَبِيِّ قَاتَل مَعَهُ رِئُوسٌ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٩). ثم لم تلبث عروض القرآن الكريم التاريخية أن تذكر الأسباب التي دعت الكفار والمشركين إلى معارضة الدعوة الإسلامية الجديدة التي استخدمت كافة الوسائل والأساليب في مواجهتها. ملخصة أسباب تلك المواجهات فيما يلي:

أولاً: الخوف على مصالحهم وامتيازاتهم التي يتمتعون بها في ظل الوضع القائم، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ (سبا: ٣٤).
ثانياً: أيضاً حالة الشعور بالاستعلاء والاستكبار على الآخرين قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَيْسَ لَهُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ١٣).

ثالثاً: التمسك بالقيم الجاهلية والاعتزاز بنظمها وأعرافها وتقاليدها وفي ذلك قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (المائدة: ١٠٤).

ولكن الثبات على حمل مبادئ الحق يؤدي إلى النصر والغلبة قال تعالى: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ (آل عمران: ١٨٤)، وهذه الآية تثبت قلب الرسول (ﷺ) فتحدثه عن التجارب السابقة، وتربطه بقانونها فتوضح له أن هنالك سنة جرت عليه، وتجري على الأنبياء الذين مارسوا هذه التجربة الرسالية قبله، وإن النصر سوف يأتيه ولكن للنصر شروطه الموضوعية كالصبر

والثبات وقوة الإيمان وغيره، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا
وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (ال عمران: ٢٠٠).

إن أصحاب الدعوات الحقّة الذين يريدون أن يغيروا حركة التاريخ إلى
الأحسن لم يكن بمقدورهم تحقيق الغلبة والنصر على العقبات والأعداء إلا بذلك،
قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ
وَبَشِيرِ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة: ١٥٥).

وقد اتخذ الرسول (ﷺ) أساليب متعددة من أجل نشر الإسلام وتمكين
الدعوة الإسلامية من هذه الأساليب التي كان الرسول (ﷺ) يتبعها: يعرض نفسه
على القبائل والأفراد ويمارس (ﷺ) دبلوماسيته النبوية بين أهل الطائف حوالي
عشرة أيام، وتوغل في المجتمع ولكن دون جدوى وقالوا له أخرج من بلادنا وأغروا
به سفاءهم ولما أراد الخروج تبعه هؤلاء السفهاء يسبونونه ويصيحون به حتى اجتمع
عليه الناس وصاروا يرمونه بالحجارة وبكلمات من السفه ورجموا عراقبيه (ﷺ)
حتى اختضبت نعلاه بالدماء وكان في حمايته زيد بن حارثة حتى أصيب في رأسه
 واجتمع الناس عليه (ﷺ) ولجأ لحائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة، وأتى (ﷺ) إلى
حبلّة من عنب فجلس تحت ظلّها ودعا بالدعاء الآتي: (اللهم إليك أشكو ضعف قوتي
وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت
ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك
علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، وأعوذ بنور وجهك الذي أشرقت
لله الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بي غضبك، أو يحل عليّ
سخطك لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك) (١).

والرسول في مثل هذه الحالة رآه أبناء ربيعة فأخذتهما رقة، فدعوا غلاماً
لهما نصرانياً يقال له عداس وقالوا له خذ قطفاً من هذا العنب وأذهب به إلى ذاك
الرجل، فلما وضعه بين يدي الرسول (ﷺ)، قال (بسم الله) ثم أكل قال عداس هذا
كلام لا يقوله أهل هذه البلده، وسأله الرسول (ﷺ) من أي البلاد أنت؟ وما دينك؟

١- ابن محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري، السيرة النبوية، الطبعة الأولى، دار اليقين، ٢٠٠٤م، ج ١، ص: ٣٨-٣٨.

قال عداس: أنا نصراني من أهل نينوى فقال (ﷺ) من قرية الرجل الصالح يونس بن متى، قال عداس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ قال رسول (ﷺ) ذاك أخي كان نبياً وأنا نبي فأكب عداس على رأس رسول الله (ﷺ) ويديه ورجليه يقبلها، فقال أبناء ربيعة أحدهما للآخر: أما غلامك فقد أفسده عليك وعندما رجع عداس إلى ابني ربيعة قال لهم: ما في الأرض شئ أفضل من هذا الرجل، قد أخبرني بأمر لا يعرفه إلا نبي، فقالا لعداس: ويحك يا عداس لا يصرفنك عن دينك فإن دينك خير من دينه^(١).

وبعد ذلك رجع الرسول (ﷺ) إلى مكة وهو كئيب^(٢) محزون، كسير القلب وعندما وصل إلى قرب المنازل، بعث الله سبحانه وتعالى إليه جبريل ومعه ملك الجبال يستأمره أن يطبق الأخشبين على أهل مكة والأخشبان هما جبلا مكة أبو قبيس والذي يقابله وهو قعيقعان ولكن النبي (ﷺ) قال: (بل أرجو أن يخرج الله عز وجل من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً)^(٣).

وفي هذا الجواب الذي أدلى به النبي (ﷺ) تتجلى شخصيته الفذة وما كان عليه من الخلق العظيم الذي لا يدرك غوره، وعليه أطمأن الرسول (ﷺ) لهذا النصر الغيبي الذي أمده الله من فوق سبع سموات وقد توالى نصر الله لنبيه الكريم في عدة حوادث عندما بعث الله نفر من الجن، وذكرهم الله في موضعين من القرآن الكريم في سورة الأحقاف قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ (الأحقاف: ٢٩)، وكذلك قال تعالى في سورة الجن: ﴿قُلْ أَوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّمَا سَمِعْتُمْ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا • يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ (الجن: ١-٢).

وهذا نصر أمده الله من كنوز غيبية المكنون التي لا يعلمها إلا هو^(٤). وعليه اتخذ الرسول (ﷺ) أساليب متعددة من أجل نشر الإسلام وتمكين الدعوة ومن

١- ابن محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري، المرجع نفسه، ص: ٤٢١.

٢- صفى الدين المباركفوري، مرجع سابق، ص: ١٥٤.

٣- الأمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، ت(٥٢٥٦) المكتبة الرحيمية، الهند، ص: ١٠٩.

٤- الرحيق المختوم، مرجع سابق، ص: ١٢٧.

ضمن هذه الأساليب عرض نفسه على القبائل والأفراد ولاقترب الموسم كان الناس يأتون إلى مكة رجالاً ، وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق، لأداء فريضة الحج ، وليشهدوا منافع لهم، ويذكروا اسم الله في أيام معلومات. فانتهز الرسول (ﷺ) هذه الفرصة فأتاهم قبيلة يعرض عليهم الإسلام، ويدعوهم إليه، ويشرح لهم مضمون دعوته ورسالته إلى التوحيد الخالص لله عز وجل إن وجد إليهم استجابة لسماعهم والإيمان به وقد أخذ يطلب منهم في السنة العاشرة من النبوة أن يؤيدوه وينصروه حتى يبلغ ما بعثه الله به^(١).

وفي موسم الحج سنة ١١ من النبوة يوليو ٦٢٠م، وجدت الدعوة الإسلامية بذوراً صالحة، وسرعان ما تحولت إلى شجرات باسقات اتقى المسلمون بظلالها الوارفة لفحات الظلم والعدوان حتى تغير مجرى الأحداث وتحول خط التاريخ.

وكان (ﷺ) من حكمته وحرصه على الدعوة يخرج إلى القبائل في ظلام الليل حتى لا يحول بينه وبينهم احد من أهل مكة والمشركين وقد خرج ذات ليلة ومعه أبو بكر الصديق، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما ومرّ على منازل ذهل وشيبان بن ثعلبة وحدثهم عن الإسلام، ولكنهم توقفوا في قبول الإسلام^(٢).

نسمات يثرب الطيبة:

مرّ الرسول (ﷺ) بعقبة منى فسمع أصوات رجال يتكلمون فقصدهم حتى لحقهم فكانوا ستة نفر من شباب يثرب والملاحظ كلهم من الخزرج وهم: أسعد بن زرارة من بني النجار، وعوف بن الحارث بن رفاعة من بني النجار، ورافع بن مالك بن العجلان من بني زريق، وقطب بن عامر بن حديه من بني سلمه، وعقبة ابن عامر بن نابي من بني حرام بن كعب ثم عبيد الله بن رئاب من بني عبيد بن غنم وعليه وجد الرسول (ﷺ) من يقيم جهوده وقدراته والواضح أن اللقاء كان عابراً بين الرسول (ﷺ) وبين هؤلاء الأشخاص والدليل على ذلك دعوتهم للجلوس كي يحدثهم، وهذا قدر الله سبحانه وتعالى الذي ساقه لدعوته، هبه منه، وتأكد

١- المرجع نفسه، ص: ١٢٨.

٢- بن هشام، مصدر سابق، ص: ١٤٥.

الرسول صلى الله عليه وسلم من هويتهم إنهم من موالي اليهود وهذا يعني أن لا غرابة على أذهانهم الحديث عن الله سبحانه وكتبه ورسله فكانوا يسمعون دائماً من اليهود وهو لا يطرق مسامعهم لأول مرة ودعاهم الرسول (ﷺ) للإسلام وتلا عليهم القرآن الكريم^(١). وقد كان الخزرج مهينين نفسياً تهيئةً كاملة لسماع حديث الإسلام، حيث قال بعضهم لبعض تعلمون والله يا قوم أنه النبي الذي توعدكم يهود، فلا تسبقنكم إليه فأسرعوا إلى إجابة دعوته^(٢).

والحديث عن النبي (ﷺ) كان يملأ جو يثرب، بل يهددهم اليهودية، فالداعية أذن لا بد له من أن يستفيد من المناخ النفسي الملائم حين يدعو ويستفيد من الأرضية الثقافية لمن يدعوهم إلى الله سبحانه وتعالى^(٣).

ولأول مرة تسلم مجموعة كاملة من بلد ناء تصلح أن تكون أساساً ومنطلقاً للدعوة ولقد أبدت هذه المجموعة استعدادها لذلك قائلة: (أنا قد تركنا قومنا وبينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك وتعرض عليهم الذي أجبنك إليه من هذا الدين أن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك^(٤)).

وعليه لقد وضعت بذرة أمل جديدة مع هؤلاء النفر الستة أن يمهّدوا الجو للرسول الله (ﷺ) في المدينة، وتذلل الخلافات ويقوم هؤلاء النفر الستة بالدعوة إلى الله تعالى فقاموا بأعظم دور في الدعوة لدين الله عز وجل في صفوف الأوس والخزرج حتى انتشر الإسلام في المدينة ولعل هذه السنة التي مرت على الدعوة العام الحادي عشر للبعثة النبوية كانت أكثر بركة من الأعوام العشرة السابقة، ومنعطفاً جديداً في الدعوة بعد جهاد مضمّن وصبر طويل، تحققت على يد هؤلاء النفر الستة حيث وجد المناخ المناسب، والجو الملائم للدعوة الجديدة وبهذا وضح الهدف الثقافي في هذه المباراة التفاوضية، وجاءت من أهم ثمرات الصور النمطية الإيجابية للرسول (ﷺ).

١- بن هشام، المصدر نفسه، ص ١٤٥.

٢- ابن القيم شمس الدين أبو عبد الله محمد بن بكر بن أيوب، زاد المعاد، المطبعة العربية، الطبعة ٧، ٨، ١٣٤٧هـ، ص ١٤٥.

٣- منير محمد الغضبان، مرجع سابق، ص ١٤٥.

٤- الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، باب علامة الإيمان، ج ١، ص: ١٥٠.

وقد تضمنت البيعة النصوص أو البنود التي ورد ذكرها في كثير من كتب السيرة النبوية وقد قال عبادة بن الصامت: (كنت فيمن حضر العقبة الأولى وكنا اثني عشر رجلاً فبايعنا رسول الله ﷺ) على بيعة النساء وذلك قبل أن تفرض الحرب على ألا نشرك بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزني ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه في معروفاً (فإن وفيتم فلکم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأمرکم إلى الله عز وجل إن شاء عذب وإن شاء غفر)^(١).

إن هذه البيعة كانت بيعة ائتلاف في القبيلتين المتنازعتين المتخاصمتين الأوس والخزرج تحت راية الإسلام، وكما هو معلوم إن الإسلام يجمع ويؤلف أينما حل وأينما وجد، ولذلك أعداء المسلمين في بداية عصر الإسلام أرادوا تفتيت الجماعة الإسلامية التي ظهرت كمرحلة متقدمة للدعوة الإسلامية والتوحيد وأخيراً انتهى^(٢) اللقاء السياسي والتاريخي بين الرسول ﷺ وبين الكوكبة النيرة وكان اللقاء عند العقبة بمضي وسميت هذه البيعة ببيعة النساء وكان ذلك قبل أن تقرر الحرب قال: عبادة بن الصامت تأكيداً للبيعة (فبايعت على ذلك) ولقد سميت البيعة ببيعة النساء لأنها لم تشتمل على فكرة الحرب والحرب لا تكون إلا بعد البناء الفكري والعقدي للإنسان بعد أن يصاغ على ضوء الإسلام وقيمه يمكن أن يدعى المسلم إلى الجهاد وأنها لثغرة كبيرة أن يندفع المرء إلى الجهاد ولما تتم صياغته الإسلامية إن المفاهيم تختلط في ذهنه بين اندفاعه للجهاد في سبيل الله وبين الحماس لنفسه وأهله وأرضه ومن أجل هذا كانت البيعة الأولى خالية من الحديث عن الحرب وكانت تجربة حية للدعوة قبل المعركة^(٣).

مصعب بن عمير دبلوماسي مفوض فوق العادة:

وكان التطور الجديد الذي أثمرته بيعة العقبة الأولى هو بعث الممثل الشخصي للرسول ﷺ مع هؤلاء المبايعين الدبلوماسي، مصعب بن عمير، كسفير يعلم المسلمين الإسلام ويقوم بنشر عقيدة التوحيد واختار ﷺ مصعب بن عمير لهذه

١- محمد سعيد رمضان البوطي، فقه السيرة النبوية مع موجز التاريخ للخلافة الراشدة، ٢٠٠١م، ص: ١١٥.

٢- ابن هشام مصدر سابق سابق، ص: ٢٥.

٣- ابن هشام، المصدر نفسه، ص: ٣٦.

المهمة و السفارة، لما يتحلى به من صفات ذاتية ومهنية فقد كانت مهمة مصعب دينية ودعوية وتربوية إضافة إلى ذلك مهمة حركية من حيث التعرف على عدد الأعداد والمبايعة على الإسلام وموقعها وقبائلها وأيضاً مهمة سياسية وهي معرفة مدى قوة الطرف المناهض ومدى تحركاته واستعداداته^(١).

وكان على هذا الدبلوماسي أن يبذل جهوده لأحراز تقدم ملموس يترجم استجابات الأنصار، إلى فعل وكان مصعب يعرف بالمقري في يثرب، وقد كانت له دبلوماسية حسنة استطاع أن يجر معه أكبر قيادات الأوس إلى الإسلام، أمثال أسيد بن حضير وسعد بن معاذ، بتوفيق الله عز وجل له وعليه عم الإسلام بني الأشهل وأصبح التيار عارماً والاتجاه سهلاً لقيام الثورة الإسلامية في المدينة^(٢).

الأثر التاريخي لبيعة العقبة الأولى:

أولاً: إن الأذى الذي لحق برسول الله (ﷺ) بالطائف، هو من جملة المحن التبليغية التي أراد الرسول صلى الله عليه وسلم تبليغها للناس وعلى المسلم مهما بلغ به من الأذى في سبيل الدعوة أن يصبر ويحتسب، ويتحمل بنفس راضية ومطمئنة ويتجرع الشدائد بقوة إيمان وأن الدعوة اليوم تواجه مثل تلك المصاعب والعقبات فعلى الدعاة التأسي بسيرة الرسول (ﷺ) في مسيرته الدعوية.

ثانياً: أن الصبر على المكاره والشكوى إلى الله سبحانه وتعالى لا يتعارضان، فالشكوى إلى الله تعبد وضراعة، فالمصائب تسوق صاحبها إلى باب الله تعالى واللجوء إليه وعليه كان (ﷺ) يعلمنا في سيرته كلا الأمرين، فكان يصبر على الشدائد وعلى المحن يعلمنا أن هذه وظيفة المسلمين عامة والدعاة إلى الله سبحانه وتعالى خاصة.

ثالثاً: بعد رحلة الاسراء والمعراج المشهورة قد أمر (ﷺ) بإقامة الولاية الإسلامية التي بواسطتها يستطيع الرسول (ﷺ) مجابهة وقائع التاريخ.

رابعاً: أن موقف زيد بن ثابت وحمایته لرسول الله (ﷺ) من أهل الطائف وبقية

١- صفی الرحمن، الریح المختوم، مرجع سابق، ص: ١٦٧.

٢- بن هشام، مصدر سابق، ص: ٤٣٥.

بنفسه حتى أصيب في رأسه ونال من الأذى لهو درس للمسلمين اليوم وما يجب عليهم من حماية قواعد الدعوة الإسلامية ورموزها والدفاع عنهم فعلى دعاة اليوم ترسم خطي النبي (ﷺ) و التأسى به ولا بد لهم من تحكيم الهدف أولاً ثم تحكيم الخطة ثانياً كما كان يفعل الرسول (ﷺ). كان اللقاء مع وفد يثرب في بيعة العقبة الأولى هو بداية الأمل في النصر بالنسبة للنبي (ﷺ) حيث فتحت هذه البيعة أمامه أفقاً واسعة، فإذا كانت مكة قد رفضت الإيمان بالله ورسوله فما هي يثرب تبعث إليه بأهلها وتفتح له ذراعيها فيثرب لم تكن مجهولة بالنسبة للنبي (ﷺ) ففيها أحوال جده عبد المطلب وقد زارها وهو طفل صغير لزيارة قبر أبيه عبد الله في صحبة أمه^(١).

هذه البيعة سميت بيعة النساء وجاء ذكرها في سورة الممتحنة: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ قَبَائِحِهِنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الممتحنة: ١٢). ولذلك كانت البيعة الأولى خالية من الحرب وكانت تجربة حية للدعوة قبل المعركة.

المبحث الرابع

بيعة العقبة الثانية ٦٢٢م/ ١٣ من النبوة

الاجتماع التاريخي الذي حول مجرى الأيام في صراع الوثنية والإسلام بعد نجاح مصعب بن عمير في مهمته ونجاحه في إقبال أهل يثرب على الإسلام، وأن وفداً كبيراً منهم سوف يقدم إلى مكة في موسم الحج القادم وسوف يلقاهم ويرى من حالهم ما يسره وفعلاً في موسم الحج في السنة الثالثة عشر من النبوة حضر لأداء مناسك الحج حوالي سبعون نفرًا ونيف من المسلمين لأداء فريضة الحج من أهل يثرب منهم امرأتان وجميعهم من مسلمي يثرب، فاتصلوا بالنبي (ﷺ) وقد رأى (ﷺ) أنه من السياسة أن يتحرك (ﷺ) بسرية تامة لمقابلتهم، فاتصلوا بالنبي (ﷺ) واطمأنوا على وضع الإسلام في يثرب وقد تساءل هؤلاء المسلمون فيما بينهم

١- ابن هشام، السيرة النبوية، مصدر سابق، ص: ٢٨١.

وهم لا يزالون في يثرب، أو كانوا في الطريق حتى متى نترك رسول الله (ﷺ) يطوف في جبال مكة ويتردد ولحظة وصولهم جرت بينهم وبين الرسول (ﷺ) اتصالات سرية أدت إلى اتفاق بين الطرفين على أن يجتمعوا في أواسط أيام التشريق في الشعب عند العقبة حيث الجمرة الأولى من منى وتكون المقابلة حيث يمضي ثلث الليل^(١).

وفي هذا الوقت جالت بخاطر النبي (ﷺ) فكرة أن يخطو مع أهل يثرب خطوة إلى الأمام، فلا يكتفي بدعوتهم إلى الإسلام على نحو ما فعل مع أخوانهم في العام السابق بل أراد أن يعقد معهم حلفاً، ولا مانع من أن يهاجر إلى بلدهم إذا توفرت لديهم الاستجابة الكافية إلى ذلك، ولنستمع لحديث شاهد العيان وهو يحكي لنا الاجتماع التاريخي، وهو كعب بن مالك الأنصاري، وهو من شهد البيعة حيث يقول: خرجنا إلى الحج وواعدنا رسول الله (ﷺ) بالعقبة من أواسط أيام التشريق بعد انتهاء الحج، فكانت الليلة التي واعدنا بها رسول الله (ﷺ) ومعنا عبد الله بن عمر بن حرام أبو جابر وكان سيدياً من ساداتنا وشريفاً من أشرفنا صحبناه معنا، وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا، فأخبرناه وقلنا له يا أبا جابر أنت سيد من ساداتنا وشريف من أشرفنا، وأنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطياً للنار غداً^(٢).

المبحث الخامس

دور المرأة المسلمة في بيعتي العقبة الأولى والثانية

ثم دعوانا للإسلام، وأخبرناه بميعاد الرسول (ﷺ) فقال: أسلم، وشهد معنا العقبة الأولى وكان نقيباً^(٣)، ثم يواصل كعب حديثه فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحلنا حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحلنا لميعاد الرسول (ﷺ) مستخفين

١- ابن هشام، السيرة النبوية، ص: ٢٣٩-٢٤٠.

٢- الحافظ ابن كثير أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، بدون تاريخ طبع، بيروت، مكتبة المعارف، ص: ٢٨.

٣- صفى الرحمن، الرحيق المختوم، قطر، ٢٠٠٩م ص: ١٢٨، ١٥٠.

نتسلل تسلل القطا^(١) (طائر مشهور بثقل مشيته) حتى اجتمعنا في شعب عند العقبة ونحن سبعون رجلاً ومعنا امرأتان نسبية بنت كعب وأم عمارة، أهدى نساء بني مازن فهي صحابية من الانصار الذين وصفهم الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقِ شَخِ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر: ٩) .

وهي من بني النجار من أخوال النبي (ﷺ) اسهمت هذه الصحابية في خدمة الإسلام والمسلمين وأخوها عبد الرحمن من البكائين السبعة، جاءوا إلى الرسول (ﷺ) في غزوة تبوك وطلبوا منه راحل ليركبوا عليها ويذهبوا معه في سبيل الله فلم يجدوا عنده ما يحملهم عليه ورجعوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً فسموا البكائين ونزل فيهم قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ (التوبة: ٩٢) .

وقد شهدت أم عمارة ليلة العقبة، وواقعة أحد والحديبية ويوم حنين ويوم اليمامة وهي أم حبيب الذي أرسله الرسول (ﷺ) إلى مسيلمة الكذاب وقطعة مسيلمة الكذاب عضواً عضواً وهي صابرة محتسبة وسجدت لله شكراً أن قتل مسيلمة وظلت أم عمارة تحظى بالمكانة اللائقة في حياتها، وقد تحدثت أم عمارة عن بيعتها وقالت كان الرجال تصفق على يد الرسول (ﷺ) ليلة العقبة والعباس عم النبي (ﷺ) أخذ بين يدي رسول (ﷺ) فلما بقيت أنا وأم منيع أسماء بنت عمرو بن عدي السلمية نادى زوجي غزية بن عمرو: يا رسول الله هاتان امرأتان حضرتنا معنا يبايعنك فقال (ﷺ): (قد بايعتهن على ما بايعتكم عليه وأني لا أصافح النساء)^(٢) .

وأسماء هي بنت عمرو بن عدي بن سنان ناني وهي ابنة عمه معاذ بن جبل وكانت لها مواقف في حياتها مع الرسول (ﷺ) وكان حقاً ولزماً على المرأة أن تنصر الإسلام ولقد أقر الإسلام للمرأة بحقوقها في المشاركة السياسية ولعبت

١- القطا طائر معروف بثقل ريشه.

٢- ابن حجر أحمد بن علي بن محمد، الإصابة في تمييز الصحابة، دار الكتب العلمية بيروت، ب. ت. ط. ص: ١٦٠ .

المرأة دوراً كبيراً في نصرته الإسلام والتمكين له منذ البعثة وعبر مختلف العصور التاريخية وإن اختلف هذا الدور من وقت لآخر^(١).

وقد سجل التاريخ في سجلاته الدور السياسي لسيدات الأنصار اللاتي اشتركن في البيعة وهن مبايعات لحضرة النبي (ﷺ) على السمع والطاعة والنصرة والحماية وهذا دليل واضح على أن المرأة لم تستبعد في التاريخ الإسلامي والسياسي للدولة الإسلامية من مراحلها وكذلك قد شاركت النسوة في إثراء العقد الاجتماعي أو دستور المدينة الذي وضعه الرسول (ﷺ) وأقرته جميع طوائف المدينة في السنة الأولى للهجرة النبوية^(٢).

وفي بداية الاجتماع كان العباس أول متكلم أراد أن يطمئن على أمر ابن أخيه وقد كان العباس آنذاك على دين قومه فتحدث العباس فقال: يا معشر الخزرج وقد كانت العرب تسمي هذا الحي من الأنصار الخزرج خزرجها وأوسها، إن محمداً منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عز من قومه ومنعة في بلده وأنه أباي إلا الإنحياز إليكم واللحوق بكم فإن كنتم ترون إنكم وافون بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم فمن الآن فدعوه، فإنه في عزة ومنعة من قومه وبلده فقلنا له: قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت وعندما سمع الوفد مقالة العباس ولم يخف ما فيها عليهم فقد مست كرامتهم ومشاعرهم فأجباهم النبي (ﷺ) (أبايكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم) ومعنى هذا أن النبي (ﷺ) طلب منهم تعهداً لحمايته والدفاع عنه ضد أي عدوان يقع عليه من أي قبيلة من قبائل العرب، فتقدم البراء بن معرور وهو من كبار رجال الوفد وقال: (بايعنا يا رسول الله فنحن والله أبناء الحرب وأهل الحلقة ورثناه كابراً عن كابر فقام زعيم آخر من زعماء القوم فطرح أمام النبي (ﷺ) تساؤلاً ليستوثق هو أيضاً لقومه فقال أبو الهيثم بن التيهان: (إن

١- ابن هشام، مصدر سابق، ص: ٤٤٢.

٢- ابن هشام، مصدر سابق، ص: ١٢١.

بيننا وبين القوم ،يقصد اليهود حبلاً(عهداً) ومواثيق نحن قاطعوها فهل عسيت أن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا) فتبسم النبي (ﷺ) وأجاب في عبارة واضحة قاطعة بل الدم الدم والهدم الهدم) أي أنتم مني وأنا منكم أحارب من حاربتكم وأسالم من سالمتم وقد كان العباس يرمي منذ بداية الحوار إلى أن يشرح للمبايعين خطورة الموقف والمسئولية التي ستلقى على كواهلهم نتيجة هذا التحالف الديني والعسكري وكان جوابهم كافٍ من حيث تحمل المسئولية والشجاعة والإخلاص^(١).

وقد كان هذا أعمق تخطيط سياسي شهده التاريخ وأدى في النهاية إلى ميلاد دولة الإسلام الأولى في التاريخ وعليه تأتي الخطوة الثانية من التخطيط العبقري، وهو الخروج المنظم لموعد الاجتماع وهذه هي بداية انبثاق دولة الإسلام وبداية تحديد معالمها وقياداتها وهي في وسط جزيرة ضعيفة وسط خضم من الشرك مثله العرب جميعاً من حجاج منى أولاً، ثم دوله مكة المشركة ثانياً، ثم قيادة المشركين من أهل يثرب ثالثاً، ثم دوله اليهود في المدينة رابعاً، ووسط هذا العدو العاتي المحيط بالمسلمين من كل جانب إحاطة السوار بالمعصم ووسط هذا الخضم أنبثقت دولة الإسلام الأولى في التاريخ. لقد كان المسلمون البالغ عددهم بضعة وسبعين ضمن وفد من المشركين قوامه حوالي ثلاثمائة، وهذا يعني صعوبة الحركة والتنقل والاتصال فما من مسلم إلا وحواليه عدد من المشركين يراقب تنقلاته وحركاته، ومع ذلك فقد كانت السرية المضروبة على التحركات خلال الحج من أعجب العوامل التي أدت إلى نجاح المخططات^(٢).

ثم بعد ذلك تمت الاتصالات بين قيادات مكة المسلمة المتمثلة برسول الله (ﷺ) وقيادة المسلمين في المدينة ثم تم تحديد موقع اللقاء وثم تحديد مكان اللقاء، وتم اللقاء نفسه ولم يعرف هذا اللقاء السري حتى المهاجرون إلا من كانت له مهمة خاصة في الحراسة أو المراقبة أمثال أبو بكر الصديق وعلي بن أبي طالب، وبعد أن تمت المحادثة حول

١- اصفي الرحمن، الرحيق المختوم، ص: ١٧١.

٢- محمد حسين هيكل، حياة محمد (ﷺ)، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٨م، ص: ١٢٥.

شروط البيعة وأجمعوا على الشروع في عقدها قام رجلان من الرعيل الأول ممن أسلموا في مواسم سنتي ١١-١٢ من النبوة ، قام أحدهما تلو الآخر ليؤكد خطورة المسؤولية ، حتى لا يبايعوه إلا على جلية من الأمر وليعرفا مدى استعداد القوم للتضحية ويتأكد من ذلك. ولما اجتمعوا للبيعة قال العباس بن عباد بن نضلة: هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرفكم قتالاً اسلمتموه فمن الآن، فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة وإن كنتم ترون إنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكه الأموال وقتل الأشراف فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة ، قالوا فإننا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا بذلك قال (ﷺ): (الجنة)^(١).

وتلخص بنود بيعة العقبة الثانية في الآتي:

١. السمع والطاعة في النشاط والكسل.
٢. النفقة في اليسر والعسر.
٣. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
٤. القيام لله (ولا تأخذكم في الله لومة لائم).
٥. على أن تنصروني إذ قدمت إليكم تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبنائكم ولكم الجنة^(٢).

وهذه هي طبيعة معركتنا اليوم كما كانت طبيعة المعركة يوم العقبة وأنا حيث نعرف طبيعة المعركة نعرف طبيعة الحركة من خلالها فهذه هيبيعة الرجال وهذه حدودها وظروفها وطبيعتها وقد أوضح الرسول (ﷺ) إلى صحابته خط السير فمن رضيه على هذا الأساس فمرحباً وأهلاً فليتقدم وليبايع ومن لم يرض فهو وشأنه ولكن لا غش ولا لبس ولا غموض ، فالطريق صعب والطريق شائك والطريق طويل وقد كانت قيادات الأنصار على مستوى المعركة ولم تغش قواعدها ولم تدغدغ

١- عصمت محمود واشي، النبي وقيادة الأمة، مكتبة بحر العلوم، القاهرة، ط١، ص: ١١٣.

٢- عصمت محمود، المرجع السابق، ص: ١١٣.

أحلامهم وكانوا من وراء ذلك يرجون الجنة وهل يقبل أي حليف سياسي كافر بهذا الثمن؟ هل يصدق أصلاً أن هنالك جنة؟ فالمعركة إذن معركة الجنود المؤمنين معركة القاعدة الإسلامية الصلبة العريضة في الأرض وليس الاتجاه الدقيق هو اتجاه التحالف السياسي بل اتجاه البناء الداخلي. وأن ظروفنا الآن هي ظروف بيعة العقبة وهي ظروف بيعة الحرب ونحن الآن في مرحلة المواجهة للأعداء السافرين ومع قوى الأرض ونخيرتنا هي قاعدتنا الصلبة وهي قواعدنا المؤمنة التي ترضى بالجنة ثمناً لحرب الأحمر والأسود من الناس وترضى بالجنة ثمناً لمفارقة كافة الناس وليس عند القيادة ثمنان ليس عند الله تعالى الذي نباعه في هذه الظروف إلا الجنة كما نطق رسوله بذلك وبعد ذلك نجحت المبايعة وانتهت دون أن يشعر بها أحد من المشركين لأنها نفذت نتيجة تخطيط عميق دقيق وظهر هذا التخطيط المحكم من النبي (ﷺ) من خلال اختيار المكان المناسب هو الشعب الأيمن من العقبة بعيداً عن الأعين وأنظار من يستيقظ من النوم لحاجته وزمن الانطلاق المناسب للمكان المتفق عليه ، وذلك بعد ثلث الليل في الليلة الأخيرة من ليالي الحج ولا شك أن جموع الحجيج في ذلك اليوم كانوا قد انهكهم التعب بعد الانتهاء من مناسك الحج وخضعوا لنوم عميق وثمة خطة راشدة أخرى في اختيار آخر ليلة من ليالي الحج بالذات حيث سيرجع الحجاج إلى بلادهم صباح اليوم التالي لهذه البيعة^(١)، وعليه سوف تضعف الفرصة أمام قريش في إعاقة أمر هذه البيعة أو اعتراضها لأن كل من بايع ولم يبايع مشغول في ذلك اليوم بعودته إلى وطنه ورجوعه حيث كان وهذا ما كان وفي ذلك تتجلى عبقرية الرسول (ﷺ) وحسن سياسته وكيفية الوصول إلى المكان المتفق عليه والسرية في مداورات اللقاء وكتمانها من الآخرين فلم يشعر بها أحد رغم كثرة عدد المشركين وحرصهم على إفشال كل حركة لتقدم دعوة الإسلام وكذلك السرية في الإنصراف وكون المخطط (ﷺ) والمنفذين في غاية الحرص على تحقيق أهدافهم دون الوقوع في أي خسائر^(٢).

١- عصمت محمود و أشي، النبي وقيادة العالم، مرجع سابق، ص: ٨١-٨٢.

٢- الشيخ عبد الله بن محمد النجدي، مختصر سيرة الرسول (ﷺ)، مصر، المطبعة السلفية ١٣٧٩هـ، ص: ٧٥.

وبهذه البيعة أخذت خيوط من النور تظهر في الأفق السياسي تشير إشارة غير خفية للمخطط السياسي الإسلامي الرسول (ﷺ) في كونه لا يهدف بالهجرة من مكة إلى المدينة للتخلص من العذاب والاستهزاء ولكنه يهدف إلى إقامة مجتمع جديد في بلد آمن ولما وجد النبي (ﷺ) أن العدد كثير والجمع غير رأى أنه من السياسة والحكمة في التعامل مع هذا الموقف أن يخرجوا منهم اثني عشر نقيباً ليتحدث إليهم فقال الرسول (ﷺ) أخرجوا إلى منكم اثني عشر نقيباً يكونوا على قومهم فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً منهم تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس وهنا تظهر سياسة الرسول (ﷺ) القيادية ، فليس من الحكمة أن يوجه هذا الكلام إلى كل هذا الجمع إذ من المحتمل أن يكون من بين هؤلاء الأعداد الكثيرة من لا يعي تمام الوعي أبعاد كلام الرسول الله (ﷺ) فيكثر النقاش وترتفع الأصوات ويفسد الأمر وعليه رأى الرسول (ﷺ) أنه من الحكمة أن يتكلم مع النقباء فقط وتلك سياسة رشيدة للنبي (ﷺ) لأنه أراد أن يحيط أمر هذا الاجتماع بسياج من السرية والكتمان ، وعليه تمت البيعة الثانية التي تعد من أخطر المعاهدات في التاريخ الإسلامي كله حيث مهدت الطريق أمام النبي (ﷺ) لينشر دعوته ويبلغ رسالته ويضع الأساس للدولة والحضارة الإسلامية التي ملأت الدنيا طولاً وعرضاً^(١).

وعليه مفهوم الاختيار والانتخاب في نظام الحكم الإسلامي مفهوم أساسي والقريب في الأمر أن يوجد من يناقش هذا المبدأ في صفوف المسلمين ومن يناقشون في هذا الأمر يقوم تصورهم على أن الأمير في الإسلام هو الحاكم المطلق الذي لا يناقش إلا إذا عصى الله تعالى ، ولا يقيمون وزناً لرأي القواعد الإسلامية في اختيار قيادتها الحاكمة. وهو تصور مخطئ ولا شك وإن في هذه الأمة من يحق له أن يستعمل رأيه دون الرجوع إلى القواعد المسلمة فهو رسول الله (ﷺ) لأنه المؤيد بالوحي من الله تعالى والناطق به وكان بإمكانه عليه الصلاة والسلام وهو يقوم على اختيار المسؤولين لديه أن يختار الذين بايعوه بيعة العقبة الأولى وكانوا اثني عشر رجلاً وقد خبرهم وخبر صدقهم وحسن ولائهم ، ومع ذلك لم يفعل هذا عليه

١- أبي الفرج عبد الرحمن الجوزي، تلقيح فهوم أهل الأثر، ب، ت، ط، ص: ١٠٢.

الصلاة والسلام وكان تصرفه هذا درساً بليغاً للمسلمين في الأرض وعلى مدى تاريخ حياتهم وعن كيفية اختيار الحاكم واعتبار رغبة الأمة أو أهل الرأي فيها هي الأساس الذي يقوم عليه الاختيار ولم يتدخل عليه الصلاة والسلام من قريب أو بعيد بهذا الاختيار وما أحرانا أن نتعلم من هذا العمل النبوي قواعد الحكم الشورى والتنفيذ العملي له والمسؤولية قدر صلاحية، فقد حدد الرسول (ﷺ) المسؤولية لهؤلاء النقباء الاثني عشر، بعد أن اعتبرهم القادة المسؤولين وواجبهم أن يكونوا كفلاء على قومهم من المسلمين الذين بايعوا في العقبة، والذين قاموا في يثرب هم المسؤولون عن تصرفاتهم وانضباطهم وطاعتهم والتزامهم بأوامر الدين الجديد وبعدم الإخلال في أحكامه، وهم محاسبون أمام الرسول (ﷺ) وأخطاء القاعدة تحاسب عنها القيادة طالما أن لها صلاحيات الحكم والتوجيه فيها وتبدو العظمة النبوية بأجلي صورها حيث لم يعف رسول الله (ﷺ) نفسه من المسؤولية بل أعلن التكافؤ بها فقال: وأنا كفيل على قومي وقد كان ممثلو الخزرج أو نقباء الخزرج هم أسعد بن زرارة، سعد بن الربيع بن عمر، عبد الله بن رواحه، عبادة بن الصامت بن قيس، وسعد بن عبادة، والمنذر بن عمرو بن حنيس، كان نقباء الأوس منهم أسيد بن حضير بن سماك، وسعد بن خثيمة بن الحارث، رفاعة بن عبد المنذر بن الزبير، فخطبهم النبي (ﷺ) قائلاً لهم: أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم وأنا كفيل على قومي يعني المسلمين قالوا: نعم^(١).

وتظهر خطورة المسؤولية لهذه الحكومة المنتخبة حيث نذكر أن حرب بعث بين الأوس والخزرج لم تجف دماؤها بعد، فإمكانية اشتعال الحرب بينهم قائمة في كل لحظة فلا بد أن تتمكن هذه الحكومة الائتلافية من الأوس والخزرج أن تضمن استقرار الأوضاع في المدينة ومعالجة الأوضاع الصعبة فيها والحيلولة دون اندلاع الحرب من جديد، ويبدو الأمر أشق وأعسر حيث نتصور أنه لا بد من تكوين إلتام كامل بين المسلمين الأوس والخزرج فليس من المهم أن تخف البغضاء بينهم فقط بل لابد من أن يسود الحب والوئام بينهم ولا بد من أن يكون التفاهم بين

١- صفى الدين المباركفوري، الرحيق المختوم، ص: ١٥٧.

أعضاء الحكومة على مستوى رفيع جداً^(١).

ولقد أثبتت الأيام الكفاءة العالية لهذه الحكومة ، وكيف أنها استطاعت أن تتغلب على هذه الصعاب جميعاً ، وتكون مجتمعاً مثالياً بتوفيق الله لها وكانوا بثناء الله عليهم يمثلون الصورة المثلى للمؤمنين كما ذكرهم جل وعلا: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر: ٩) .

إن عملية رص الصف الداخلي وتوحيد النفوس، نحو هدف واحد وربط القواعد بقياداتها في ثقة قوية هي من أصعب الأمور على المرء فالنفوس المختلفة والأهواء المتباعدة والصراعات والتناحرات قد تسيطر أحياناً فتبتلي القيادة فيها وتنتقل هذه الخلافات إلى صفوف القواعد فيتحزبون لفلان وفلان وبذلك تكبر الهوة ، ويتسع الخرق على الراتق و الأمير الأول له دور رئيس في ضبط الصف والتأليف بين القلوب المتناحرة في اتجاهات شتى، وهو مسؤول كذلك عن تأليف هذا الصف وترابطه وتوفيق الله تعالى وتسديده هو الذي ساعد في هذه الوحدة ، أما البشر فهم أعجز من ذلك ويكفيها في هذا المجال قوله تعالى لرسوله: ﴿وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال: ٦٣) .

تحديد المعركة من قبل القيادة:

يقول كعب بن مالك: (فلما بايعنا رسول الله ﷺ) صرخ شيطان العقبة بأنفذ صوت قط يا أهل الجبابج (أي المنازل) هل لكم من مذمم والصبابة معه قد اجتمعوا على حربكم) فقال رسول الله ﷺ هذا أذب العقبة^(٢) أما والله يا عدو الله لأفرغن لك، ثم قال رسول الله ﷺ: أرفضوا أي (أنصرفوا) إلى رحالكم قال فقال له العباس بن نضلة: والذي بعثك بالحق إن شئت لنملين على أهل منى غداً بأسيفنا فقال رسول الله ﷺ لم نؤمر بذلك ولكن أرجعوا إلى رحالكم^(٣).

١- ابن هشام مصدر سابق، ص: ٤٤٨.

٢- أذب العقبة: شيطانها.

٣- السيرة النبوية، ابن هشام، ص: ٤٤٦.

ولكن أين طواغيت الأرض من هذه البيعة الفريدة في تاريخ الأرض وأين كان مشركو المدينة والبيعة تتم على رؤوسهم؟ وأين كانت قريش والبيعة تريد أن تحطم طاغوتها وكبريائها وهي تحاد الله وتكذب رسوله؟ وأين كان الحجيج المشرك والبيعة ستنتهي إلا يحج بعد العام مشرك و لا يطوف بالبيت عريان، نقول هذا عن العدو القريب الذي كان وضع هؤلاء السبعين بالنسبة لهم كوضع اللقمة بين فكي الأسد ولا نذكر ملوك الأرض الأبعدين كسرى وقيصر وحلفاءهما عبيدهما، أين كان كل هؤلاء؟ كانوا يشخرون في نومهم ويقطون في سباتهم عين الله تعالى تكلاً هذه العصبية المؤمنة والشاهد الوحيد الذي كان يقضم أسنانه غيظاً ويعض أصابعه ندماً هو الشيطان الرجيم وانتظر حلفاءه في الأرض كلها لم يتحرك أحد على أخطر بيعة في الأرض فما تمالك إلا أن صرخ أذن الشيطان ساهر ليمزق كل بيعة على الجهاد في سبيل الله ولن ينثني بنفسه وحلفائه عن هذه الحرب فهذه مهمته وقد قتلته عبقرية النبوة السياسية التي حققت كل هذه الانتصارات والشرك غاف كالمقبور لا يدري ما يجري حوله فهل لنا بمثل هذه العبقرية في تحركنا الجديد اليوم وقد كان المبايعون على استعداد للتول لتنفيذ بنود البيعة بل أكثر من البنود لأن يحموه (عليه الصلاة والسلام) وهو في مكة ويأتي الجواب النبوي العظيم أنهم لم يؤمروا بالقتال وأن دم المسلم أشد عند الله تعالى حرمة من الكعبة المشرفة ، فكيف يسقط هذا الدم دون مقابل؟ فالنبي (ﷺ) هو الذي يحدد المعركة ومكانها^(١).

ردود قريش واحتجاجها على هذه البيعة:

عاد زعماء مكة وعندما قرع هذا الخبر مسمع قريش جن جنونهم ووقعت فيهم ضجة أثارت القلاقل والأحزان وساورهم الشك لأنهم كانوا على معرفة تامة من عواقب مثل هذه البيعة ونتائجها بالنسبة لأنفسهم وأموالهم ، فما أصبحوا حتى توجه وفد كبير من زعماء مكة وأكابر مجرميها إلى مخيم أهل يثرب ليتقدموا بالاحتجاج الشديد على هذه البيعة وخاطبوا معشر الخزرج الذي كان لا يعلم بشيء عن هذه البيعة لأنها تمت في سرية تامة في ظلام الليل وأكد لهم ذلك عبد الله بن

١- أبو بكر أحمد بن حسين علي البيهقي، السنن الكبرى، ٥٢٨٤، ص: ١٦٠.

سلول أما المسلمون فنظر بعضهم إلى بعض ثم لاذوا بالصمت فلم يتحدث أحدا منهم بنفي أو إثبات ومال زعماء قريش إلى تصديق المشركين فرجعوا خائبين^(١).

وعليه أصبح زعماء مكة على شبه اليقين من كذب هذا الخبر ولكنهم لم يزلوا (يكثرون البحث) ويحققون النظر حتى تأكد لهم إن الخبر صحيح وأن البيعة قد تمت فعلاً وذلك عندما رجع الحجيج إلى أوطانهم، فسارع فرسانهم لمطاردة اليثريين ولكن بعد فوات الأوان، إلا أنهم تمكنوا من رؤية سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو فطاردهما والمنذر استطاع أن يفلت من القوم ولكن سعد ألقوا القبض عليه فربطوا يديه إلى عنقه بنسع رحله، وأخذوا يضربونه ويجرونه ويجرون شعره حتى ادخلوه مكة فجاء جبير بن مطعم بن عدى بن الحارث بن حرب بن أمية فخلصه من أيديهم لأن سعد كان يجير لهما قوافلهما المارة بالمدينة وتشاورت الأنصار حين فقدوه أن يكرؤ إليه فإذا هو قد يطلع عليهم فوصل القوم جميعاً إلى المدينة^(٢).

تحركت قريش كالذي أصابه الشيطان من المس وجاءت إلى مخيم الخزرج وراح المشركون يهلفون بالله ما فعلوها، وهم صادقون، وأخذ عبد الله بن أبي ينفي الأمر نفيًا قاطعاً ويؤكد استحالته. والسؤال الذي يطرح نفسه لماذا لم يعلن الرسول (ﷺ) في مكة وحلفه ودولته؟ وقريش تبحث عن الخبر والمسلمون يلوذون بالصمت والمشركون يهلفون بالإيمان الغليظ على كذب هذا الادعاء^(٣).

وقد أراد الرسول (ﷺ) من عدم إعلان دولته في مكة وحلفه لأنه رأى أن الظروف غير مواتية لهذا الإعلان وطاقة المسلمين ضعيفة إذا قيست بطاقات مكة والمشركين عامة في أرض مكة أو إعلان الحرب على دولة الكفر أو إعلان قيام دولة إسلامية كل هذه الأمور رهينة بالإمكانات التي تملكها الجماعة المسلمة فمن التخطيط المنظم المحكم لها لا تتحرك هذه الأمور أبداً بالعواطف وردود الفعل وإنما تتحرك بقرار القيادة المناسبة للإعلان والتي تتوخى القيادة فيه الظروف المواتية^(٤).

١- محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، دار صادر بيروت، ص: ٢١٠-٢١١.

٢- الحافظ بن كثير أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثيرالدمشقي، البداية والنهاية، مكتبة العارف، بيروت، ص: ١٦٤. ابن هشام السيرة النبوية، ص: ٥٦٥.

٣- +++++

٤- ابن حاتم محمد بن حبانبن أحمد التيمي البستي، السيرة النبوية، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، د.ت. ط. ص: ١٤٠.

وأن الرسول (ﷺ) أرجأ الإعلان عن هذا التخطيط لأنه وجد الفرصة غير مواتية في قلب بحر الشرك وفي مكان غير مركز قوة الأنصار (المدينة) ورغم الاحراجات الشديدة التي تعرض لها المسلمون أمام إلهام قريش بالتأكد من الخبر فلو أعلن ذلك كانت قريش قادرة ومن ورائها الحجيج المشرك أن تزيح هؤلاء السبعين جميعاً وتنتهي قصة الإسلام في الأرض وأن تجربة حماة كذلك درس قيم لحركة الجهاد الإسلامي فإعلانها المواجهة المباشرة للسلطة ولم تعد الظروف المواتية لذلك أدى إلى دمار المدينة وسقوط عشرات الألوف صرعى فيها^(١).

أن كتمان القيادة بعض الأمور عن أفرادها لا يعني اتهامها بالكذب أو الخداع أو التضليل حتى لو أتت الظروف المواتية في ظاهر الأمر لذلك فلم نلمس من خلال السيرة أن المسلمين المهاجرين قد عرفوا بقضية البيعة غير أبي بكر وعلي (رضى الله عنهما) فلا ضرورة للإعلان عن مثل هذا اللقاء ومثل هذه البيعة لهم ما لم يتم تكليف جديد لهم على ضوء هذه البيعة ولم يجعل هذا الأمر المهاجرين في قلق وتوتر لكتمان ذلك عنهم حينما عرفوه فيما بعد فالروايات تذكر أن الرسول (ﷺ) بعد لأي من الزمن وحين استقرت الأوضاع في المدينة أخبر المهاجرين: (أن الله قد جعل لكم أخواناً وداراً تأمنون فيها) إذاً قد تم إعلانهم بالأمر عندما تقرر فتح باب الهجرة إلى يثرب ويؤكد على هذا المعنى النتائج الصعبة التي ترتبت على نقشي هذا الخبر مما أوقع سعد في الأسر وكان يمكن أن يقتل ويفشل هذا التنظيم ولو لطف الله والملاحظ أن رسول الله (ﷺ) والمسلمين لم يتدخلوا لحماية سعد لأن هذا قد يكشف البيعة ويؤكدها بين المسلمين والأنصار، كما أن رسول الله (ﷺ) لا يريد أن يثير معركة جانبية قبل الإعداد الكامل لها^(٢). واستطاع الرسول (ﷺ) أن يؤجل الدماء حتى قامت الدولة الإسلامية.

١- ابن هشام بسيرة النبوية، ص: ٤١٨٠.

٢- صفى الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم، ص: ١٧٣.

المبحث السادس

الأثر الاجتماعي والتاريخي لبيعة العقبة الثانية

وبعد أن تمت البيعة ووفق الرسول (ﷺ) من خلال دبلوماسيته في تأسيس دولة وسط الصحراء التي تموج بالكفر والجهالة وهو أهم مكسب حصل عليه الرسول (ﷺ) منذ انطلاق دبلوماسيته العلنية وأذن (ﷺ) للمسلمين بالهجرة إلى يثرب وعليه كانت بيعة العقبة الثانية هي الأساس الذي هاجر عليه الرسول (ﷺ) وإن الانتقال إلى المدينة ليس أمراً سهلاً ولكنه نقطة تحول كبرى في حياة تاريخ جماعة الإسلام التي مهدت لها بيعتا العقبة الأولى والثانية وقد كانت بيعة العقبة مهذاً مربحاً في مسيرة تاريخ الدعوة الإسلامية والذي يطالع تاريخ هؤلاء الثلاثة والسبعين نفر الذين بايعوا الرسول (ﷺ) كانوا بجواره في جميع غزواته وقد سجل سجل التاريخ مشاركة نسيبة بنت كعب في غزوة أحد مع زوجها زيد بن عاصم وكذلك شهد لها التاريخ بمشاركتها في معركة اليمامة في حروب الردة مع خالد بن الوليد . وعليه فقد كانت بيعتا العقبة الأولى والثانية خير استهلال لتاريخ قيام الدولة الإسلامية .

وبموجب انعقاد البيعة انبثقت دولة الإسلام الأولى في التاريخ وهذه البيعات من خلالها استطاع المسلمون أن يسجلوا في التاريخ أعمالاً جليلة ويتركوا آثاراً لم نرى نظائرها في الغابر والحاضر ونأمل ألا يخلو منها المستقبل ولا يخلو المجتمع المسلم المعاصر من هذه التضحيات التي نحتاجها اليوم حتى نتمكن من تحكيم الهدف أولاً وتحكم الخطة ثانياً ونكون أدرى بما نكون بالعدو ثالثاً وتدفع بالعسكري السياسي للحركة رابعاً ونطلب النصر من الله سبحانه وتعالى قبل وبعد بذل هذه الامكانيات . عندما وصل النبي (ﷺ) إلى المدينة وجد مجموعات من السكان متباينة في عقيدتها متفرقة في اجتماعياتها وكانت بينهم خلافات قديمة موروثية واستطاع الرسول (ﷺ) بعد الهجرة أن يبني المسجد النبوي الذي أصبح داراً للمسلمين وتمت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار وأصبحوا أمة واحدة وسجلت هذه المؤاخاة على صفحات القلوب فكانت أقوى من التدوين، ثم بعد ذلك اتجه (ﷺ) ومن معه إلى تأسيس الدولة الإسلامية التي أصبحت تتأهب لدخول مرحلة جديدة وهي مرحلة تثبيت أركان الدولة الإسلامية.

المبحث السابع

الخاتمة - النتائج - التوصيات - المصادر - المراجع

الخاتمة

الحمد لله والثناء على مصطفىاه - وبعد

مهد الرسول (ﷺ) لقيام الدولة الإسلامية في المدينة المنورة فبايع أهلها قبل أن يصل إليها وأخذ عليهم العهود والمواثيق قبل أن ينتقل إليهم وبدأ ذلك منذ أن كان يعرض نفسه على القبائل في موسم الحج وكيف يقبلها ليس من عنده إيمان راسخ وقلب صادق ويقين ثابت وأنداك معظم القبائل حديثة عهد بالإسلام ولم تتأثر به ولذلك نجد النبي (ﷺ) يطوي مطلب النصر والمنعة مؤقتاً إلى أن تتشرب القلوب الإيمان ويخالط وجدانها وتشعر بحلاوته فاكتفى (ﷺ) في البداية بالدعوة إلى التوحيد وعمل على تعميق الإيمان بالله الواحد في قلوب الناس وإلى نبذ عبادة ما سواه ، وعليه طوي الرسول (ﷺ) مطلب النصر مؤقتاً لأنه كيف يطلب من الناس ينصرونه ويعادوا قريشاً من أجله أو من أجل دينه ودعوته التي لم تدخل في قلوبهم بعد ، وعليه صرف النبي (ﷺ) كل همه وهمته إلى الدعوة إلى الإيمان بالله وتوحيده وعمل على ترسيخ ذلك في قلوب الناس وأراد الله سبحانه وتعالى أن ينصر نبيه ودينه ووسط هذا الإعراض والنكول ظهرت بارقة الأمل في العام الحادي عشر من البعثة الموافق ستمائة وعشرين من الميلاد عندما قابله وفد المهاجرين من القبائل وشرح لهم دعوته ووعدوه خيراً وكانوا نواة لقيام الدولة الإسلامية وتمهيداً لنصرة الإسلام والمسلمين.

النتائج

أولاً: عندما وصل النبي (ﷺ) إلى المدينة وجد مجموعات من السكان متباينة في عقيدتها متفرقة في اجتماعياتها وكانت بينهم خلافات قديمة موروثية واستطاع الرسول (ﷺ) بعد الهجرة أن يبني المسجد النبوي الذي أصبح داراً للمسلمين وتمت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار وأصبحوا أمة واحدة وسجلت هذه المؤاخاة على صفحات القلوب فكانت أقوى من التدوين ، ثم بعد ذلك اتجه (ﷺ) ومن معه إلى

تأسيس الدولة الإسلامية التي أصبحت تتأهب لدخول مرحلة جديدة وهي مرحلة تثبيت أركان الدولة الإسلامية.

ثانياً: بجهود الرسول (ﷺ) من أجل نصرته الإسلام ودين الله سبحانه وتعالى تمت الهجرة التي أدت لتأسيس الدولة الإسلامية في المدينة المنورة.

ثالثاً: أن توكل على الله وعلمه بأن الله سبحانه وتعالى يفصل بالحق بين الإيمان والباطل واستعصامه بإيمانه وثقته بالله ساعده على أن يصد الطواغيت الذين يجبرون الداعية أن يكف عن دعوته.

رابعاً: أن الرسول (ﷺ) استنفذ جميع قواه وجهوده وأفكاره من أجل إرساء قواعد الإسلام والدولة الإسلامية.

خامساً: بعد بيعة العقبة الأولى والثانية تمت الهجرة إلى المدينة المنورة وهي مرحلة تأسيس المجتمع الإسلامي وتمكين الدعوة الإسلامية ودخول الناس في دين الله أفواجاً وامتدت هذه الفترة إلى وفاة الرسول (ﷺ).

سادساً: لا بد من التمسك بالحيطة والحذر والتخطيط العبقري والتنظيم المحكم في أمور الدعوة كما كان يفعل الرسول (ﷺ).

سابعاً: على دعاة اليوم إخلاص العمل والنية حتى تتحقق إقامة حكم الله وشرعه في الأرض وأن الرسول (ﷺ) قد أمر بالاستقامة على أمر الله والدعوة إليه وإقامة العدل تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ (الشورى: ١٣).

التوصيات

أولاً: على قادة الدعوة الإسلامية أن يتأسوا بالرسول (ﷺ) في مسيرتهم الدعوية في كل زمان ومكان.

ثانياً: على المسلم أن يحمي قائد الدعوة الإسلامية ويشد من أزره كما كان يفعل زيد بن الحارثة.

ثالثاً: على الداعي أن يكثر من الثقة بالله ويتحلى بالصبر لأن طريق الدعوة إلى الله محفوف بالمخاطر منذ عهد الرسول (ﷺ) وأن يكون الداعي على يقين من نصر الله له.

رابعاً: على أصحاب المسؤولية الدعوية أن يجيدوا التخطيط السياسي.

خامساً: ليس مهمة الدعوة الإسلامية وفقاً على الأنبياء والرسل وحدهم ولا خلفائهم وورثتهم العلماء الذين يأتون من بعدهم وأن الدعوة الإسلامية جزء لا يتجزأ من حقيقة الإسلام نفسه.

سادساً: لا مفر ولا مناص لكل مسلم من القيام بعبء الدعوة الإسلامية وأن كل من دخل الإسلام بايع الله ورسوله على الجهاد والدعوة من أجل الإسلام.

وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (التوبة: ١٢٢).
وكذلك قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (النحل: ١٢٥).

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.
٢. السيرة النبوية أبو محمد عبد الله بن هشام بن أيوب الحميري
١٣٧٥هـ/١٩٥٥م
٣. ابن منظور محمد بن مكرم الانصاري، لسان العرب، بيروت، بدون تاريخ
طبع.
٤. الدروبي، محمد محمود، الرسائل الفنية في العصر العباسي، دار الفكر
للتباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م.
٥. منير محمد الغضبان، المنهج الحركي للسيرة النبوية، دار الوفاء
١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م

٦. أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزية، تلقيح فهوم أهل الأثر، دار الطبع الهند، بدون تاريخ طبع .
٧. صفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المحتوم، دار الوفاء للطباعة والنشر، الطبعة الرابعة، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م .
٨. أبي محمد بن عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري، السيرة النبوية، الطبعة الثانية ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م .
٩. ابن القيم شمس الدين أبو عبدالله محمد بن بكر بن أيوب، زاد المعاد المطبوعة المصرية، الطبعة الأولى ١٣٤٧هـ .
١٠. الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، المكتبة الرحيمية، باب علامة الإيمان، دون تاريخ طباعة.
١١. محمد سعيد رمضان البوطي، فقه السيرة النبوية مع موجز تاريخ الخلافة الراشدة، ٢٠٠١م .
١٢. الحافظ بن كثير أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، بدون تاريخ طبع.
١٣. ابن حجر أحمد بن علي بن محمد، الإصابة في تمييز الصحابة، دار الكتب العلمية بيروت بدون تاريخ طبع..
١٤. محمد حسين هيكل، حياة محمد (ﷺ)، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٨م .
١٥. عصت محمود، النبي وقيادة الأمة، مكتبة بحر العلوم، القاهرة، بدون تاريخ طبع.
١٦. الشيخ عبد الله بن عبد الوهاب، مختصر سيرة الرسول (ﷺ) بدون تاريخ طبع.
١٧. أبو بكر أحمد بن حسين علي البيهقي، السنن الكبرى، ٣٨٤هـ.
١٨. محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، دار صادر بيروت، بدون تاريخ طبع.
١٩. ابن حاتم محمد بن حبان أحمد التيمي البستي، السيرة النبوية، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت بدون تاريخ طبع.

القضايا الجدلية بين المجلة الزيتونية ومجلة La Tunisie catholique (تونس الكاثوليكية)

د. محمد الفاضل اللّاي^(١)

مقدمة

تأطير البحث:

يهدف البحث إلى التعرف على ملامح الحضور المسيحي بتونس، ومدى استثارته للقضايا الحسّاسة، في ظلّ الاحتلال الفرنسي من خلال استنطاق نصوص الصحافة الناطقة باللّغة الفرنسية الموجهة في عمومها للفرنسيين وطبقة النخب التونسية المتخرّجة من المؤسّسات التعليمية الفرنسية، وكذلك باستقصاء ذخيرة صحفية تونسية قيّمة، متمثلة في المجلة الزيتونية.

إنّ محتوياتها عموماً ليست تقارير إخبارية بحتة، بقدر ما هي تغطية صحفية أمينة لمختلف الأحداث اليومية في جميع مستوياتها، وكذلك استجابة لتطلّعات النخب التونسية، كما هو حال المجلة الزيتونية. لذلك فإنّ اختيار هذين المصدرين الصّادرين بتونس بدايات القرن العشرين سمح لنا بنسج تصوّر منسجم -إلى حدّ- مع الواقع محلّ الدراسة، باعتبار استيعاب الأوّل النشاط الكنسي لأهمّ المجالات الحيوية؛ الاجتماعية والتعليمية والصحية والإنسانية والثقافية، ولأمس بامتياز السياسي، أمّا المصدر الثاني فهو تأريخ دقيق وأمين لمسيرة الكفاح الوطني في جانبها المعرفي والفكري وكذلك في تتبّعه لمسار التوجّه السياسي لرموز الحركة الوطنية التونسية.

ومن المفيد الإشارة في هذا السياق، إلى أهمية المصدرين في تحرير القضايا الجدلية موضوع البحث، فهما يقفان طرفي نقيض منها، لطبيعة المنطلق والغاية، ممّا سيضفي صبغة خاصّة على الدراسة، والتي بنيت على رؤى متناقضة تتجاوزها

١- باحث بمركز البحوث والدراسات في حوار الحضارات والأديان المقارنة، سوسة، تونس.

غايات متنافرة، أو ما يمكن نعتة بالاستقطاب الثنائي: الكنيسة والزيتونة. المؤسسة الدينية المسيحية حاضنة التنصير تنوّه بجهودها في ما أطلقت عليه مهمة التثقيف والتحصّر التي تقوم بها في المجتمعات الإسلامية "المتخلّفة، الأمية، المريضة، الفقيرة..."⁽¹⁾، وتعتبر، في معرض توسيم أحد الجنود، الحضور العسكري الفرنسي بتونس خدمةً للسلام⁽²⁾. بينما تؤمّن المجلة الزيتونية في افتتاحية عددها الأوّل على أنّه "كان مفروضاً على جامع الزيتونة وهو منبع الإسلام في هذا القطر والكلية الوحيدة التي تدرس فيها علوم الشريعة وعلوم العربية بجميع ما يتعلق بها من الأصول والفروع أن يضرب بسهم في هذا المضمار، وكان أهله يشعرون بهذا الأمر الأكيد... كانت هذه أمنية الزيتونيين وكان يحول دون إتمامها عدة أسباب ويتكاتف في سمائها ضباب وأي ضباب حتى أراد الله إبرازها فذلت الصعاب"⁽³⁾. ومن الملفت للنظر التنويه بباب الوعظ والإرشاد "وهو من أعظم أبواب المجلة حيث سيكون مجالاً فسيحاً لإرشاد الناس وتنبههم إلى مواقع الخطأ فيما هم سائرون عليه حتى يقلعوا عنه ويرجعوا إلى هدي الإسلام"⁽⁴⁾.

فالأنشطة الميدانية تكشف عن التوجّه العام للكنيسة وتوضّح المسار الذي تبنته في التعاطي مع تلك القضايا الجدلية الحيوية، من منطلق ديني متناسق مع التوجّه السياسي لدولة الاحتلال الفرنسي مستجيباً لرغبة المعمرين ودفعاً للمنافسة الإيطالية على مستوييها الديني والسياسي. ممّا يطرح سؤالاً رئيساً يعالجه البحث، يتعلق بطبيعة ذلك التوافق في تبني شعار مشترك يبرر الحملات العسكرية على تونس، ويبارك جنودها ويمنحهم أوسمة الاستحقاق العليا، متخذاً من مقاومة

1- Voir l'article ; Gafour ; la mission de M. l'Abbé Glave : « Mais ce que n'oublie pas l'auditoire c'est le magistral discours de la messe de minuit sur la rénovation social, morale et religieuse opérée dans le monde par la christianisme ». In. La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage), N° 3. Dimanche 17 janvier 1932, p 32..

2- Mgr Gerlier : « Le monde entier aspire à la paix. Il la poursuit d'une volonté ardente ». In. La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage), N° 3. Dimanche 17 janvier 1932, p 35.

٣- محمد المختار بن محمود: المقدّمة. المجلة الزيتونية. مجلة علمية أدبية أخلاقية، تصدرها هيئة من مدرسي جامع الزيتونة. ج ١ / م ١ / رجب ١٣٥٥، سبتمبر ١٩٣٦، ص ٣.

٤- نفس المصدر، ص ٤. ومن الأبواب المهمّة في المجلة كما سنعرض لذلك بالتفصيل باب بعنوان الفتاوى والأحكام، نشرت فيه إجابات وارادة على المجلة وكذلك "أحكام شرعية صدرت عن المشايخ القضاة بتونس أو من المجلس الشرعي الأعلى بالحاضرة من قسميه الحنفي والمالكي حيث كانت تلك مشتملة على نظريات فقهية وتحقيقات علمية".

التخلف والمرض وتحرير العبيد وتخليص الشعوب من الهيمنة سببا لبسط النفوذ وهيمنة بديلة. النفوذ باتجاهيه المعرفي والأمني، والهيمنة بشقيها الثقافي والسياسي. وهو ما يُفصح عنه بجلاء الإرث المعرفي والعلمي الذي خلفه الحضور المسيحي بتونس، من مؤسّسات تعليمية وثقافية وخدمية، تواصل بعضها حديثا في أشكال مختلفة، إن لم يحافظ على مؤسّساته القديمة.

ومن هذا المنطلق، تعتبر المجلّة الزيتونية استجابة معرفية لذلك التحدي الواقعي، نقف على أهميته من خلال القضايا والإشكالات التي عالجتها خلال تسعة عشرة سنة (١٩٣٦ - ١٩٥٥)، سواء ما اصطالحنا عنه بالقضايا الجدلية أو المواضيع التأسيسية التثقيفية والإرشادية، وكذا الإجابة عن الأسئلة الواردة على أسرة المجلّة. هذا إلى جانب الأبواب الثابتة كما أشرنا إلى ذلك سابقاً.

لذا يجتمع في هذه الورقة المهمة التفسيرية لتلك النصوص بُغية فهم الفلسفة العامّة التي أنتجتها، والدراسة الإحصائية الاستقصائية لمختلف الأنشطة الكنسية وتنزيلها ضمن سياقها الديني العام، وكيفية تفاعل المجلّة الزيتونية معها وإن لم تعاصرهما، إذ المعوّل عليه في البحث القضايا وليس التزام التاريخي. وذلك لمحاولة صياغة تصوّر عام ورسم ملامح الحضور المسيحي بتونس في جميع أبعاده الدينية والمعرفية والاجتماعية، ومدى جدية مؤثّراته. وبناء عليه فإنّ الورقة تعالج قضية جزئية محدّدة سلفاً، ولا يمكنها استغراق كل تلك القضايا الجدلية على أهميتها.

أهمية الموضوع:

تحيلنا تلك الملابس التي حفت بالموضوع، كما ذكرنا في التّأطير، على أهميته؛ المعرفية والمنهجية والتاريخية، ودورها في تنضيج الجدل الديني، وذلك على النحو التّالي:

- الأهمية المعرفية: من خلال إحصاء الرّصيد الهائل من المقالات والبحوث والندوات والمؤتمرات والحوارات واللّقاءات والأسئلة ودعوات الاستكتاب التي يوزعها المصدران المعنيان بالبحث. والتي غطت جميع الاهتمامات والمجالات؛ الدينية والعبادية والتشريعية والتثقيفية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية

العدد الرابع عشر - رجب ١٤٣٩ هـ / مارس ٢٠١٨ م «٢٤٧»

والسياسية، قضايا المرأة والأسرة والتعليم والشباب، والبحث العلمي والتاريخ والجغرافيا، والأقليات الإسلامية بالغرب، والأقليات الدينية في العالم الإسلامي...

– **الأهمية المنهجية:** في طُرُق تناول تلك القضايا ومعالجتها، وأدوات النقد والتصويب والتقويم، وترتيب قضايا الحجاج ووسائله وآليات الردود. وهو عمل يستدعي استنفار كل الطاقات وبذل الجهد والاستعداد الذهني والمعرفي والأدبي، وتهيئة مناخه وتحقيق أسبابه.

– **الأهمية التاريخية:** من حيث توثيق حقبة تاريخية مهمة وحساسة في تاريخ تونس الحديثة. واعتبار صحيفة *La Tunisie catholique* مصدرا مهما لا غنى عنه لدارس تاريخ تونس خلال حقبة الاحتلال الفرنسي. باعتبارها تأريخاً "وفي"⁽¹⁾ للأحداث التي عرفتها الحاضرة التونسية في تلك الفترة.

– **تنضيج الجدل الديني:** وإن لم يكن مقصودا في ذاته، فقد تحقق عرضيا، من خلال حركة الردود والنقد البنيوي الصّارم، وإن خالطه القصد التمجيدي الدعائي أحيانا. لذلك فإن أهمية الموضوع تكمن في نقطتين رئيسيتين:

– الكشف عن طبيعة القضايا الجدلية.

– بيان مدى أثرها على المجتمع التونسي من الناحيتين المعرفية والعملية في ما يتعلق بتهيئتها الشعب التونسي للتصدي لمخططات الكنيسة وتوابعها وحلفائها.

أسباب اختيار الموضوع:

يتعلق البحث بدراسة جزئية معرفية من تاريخ تونس وهي تحت سلطان الاحتلال الفرنسي. أي الهيمنة القهرية في جميع سياقاتها، خاصة الدينية الحضارية. باعتبار الكنيسة الآلية الذكية في التخطيط والتنفيذ، وذلك لقيامها على جملة مهام نُجمها في الوظائف التالية: التعليمية والطبية والإنسانية الخدمية. ومن الواضح أنها تتقاطع في ذلك مع مهام الإدارة الفرنسية القابضة بيد من حديد على

١- ليس في بعده الأخلاقي السلوكي وإنما من حيث دقة استقصاء الأحداث وتوثيقها التاريخي. وذلك لحرص كنيسة قرطاج على توثيق مختلف نشاطها الكنسي بتونس كما تكشف عنه الصحيفة الأسبوعية المعنية.

مقاليد الأمور بتونس تحت مسمى الحماية، في ظل غياب شبه تام لسلطة السيادة الوطنية المتمثلة في الباي وأجهزته الإدارية. ممّا هيأ مناخ النشاط لمختلف البعثات الدينية، بدون حدود وضوابط، وفسح لها المجال في بناء الكنائس والمؤسسات التابعة لها في أغلب الجهات.

إنّ هذه الوضعية غير الطبيعية بكلّ المقاييس، أنتجت ردّة فعل وحركة احتجاج في اتّجاهيه الفكري النظري والمقاوم العملي، والذي نُجمله في مصطلح حركة التحرّر الوطني، التحرّر من الاحتلال الفرنسي بمختلف أجنحته؛ اللينة والعنيفة، لاتحاديها في الهدف والمضمون وتعدّد وسائلها.

إلاّ أنّ المصادر التونسية القيّمة، رغم تعدّدها وتنوعها، لم تخصّ بالدراسة والتحقيق مسألة القضايا الجدلية بين الزيتونة والكنيسة، وتعالجها ببحث مستقل، وهو ما رغبتنا في القيام به في هذه الدراسة، تحت عنوان: القضايا الجدلية بين المجلّة الزيتونية و La Tunisie catholique "تونس الكاثوليكية".

المنهج المعتمد في البحث:

تعتمد الدراسة في معالجة إشكالية البحث المنهج التاريخي الاستقصائي والتحليلي النقدي. إذ ينقسم العمل إلى جزأين رئيسيين هما؛ التعرف على أهمّ القضايا الجدلية في المصدرين المعنيين، بالتركيز على عيّنة واحدة من الصحيفة الكنسية؛ مجموع أعداد سنة ١٩٣٢، وصفحاتها ١٣٨٣ صفحة، مع دراسة نموذج لتلك القضايا يتمثّل في المؤتمر الإفخارستي المنعقد بقرطاج في ٧ - ١١ ماي ١٩٣٠. أمّا عن المجلّة الزيتونية فإنّنا قمنا بجردها كاملة، ورتبنا مجموع قضاياها، واخترنا منها عيّنات محدّدة، لعرضها ودراستها، مقارنة بما ورد في صحيفة الكنيسة.

خطة البحث:

استدعت دراسة تلك القضايا الجدلية أن يُنجز البحث وفق الخطة التالية:

- مقدّمة: لتأطير الموضوع والتعريف بإشكالية البحث المركزية، ومنهجية إنجازه.
- التحدي الكنسي بتونس من خلال La Tunisie Catholique.

- القضايا الجدلية من خلال المجلة الزيتونية.
- مقارنة منهجية للقضايا الجدلية.
- خاتمة.

المشكلات التي واجهت البحث:

- شح المصادر والمراجع المتصلة مباشرة بموضوع البحث.
- تفرّق القضايا الجدلية الدقيقة في طيّات المجلة الزيتونية و La Tunisie Catholique.

- وجود خيط رفيع بين ما هو قضايا جدلية وبين ما يمكن تسميته بالأسئلة العالقة المطروحة للنقاش في الأوساط المثقفة والنخب التونسية، ممّا أدى إلى تشتت الجهد المبذول، في اتجاه تصنيف تلك القضايا، والتركيز على عينات منها. إذ جميع الإشكالات في كلا المرجعين تتواتر في نسق سريع وتكرّر باضطراد، فمنها ما يمكن تصنيفه في نفس الموضوع ومنها الذي يتقاطع، ومنها ما يخدم بعضه، وكثير منها متباعد يعبر عن تشتت في الذهن وتوتر في المعالجة، كأنّ كلاهما يسابق أحداثا ووقائعا عرفها ذلك العصر، وهو ما يمكن الاصطلاح عنه بالصراع الصامت بين المؤسستين.

الاصطلاحات والرموز:

الدين، النبوة، الجدل، التنصير، الاستشراق، الغزو الفكري، المرأة، التعليم، الجمعيات، المؤتمر الافخارستي

البحوث السابقة:

لم تُسغفنا، مع الأسف الشديد، المكتبة التونسية ببحوث سابقة مرتبطة بموضوع البحث الذي نحن بصدده، إلا أنّنا نجد مصادر ومراجع على صلة بهذه القضية، وإن لم تعالج إشكالات وقضايا دقيقة تخدم البحث مباشرة في غرضه العلمي. من حيث استقصاء القضايا الجدلية بين المجلتين المعنيتين بالبحث. إلا أنّنا وضعنا اليد على بعض البحوث الأصيلة التي يربطها خيط ناظم يسلكها في التوجّه

العام للبحث، منها:

- الزيتونة والزيتونيون في تاريخ تونس المعاصر (١٨٨٣-١٩٥٨): المختار العياشي. مركز النشر الجامعي. جامعة الزيتونة، تونس ٢٠٠٣.
- النخبة العصرية التونسية؛ طلبة الجامعات الفرنسية ١٩٥٦-١٩٨٠: عادل بن يوسف. دار الميزان للنشر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بسوسة، ٢٠٠٦.
- الحركة الطلابية التونسية (١٩٢٧ - ١٩٣٩): محمد ضيف الله. أصل البحث؛ رسالة دكتوراه، قسم التاريخ - كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، ١٩٩٤. نشر؛ منشورات التميمي للبحث العلمي والمعلومات، زغوان، ١٩٩٩.
- La Tunisie Catholique : Carthage 1930 ; actes et documents. Imp. WEBER & Cle. Tunisie. 1931.
- François ARNOULET: Interférences diplomatiques et préoccupations politiques à l'occasion du congrès eucharistique de Carthage (Mai 1930). In. Revus d'histoire maghrébine. Ceromdi. Zaghouan. 18e année. N° 61 - 62. juillet 1991. pp 721-.
- Habib JAMOSSI : Juifs et Chrétiens en Tunisie au 19e S. Essai d'une étude socioculturelle des communautés non-musulmanes (1815-1881). Edt. Amal. Sfax 2010.

التحدي الكنسي بتونس من خلال مجلة "تونس الكاثوليكية" La Tunisie catholique

تفيد المصادر التاريخية الدارسة للمسيحية بتونس في العهد الإسلامي، أن المسيحيين الأجانب المقيمين بالإيالة كانوا يمارسون عباداتهم وخاصة صلاتهم في مقار إقامتهم أو في الكنائس الخاصة بذلك Les chapelles^(١). إلا أن بعثة اللورد اكسموث Lord Exmouth^(٢) سنة ١٨١٦ غيرت كثيرا من المعطيات، فلم يعد إنجاز

1- Habib JAMOSSI : Juifs et Chrétiens en Tunisie au 19e S. Essai d'une étude socio-culturelle des communautés non-musulmanes (1815 - 1881), p 341.

٢- إدوارد بيلو Edward Pellew (١٧٥٧ - ١٨٢٣)، نبيل مقاطعة إكسموث Exmouth، ضابط بالبحرية البريطانية، اشتغل في البحرية الملكية خلال حروب الثورة.

العبيد سبب الوجود المسيحي بتونس، خاصة وأن المنصرين قد استقرّوا بتونس وانتقلوا إلى مهام جديدة غير التي كانت في القرن الماضي، ساعدهم في ذلك سياسة التسامح وانفتاح البلاد على المؤثرات الغربية⁽¹⁾.

مكّن ذلك المنصرين من توسعة مجال عملهم في كل أنحاء المملكة؛ بناء الكنائس والمدارس الدينية والمستشفيات، وعن طريقها تواصلوا مع سكان البلاد، يحذوهم في ذلك عقيدتهم الدينية وإرادتهم في نشر الثقافة الغربية حيثما حلوا. وهو ما عبّر عنه دارمون راؤول Darmon Raoul⁽²⁾ بقوله "إنّ الشعب المستعمر لا ينتصر فقط بالسلاح، إنّه يستطيع ذلك بالتعليم والمحراث... بمسائل القلب والدين... تتكوّن المؤسسات الأكثر ديمومة". فرجال الدين يعتقدون لا محالة في تفوّق حضارتهم ومركزية فكرهم المقدّس ومن ذلك تنبع رسالتهم في التنصير وموقفهم من الآخرين خاصة المسلمين، إذ يتعلّق خطاب موريس باراس Maurice BARRES⁽³⁾ التالي بالحالة التونسية "إلى كلّ قرّاناً؛ الكنيسة وعاء الحضارة المسيحية، رمز ومركزية الأفكار العلوية في الأرض، كذلك قوى إلهية تعيننا. لكلّ كنائسنا، في الأخير، أب مقدّس يهدّب ويربي الأنفس"⁽⁴⁾. كان هذا الخطاب تهيئة لمؤتمر التجنيد الكهنوتي بتونس بتاريخ ١٣ - ١٧ أفريل ١٩٣٢، والذي يُعتبر تنفيذا لتوصيات المؤتمر الإفخارستي الثلاثين المنعقد بتونس سنة ١٩٣٠.

المؤتمر الإفخارستي بتونس؛ ٧ - ١١ ماي ١٩٣٠:

ما هي المؤتمرات الإفخارستية Congrès Eucharistiques؟ هي مؤتمرات دينية كاثوليكية نسبة إلى إفخارستيا Eucharistie؛ وهي كلمة يونانية تعني الشكر،

1- Voir. Abbé SUBERBIELLE : Pour le rayonnement de la pensée catholique ; œuvre nécessaire. In. La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage). N° 27. Dimanche 3 juillet 1932. p 444.

٢- دارمون راؤول Darmon Raoul (١٨٨٥ - ١٩٧٦) فقيه قانوني وعميد هيئة المحامين بتونس ١٩٠٦، ومدّرس بكلية القانون بتونس ما بين ١٩٢١ و١٩٥٤. تقلد عدة مهام علمية وإدارية فرنسية وتونسية وإيطالية.

٣- (١٨٦٢ - ١٩٢٣) كاتب وسياسي، أحد وجوه القومية الفرنسيين، محور فكره الأوّل: عبادة الأنا، ويعتبر أنّ واجبه الأوّل هو الدفاع عن ذاتيته ضدّ التوحشين.

« Notre premier devoir est de défendre notre moi contre les barbares ». Maurice Barres : Sous l'œil des Barbares. La bibliothèque électronique du Québec. Collection à tous les vents. Volume 170 : version 1.0.

4- Maurice BARRES : La souscription pour le congrès. In. La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage). N° 1. Dimanche 3 janvier 1932. p 13..

وإذا رفع هذا الشكر إلى الله اتخذ شكل الصلاة^(١). ويُقال: سر الإفخارستيا أو سرّ تناول أو القربان المقدّس. وهو أحد الأسرار السبعة المقدّسة في الكنيسة الكاثوليكية والأرثوذكسية (سرّ المعمودية، زيت الميرون، القربان المقدّس، سرّ التوبة، سرّ مسحة المرضى، سرّ الزيجة، سرّ الكهنوت). وهو تذكير بالعشاء الذي تناوله المسيح وتلاميذه عشية ألامه بحسب معتقدهم الديني. وقد عُقد أول مؤتمر أفخارستي بمدينة ليل Lille الفرنسية سنة ١٨٨١ بمبادرة من إيميلي تاميزي Emilie Tamisier (١٨٣٤-١٩١٠) تحت شعار "الإفخارستي ينقذ العالم"، وعقد المؤتمر الأخير بمدينة سيبي الفيليبينية في ٢٥ - ٣١ جانفي ٢٠١٦ تحت شعار "المسيح فيكم رجاء المجد". (الرسالة إلى أهل كولوسي، ٢٧/١).

أمّا المؤتمر الإفخارستي، محلّ بحثنا، فهو المؤتمر الثلاثين، وقد اختيرت منطقة قرطاج التونسية لعدّة أسباب دينية وسياسية، خاصّة في ظلّ صراع سياسي حاد بين الإدارة الفرنسية والإيطالية:

- المكانة الدينية لقرطاج عند المسيحيين عموماً والكاثوليك خاصّة. فقد عقد بها أكثر من عشرين مجمعا دينيا منها خمس مجامع مسكونية مؤثّرة في مسيرة الكنيسة الكاثوليكية، وهي: مجمع قرطاج الأول ٢٥١م، مجمع قرطاج الثاني ٣٩٠م، مجمع قرطاج الثالث ٣٩٧م، مجمع قرطاج الرابع ٣٩٨م، ومجمع قرطاج الخامس ٤٠١م^(٢).

- تعتبر قرطاج محطة الحرب الصليبية التاسعة وأرض هلاك القديس لويس Saint-Louis وقد خلّدت ذكراه في ١٠ نوفمبر ١٨٨٤ تاريخ إعادة البابا ليون الثالث عشر Léon XIII كرسي أسقفية قرطاج، وتذكيرا ببعض رموز الكنيسة مثل: القديس أوغسطين Saint Augustin والقديس قبريانوس Saint Cyprien. وقد رأت الكنيسة في بناء جامع العابدين على هضبة قرطاج قبالتها نوعا من

١- الأب صبحي حموي: معجم الإيمان المسيحي. دار المشرق، بيروت، ط ٢/ ١٩٩٨، ص ٤٩.
2- Adolphe-Charles Peltier : Dictionnaire universel et complet des conciles. vol. 13. Migne. 1847. Version numérique : https://books.google.com.sa/books?id=YsoWAAAAQAAJ&pg=PA471&redir_esc=y#v=onepage&q&f=false.

التحدي، خاصّة وأنّ انطلاق أشغال بناء الجامع كانت في ١٦ نوفمبر ٢٠٠٠ وافتتاحه يوم ١٧ رمضان ١٤٢٤ الموافق ١١ نوفمبر ٢٠٠٣. توافق في التاريخ لم يكن مصادفة، بل له أكثر من دلالة دينية وحضارية، يجب التوقّف عندها. إنّه نوع من الجدل الصامت الذي يختزل كثيرا من العقبات والضغوط، تفسّر أقدارا من مظاهر الهيمنة وسياسة الشدّ والجذب بين طرفين متناقضين. كما لا نظنّ أنّ حضور نائب عن ملك المملكة العربية السعودية في الافتتاح الرسمي للمسجد هو حادث عرضي^(١).

- أما في أعين عموم الكاثوليك فإن قرطاج ذات مكانة اعتبارية يجب أن يعبر عنها بمؤتمر استثنائي، فاتّهم أن التاريخ جملة تراكمات ولا يعود إلى الخلف، وأنّ قرطاج أصبحت مسلمة منذ القرن السّابع للميلاد. وأنّ الوجود الفرنسي بتونس بحسب الاتفاقية المعلنة لحماية لأسباب مالية وليس استرداد. فتونس بلد مسلم يُعدّ يومها قرابة ٢١٥٩١٥٠ نسمة مع وجود أقليات أجنبية لا تتجاوز ١٩٥٣٠٠ نسمة.

- الغطاء القانوني الذي توفّره الاتفاقية الموقّعة في روما بتاريخ ٧ نوفمبر ١٨٩٣ بين فرنسا والفاتيكان، على أن يُعيّن رئيس أساقفة قرطاج مباشرة من السيادة البابوية بعد موافقة الحكومة الفرنسية، والتي تمنحه دعما ماديا يقدّم فيه تقريراً عند نهاية الخدمة.

ومعلوم أنّ الإعداد للمؤتمر الإفخارستي بتونس أشرف عليه رئيس أساقفة قرطاج الذي استلم مهامه الدينية منذ سنة ١٩٢٠، واضعين في الاعتبار أنّ أليكسيس ماتري Alexis Lemaître كان رئيسا لجمعية منصري أفريقيا وقبلها المرشد العام للفيالق السودانية خلال الحرب العالمية الأولى. وهو الذي صدم الرأي العام التونسي سنة ١٩٢٥ بنصب تمثال الكاردينال لفيجري Cardinal Lavigerie وسط العاصمة في ذكرى مؤبته، حاملا بيده الإنجيل، والذي فسّره التونسيون بأنّه دعوة للتنصير. وبعدها كتب الموظف البابوي السامي أليكساندر بون Alexandre Pons "يجب

١- اليوم. صحيفة سعودية. الثلاثاء ١١ نوفمبر ٢٠٠٣، العدد ١١١٠٦، ص ٣.

الصلاة لله حتى يتنصر المسلمين". وفي ٢٥ ديسمبر ١٩٢٧ أعلنت الصحيفة الرسمية للأسقفية أن المؤتمر الإفخارستي الثلاثين سيعقد بقرطاج سنة ١٩٣٠^(١).

وتبرز أهمية المؤتمر في الدعم الذي حظي به من أعلى هرم الإدارة الفرنسية الرسمية، التي تعتبره مناسبة مهمة لإبراز دور فرنسية في تمدين الشعوب المحتلة، احتفاء بالذكرى المئوية لاحتلال الجزائر والذكرى الخمسين لاحتلال تونس. وقد حرص وزير الخارجية الفرنسي أن يمثل المؤتمر نجاحا وطنيا قبل كل شيء. ومن صور الدعم المادي والمعنوي:

- استقبال رئيس أساقفة قرطاج من طرف الرئيس الفرنسي ورئيس مجلس الوزراء ووزير الخارجية.

منحة مادية تقدر بمليون فرنك فرنسي من الخزينة الفرنسية تحت مسمى ميزانية تونس. وهو تصرف يتعارض وعلمانية الدولة الفرنسية كما ينص على ذلك قانون ١٩٠٥.

- تكفل وزارة الحرب الفرنسية، وبطلب من رئيس المجتمع المدني ليسيان بيزو Lucien Baizeau، بالدعم البشري والمتطلبات الضرورية لاستقبال الحشود وإعاشتهم، من خلال توفير ٨٠٠ خيمة و٥٠ مطبخا متنقلاً^(٢).

أثارت كل تلك الإجراءات، والتي تلاها عقد المؤتمر الإفخارستي ردة فعل قوية في الشارع التونسي، النخب المثقفة والعامّة، كما القيادات السياسية ورموز الحركة الوطنية، بدءا بالحركة الطلابية؛ طلبة جامع الزيتونة، الصادقية، العلوية، ومعهد كارنو. كما وجد الدستوريون دعما كبيرا من شيخ الإسلام والمفتي العام

1- La première annonce du Congrès . Sa Grandeur Monseigneur l'Archevêque de Carthage. Primat d'Afrique. nous annonce une grande nouvelle. Sa Grandeur avait exprimé le désir que le trentième Congrès Eucharistique International fût tenu à Carthage en 1930.

Le comité permanent de ces Congrès internationaux a donné un avis favorable. Le Saint Père. juge en dernier ressort. vient de décider que le premier Congrès Eucharistique International tenu en Afrique. aurait lieu à Carthage. en 1930 . In. La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage). N° 46. Dimanche 25 Décembre 1927.

2- François ARNOULET : Interférences diplomatiques et préoccupations politiques à l'occasion du congrès eucharistique de Carthage (Mai 1930). In. Revus d'histoire maghrébine. Ceromdi. Zaghouan. 18e année. N° 61 - 62. juillet 1991. p10.

الذين رفضوا المشاركة في الرابطة الشرفية. هذا إلى جانب عديد المقالات الصحفية، مثل مقال الشاذلي الخلافي باسم مستعار "عبد الحق" بصحيفة "صوت تونس"، ثم مقال الحبيب بورقيبة بنفس الصحيفة، بين فيه أن مسلماً لا يتقبل صورة الله في خبر مكسر مغمس في الخمر. مذكراً "أن همّ الدفاع عن الإسلام هو السبب الذي دفعني للانخراط في العمل السياسي. فسياسة الاحتلال لا تهدف فقط لتدمير السيادة التونسية بل الدين الإسلامي. كان لدي شعور لو قدّر للأحداث أن تتابع مسيرها لحكم على الإسلام بالزوال من تونس". لقد وُجّهت هذه الرسالة للرأي العام التونسي على هامش أحداث ١٩٦١ خلال الأزمة الحادة بين تونس وفرنسا قصد الربط بين قوى الاحتلال الفرنسي والمسيحية الوافدة من الغرب.

مثل، إذا، المؤتمر الإفخارستي أكثر من مجرد تظاهرة دينية عرضية، بل اعتبر تحدياً للهوية الحضارية التونسية، يفهم من سياق كلام اللجنة الدائمة للمؤتمرات الإفخارستية العالمية، الذي جاء فيه في معرض ذكر أهمية قرطاج عند المسيحيين عامة: "...أنها خاصة أقدم كنيسة بإفريقيا، كما نوه القديس ليون التاسع Léon IX بعدد شهدائها بمجد تقاليدها، فهي مدينة عظماء الكنيسة والشاطيء الذي مشى عليه القديس أوغسطين ونزل به بعده الملك الفرنسي لويس التاسع في قيادة للحرب الصليبية"^(١). وبالفعل كان المؤتمر قاعدة تأسيسية لما بعده.

مؤتمر التجنيد^(٢) الكهنوتي بتونس؛ ١٣ - ١٧ أفريل ١٩٣٢:

يُعتبر المؤتمر نقطة تحول مفصلي في تاريخ الكنيسة بتونس وتنفيذا لتوصيات المؤتمر الإفخارستي التاريخي بتونس^(٣). وهو مشروع استراتيجي

1- Comité permanent des congrès Eucharistiques Internationaux : Ce que l'on voit à Carthage « c'est surtout, pour les chrétiens, la vieille église primatiale d'Afrique, celle dont Saint Léon IX a pu dire que, pour le nombre de ses martyres, la gloire de ses traditions, elle ne le cédait point à l'église romaine. C'est la ville de Tertullien et de Cyprien, de Perpétue et de Félicite. C'est la plage d'où partit furtivement Augustin, l'enfant des pleurs, et ou débarqua plus tard, croisé de rouge, le roi Louis IX de France ». Carthage 1930 - Actes et Documents. Edition de La Tunisie Catholique. Tunis 1931. p 22.

٢- يمكن استعمال مصطلح التبعية.

٣- عُقد المؤتمر الإفخارستي بقرطاج في ٧ - ١١ ماي ١٩٣٠ باعتبارها عاصمة قديمة للمسيحية بشمال إفريقيا، وتزامن انعقاد المؤتمر مع الاحتفال بالذكرى المئوية للاحتلال الفرنسي للجزائر ١٨٣٠ وإصدار الظهير البربري بالملكة المغربية ١٩٣٠. وتكمن أهمية المؤتمر بالنسبة لمنظميه في رمزيته تذكيراً بالحملة الصليبية على تونس سنة ١٢٧٠ بقيادة لويس التاسع عشر.

هدفه تكوين إطارات دينية تونسية غير وافدة، بمعنى آخر المرور من طور الاعتماد على الإطارات الدينية الكنسية المتصلة بالبعثات الأجنبية إلى التأسيس لأجهزة دينية كنسية محلية يقوم عليها كهنة من أهل البلاد الأصليين Les indigènes. وفي تقديرنا في ذلك إشارة خفية استباقية لإمكانية فشل مشروع الاحتلال الفرنسي مستقبلا والاستعداد "للاستثناء" قبل فوات الأوان، وهو ما يمكن ملاحظته من خلال قراءة أولية لفقرات برنامج المؤتمر:

أ طبيعة الشخصيات المحاضرة بحسب المجلة⁽¹⁾:

- رئيس أساقفة كنيسة قرطاج
 - أسقف قرطبة
 - قس؛ دكتوراه في اللاهوت، دكتوراه في الفلسفة، رئيس المدرسة الإكليريكية بتونس
 - أب، ناظر المدرسة الإكليريكية بالمرسى، مدير التجنيد الكهنوتي بتونس.
 - أب، دكتوراه في اللاهوت ودكتوراه في الفلسفة، أستاذ ومدير المدرسة الإكليريكية بالمرسى.
 - قس، مرشد معهد تونس.
 - كاهن أسقفية باريس.
 - حبر، نائب أسقفي بفرساي، ضابط التاج الإيطالي، صاعب عديد المؤلفات المتخصصة.
 - محام دفاع بسوسة، رئيس مؤتمر، متحصل على وسام الاستحقاق البابوي.
 - رجل آداب محاضر، مدير مجلة الآداب، مؤسس وكاتب عام "أسبوع الكتاب الكاثوليك"، خطيب مفوه وكاتب عجيب.
 - ملحن ومنظم ورئيس جوقة كاتدرائية تونس.
- يلاحظ في المحاضرين:

1- Le 1^{er} congrès de recrutement sacerdotal tunisien à Tunis les 14. 15. 16 et 17 avril 1932. In. La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage). N° 14. Dimanche 3 avril 1932. p 230.

- تغطية الاختصاصات لمختلف المجالات الدينية والعلمية والأدبية والقانونية والشبابية والطبية،
- يعتبرون نخبة رجال الكنيسة من الإطارات الدينية والمنتسبين إليها؛ المتدينين أو الموافقين لتوجهات وسياساتها،
- انتمائهم لمؤسسات عريقة مشهورة،
- دورهم الفاعل والمحدد في سياسات الدولة الفرنسية،
- قدرهم على التوجيه الفكري وتشكيل وعي المتابعين.

ب برنامج المؤتمر:

فقرات من اليوم الأول:

- تجمع الصليبيين؛ أطفال وشباب، في حديقة البلفدير
- عرض فيلم حول التجنيد الكهنوتي؛ خاص بالصليبيين؛ أطفال وشباب مؤتمرين.
- محاضرة: عظمة ورفع الكهنة.
- عرض فيلم

فقرات من اليوم الثاني:

- التجنيد التونسي: الوضعية الحالية، الشروط، الأهداف والمناهج.
- تقارير وبيانات متعلقة بالمؤتمر والدعاية اللاحقة.
- تقرير حول: التجنيد في التعليم
- تقرير حول: المبادرات للتجنيد الكهنوتي؛ التاريخ ووثائق الحملات الأولى بفرنسا.

فقرات من اليوم الثالث:

- التعبئة الكهنوتية بصلاة الأنفس الخالصة لله
- ماذا يعني قس؛ الحياة المشرقة: تضحية، إخلاص، رسالة.

فقرات من اليوم الرابع:

- القساوسة في الأحياء.
 - الأثر الكهنوتي على الحياة الفكرية.
مما يلاحظ:
 - وضوح هدف المؤتمر منذ البداية،
 - استهداف فقرات المؤتمر قضية واحدة: تجنيد إطارات دينية من السكان الأصليين Les indigènes،
 - هيمنة تخوف غير معلن من عدم نجاح المهمة، يظهر ذلك من خلال الهالة التي حفت بالمؤتمر وطبعته؛ إعلاميا وسياسيا وأمنيا واحتفاليا.
- ### ج هل المؤتمر نتيجة أم نقطة تحوّل؟:

يبدو وأنّ التنصير بتونس خلال القرن التاسع عشر شجّعه تشريعات تونسية إيجابية لاستقرار دائم تعاضدها سياسة متسامحة مهّدت السبيل لمختلف الكنائس للقيام بأنشطتها الدينية بلا مشقّة في كلّ الاتجاهات، ولعلّ انعقاد المؤتمر الإفخارستي بقرطاج ليس دليلا على عجز الدولة التونسية عن حماية مقدّساتها فحسب، بل يكشف عن غياب تام لمؤسسات الدولة وأيلولة الأمر للسلطة العسكرية الفرنسية المهيمنة، لذلك شاع في أوساط الكنيسة استعمال تسمية La Tunisie française⁽¹⁾ بدلا من تونس استنانا بمصطلح L'Algérie française.

1- La Tunisie française. In. La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage), N° 6. Dimanche 7 février 1932. p 94. « Nous avons lu ces jours-ci avec un vif intérêt les premiers numéros de la « Tunisie Française »...quotidien indépendant du soi. joue en Tunisie un rôle indispensable; pour défendre. comme dit son nouveau directeur dans son article-programme. dans la tradition de sa politique passé. les principes d'ordre et d'autorité. et les droits de la France en Tunisie. pour la sauvegarde des intérêts matériels et moraux de tous ceux qui vivent en ce pays sous la protection de la France...Nul n'était plus qualifié que M. de la porte pour assumer cette noble et difficile tâche. pour présenter. comme il le dit encore. « les idées françaises et l'esprit – si possible en langue française – et même nous le savons. dans une très jolie langue française...

La Tunisie Catholique qui a de commun avec la Tunisie Française. non seulement son imprimerie. mais aussi quelques idées. souhaite à son grand confrère quotidien la plus grande diffusion.

ولو ألقينا نظرة سريعة على قائمة الكنائس ودور العبادة التي تقام فيها الصلوات والتظاهرات الدينية المسيحية بالعاصمة فقط لتبين حجم تمكن الكنيسة وقدرتها على بسط هيمنتها لما تتمتع به من دعم سياسي وقانوني ومادي من الإدارة العسكرية الفرنسية بتونس، لم لا والكنيسة تبارك الجنود وتوسمهم وتؤبّنهم، وتستوعبهم في مدارس دينية⁽¹⁾ وتعيّنهم في مناصب دينية، وهو مخالف صراحة لتعاليم المسيحية الهادفة لبسط السلام ومعارضة الحرب وإدانة القتل⁽²⁾. فمثلا في تقديمها لأحد المحاضرين القادمين من خارج تونس، كتبت الصحيفة: ر. ب. بيشو R. P. Béchaux ينتمي إلى الدومنيكان الذين انخرط فيهم بعد حصوله على درجة الدكتوراه في القانون، ومُنح لأجلها جائزة الأكاديمية الفرنسية، وكانت بعنوان "المسألة الزراعية في إيرلندا في بدايات القرن العشرين". ويلاحظ أنه أدى واجبه بكل شجاعة خلال الحرب، لقد جرح ووسم بصليب الحرب⁽³⁾.

وما يمكن الإشارة إليه في هذا السياق، تعدد الكنائس و"بيوت الصلاة" وتغطيتها لعديد أحياء وضواحي العاصمة، فضلا عن انتشارها في مدن تونسية أخرى، كما سنبين ذلك لاحقا.

- Carthage.
- Cathédrale de Tunis.
- Paroisse de St-croix.
- Notre Dame du Rosaile.
- Paroisse de Sacré-Cœur.

- 1- Nouvelles de Gabes : « ...Depuis un mois. M. le Curé a loué à Gabes près de l'église un local qui lui servent des salles de catéchisme...Déjà une vingtaine de soldats. dont deux séminaristes. y viennent régulièrement ». In. La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage). N° 11. Dimanche 15 mars 1932. p 178.
- 2- Une Messe sera dite tous les mois à Lourdes pour la paix : S. Exs. Mgr Gerlier a décidé qu'une messe mensuelle serait dite chaque premier samedi du mois à la Grotte de Lourdes. Voici dans quels termes il annonce cette décision : « Le monde entier aspire à la paix. Il la poursuit d'une volonté ardente... ». In. La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage). N° 3. Dimanche 17 janvier 1932. p35.
- 3- Au pays du soleil de minuit. In. La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage). N° 3. Dimanche 17 janvier 1932. p30.

- Paroisse St-Joseph.
- Paroisse Jeanne D'Arc.
- Paroisse de la Goulette.
- Paroisse N-D des victoires Bellevue-Tunis.
- La Marsa.
- Le Bardo⁽¹⁾.

ولا غرابة إذا أن يُعلن رئيس أساقفة كنيسة قرطاج في رسالته "أكثر فأكثر، بفضل عمل غير منقطع، بحيث لم ندخر وقتا ولا تعباً، حُق لنا أن نعبر عالياً عن رضانا وسرورنا، فمسألة تجنيد كاهن؛ مولود من هذه البلاد، يعتبر من الآن فصاعداً أمر واقع في تونس... خطباء وأدباء من الدرجة الأولى، من فرنسا ومن تونس، يأتون لتقوية الحركة التي قد انطلقت، مبتدئين بالوسائل الحديثة الأكثر فاعلية، من أجل غزو الرأي العام"⁽²⁾. معقباً على ذلك بصلاة دعا الله فيها أن يمدّهم بقساوسة لتونس⁽³⁾.

من الممكن في هذا المستوى من البحث، أن نعتبر المؤتمر نتيجة لمرحلة التأسيس السابقة من خلال الاستفادة من ضعف الدولة التونسية المكبلة بالاحتلال الفرنسي وهشاشة التشريعات. وبالمقابل تُخضع الكنيسة كل مشاريعها وتصرفاتها لدراسات علمية دقيقة، وتحرص على ضبطها قانونياً؛ تكليف أحد طلابها بإعداد رسالة دكتوراه لتكييف الوضع القانوني للمرتدين عنانها: التحول إلى المسيحية من مواطن جزائري مسلم وأثاره القانونية.

La conversion au christianisme de l'indigène musulman algérien et ses effets juridiques. Un cas de conflit colonial : P. Bonnichon (Jésuite).

- 1- Offices. In. La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage), N° 39. Dimanche 6 novembre 1932. p 627.
- 2- Lettre de S. G. Mgr l'Archevêque. Primat d'Afrique annonçant un premier congrès de recrutement sacerdotal Tunisien. qui se tiendra à Tunis. la 3e semaine après Pâques du 13 au 17 Avril prochain inclus . In. La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage), N° 1. Dimanche 3 janvier 1932. p 4.
- 3- Ibid. p 5.

Faculté de droit de Paris. Le 6 novembre 1932⁽¹⁾.

وفي سنة ١٩٣٥ نشر الأسقف ألكسيس ماتر Alexis Lemaître رسالة بابوية تحت عنوان "Quinze ans de vie catholique en Tunisie" حوصل فيها تقييمه لتجربة خلال خمسة عشرة سنة منذ توليه كرسي أسقفية قرطاج، ورؤية للمشهد الكاثوليكي بتونس. إذ يعتبر الكاثوليك أمة منغلقة على ذاتها، لم تستفد من الوضعية القانونية المميّزة بفضل الحماية الفرنسية وكذلك دعم الحكومة منذ ١٨٩٣⁽²⁾.

تطور نسق الحركة التنصيرية بتونس:

يرتقي النشاط التنصيري بتونس إلى القرن الثالث عشر، عندما أبرم ملك فرنسا فيليب III Philipe III في ٢٨ أكتوبر ١٢٧٠ اتفاقاً مع الخليفة الحفصي أبي عبد الله المستنصر، يسمح للنسك المسيحيين بتشييد مساكن وبناء كنائس للصلاة، ودفن موتاهم، ويخطبون داخل كنائسهم ويصلون بصوت مرتفع.

وفي ٢٠ أفريل ١٦٢٤ قرّر تجمّع نشر الإيمان⁽³⁾ La congrégation pour Frères mineurs إرسال بعثة الرهبنة الكبوشية⁽⁴⁾ Capucins إلى تونس مهمتها: تحرير الرهائن من بؤس العبودية واسترجاعهم من أرض الملاحدة. وكانت تعليمات الكنيسة الكاثوليكية بروما صارمة للبعثة بأن لا تتجاوز مهمتها حدود إقامة القدّاس في كنائس الصلاة "لتسليّة وتعزية العبيد الكاثوليك"، الذين فقدوا معنى الألوهية والروح والمسيحية واعتنقوا الإسلام⁽⁵⁾.

1- Ibid. p 19.

2- Pierre Soumille : Michel LELONG : La rencontre entre l'Eglise catholique et l'Islam en Tunisie de 1930 à 1968. In. Revu de l'Occident musulman et de la Méditerranée. N° 12. 1972. pp. 165170-. Version numérique : <http://remmm.revues.org/persee-178954>. « Il s'agit d'une communauté qui vit repliée sur elle-même. qui ne prend pas au sérieux le nationalisme Tunisien et qui bénéficie. grâce au protectorat français d'une situation juridique avantageuse : subvention gouvernementale depuis 1893. personnalité civile depuis 1933 ». p168.

٣- شعبة من الإدارة البابوية مكلفة بنشر التعاليم المسيحية وإدارة شؤون الكنيسة في البلاد غير المسيحية. وفي ١٩٨٢ غير البابا يوحنا بولس الثاني التسمية إلى تجمّع تبشير الشعوب Congrégation pour l'évangélisation des peuples.

٤- رهبنة كاثوليكية تأسست سنة ١٥٢٥ وتعتبر تياراً إصلاحياً ضمن الرهبان الفرنسيين، واستقلت عنهم سنة ١٦١٩.

5- A. S. C. P. F. vol. 10. doc. 224. lettre du Préfet Settimo da Montalbollo. le 1 janvier 1804. Source ; H. JAMOSSI : Juifs et Chrétiens en Tunisie au 19e S. p 346.

تطلبت تلك الوضعية إعلان النفير العام لتجميع الأموال وتشجيع المسيحيين خاصة بالعاصمة، واعتماد تقليد حافظت عليه الكنيسة يتمثل في الإعلان الدوري عن الأرصدة التي تم تجميعها⁽¹⁾ وإشهار أسماء المتبرعين⁽²⁾، قصد تحفيزهم وتركهم في حالة استنفار دائم خدمة للتنصير بتونس، تحت مسميات كثيرة ومتعددة⁽³⁾. والملفت للنظر، أن بعثة الرهبنة الكبوشية ذات الأصول الإيطالية تمتعت بالحماية الفرنسية، بل أن المادة ١٩ معاهدة ٣٠ أوت ١٦٨٥ تعتبر: أن الآباء الكبوشيين ومتدينين منصرين آخرين بتونس، من أي أمة كانوا، سيعاملون من تاريخه ويعتبرون كموضوع خاصة بإمبراطور فرنسا، والذي سيتكفل بحمايتهم. وبناء عليه يعيشون تحت حماية قنصل فرنسا، مستعملين كنيسة الفندق Fonduq الخاصة بالفرنسيين إلى حين حصولهم على كنيسة خاصة بهم في ١٧٣٥ في بيت استأجروه من تونسي. وفي ١٨٣٧ اتسع مجال نفوذ البعثة لتهيمن لاحقا على مستشفى الآباء الثالوثيين⁽⁴⁾ Hôpital des Trinitaires. وبذلك يخفي مطلقا الآباء الثالوثيين الذين استقروا بتونس منذ ١٧٢٠ حين أذن لهم حسين باي بتأسيس المستشفى لمداواة العبيد. وقد قام على إدارته منذ التأسيس ب. إكزسمانس P. Ximens من أصول إسبانية.

عاشت، إذا، هذه البعثة تحت حماية قنصل فرنسا، والذي تكفل بالدفاع عنها لدى السلطة المحلية، ويؤمن لها المال عند الحاجة، كما يقوم بدور الناطق الرسمي للبعثة لدى الحكومة الفرنسية وكذلك لدى تجمع نشر الإيمان. إلا أنه ونتيجة للتململ في صفوف أفراد هذه البعثة نتيجة الهيمنة المطلقة لقنصل فرنسا،

- 1- Cent mille francs par an pour les pauvres. In. La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage), N° 8. Dimanche 21 février 1932, p 126.
- 2- Suite des souscriptions. In. La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage), N° 45. Dimanche 18 décembre 1932, p 726.
- 3- Une quête sera faite au profit des sinistrés de Tunisie par la jeunesse Catholique. In. La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage), N° 3. Dimanche 17 janvier 1932, p30.

٤- الآباء الثالوثيين: رهبانية كاثوليكية أسسها سنة ١١٩٤ الفرنسيان القديس يوحنا دي ماتا Saint Jean de Matha (١١٦٠ - ١٢١٣) والقديس فيليكس دي فلوا Félix de Valois (١١٢٢ - ١٢١٢). وأصل نشأتها كما ورد في تاريخ تأسيسها: لأجل إنقاذ المسيحيين من العرب. وتعتبر أقدم مؤسسة رسمية تابعة للكنيسة الكاثوليكية، فقد حديثا إشعاعها، أمام تناقص أعضائها، ولم يعد دورها مهما، لانعدام المسيحيين المضطهدين، لذلك ينحصر نشاطها عموما في فرنسا في مساعدة فاقدى السكن القار، كما لهم نشاط في بعض الدول الآسيوية وأمريكا اللاتينية. Hierholz Grimaldi R : Les Trinitaires. Fayard. Paris. ١٩٩٥.

وكذلك لتضارب المصالح الفرنسية الإيطالية، اتّجهت الإدارة الفرنسية بالتعاون مع الكنيسة للاستغناء عن أعضاء بعثة الرهبنة الكبوشية Frères mineurs Capucins من أصول إيطالية من خلال مضاعفة أعداد المنصرين الفرنسيين في إطار نفس البعثة قصد الهيمنة عليها وتوجيهها، وكذلك تكثيف عدد البعثات الكنسية الفرنسية، مثل: أخوات القديس يوسف Les sœurs de Saint-Joseph de l'Apparition والأباء البيض Les Pères blancs^(١).

الكنيسة بتونس:

انخرطت في العمل الكنسي بتونس العديد من البعثات الكنسية الأجنبية، ولكن رغم اختلاف انتمائها الجغرافي وولائها الديني والسياسي، فإنها متّفقة حول التوجّه الرئيسي لمهامها الوظيفية الدينية. ومن تلك الكنائس:

- بعثة الرهبنة الكبوشية Frères mineurs Capucins.
- كنيسة الأباء الثالوثيين L'ordre des Trinitaires.
- الكنيسة الأرثوذكسية L'Eglise Orthodoxe. تواجدت بتونس منذ القرن السادس عشر لخدمة بعض عمّال الصيد البحري من أصول يونانية. وقد تمّتّعوا عموماً بحرية واسعة حتى بعد عام ١٨٢٧ تاريخ استقلال اليونان.
- الكنائس الإصلاحية البروتستانتية Les Eglises réformées؛ لم تتواجد منها بتونس إلى حدود القرن التاسع عشر إلا الكنيسة الأنغليكانية، والتي كانت ممثلة بتونس منذ القرن السابع عشر في شخص كاهن إنجليزي غير مستقر. وفي حدود سنة ١٨٥٥ لم يتعدى أتباع الكنائس الإصلاحية مجتمعين المائة، وبحكم إقامتهم للقدّاس باللغة الإنجليزية فقد كانوا يجتمعون عند القنصل الأمريكي. وبوفاة القس بعد إصابته بمرض الكوليرا لم يوجد من يعوّضه. وتحت رعاية جمعية الإرساليات الأنغليكانية قدمت جمعية يهود لندن London Jews Society

١- وفعلًا تمّ ذلك نهائياً بتولي شارل ليفجيري Charles Lavigerie الإدارة الرسولية ومنصب رئيس أساقفة قرطاج ١٨٨١ - ١٨٩٢، وقد تزامن ذلك مع إمضاء اتفاقية باردو وبسط الهيمنة الفرنسية، بعدما توالى على المنصب تسعة إيطاليين بداية من ستيمو دا مونتالبولدو Settimo da Montalbordo ١٨٠١ - ١٨٠٧ وانتهاءً بالأسقف فيدال سياتر Fedel Sutter ١٨٤٤ - ١٨٨١.

لرعاية يهود تونس وصيانة المدارس التي فتحت منذ ١٨٧٥. ولذلك اعتبرت هذه البعثة المنافس الوحيد للبعثة الكبوشية إلى حين وصول الآباء البيض في ١٨٧٨.

وعموماً نجد أن البعثة الكبوشية أسست قرابة ٩ كنائس، أضاف إليها الكاردينال لافيغري ١٤. وبطول الاستقلال سنة ١٩٥٦ توجد قرابة ٧٨ دائرة رعوية Paroisses ولو أضفنا إليها المصليات التي تقام فيها العبادة بصفة مستمرة يصل مجموع ذلك ١٨٠، يقوم على خدمتها رجال دين فرنسيين في أغلبهم. ومن تلك الكنائس:

- كنيسة سوسة ١٨٣٦
 - كنيسة Sainte Croix بتونس العاصمة ١٨٣٧
 - كنيسة حلق الوادي ١٨٣٨
 - كنيسة صفاقس ١٨٤١
 - كنيسة جربة ١٨٤٨
 - كنيسة المهديّة ١٨٤٨
 - كنيسة بنزرت ١٨٥١
 - كنيسة Porto Farina ١٨٥٣ غار الملح حالياً.
 - كنيسة المنستير ١٨٦٣ ...
 - بيت جديد للآباء البيض، نهج جامع الهواء بالعاصمة، الافتتاح يوم السبت ٧ ماي ١٩٣٢، بحضور شخصيات رسمية وأدبية فرنسية وتونسية^(١).
- تقدّم دورية La Tunisie catholique تقارير تفصيلية منتظمة حول نشاط الكنائس والمصليات والجمعيات والمنظمات والبعثات... المسيحية على اختلاف انتماءاتها الكنسية. ومن الملفت للنظر حرص تلك التغطية الإعلامية على اعتبار تلك الأنشطة تظاهرات وطنية يُعدها وينظمها وينشطها ويحضرها تونسيون، حتى لكأنّ

1- L'inauguration de la nouvelle maison des pères blancs à Tunis. In. La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage). N° 20. Dimanche 15 Mai 1932. p 344.

تونس تحولت عن دينها الإسلامي لتصبح مسيحية، أمراً مسلماً به. يمكن ملاحظة ذلك مثلاً من خلال:

١- **تكثيف النشاط التنصيري:** فقد أوردت المجلة مقالاً بعنوان: أخبار فيرفيل
:Nouvelles de Ferryville

- الإرسالية الإيطالية عرف نشاطها نجاحاً كبيراً في فندق الجديد واختتمت حملتها في فيرفيل Ferryville لتواصل عملها في بنزرت وتينجة Tindja.
- حلت الإرسالية الفرنسية مكان الإرسالية الإيطالية في فيرفيل Ferryville بقيادة الراهب أرون M. l'abbé Arendl راعي كنيسة سوق الخميس، وذلك من الأحد ١٣ إلى الأحد ٢٠.
- الخميس ١٠ Directeur diocésain de la Croisade يزور فيرفيل Ferryville لمراقبة فريق الصغيرات، الذين اجتمع معهم يوم ٦ مارس في المدرّج، وتسهر عليهن Les Sœurs de Sacré-Cœur⁽¹⁾.

٢- **التظاهرات الاحتفالية:** نشرت المجلة مقالاً تحت عنوان Pour avoir nos Prêtres جاء فيه: الجمع الغفير الذي ملأ كنائس مدننا، والمسيحيين المنتشرين في البلاد، والأجراس التي تبارك حصادهم، يبدو أنه مفهوم جداً. ثم عقبّت المجلة حول خطباء مؤتمر التعبئة الكهنوتي: لكن أغلبهم معروفين لدى الجمهور التونسي⁽²⁾.

مدارس البعثات الكنسية بتونس:

- متوسطة سان لويس St-Louis-St-Charles سنة ١٨٨٠ على مرتفع قرطاج بيرصة Byrsa ونتيجة لعدة صعوبات تم نقلها إلى وسط العاصمة سنة ١٨٨٢ بشارع البحرية سابقاً والحبيب بورقيبة حالياً. وفي ١٨٨٩ ونتيجة لفشل المشروع باعها الكردينال لافيغري المؤسسة إلى الحكومة التونسية.

1- Nouvelles de FERRYVILLE. In. La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage), N° 13. Dimanche 27 Mars 1932, p 192.

2- Pour avoir nos Prêtres. In. La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage), N° 16. Dimanche 17 Avril 1932, p 256.

- مدرسة Sainte-Marie بصفاقس سنة ١٨٨٢ وفي سنة ١٨٨٣ ألحقت المؤسسة بالتعليم العمومي.

- مدرسة Sainte-Marie بسوسة سنة ١٨٨٣ وتوقف في سنة ١٨٨٥، وفي سنة ١٨٨٦ ألحقت المؤسسة بالتعليم العمومي.

- مدرسة Sainte-Marie بتونس.

- مدرسة Notre-Dame-de-Sion بتونس سنة ١٨٨٢.

مدارس تسييرها بعثة أخوات القديس يوسف Les sœurs de Saint Joseph:

- المدرسة الابتدائية المختلطة بالمنستير سنة ١٨٨٢. تقع في عمارة مهجورة تعرف بدار الباي، وقد تمّ تأجيرها بوساطة من المقيم العام الفرنسي بتونس بحسب رسالة مؤرّخة بتاريخ ١٩ سبتمبر ١٨٨٢^(١).

- مدرسة البنات بالمهدية؛ سنة ١٨٨٢، تهتم بالبنات ما دون سنّ السابعة. تدرّس مبادئ اللّغة الفرنسية ومبادئ الحساب ومدخل تاريخي وجغرافي ومبادئ فنّ الخياطة. ثمّ ألحق بالمدرسة مأوى للبنات الصغار الفقيرات.

- مدرسة البنات ببنزرت؛ سنة ١٨٨٢.

مدارس تسييرها الأخوات البيض:

- مدرسة البنات بالمرسى سنة ١٨٨٢.

- مدرسة البنات بباجة سنة ١٨٨٣، ثمّ ألحق بها مستوصف، ثمّ أغلقت في ١٨٨٥. وفي ١٨٩٠ أقامت البعثة مدرسة ابتدائية بمنطقة Porto Farina غار الملح حالياً.

- مدرسة Sainte-Monique بقرطاج سنة ١٨٨٥^(٢).

ومن المدارس الحديثة:

1- A. N. T. Série historique. Cart 64. Dos 764. Doc 24 et 25.

٢- لمزيد من التفاصيل، انظر:

Samia Nabli : L'œuvre du cardinal Lavigerie en Tunisie (1875 - 1891). Mémoire en vue de l'obtention du Mastère en histoire contemporaine. Sous la direction de Mr. Hassine Raouf Hamza & Mme. Latifa Lakhdhar. Université de Tunis. Faculté des sciences humaines et sociales de Tunis. Session Mars 2014.

- Institut Saint-Joseph
- Ecole des frères
- Sacré-Cœur
- Ecole Jeanne-d'Arc
- Pensionnat N-D Auxiliatrice
- N-D de Sion

المؤسسات الصحية وشبه الصحية الكنسية بتونس:

- Les sœurs Norbertines de Tabarka ، إرسالية مسيحية تعمل في المجال الصحي في أوساط المسلمين. يعتبر المقال توثيق تفصيلي لعمل الإرسالية وطبيعة الحالات التي تعترضهم في المستوصف⁽¹⁾.

- Sainte-Croix
- Orphelinat Margherita di Savcia
- Orphelinat Sainte-Monique
- Maison des Sœurs Blanches
- Orphelinat Regina Elena
- Pensionnat
- Notre-Dame (Sousse)
- Le groupe « Guy de Fontgalland » (Sfax)
- Le groupe « Guy de Fontgalland » (Tabarka)
- Crétéville.⁽²⁾

- 1- Les sœurs Norbertines de Tabarka. In. La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage). N° 32. Dimanche 11 Septembre 1932. p 511. « En voyant défilet tous ces malades. nous nous rendons compte de l'état misérable de la santé de ces pauvres indigènes. La jeunesse surtout nous fait pitié. Les jeunes filles. en particulier. et les enfants. sont profondément anémiés et offrent peu de résistance à la tuberculose... ».
- 2- Citations. In. LES PALMES de Carthage. Supplément à La Tunisie catholique. N° 12. Mars 1932. p 2.

ومن المهم الإشارة في هذا الصدد إلى المضمون الإيماني الذي تريد الإرساليات تمريره في طيات العمل الإنساني، من ذلك مثلا خطاب مرشد الأسقفية هارفي بازان

M. HERVE BAZIN : Le travail à faire «... Chers enfants de la Croisade. chers Cadets et Cadettes. vous savez bien que pour les décider. il faut une grâce spéciale de Dieu. Vous savez aussi que vos prières et vos sacrifices peuvent obtenir de la miséricorde de Dieu cette grâce nécessaire : vous n'auriez pas encore compris l'esprit de la Croisade si vous ne saviez pas cela. Mais vous le savez. Vous surtout. les petits. car il y a des choses que Notre-Seigneur confie surtout aux petits...p 6.

- Petites sœurs des pauvres⁽¹⁾ .

الهيئات الشبابية المسيحية بتونس:

- La Joyeuses-Union de Tunis، تعمل في أوساط الشباب⁽²⁾ .

الشباب الكاثوليكي:

- اتحاد الكاثوليك L'Union des catholiques: هيئة مركزية تضم كل أنشطة وأعمال الشباب في تونس⁽³⁾ .

- La mission de M. L'Abbé CLAVE، تعمل في منطقة قعفور، تضم قرابة ٤٠ شاباً⁽⁴⁾ .

- فدرالية الشبيبة الكاثوليكية Fédération de la jeunesse masculine catholique⁽⁵⁾ .

نقابة عمال السكك الحديدية:

- Groupe des cheminots Catholiques، تعمل في منطقة قعفور وتضم قرابة ٣٥ عاملاً بالسكك الحديدية⁽⁶⁾ .

الكشافة:

تعتبر الكشافة الفرنسية من جملة روافد الكنيسة النشطة، لدورها في تأطير الشباب، كما اجتهدت في استيعاب الشباب التونسي في مختلف أطرها وتشريكه في جملة أنشطتها المدرسية⁽⁷⁾ . من ذلك مثلاً ما أشارت إليه مجلة La Tunisie

1- Le Cinquantenaire de l'Etablissement des petites sœurs des pauvres. In. La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage). N° 23. Dimanche 5 juin 1932. p 383.

2- La Joyeuses-Union de Tunis. In. La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage). N° 31. Dimanche 28 Août 1932. p 495.

3- L'Union des Catholiques prend corps...et esprit. In. La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage). N° 23. Dimanche 5 juin 1932. p 385.

4- GAFOUR : La mission de M. L'ABBE CLAVE. In. La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage). N° 31. Dimanche 17 Janvier 1932. p 32.

5- Fédération de la jeunesse masculine catholique. In. La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage). N° 45. Dimanche 18 décembre 1932. p 724.

6- GAFOUR : La mission de M. L'ABBE CLAVE. In. La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage). N° 31. Dimanche 17 Janvier 1932. p 32.

7- Enfin. In. LE FOULARD ORANGE (Bulletin des scouts de France pour la province de Tunisie). N° 1. Dimanche 20 Mars 1932. p 1.

Catholique : البعد الروحي المسيحي لرسالة الكشافة:

« D'abord l'esprit chrétien :M. l'abbé Labbe (le vicaire de Sfax) fait ensuite une causerie spirituelle fort intéressante, qui fait écho dans le cœur enflammé de nos jeunes Scouts⁽¹⁾ ».

– العمل الخيري والإغاثي:

– أخوات القديس يوسف Les sœurs de S. Joseph، نهج سيدي صابر. تنظم سوق خيرية لفائدة الفقراء.

– أخوات NEVERS، ساحة سيدي عبد العزيز. تنظم سوق خيرية بحضور رئيس أساقفة تونس. بالمكان المخصص للصليبية توجد كتب وأشياء للبيع⁽²⁾.

– Les petites sœurs des pauvres، بعثة استقرت بتونس منذ ١٨٨٢ تعمل في الوسط النسوي التونسي⁽³⁾.

– Les Dames de charité à N-D. du Rosaire، تعمل في أوساط الفقراء بالأرياف التونسية⁽⁴⁾.

– أخوات صهيون Les sœurs de Sion: الاحتفال بالذكرى الخمسين بتونس Cinquantenaire des sœurs de Sion en Tunisie. والتي استقرت بتونس منذ شهر جانفي ١٨٨٢، وقد تواصلت مع آلاف النساء التونسيات⁽⁵⁾.

– الأنشطة الثقافية والفكرية الكنسية بتونس:

– مسابقات في الرسم والتصوير:

– المحاضرات: من ذلك تنظيم سلسلة محاضرات موجهة للنخب تناقش جملة قضايا

1- Les scouts de France à Sfax. In. La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage), N° 5. Dimanche 31 Janvier 1932. p 81.

2- Chronique diocésaine. In. La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage), N° 16. Dimanche 17 Avril 1932. p 260.

3- Les petites sœurs des pauvres. In. La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage), N° 20. Dimanche 15 Mai 1932. p 344

4- Les Dames de charité à N-D. du Rosaire. In. La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage), N° 31. Dimanche 28 Août 1932. p 495.

5- Cinquantenaire des sœurs de Sion en Tunisie. In. La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage), N° 4. Dimanche 24 Janvier 1932. p 50.

دقيقة، تعالجها تحت عنوان مركزي فحواه: من أجل إشعاع الفكر الكاثوليكي
Pour le rayonnement de la pensée catholique، ومن تلك المواضيع التي
طرحتها الكنيسة مع سرد لفقرات من محتواها:

- **Un beau projet :** Le catholicisme n'est pas un formalisme stérile, se bornant à quelques gestes rituels plus ou moins routiniers... Aujourd'hui, en raison du mouvement intellectuel très intense qui règne à Tunis, un sérieux effort semble s'imposer dans le plan intellectuel, pour le rayonnement de la pensée catholique.

De là le très vif désir exprimé par Son Excellence Mgr l'Archevêque de voir inaugurer ici, sans retard, de grandes conférences dans lesquelles des orateurs et écrivains éminents feraient entendre leur forte et brillante parole⁽¹⁾.

- **Le pain de l'esprit :** Ce pain de salut, c'est la pensée catholique... le catholicisme donne le plus sages réponses sur tous les problèmes temporels les plus graves, fondant la morale, éclairant la science, inspirant les arts et les lettres, couronnant la philosophie, stimulant et dirigeant l'évolution sociale vers un progrès ordonné et non vers les folles aventures d'imaginaires en délire, essayant d'établir dans le monde le règne de la paix véritable qui ne peut être assuré que par la modération, la Justice et la charité évangéliques⁽²⁾.

- **Le principal, c'est de comprendre...**⁽³⁾

1- Pour le rayonnement de la pensée catholique : un beau projet. In. La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage). N° 22. Dimanche 29 Mai 1932. p 352.
2- Pour le rayonnement de la pensée catholique : Le pain de l'esprit. In. La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage). N° 23. Dimanche 5 juin 1932. p 382.
3- Pour le rayonnement de la pensée catholique : Le principal. c'est de comprendre... In. La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage). N° 26. Dimanche 26 juin 1932. p 426.

- **Œuvre nécessaire** : Dans cette mêlée des idées, quelle est la place occupée par la pensée catholique ?⁽¹⁾

- البحوث والدراسات :

تعدّ المجلّة بعض البحوث والدراسات استجابة للتحدي الذي أصبحت تواجهه من النخب الفكرية التونسية، مثل :
أدراسة حول الصلاة بعنوان :

Encyclique « Caritate Christi compulsi » sur la prière et la réparation à offrir au sacré-cœur dans les épreuves présentes du genre humain⁽²⁾.

بدراسة حول قرطاج :

R. P. Lapeyre : Carthage : un demi-siècle de travaux⁽³⁾.

مصير الكنيسة ما بعد الهيمنة الفرنسية :

أشرنا سابقا إلى أنّ الكنيسة لم تنتعش إلاّ في ظلّ الاحتلال الفرنسي، لذلك خاضت حربا شرسة وصراعا محموما من أجل فرض الذات، ولكنها في عمومها أساليب يشوب الكثير من الغموض، وفي مجملها غير إيجابية. فهي تارة تستنجد بالبعثات التنصيرية في مجالات الصحة والتعليم، وتارة بالمنظمات الإغاثية الكنسية، وما انفكت تراهن على الإدارة الاستعمارية وتنظر من طرف خفي إلى القوة العسكرية الفرنسية المخيفة ترهب خصومها وتفرض أمر الواقع على التونسيين، حتى غدت ناطقا رسميا باسمهم كما أشرنا في مواطن عدّة.

ومن المؤسف أنّ الكنيسة لم تستطع استيعاب حقيقة تاريخية حتمية مفادها انتهاء الوجود المسيحي بتونس منذ الفتح الإسلامي، الذي تصرّ على تسميته بالحملات العربية وترفض الاقرار بالأمر الواقع.

- 1- Pour le rayonnement de la pensée catholique : œuvre nécessaire. In. La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage). N° 27. Dimanche 3 juillet 1932. p 444.
- 2- Encyclique « Caritate Christi compulsi » sur la prière et la réparation à offrir au sacré-cœur dans les épreuves présentes du genre humain. In. La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage). N° 23. Dimanche 5 juin 1932. p 369.
- 3- Un beau livre sur Carthage. In. La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage). N° 6. Dimanche 7 février 1932. p 99.

ومعلوم أنّ كل تلك الترسانة من المؤسسات الكنسية على مختلف انتماءاتها غير قادرة على مجاوزة الأطر التي تمثلها من مجموع البعثات الأجنبية على مختلف أنشطتها. ولعلّ السيّد مارون لحام كان أكثر رجال الدين المسيحيين صراحة وصرامة في رسالته الأسقفية بعد سرده لتاريخ الكنيسة بتونس: "نلاحظ سلسلة من الوقائع الجديدة في كنيسة تونس: شيخوخة الأشخاص؛ (الرهبان، المتدينون والمتديّنات، علمانيون) غلق أبواب عدد كبير من المدارس، أعضاء حركات دينية جديدة، ضعف الحمية الدينية.

أصبح جليا أنّ عالما قديما على مستوى الكنيسة في طريقه للتلاشي وعالما جديدا يبحث عن ذاته ولم يوفّق بعد. إنّ وصول المئات من الأفارقة للدراسة في الجامعات التونسية وتمركز بنك إفريقيا للتنمية بتونس وتواجد المئات من الشركات الأجنبية، الوصول المدعوم للمسيحيين العرب من الشرق، دون الحديث عن ملايين السياح... كل هذا يجبر على التفكير في أشكال جديدة للتواجد والاستفادة من الكنيسة⁽¹⁾.

وفي ورقة أخرى بعنوان "استجواب يتعلّق بالجنوب والمناطق الداخليّة بتونس Questionnaire à propos du sud et de l'intérieur du pays" قال مارون لحام: لنكون واقعيين وأكثر فاعلية لا بدّ من الوضع في الاعتبار: الأرضية، رجال الكنيسة، الهدف الذي يحدّد العمل.

وفي تقديرنا أنّ كل تلك التصوّرات هي محاولات إحيائية هدفها نفخ الروح من جديد في جسد التنصير تحت لافتات مغايرة نتيجة لتغيّر الواقع ووصول المواطن التونسي إلى درجات متقدّمة من الوعي الحضاري والحصانة الدينية تحميه مخطّطات التنصير وما تهَيّئ له الكنيسة من مخطّطات جديدة. وفي تقديرنا أنّها تدور في حلقة مفرغة تحوم حول نفسها، كما بدأت انتهت. وذلك لسببين رئيسيين:

- السبب الأوّل: أصالة التدين وعمقه في الشخصية التونسية.
- السبب الثاني: الوعي بالتاريخ وطبيعة التعاطي مع الكنيسة.

1- Mgr Maroun LAHAM (Evêque de Tunis) : L'église en Tunisie précis historique. Pâques 2007. Tunis.

ولعلنا في خلاصة السيد مارون لحام ما يؤكد ذلك. فهو يطرح سؤالاً مهماً: ما هي أشكال التواجد والخدمات الآنية والواقعية في الجنوب والمناطق الداخلية بالبلاد؟ ثم يجيب من خلال تعدادة لجملة مسائل:

- مجال التعليم: مدارس، دعم مدرسي (دروس تقوية)، مكتبات (مهما كانت: صغيرة، متوسطة أو كبيرة، وهذا يتوقف على "الزبائن" الذين تتوجه إليهم).
- مجال الصحة: العمل الصحي والاجتماعي، مراكز علاج، مصحات.
- الاستقبال بالكنيسة.
- زيارة المساجين.
- جمعيات المعاقين ذهنياً وعضوياً.
- تنشيط JCAT.
- سياحة.
- الزيجات المختلطة.

بعض المقترحات الأخرى:

- المشاركة في الحياة بالأحياء.
- معايشة وتهيئة أكبر قدر ممكن من المرونة مع المؤسسات.
- المعرفة بواقع البلاد.
- ضرورة التواجد في عالم السياحة.
- التنسيق على مستوى الأسقفية لتنشيط فرق JCAT في كل المدن الجامعية.
- لكن يجب الوضع في الاعتبار التاريخ والتطور السريع في السنوات الأخيرة للعقلية في البلاد. ولعرفتها:
- التحلي بالواقعية.
- تنمية حياة التأمل.
- تقوية العلاقة بالزيجات المختلطة.
- ضمان الحضور بالقرب من كبار السن والمعزولين والمرضى...

- الإعلاء من القيم المشتركة الإسلامية المسيحية.
- الحضور بالأحياء المهمشة.
- التعاون مع الجمعيات التونسية.
- استقبال المهاجرين.
- رياض الأطفال ما قبل المدرسي.
- استقبال ومتابعة الأمهات العازبات (من لهن أطفال من السفاح: الزنا).
- بيت لعائلة تعالج طفل مصاب بالسرطان.
- تنوع الأنشطة الحالية للكنيسة وتوسعتها في مختلف الأحياء.
- ضمان العلاج الأولي.
- التواصل الديني مع السياح.
- نوادي إعلامية.
- التوأمة مع أسقفيات أخرى.
- الانفتاح على الكنائس العربية بالشرق الأوسط.
- التعليم العالي.
- التماس العون من العائلات حديثي الإحالة على التقاعد.
- الانتباه لعدم التفريط في المواقع بالأحياء الفقيرة بالمرسى والقصرين والبدنان...
التي يجب أن تبقى مكان يشهد للكنيسة⁽¹⁾.

خاتمة البحث

- يحيلنا البحث إلى جملة خلاصات محددة يمكن ضبطها في ثلاث مسائل:
- **المسألة الأولى:** يلاحظ من خلال مسيرة البعثات الكنسية بتونس سيطرة هاجس خفي على طبيعة تعاطيهم مع الحالة التونسية، يكمن في الخوف من الفشل في استرداد تونس من الحاضنة الإسلامية.
 - **المسألة الثانية:** عدم قدرة الكنيسة استيعاب جوهرية التحول في البنية الدينية والحضارية التونسية، لذلك حافظت منذ القديم وخاصة مع وقوع تونس تحت

1- Mgr Maroun LAHHAM (Evêque de Tunis) : Questionnaire à propos du sud et de l'intérieur du pays. 23.5.2007. Tunis.

الهيمنة الفرنسية على نفس منطق التعاطي مع الواقع الجديد بأليات غير فاعلة. فهي تتقلب بين المنطق الصليبي العدواني وبين الاستنجاد والتقوي بالجيش الفرنسي.

● **المسألة الثالثة:** والأكثر أهمية، هي عودة الكنيسة لنفس الأساليب التي استعملتها البعثات التنصيرية القديمة إلى تونس وإن كانت في لبوس جديد. ولم تستوعب مآلات جهود الكاردينال لافيغري الذي أجبر في كل مرة على بيع المؤسسات التربوية الكنسية للدولة التونسية أو إلحاقها بالتعليم الرسمي، وفي تصورنا أن مآلات الكنيسة بتونس حديثاً لن تختلف مع الماضي. لذلك يتعين على الكنيسة بتونس وبحسب نتائج البحث:

- القطع مع مشروع التنصير بتونس الذي يستهدف المسلمين واستغلال وضعهم المادي والصحي والتربوي.
- الاهتمام بالمسيحيين الوافدين وإعانتهم على العيش بتونس بشكل إيجابي خاصة القادمين من إفريقيا.
- الاستثمار في حركة الحوار الديني الحضاري بما ينفع الشعوب والأمم، مع احترام خصوصيات البلد المضيف.
- الاستفادة من المؤسسات الكنسية القديمة بتونس ومعرفتها الدقيقة بالواقع التونسي في سبيل تطوير سبل العيش المشترك بين أتباع الأديان، وهو ما افتقدته كنيسة قرطاج طيلة تواجدها بتونس.

القضايا الجدلية من خلال المجلة الزيتونية:

من خلال عملية جرد صحيفة تونس الكاثوليكية La Tunisie Catholique ظهر أن المشرفين على المجلة الزيتونية كانوا على اطلاع مباشر على ما تصدره الكنيسة ومؤسساتها بتونس. ويدل ذلك على متابعة لصيقة للنشاط الكنسي في مختلف تجلياته. فلا عجب أن الصحافة التونسية كانت على الضفة الأخرى من الحراك الوطني تقود حملة منظمة لكشف سياسة الاحتلال الفرنسي بتونس وكيفية

تقاسمه الأدوار مع مختلف المؤسسات والبعثات الكنسية. وبحسب مراجعتنا لأعداد من الصحف المتابعة لتلك الأحداث نجد أن صحيفة الزهرة والنهضة وصوت التونسي والعمل، كانت أكثر انخراطا في مهمة التوعية الوطنية من خلال المقالات والتحليل والتغطية الصحفية لتلك الأحداث. تستوي في ذلك الصحف المصنفة معتدلة تصالحية مثل الزهرة، والصحف المحسوبة على الشق المتصلب في الحركة الوطنية، خاصة ما يصدره أساتذة وطلبة جامع الزيتونة.

فقد أوردت مثلا، صحيفة الزهرة في افتتاحية عددها بتاريخ ١٨ جوان ١٩٣٠ أن المسلمين ليسوا أعداء الكنيسة وإنما يرفضون وضع يد المسيحية على تونس. وعلى نفس الوتيرة سارت وتفاعلت بقية الصحف التونسية التي كانت عرضة للمضايقات والمصادرة والسحب من الأسواق وإلغاء بعض المقالات... فكان للصحافة الوطنية دور رئيس في تعميق الشعور الوطني وتعطيل دوران آلة المؤسسة الكنسية، لتسير على غير النسق الذي يجب. وفي بحثه القيم " اللقاء بين الكنيسة الكاثوليكية والإسلام في تونس من ١٩٣٠ إلى ١٩٦٨ " يقدم ميشال لونغ قراءة دقيقة لواقع الصحافة التونسية ودورها المميز في التصدي لجملة تلك القضايا التي نحن بصدها، وخاصة المؤتمر الإفخارستي ومسألة التجنيس^(١). إلا أن عنوان البحث في ذاته يحمل أكثر من معنى وله أكثر من دلالة ويمكن قراءته بوجوه متعددة، خاصة وأن الكاتب كان قد عين كاهنا بكنيسة قرطاج سنة ١٩٤٨ ثم أصبح من الآباء البيض، الذين انخرطوا باكرا في أسقفية قرطاج وكانوا أكثر فاعلية من غيرهم خلال المؤتمر الإفخارستي الثلاثين بتونس، وكذلك مؤتمر التجنيد الكهنوتي بتونس؛ ١٣ - ١٧ أبريل ١٩٣٢.

خطت المجلة الزيتونية لنفسها، منذ تأسيسها، خطا واضحا، وتبنت قيمة أعلنت أنها ستحترمها كما ورد في آخر مقدمة العدد الأول: " وسيكون شعار المجلة

1- Michel LELONG : La rencontre entre l'Eglise catholique et l'Islam en Tunisie de 1930 à 1968. Thèse complémentaire pour le Doctorat-ès-Lettres. Aix-en-Provence. 1970. IBLA Tunis. p 168. « constate tout d'abord chez les zitouniens 'indifférence, tolérance et méfiance' à l'égard de l'église et il cite comme témoignage de cette méfiance des textes parus entre 1945 et 1955 dans des publications zitouniennes u sujet des dangers du prosélytisme chrétien ».

في جميع أعمالها وفي مختلف أطوارها؛ الإصلاح الديني ومقاومة كل حركة ترمي إلى الإلحاد أو التعصب الديني أو المذهبي، ومقاومة البدع بجميع أنواعها ما استطاعت إلى ذلك سبيلا، وبث العلوم والمعارف بين الناس بأقرب الوسائل وأسهل الطرق، وتدخل في المناقشات العلمية مع التزام الآداب في المناقشة والأخذ بالرفق واللين وتحاشي ما وقع فيه كثير من أهل العلم من تنكب جادة الصواب، والخروج في المناقشات العلمية عن دائرة الآداب، بما صيرهم سخرية عند العام فضلا عن العلماء، ومضغة في أفواه الحمقى فضلا عن العقلاء. لذلك لا تنشر المجلة إلا ما كان داخلا تحت هذا الشرط. إذ أهل العلم يجب أن تظهر فيهم مكارم الأخلاق بأجلى مظاهرها وأكمل صورها، وإلا فهم غير صالحين لأن يقتدي بهم واحد، وما صلح الملح إذا الملح فسد^(١).

ومن أوجه الإصلاح الديني ومقاومة الإلحاد والتعصب ما كتبه رئيس التحرير تحت عنوان "أشد الناس ضررا على الدين أعداؤه الذين يعملون ضده وهم ينتسبون إليه"، حيث قال: "...ورغما عن ذلك كله فنحن لا نزال نرى أفرادا يقومون بدعايات لإفساد الدين والعبث به والتشويش على عامة المسلمين بإلقاء بذور الإلحاد والزندقة بينهم أو بإدخال الشبهات عليهم وصددهم عن ذكر الله لما ينشرونه من ضلالات وتوقعات في أمور لا داعي للتوقف فيها"^(٢).

وفي تقديرنا أن المقال إجابة أدبية على بعض الأفكار التي بدأت تأخذ طريقها إلى عديد النخب التونسية يومها، سواء المتدرسين بالمؤسسات التعليمية غير الزيتونة أو الذين التحقوا بالمؤسسات التعليمية بفرنسا، خاصة وأن الفكر اليساري كان في أوج قوته، كذلك التوجهات العلمانية والتأثر بريح التغريب كخيار ثقافي حضاري حرصت المؤسسات الرسمية الفرنسية على ترسيخه في النخب التونسية بديلا للثقافة الوطنية. ولعل ما كتبه محمد العزيز جعيط تحت عنوان "التشريع الإسلامي والمرأة"، جزء من المطارحات الفكرية التي ميّزت تلك الحقبة من تاريخ

١- محمد المختار بن محمود: المقدمة. المجلة الزيتونية، م ١ / ج ١ / رجب ١٣٥٥، سبتمبر ١٩٣٦، ص ٥.

٢- محمد المختار بن محمود: المقدمة. المجلة الزيتونية، م ١ / ج ٣ / رمضان ١٣٥٥، نوفمبر ١٩٣٦، ص ١٠١.

الفكر التونسي، وتعبيراً عن نضج الصحافة التونسية وقدرتها على إدارة حوار هادئ مفيد، فهو يقول في معرض حديثه: "كثير ما وجه المتعصبون من الغربيين سهام الانتقاد على الشريعة بتهمة الإجحاف بحقوق المرأة حتى أثر ذلك على بعض المنتمين إلى الإسلام ممن فتنهم زبرج التمدن الغربي فانصاعوا لأقوال أهله دون تمييز بين السمين والغثيث والطيب والخبيث وأصبح النساء مثار فتنة من ناحية العدل في التشريع كما كن ومازلن حبال فتنة من ناحية العفة والاستقامة... لهذا أثرنا الحديث على مراعاة الشارع للمرأة في جميع أطوارها وعامة نواحيها حتى يتجلى لذي عينين محاسن هذه الشريعة المباركة فيما تضمنته تعالىها من مراعاة مصالح النساء..."^(١).

ولعلنا نلمس في هذا المقال شيئاً من التبرّم أو الضيق من أصحاب هذا التوجّه، واضعين في الاعتبار خصائص تلك المرحلة التاريخية، والصدمة التي تلقاها المفكر التونسي يومها من الوافد الغربي، والذي لم يقدر على مدافعتة ومغالبتة لقوّة سلطانه القهري وإرادة الهيمنة وما كان يتمتّع به من دعم قوي، باعتباره خياراً ومساراً اتّضحت معالمه ما بعد الاستقلال الوطني، وما صاحبه من إجراءات إدارية خاصّة؛ غلق جامع الزيتونة وقانون منع تعدّد الزوجات...، وهي في عمومها خطوط حمراء عند علماء جامع الزيتونة وطلابه، ومن انخرط في خيارهم الحضاري، وتبنى مشروعهم الفكري المستند إلى المراجع الأصولية الإسلامية. كما أفصح عن ذلك المحامي المهدي بن الناصر في مقال له بعنوان "الإسلام منقذ البشرية ومركبها إلى شاطئ النجاة"^(٢)، تعرّض فيه للمذاهب الفلسفية والمادية والإلحادية... في الغرب عامة، ثم أبان فيه عن مكارم الشريعة وفضائلها ودورها في إنقاذ البشرية من التيه والضلال الذي عاشت فيه^(٢). أو ما يعبر عنه حديثاً بمقولة: الإسلام هو الحل.

يتّضح لنا من خلال ذلك أنّ القضايا الجدلية في عمومها هي ما نتج عن سياسة الكنيسة على مستوييها الديني العقائدي والفكري الفلسفي، خاصّة وأنّها

١- محمد العزيز جعيط: التشريع الإسلامي والمرأة. المجلّة الزيتونية، م ١ / ج ٤ / شوال ١٣٥٥، ديسمبر ١٩٣٦، ص ١٧٨.

٢- المهدي بن الناصر: الإسلام منقذ البشرية ومركبها إلى شاطئ النجاة. المجلّة الزيتونية، م ١ / ج ٤ / شوال ١٣٥٥، ديسمبر ١٩٣٦، ص ١٨٩.

قائمة بالأساس على المؤسسات التعليمية الأجنبية الحديثة بتونس، أو ما يعرف بمدارس البعثات التنصيرية التي حرص الكاردينال لافيغري على تأسيسها وافتتاحها في كل المدن التونسية، جنبا إلى جنب مع دور رعاية الأيتام والمشردين، الذين وضع لهم خطة دقيقة لاحتضانهم ثم تزويجهم بالبنات الفرنسيات نزيلات دور الرعاية بفرنسا، وهكذا يتم الربط بين الجانبين المعرفي والاجتماعي وخلق عنصر بشري جديد هجين، يجمع بين الأصول التونسية والروح الدينية المسيحية، وهو ما تصدى له علماء جامع الزيتونة وطلابه، من خلال صحافتهم ومنشوراتهم وتحركاتهم الميدانية والفكرية...

التنصير: ورد ذكره في المجلة الزيتونية تحت مصطلح "التبشير" والمبشرون، وهي تسمية غير دقيقة، لأن كلمة تبشير العربية مصدرها البشارة Evangile من الإنجيل، ومنها كلمة Evangélisation التبشير، ومنها الكنيسة الإنجيلية Les églises évangéliques التي هي جزء من المسيحية الإنجيلية. فقد انحدر مصطلح الإنجيلي Evangélique في البداية من الإنجيل، ثم أخذ بعدا دينيا جديدا مع حركة الإصلاح الديني التي تزعمها الألماني مارتن لوثر Martin Luther سنة ١٥٢٠. أما مصطلح التنصير فهو يقابل Christianisation، وبما أنها كلمة صادمة للشعوب المعنية بذلك وخاصة الإسلامية فقد تم الاستعاضة عنها بمصطلح مغرض وهو التبشير، والمقصود به التبشير بمضامين رسالة المسيح كما تفهمها الكنيسة، والمؤسسة في جوهرها على خطاب بولس الرسول بعد التخلص من الحواريين أو الموحدنين أتباع المسيح عليه السلام^(١).

كما ذكر مصطلح آخر يفيد نفس المعنى وهو "الدعاية المسيحية". وقد خصّصت هيئة المجلة الزيتونية عددا كاملا وهو الجزء التاسع من المجلد الخامس بتاريخ صفر ١٣٦٤ الموافق فيفري ١٩٤٥، عرضت فيه الرسالة وعالجتها من ثلاث زوايا متوازية:

1- Marie- Françoise Baslez : La révélation intérieure du Crist. Le Point – référence – Janvier-Février 2016. p 14.

• **الزاوية الأولى:** دراسة وتحليل وتقييم خلفية الرسالة التي وزعتها الكنيسة البروتستانتية في نشرية (عاملون مع الله).

• **الزاوية الثانية:** الوفود والرسائل الاحتجاجية الموجهة لمختلف الجهات الرسمية التونسية والفرنسية.

• **الزاوية الثالثة:** تقديم شهادات غير المسلمين في الإسلام ونبئه.

وسنعرض لتلك الزوايا مستعيرين في كل ذلك كلام كاتبه، من دون تصرف، حفاظا على الأمانة العلمية، مع بعض ملاحظات بحسب ما يقتضيه منهج الدراسة.

- **الزاوية الأولى:** عرض وتحليل مضمون الرسالة محل النزاع والاحتجاج:

- **الإسلام والمبشرون:** مقال مطول ناقش فيه كاتبه محمد الشاذلي ابن القاضي، مضمون الرسالة محل النزاع، وذلك من خلال خمسة مداخل:

الأول: التعريف بالرسالة: "ظهرت من الكنيسة البروتستانتية بتونس في العهد الأخير نشرية تهجمت على الإسلام والمسلمين وخاصة على مقام الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم وكشف القناع عما يقوم به الرهبان والراهبات في هذا الشمال الإفريقي مما يسمونه بالتبشير وما يرتكبونه من الحيل لتنصير أبناء المسلمين والدعوة إلى بذل الجهد لجلب الملايين من المسلمين للمسيحية والسعي الحثيث للوصول إلى هذه الغاية"^(١).

الثاني: التذكير بمسؤولية علماء الإسلام: "ونحن بما علينا من الواجب نحو هذا الدين الحنيف الذي ندين به ونحو إخواننا المسلمين وما فرضه علينا الإسلام من الاصداع بالحق والرد على كل متهم معاند نجيب هؤلاء القوم عما نشره وأذاعوا به من التراهاث والأباطيل"^(٢)، أي الأكاذيب والأراجيف. إذ ينطلق الكاتب من مسلمات عقدية يبطل بها الأفكار التي تضمنها المقال المنشور في الجريدة المسيحية. فهو ينطلق من مبدأين اثنين: الأول تفنيد عقائد الكنيسة وإبطال مقولتها، والثاني بيان الحقيقة للمسلمين وطمأنتهم من حيث صحة

١- محمد الشاذلي ابن القاضي: الإسلام والمبشرون. المجلة الزيتونية، م ٥ / ج ٩ / صفر ١٣٦٤، فيفري ١٩٤٥، ص ٢١٧.

٢- نفس المصدر السابق، ص ٢١٧.

معتقداتهم وأن خطاب الكنيسة هو مجرد نشر للأكاذيب وإفصاح عن نواياها الحقيقية.

الثالث: عرض جانب من مضمون الرسالة: "هل تستيقظ الكنيسة قوية وغازية فتجلب للمسيح هؤلاء الملايين من المسلمين الذين أضلهم نبي دجال"^(١). ومن ثم يقوم بالرد على هذه المقدمة من خلال بيان محاسن الإسلام ومكارم الشريعة الإسلامية وسمو أخلاق المسلمين وسلوكهم ونظافة سريرتهم وطهارة أبدانهم وثيابهم ودورهم في صناعة الحضارة وتفوقهم على غيرهم من الأمم. وبالجملة فإن الإسلام: "يأمر بالعدل وكل الفضائل وينهى عن الفحشاء والمنكر وكل الرذائل فهذه وأمثالها تعاليم الإسلام التي أمر بها صاحب الرسالة الأعظم صلى الله عليه وسلم واهتدى بها المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، فجعلت المسلمين من عهد الرسالة من الوجهة الأخلاقية والاجتماعية في أعلى درجات الحضارة وأخرجت الناس من عالم الوحشية إلى عالم الإنسانية الفاضلة"^(٢). فهو يركّز على جانب القيم الإسلامية الكونية، ويُلَفِت النصارى إلى المشترك الديني الذي يجمعهم، بل يقربهم من بعض في مواجهة المنظومة المادية التي وصفها بمصطلح "حضيض الوحشية".

الرابع: نقد تعاليم الكنيسة من خلال بيان حقيقة دعوة المسيح: "وهل من تعاليم المسيح التعدي على الناس ورميهم بأوصاف يتنزه اللسان الطاهر أن ينطق بها ولا يبيح لصاحب المروءة أن يلصق بها واحد من عموم الناس فضلا عن أصحاب المقامات السامية فضلا عن رسول يدين برسالته نيف وثلاثمائة مليون مسلم"^(٣).

الخامس: النقد المباشر من خلال بيان واقع الكنيسة وأتباعها: "أعجب لمن يروم إصلاح الناس فيما يزعم وصدّهم عن المهالك ويداه مخضبتان بالإثم والعدوان وهلا اعتنى القوم بشبابهم الذي يمرق من حضيرة معتقداتهم كل يوم

١- نفس المصدر السابق، ص ٢١٧.

٢- نفس المصدر السابق، ص ٢١٨.

٣- نفس المصدر السابق، ص ٢١٨.

كما يمرق السهم من الرمية متأثر بالدعايات الإلحادية التي يئن من وقرها أهل العقول... ذلك أجدى لهم من الهجوم على المسلمين"^(١).

ثم يختم مقاله بدعوة ونداء:

أ/ دعوة لغير المسلمين في عالم متقارب متجاوز للعيش المشترك على أسس الاحترام المتبادل والتعاون البيئي بما فيه خير ونفع الإنسانية بعيدا عن الدعاية والتحامل والاستعداد، فهو يعرض الأجر ويدعوهم لنبذ خلاف الأولى، بقوله: "كنا نحسب أننا في عصر زالت فيه الحجب وتعلم الناس احترام الحقوق الخاصة والعامة واندك فيه صرح التعصب يقوم الناس على حسن المعاشرة متمسكين بما ينبغي من الآداب سالكين مسلكا يرفع لواء السلام ويبسط عليهم ظلال الأمن والوئام ويمكن للعائلة البشرية المختلفة المذاهب والنحل من العيش متعاون أفرادها على المصالح العامة تعمل كل جماعة بمصالحها الخاصة حسب تقاليدھا الدينية والقومية من دون أن تلحق بغيرها ضررا..."^(٢).

ب/ نداء للمسلمين بعد تأكده من انحراف الكنيسة عن مهامها وأنها لا يمكن أن تكون طرفا فاعلا وشريكا إيجابيا في نشر الخير والتعاون بين الناس: "فيما معشر المسلمين إن مما فرضه الله علينا أن نذكركم بما يوجب الإسلام ونصح لكم إزاء هذه الأعمال وهاته الطرق الضارة بكم وأبنائكم ومرضاكم ونسائكم. فالواجب عليكم أن تحذروا هؤلاء الناس فلا تعلموا أبناءكم وبناتكم في مدارسهم ولا تداووا مرضاكم في مستشفياتهم... فلا يباح لكم تقديم فلذات أكبادكم لهؤلاء الذين ظهر أمرهم للعيان ولا تأمنوهم عليهم بعد ما علمتم برامجهم، وأتقوا الله فيما تحت أمانتكم والله يحب المتقين"^(٣).

ففي الخاتمة إعلان للحكم الشرعي بعدم جواز الالتجاء إلى غير المسلمين في الصحة والتعليم... ورفع الجواز أي التحريم، وهو حكم شرعي ملزم، تأكد بعد بيان حال الكنيسة وسياستها. ثم جعل ذلك من علامات التقوى وهي خشية الله تعالى

١- نفس المصدر السابق، ص ٢١٩.

٢- نفس المصدر السابق، ص ٢١٩.

٣- نفس المصدر السابق، ص ٢١٩.

والخضوع له، وجعل ذلك محلّ الأمانة التي استُحفظ الإنسان عليها. وهو خطاب ديني مؤصّل أراد من خلاله صاحب المقال التأثير المباشر في القارئ، واعتبار ذلك الكلام ملزماً واجب الإتيان، دفاعاً عن الإسلام وحفاظاً على المجتمع الإسلامي.

– **الزاوية الثانية:** الوفود والرسائل الاحتجاجية الموجهة لمختلف الجهات الرسمية التونسية والفرنسية.

– دور جامع الزيتونة نحو الدعاية المسيحية: تغطية للحركة الاحتجاجية التي قام بها أساتذة جامع الزيتونة، وقد تضمنت:

أ احتجاج المشايخ المدرسين.

ب وفد المشايخ المدرسين عند الحضرة العلية.

ج تصريحات الجناب الملكي لوفد المدرسين.

د تصريح جناب الوزير الأول.

هـ الهيئة الشرعية.

و مدرسو فروع الآفاق.

ز جمعية الشبان المسلمين.

– تعليق حول بلاغ الوزارة الكبرى: على إثر تصريح ممثل الحكومة الفرنسية، الذي أكد على تسامح فرنسا تجاه الاختلاف الديني والتنوع الثقافي. حيث علّقت المجلة الزيتونية على ذلك بقولها: "إن عبارة التسامح التي جاءت في البلاغ تعجب منها المسلمون لأنهم يعتقدون وكما هو الواقع أن إقامة الدين الإسلامي والشعائر الإسلامية في هذه الديار الإسلامية ليست من باب التسامح من الحكومة الفرنسية بل إن الدين الإسلامي هو الدين الرسمي للحكومة التونسية... فكيف يمن عليهم بالتسامح مع كافة العناصر الإسلامية.

على أن المسألة وراء ذلك فهي مسألة إطفاء غضب هؤلاء العناصر الذين طعنوا في الصميم ولا يظن أنها مجرد قضية بسيطة يكفي فيها مثل هذا القول الذي عاد على موضوعه بالنقض، ونحن نجاهر الحكومة بما يحس به إخواننا المسلمون

- وما يتحدثون به لتدارك الأمر بسياستها الرشيدة^(١).
- خطاب الشيخ محمد الشاذلي ابن القاضي مدير هذه المجلة أمام الملك المعظم سيدنا محمد الأمين باشا باي: فقد ترأس وفد الهيئة العلمية بجامعة الزيتونة ليغرب على لسانها بما تشعر به من الألم من تعدي الكنيسة على مقام صاحب الرسالة الأعظم صلى الله عليه وسلم. وذلك من باب مناصحة العلماء لأولي الأمر. ثم توجه إلى الملك بجملة مطالب، منها:
- أ. إلزام الحكومة الفرنسية باحترام الدين.
- ب. عدم السماح بنشر أي رسالة أو مقالة فيها ما يمس بدين المسلمين.
- ج. الاعتذار الصريح عما صدر في رسالة "عاملون مع الله".
- د. محاكمة الناشر والمطبعة لمخالفتهم القانون العام.
- هـ. سن تشريع يمنع المسلمين من تعليم أبنائهم في مدارس الرهبان والراهبات ويمنعهم من التداوي بمستشفياتهم^(٢).
- يتّضح من خلال هذا الخطاب أنّ المقال الأسبق الذي قمنا بعرض محتواه وتحليله لم يكن من بناء فكر محمد الشاذلي ابن القاضي، وهو مدير المجلة، وإنما كان تعبيراً عن توجه عام للمؤسسة الزيتونية وقّعه باسمه. إذ أنّ بنود المطالب التي وُجّهت إلى ملك تونس هي ذاتها التي ذكرها الكاتب في مقاله، صحيح نُشرت في المجلة الزيتونية ولكنها بحسب تقديرنا كانت من أجل تهيئة الرأي العام التونسي وتشكيل وعيه في اتجاه معين حول قضية جدلية خطيرة بامتياز تمسّ عقيدة المجتمع في الصميم، بحسب عبارة صاحب المقال.
- احتجاج المدرسين بجامعة الزيتونة على ما جاء في رسالة (عاملون مع الله): مناسبة أعرب فيها أعضاء هيئة التدريس لا عن احتجاجهم فقط تجاه التعدي على مقام النبي صلى الله عليه وسلم، بل للتعبير عن سخطهم لما تتعرّض له صحيفتهم من عرقلة ومضايقة من قبل الإدارة الفرنسية عند تجاوزها الخطوط الحمراء التي

١- نفس المصدر السابق، ص ٢٢٢.

٢- نفس المصدر السابق، ص ٢٢٣.

وضعتها، حيث جاء في الاحتجاج ما نصّه: "...وأن أهل العلم من هذه الأمة بما بوأثم نسبتهم من هذا المقام الكريم من منازل الحرمة والاعتبار يرون فرضاً عليهم أن يكونوا الصادعين بهذا الاحتجاج البالغ من الأمة الإسلامية أسوأ مبلغ. فيتوجهون إلى مقامكم العلمي الشريف رجاء رفع احتجاج الهيئة العلمية الدينية وعلى سماح قلم مراقبة المطبوعات برواج مثل هذا الهذيان في الوقت الذي تؤخذ فيه نشراتنا بالسفاسف ويشدد عليها أحكاماً التشديد احتجاجاً يبلغ من طرف مشيختكم الجليلة إلى السفارة الفرنسية بتونس والوزير المعتمد للحكومة الفرنسية بشمال إفريقيا ووزارة الأمور الخارجية بفرنسا من الطرق الرسمية"^(١).

- احتجاج طلبة الجامع الأعظم المرفوع لكل من جلالة الملك المعظم وسعادة السيد بيدو وزير خارجية فرنسا والجنرال ماست المقيم العام بتونس: تفاعلاً وتكاملاً مع احتجاج الهيئة العلمية لمشايخ الزيتونة، وانسجاماً مع التوجّع العام للمؤسسة، معبرين عن سخطهم ورفضهم الشديد لما جاء بنشرة "عاملون مع الله" التي أصدرتها هيئة الكنيسة الإصلاحية "البروتستانت". ومما ورد في الرسالة: "غير أن تعشقنا للتروي وحبنا للرصانة والتعقل، تلك التعاليم السمحة التي استقينها من ديننا السمع الكريم تجبرنا بأن لا نقف مواقف الطيش والرعونة التي وقفها الآخرون لانطوائهم على الحقد وجهلهم عواقب الأمور، بل نكتفي الآن ببعث هذا الاحتجاج الصادر من قلوب ملئت استنكاراً واستياءً من جراء هذا الموقف الوقح الذي تقفه هيئة الكنيسة المومي إليها.
- ولا يفوتنا في هذا المقام أن نلاحظ: أن العود لمثل هذا الطعن والتخرصات والأباطيل لن تكون محمودة العاقبة إذا انتهكت حرمة الدين في شخص رسوله ووصل الاعتداء إلى الطعن في صلوحية هذا الدين ووقع الهجوم على العقيدة ورميها بالنقص"^(٢).

١- نفس المصدر السابق، ص ٢٢٤.

٢- نفس المصدر السابق، ص ٢٢٥.

- تُفصح رسالة طلبية الزيتونة على تغيير في لهجة الخطاب ومضمونه، كما يظهر فيه تقاسم الأدوار بين شيوخ الإسلام العقلاء المنضبطين لسياسات الدولة ومؤسساتها وبين فورة الشباب وعاطفته الجياشة وقدرته على خوض معركة من نوع آخر، كما تشير إلى ذلك الكلمات التي وقع انتقاءها بعناية كبيرة، تجمع بين الحكمة والتهديد المبطن، والتلميح إلى ما يمكن القيام به عند الاستثناء.

- **الزاوية الثالثة:** تقديم شهادات غير المسلمين في الإسلام ونبئيه.
- شهادة القس لوازون الفرنسي بصحة رسالة النبي صلى الله عليه وسلم: وأصلها محاضرة أو خطبة دينية لاهوتية ألقاها في بتونس أمام جموع مسيحية في غالبيتها بحسب الخطاب والضمائر المستعملة، تحدّث فيها عن الحكمة من الرسالة المحمدية، ودورها في تكوين أمة كبيرة تمددت إلى أوروبا، وعن طبيعة المسيح ووجود الخالق تعالى. من خلال مقارنة عقديّة، الغاية منها بحسب ظاهر الخطاب والحجج المستعملة التقريب بين المسلمين والنصارى بحسب مصطلحه.

- وفي ختام مداخلة، وكخلاصة لحديثه قال: "...والنصارى جهلوا خالقهم وزاغوا عن الطريق المستقيم، ولذلك تجد المسلمين في رفعة عن النصارى من هذه الحيثية ولا ترى فيهم واحدا يكفر بالله كما يفعل النصارى في كل حركة وسكون وما اهتدى مئات الملايين إلى الإسلام إلا ببركة محمد الذي علمهم الركوع والسجود لله وأبقى لهم دستوراً لن يضلوا بعده وهو القرآن الجامع لمصالح دنياهم ولخير أخراهم"⁽¹⁾.

- رأي المستشرق الأمريكي ادوارد رمسي في الإسلام والمدنية الحديثة: يتكوّن المقال من ثلاثة أجزاء:

أ. الجزء الأول: شخّص فيه البيئة العربية قبل الإسلام؛ الوثنية، الفوضى الاجتماعية، العبودية، وضعية المرأة والموقف من البنات خصوصاً.

ب. الجزء الثاني: ذكر فيه أن الأديان السماوية التي جاء بها موسى وعيسى عليهما السلام وغيرهما من الأنبياء فقدت نقاءها وفضيلتها الأصلية وعبثت

بها أيدي اللاعبين فحرفوا كلام الله ولو ثوا معتقداتهم بخزعبلات...حتى أصبح الناس لا يكادون يفرقون بين الفضيلة والرذيلة.

ج - الجزء الثالث: تحدّث فيه عن الانقلاب المعرفي الذي أحدثه النبي محمد صلى الله عليه وسلم: "...هكذا كانت حال سكان شبه جزيرة العرب وتلك هي عاداتهم حينما جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم شارحا للعالم رسالة الله الواحد القهار حاملا بيده اليمنى الهدى والفرقان وبيده اليسرى نور المدنية الوضاء ليخرج الناس من الظلمات إلى النور...وأتى اليوم الذي فيه أعادت يد المصلح العظيم ما فند من العدل والحرية والتسامح والفضيلة"^(١).

- نداء للعمل بقلم الأستاذ برنارد شو: يتقاطع برنارد شو في سياق حديثه مع ما سبق من كلام المستشرق الأمريكي ادوارد رمسي كما عرضته المجلة الزيتونية

..

- فقد انطلق من البرهنة على حيوية الإسلام المدهشة، باعتباره الدين الوحيد الحائز أهليه الهضم لأطوار الحياة المختلفة. وأنه سيكون مقبولا لدى أوروبا غدا، بحسب تعبيره. إلا أن اكليروس القرون الوسطى صورّ "الإسلام بأحلك الألوان إما بسبب الجهل أو بسبب التعصب الذميم". ويختم مقاله: "...وهكذا وجد تحول حسن في موقف أوروبا من الإسلام ولكن أوروبا في القرن الراهن تقدمت في هذا السبيل كثيرا فبدأت تعشق عقيدة محمد، وفي القرن التالي تقدمت وربما ذهبت إلى أبعد من ذلك فتعترف بفائدة هذه العقيدة في حل مشاكلها. فهذه الروح يجب أن تفهموا تنبؤاتي وفي الوقت الحاضر كثيرون من أبناء قومي ومن أهل أوروبا قد دخلوا في دين محمد حتى ليمنكن أن يقال أن تحول أوروبا إلى الإسلام قد بدأ"^(٢).

- إضافة لتلك الزوايا الثلاث التي ناقشت من خلالها المخطّط التنصيري بتونس، وهي في الحقيقة تتصدى لمشروع تراكمت تجربته منذ المؤتمر الإفخارستي

١- نفس المصدر السابق، ص ٢٢٧.

٢- نفس المصدر السابق، ص ٢٢٨.

الثلاثين بتونس سنة ١٩٣٠ مرورا بمؤتمر التجنيد اللاهوتي سنة ١٩٣٢، تقدم
المجلة الزيتونية أنموذجا عمليا لمخطط التنصير، وذلك للدلالة على عدة أمور،
منها:

- أ. المتابعة الدقيقة لتحركات المنصرين
 - ب. الوعي الراقي بسياسات الكنيسة ومؤسساتها
 - ج. القدرة على فهم تلك المخططات ومحاصرتها والرد عليها بما يفيد
 - د. من جهة أخرى؛ جرأة الكنيسة نتيجة للطمأنة المستمرة والحماية الدائمة التي
تتمتع بها من طرف الاحتلال.
- وفي تصورنا فإن هذا المخطط هو الذي أقام في ضوئه مارون لحام^(١) نتائج
استبتيانه الذي وجهه لمنظوريه من النصارى، مما يدل على شيئين أساسيين:
- الشيء الأول: أن الكنيسة بقيت تراوح مكانها، مهمتها الحفاظ على
المؤسسات الكنسية بتونس.
- الشيء الثاني: أن الكنيسة فشلت في التقدم بجميع مشاريعها، رغم ما يعلن
عنه بين الحين والآخر من تنصير بعض المسلمين التونسيين، ولعل مرجع ذلك
الفشل إلى حيوية تلك القضايا الجدلية وحضورها في الوجدان التونسي
بأشكال متعددة. وهو ما يفصح المقال التالي كما نشرته المجلة الزيتونية.
- التبشير بين المسلمين بقلم مارقرت ميلز. (وهو ترجمة للمقال الذي تهجمت فيه
على مقام صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم والمشتغل على الدعوة لتنصير
مسلمي شمال إفريقيا المنشور في عدد ٩-١٠ من جريدة "عاملون مع الله"):
- تقدم الكاتبة جملة مسلمات تنطلق منها في بسط مشروعها التنصيري، وهي:
- أ. أن شمال إفريقيا من أجذب وأقل أراضي التبشير في هاته القارة الواسعة
بل يمكن أن نقول: وفي العالم بأسره.
 - ب. أغفلت كنيسة المسيح مدة قرون بث النصرانية بين المسلمين.

1- Mgr Maroun LAHHAM (Evêque de Tunis) : Questionnaire à propos du sud et de l'intérieur
du pays. 23.5.2007. Tunis.

ج - خلال القرن التاسع عشر اهتم بعض مسيحيي لندرة بتنصير قبائل زاوّة من بلاد الجزائر فاجتمعوا في مجلس كونوه بلندرة وبعد كثير من الدعاء والمشورة عزموا على تكوين بعثة تبشيرية في بلاد القبائل التي مدت نفوذها فيما بعد على رقعة من الأرض أوسع من بلاد زاوّة وأصبحت تعرف بالبعثة التبشيرية لشمال إفريقيا.

- يعتبر هذا المقال هو سبب تلك الحركة الاحتجاجية العريضة والذي فجر غضب علماء جامع الزيتونة وطلابه، وحرك عواطف التونسيين جميعا نتيجة التعدي على النبي صلى الله عليه وسلم، بقولها في معرض تشخيصها لوضعية الكنيسة: "...وهل تستيقظ تلك الكنيسة التي انمحت اليوم لترجع إلى الحياة جبارة غازية فتتصر وترجع إلى المسيح تلك الملايين من المسلمين الذين أضلهم نبي دجال"⁽¹⁾.

ثم قدّمت تصوّرا أولياً لخطة عمل المنصرين:

- بيع الكتاب المقدّس على أيدي الباعة المتجولين.
- إحداث دروس إنجيلية.
- التواصل مع الصبيان والعمل معهم لاستقطابهم.
- إيجاد بيوت ومأوي لصغار العرب اليتامى.
- دروس الخياطة التي يجتمع فيها التعليم العلمي مع تعليم التوراة.
- الزيارات للبيوت العربية.
- التجنيس: يعتبر التجنيس من القضايا الجدلية الحادة التي تصدّى لها علماء الزيتونة باعتبارها مسألة عقدية تتعلق بالإسلام والردّة. وقد نشرت المجلة الزيتونية في موضعين مقالا مطوّلا حول المسألة تحت عنوان "حكم الله في التجنيس"، قامت في الجزء الأول منه بعرض القضية على النحو التالي:
- مقدّمة: حول فتنة التجنيس وأنه مما ابتلي به المؤمنون، وكان سببا في تشتيت بعض العائلات، وإحداث الإحن والأحقاد بين الإخوة والأقارب. وكان المظنون

١- نفس المصدر السابق، ص ٢٢٩.

أن الفتنة فيه قد خدمت بعد الاعتراف الرسمي بكفر المتجنس وإحداث مقبرة خاصة بالمتجنسين.

— صورة التجنيس: قصد ضبط الموضوع وتحريير المسألة من خلال تعريف التجنيس ومآلاته.

— التجنيس في نظر العقلاء: فهم يستنكرون هذا العمل ويعتبرون من تلبس بذلك محقرا لوطنه وأمته ودينه. وهي جناية في حق بلاده ووطنه.

— التجنيس في نظر الشرع: عرض فيه صاحب المقال أدلة كثيرة على كون المتجنس مرتدا، فقال: "ومن تتبع كتب الفقه وأمعن فيها النظر وقف على عدة فروع تدل على كون المتجنس مرتدا... والمجال لا يتسع لنقل جميع ما وقفنا عليه من الفروع فنقتصر منها على ما هو صريح في هذا الباب"^(١). فأورد في المبحث ثمانية أدلة سمّاه فروعاً، ذكر منها ثلاثة في الجزء الأول من المقال.

وفي الجزء الثاني منه، واصل عرض المسألة على النحو التالي:

— أدلة ذلك من القرآن: حيث ساق الكثير من آراء المفسرين التي استغرقت جزءاً كبيراً من البحث، مؤيداً ذلك بفتاوى عديدة تونسية وغير تونسية، ومن غرائب الصدف كما قال أنه عثر على فتوى مشابهة "للمرحوم حسين وزير المعارف بالدولة التونسية قبل الاحتلال عندما كلفته الدولة بالنيابة عنها في قضية القائد شمامه اليهودي الذي كان متولياً لرئاسة القباضة العامة وإدارة المال بتونس وبعدما سرق أموال الدولة ذهب لإيطاليا وتجنس بجنسيتها حتى لا تتمكن الدولة التونسية من إلحاق العقاب به، فأفتى شيخ الإسلام المرحوم الشيخ أحمد بن الخوجة بعدم صحة اعتناقه للجنسية الطليانية ولو كان مقيماً في دار الكفر ووافقه على ذلك أربعة من كبار فقهاء الحنفية في ذلك العصر... وهي مؤرّخة بيوم ٢٩ جمادى الأولى سنة ١٢٩٤ الموافق لعام ١٨٧٧"^(٢).

— وختم كلامه بقوله: "ومن ذلك كله يظهر ظهوراً بيناً لا شك فيه لأولي الألباب

١- محمد المختار بن محمود: حكم الله في التجنيس. المجلة الزيتونية، م ١٠ / ج ١٠ / ربيع الثاني ١٣٥٦، جوان ١٩٣٧، ص ٤٩٠.

٢- نفس المصدر السابق، ص ٥٤٧.

ولغير أولي الأبواب أن المتجنس قد ارتد عن الإسلام وانسلخ عنه والعيان بالله وصار في عداد المرتدين، واستبدل الهدى بالضلال، وباع الذي هو أدنى بالذي هو خير... وحيث قد ثبت أن المتجنس مرتد فيجب أن تنطبق عليه جميع أحكام المرتدين من حيث العقاب والأحكام وكل ما يترتب على ذلك^(١).

- ثم لخص جميع أحكام المرتد حتى تقع معاملة المتجنس بها حسب قوله..

- عقاب المرتد

- ما ينشأ عن الردة

- أموال المرتد وإرثه

- حكم ديون المرتد

- حكم تصرفات المرتد

- دفن المتجنس

- توبة المتجنس

- هل إذا تاب المتجنس تعود له حسناته؟^(٢)

- معلوم أن هذه المسألة قد أسالت حبرا كثيرا ودار حولها نقاش طويل، خاصة في ما يتعلق بموقف علماء الزيتونة، وأقدر أن صاحب المقال كان على وعي بخطورة القضية فأراد أن يحيط بها من جميع الجهات ويناقش جميع فرضياتها، ولعله بذلك يريد إلزام الحكومة التونسية بتطبيق تلك الأحكام الشرعية وعدم مجارات الإدارة الفرنسية التي سعت وبكل ثقلها لمنع صدور مثل هذه الفتاوى، التي ستضع حدا للنشاط الكنسي بتونس كما ستردع من تسول له نفسه الإقدام على التجنس يومها، مما قطع كان له الأثر العميق في نفوس التونسيين الذين تصدوا لدفن المجنسين في مقابر المسلمين، وطبقوا عليهم الأحكام المتعلقة بالمرتدين.

- التشبه بالكفار: ورد في قسم الفتاوى سؤال عن: حكم لبس البرنيطة في دار

١- نفس المصدر السابق، ص ٥٤٨.

٢- نفس المصدر السابق، ص ٥٥٢.

الحرب والإسلام.. بقلم الشيخ محمد الشاذلي ابن القاضي المدرس بجامع الزيتونة.

ونصّ السؤال على طوله:ـ

ـ سيدي محمد السنوسي حرس الله كماله وبلغه في الدارين أماله عمن يتعمد لبس البرنيطة في بلاد الإفرنج وهو قادر على استعمال الشاشية ولا يناله من استعمالها سوء، فهل يعد لبسه لها من علامات الاستخفاف بالدين وإن لم يقصد بلبسها الارتداد عن الدين وتجري مجرى علامات التهاون الظاهر؟ أم ينظر فيها لقصد لبسها؟ وإذا اعتبر قصد لبسها فهل يعتبر قضاء وإفتاء أم في الفتوى فقط؟ وهل إن قصد لبسها بلبسها مجرد الاختلاط بسواد الإفرنج حتى لا يكون معروفا فيما يفعله مما يزين أو يشين استتارا عن العيون أو قصد بلبسها مجرد التشبه بالإفرنج لاستحسان ما هم عليه في زيهم أو التحبب إليهم بوجه من الوجوه أو لبسها لمصلحة فضلها بها عن الشاشية بزعم أنها تصلح الرأس أو تزين اللباس، يكون بهاته المقاصد السيئة سالما من موجب الردة، أم أن هاته المقاصد تعتبر حجة عليه في التشبه والاستحسان المفضيين للتهاون والاستخفاف بالدين؟ وهل من لم يخالج صدره شيئا من هاته المقاصد المذكورة يحمل صنيعه على ما يتراءى من الاستخفاف أم يكفي نهييه عن العود لذلك؟ وهل لبسها للسخرية به أو الاستحسان حكمه حكم من لم يكن له قصد أم حكمها مختلف؟ وهل من يلبسها في بيته وهو مقيم في بلاد الإسلام لقصد التبريد فيما يزعم أو قصد آخر غير الارتداد يكون سالما بقصده وهو بين أظهر المسلمين يرونها علامة مختصة بالمرتدين أم لا؟

وقد أجاب المفتي عن ذلك من خلال:

- ـ ذكر العديد من الأحاديث النبوية
- ـ استقصاء آراء العلماء في ذلك متقدميه ومتأخريهم.
- ـ نظر في آراء العلماء المجتهدين على اختلاف مذاهبهم الفقهية

ثم عقد مبحثاً تحت عنوان: التصحيح والترجيح، أعاد فيه صياغة السؤال واستخرج منه ما يمكن أن يمثل خطورة لما قد يتعلّق بذلك الفعل من ردة مفرّقا بين استحسان الشيء واعتقاد أفضليته عن دين الإسلام. ولتدعيم رأيه فقد أورد ما نقله الطحاوي عن أبي حنيفة: "لا يخرج الرجل من الإيمان إلا جحود ما أدخله فيه، ثم ما تيقن بأنه ردة يحكم بها وما يشك أنه ردة لا يحكم بها إذ الإسلام الثابت لا يزول بالشك مع أن الإسلام يعلو وينبغي للعالم إذا رفع إليه هذا لا يبادر بتكفير أهل الإسلام مع أنه يقضي بصحة إسلام المكره" (١).

أما في ما يتعلق بحكم لابسها من حيث العقوبة أو الترك، فقال: "وحيث فعل بلبس العلامات الخاصة بالكفار محرماً فإنه يعزر. وقال في الأشباه كل مرتكب معصية لا حد فيها، فيها التعزير" (٢).

إلى جانب تلك القضايا الجدلية فإننا مسائل أخرى لا تقلّ عنها أهمية من حيث العرض والمناقشة والتحليل والنقد، مثل: النبوة، قضايا تتعلّق بأهل الكتاب، التعليم، العناية بالمرأة، الشباب واللائكية، الاستشراق، وهي لئن دلت على شيء، إنّما تدلّ على مدى التوتر الذي يطبع العلاقة بين الطرفين، بل قل بين التونسيين وحكومة الاحتلال الفرنسي وحليفتها الكنيسة. فالتونسي لا يفرّق بينهما باعتبارها شريكين وطرفاً مقابلاً للحركة الوطنية التونسية، على اختلاف ظاهرهما، لتوحد مسلكهما وتوافق مسارهما.

والملفت للنظر أنّ تلك القضايا الجدلية كشفت عن حقيقة موقف كل طرف من الآخر ولكن الظروف الموضوعية والمعطيات لم تسمح بإعلان ذلك، لعدم تكافؤ القوى نتيجة الهيمنة العسكرية القاهرة، وشعور التونسي بالضميم والإهانة وعدم قدرة ردّ الفعل، ولكن بحسب مجريات الأحداث من خلال تتبعنا لمنظومة مقالات المجلة الزيتونية فإنّ النخب التونسية خاصّة الزيتونيين وأبناء الصادقية والعلوية كان لهم الأثر الكبير والدور الفعّال في تنمية مشاعر الاحتجاج والارتقاء به من طور النقاش والتفاعل الداخلي إلى حيز الرّفص والاحتجاج المباشر والتهديد.

١- محمد الشاذلي ابن القاضي: حكم لبس البرنيطة في دار الحرب ودار الإسلام. المجلة الزيتونية، م ١ / ج ١ / رجب ١٣٥٥، سبتمبر

١٩٣٦، ص ٤٢.

٢- نفس المصدر السابق، ص ٤٢.

مقاربة منهجية للقضايا الجدلية:

بحسب العرض السابق لمحتوى المصدرين اللذين ارتبط بهما البحث: المجلّة الزيتونية و La Tunisie catholique يتبيّن لنا أنّهما كان يعيشان نفس القضايا ويتفاعلان معها داخليا، ولكن تحت ضغط الواقع خرج الصراع وطفح على السطح، وذلك لاعتبارين اثنين:

- استماتة الكنيسة في المضي قدما في سياسة التنصير.

- رفض التونسيين المطلق التعدي على مقومات الهوية الوطنية.

فكان لزاما لذلك الواقع أن تتغيّر ملامحه، ببروز نمط جديد من التعاطي مع تلك التحديات والتي عبّر عنها في مرحلة أولى بالقلم من خلال الصحافة، تبعه الاحتجاج الناعم ثم العنيف، انتهاء بتنظيم قوى الحركة الوطنية التونسية، لذلك اعتبرنا خطاب الرئيس الحبيب بورقيبة سنة ١٩٦١، إعلان للقطيعة، ليس في مظهرها السياسي بل لاعتبارات دينية عقديّة، كشف من خلالها طبيعة الاحتلال الفرنسي وأجنحته الكنيسة ومؤسسات المجتمع المدني الفرنسي، التي اتّحد هدفها في اتّجاه قطع تونس عن هويتها وعزلها عن محيطها الإسلامي. ولعل في القضايا الجدلية التي عرضناها في طيات البحث:

- المؤتمر الإفخارستي الثلاثين بتونس سنة ١٩٣٠

- مؤتمر التجنيد الكهنوتي بتونس سنة ١٩٣٢

- نشرية الكنيسة البروتستانتية (عاملون مع الله)

- مشروع تنصير الشعب التونسي

- قضية التجنيس

كلّها روافد يجمع بينها خيط ناظم، تعرف الكنيسة طبيعته وتعلم المجلّة الزيتونية غايته، ولذلك تشابهت القضايا التي طرحها رغم اختلاف جمهور القراء غالبا، ولكن بحسب تصوّرنا كان التفاعل بينهما دقيقا، وإن لم يكن مقصودا لذاته. بل تلك الإشكالات أو القضايا العميقة هي الأسئلة الحقيقية التي كان يجب أن تعالج،

وهي التحدي المتبادل الذي يجب أن يكون، ولو كان غير ذلك لا نظن أن المجلّتين سيكون لهما هذا الزخم وتلك الأهمية. وهي النتيجة المخيِّبة لأمال رجال الكنيسة الذين لم يروا شفاه المسلمين تتبلل في كأس النبيذ لأن الإسلام يمنعهم^(١). ولعل في مقدّمة مقال محمد الشاذلي بن القاضي "الإسلام والمبشرون" إجابة: "ولا غرابة في ذلك فإن الإسلام ينهى عن الفساد في الأرض وعن الشرور والآفات كقتل النفس بغير حق والتعدي على الحقوق وتعاطي المسكرات والمقامرة والسرقه والربا وأكل أموال الناس بالباطل..."^(٢).

خاتمة

القضايا الجدلية أو التحدي المعرفي، مصطلحان صارمان جمع بينهما علاقة التنافر والتضاد التي طبعت علاقة الكنيسة والمجتمع التونسي المسلم، رغم أن الكنيسة لم تفهم أو لم ترد ذلك، وهي أن الشعب التونسي مسلم عريق في هويته الحضارية وأن تونس دولة مسلمة تنتمي لمحيطها الحضاري، يجب التعامل معه بناء على تلك الخصوصيات الحضارية. ومن الملفت للنظر أن أقلام المجلة الزيتونية كانوا على درجة من الوعي بحركة التاريخ من خلال تكرارهم لقيم التراكم التاريخي وأن تونس نتيجة ثراء مكونات حضارية متتالية، إلا أن التاريخ لا يسير إلى الخلف، وهو ما لم تقدر الكنيسة على التسليم به وبقيت رهينة التاريخ، ولم تستطع مواكبة الواقع، صحيح أن ما تتمتع به من الوضعية القانونية المميّزة والمريحة والحماية اللامشروطة من الاحتلال الفرنسي أنسيها سنن التاريخ، ولكن التوجّه العام لمسيرة الكنيسة كان من الممكن أن يفتح لها أفقا جديدا، وهو ما انتهت إليه بعد قرابة الثلاثين سنة من تاريخ انعقاد المؤتمر الإفخارستي بتونس ١٩٣٠.

1- « On voit les invités musulmans refuser de tremper leurs lèvres dans un verre de vin. parce que l'Islam le leur défend ». In. La Tunisie catholique (Archidiocèse de Carthage), N° 8. Dimanche 25 février 1923. p 131.

٢- محمد الشاذلي ابن القاضي: الإسلام والمبشرون. المجلة الزيتونية، م ٥ / ج ٩ / صفر ١٣٦٤، فيفري ١٩٤٥، ص ٢١٨.

- وبناء عليه، فإنه يكمن الإشارة إلى نتيجتين مهمتين حققهما البحث:
- **النتيجة الأولى:** أن القضايا الجدلية كانت إشكالات حقيقية، ومثّلت نقاط التقاء بين المجلتين، حدّ التناغم.
 - **النتيجة الثانية:** أن تلك القضايا الجدلية العميقة والخطيرة كانت سببا في توحّد النُخب التونسية وفي ضوئها تأسّست الحركة الوطنية التونسية ومن أجلها عملت، دون تجاهل لبقية القضايا الوطنية ولكن بحسب تحيلنا لمسيرة تلك الأحداث، فإنّها تابعة لها غير مستقلة عنها.
- وفي الأخير، نرجو أن يكون هذا البحث سببا لإثارة بقية السادة الباحثين، والالتفات ثانية لهذين المصدرين وتوسيع البحث في تلك القضايا الجدلية التي لم يدع الباحث استقصاءها وحصرها، لأنّه تعاطى مع ما يتناسب ومسار البحث خادم لإشكاله الذي من أجله أُعدّ.

والله الموفق ،،،

القيم التربوية ودورها في ترسيخ السلام الاجتماعي

دراسة مسحية من وجهة نظر معلمي الدراسات الإسلامية - محلية مدني الكبرى

خالد رحمة الله صالح عبد الله^(١)

المبحث الأول

الإطار العام

المستخلص

تمثل القيم التربوية أمراً مهماً في مجال التربية وتعتبر من الركائز الأساسية التي يقوم عليها أي نظام تربوي . ومن هذا المنطلق جاءت أهمية هذه الدراسة . هدفت هذه الدراسة إلى معرفة الدور الذي يمكن أن تلعبه هذه القيم التربوية الإسلامية في ترسيخ السلام الاجتماعي ، وذلك لما يمثله السلام من قيمة مهمة في المجتمع وبغيره تصبح الحياة في حكم العدم ، كما هدفت هذه الدراسة أيضاً إلى معرفة أمثل الطرق لتوظيف هذه القيم الإسلامية للوصول إلى استتباب الأمن .

معلمو التربية الإسلامية بمدينة مدني الكبرى كانوا مجتمعاً وعينة لهذه الدراسة ، لأنهم يقومون بغرس هذه القيم وتعهدها بالرعاية والاهتمام . توصلت الدراسة إلى بعض النتائج أهمها إن القيم التربوية بأنواعها المختلفة (اعتقادية، وتعبدية، واجتماعية) تلعب دوراً كبيراً وهاماً في تحقيق السلام الاجتماعي وتوطيد أركانه، كما توصلت الدراسة إلى أن أنسب الطرق لتوظيف القيم الإسلامية هو تلقينها للناشئة منذ نعومة أظافرهم وحتى يصلوا إلى مرحلة الرشد .

تمهيد :

إن عبادة الله تعالى هي الغاية التي خلق من أجلها الإنسان، وهي التي من أجلها أنزل إلى الأرض، كما كلف هذا الإنسان بإعمارها وإقامة الخلافة وإيجاد الدولة التي من خلالها يطبق شرع الله . ولا يمكن أن يتأتى ذلك إلا من خلال الأمن والطمأنينة بين أفراد المجتمع . فالأمن كقيمة تربوية من الأهمية بمكان بحيث أن

١- أستاذ أصول التربية المشارك، جامعة القرآن الكريم وتأسيس العلوم.

الله تعالى قرنها بنعمة الإطعام في سياق الحديث عن أهل مكة حيث قال تعالى :
 ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ • إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ • فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ • الَّذِي
 أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَأَمَّنَّهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ (قریش: ١-٤)، وإذا كان الأمن بهذه الأهمية فيكون
 من الضرورة كذلك أهمية الوسائل التي تقود إلى تحقيقه ومن هنا تأتي ضرورة
 توظيف القيم التربوية الإسلامية لتحقيق هذا الأمن الاجتماعي وترسيخه ، وبما
 أن القيم التربوية هذه محل إجماع وسط المجتمع السوداني المسلم ، لذلك تكون
 فرصتها في تحقيق هذه الغاية والنجاح في هذه المهمة كبيرة .

مشكلة الدراسة :

تحتل القيم التربوية بأنواعها المختلفة مكانة هامة في النظام التربوي
 الإسلامي لأنها تلعب دوراً هاماً في تشكيل شخصية الفرد المسلم من الصغر
 ويستمر هذا التأثير على مدار حياته من المهد إلى اللحد ، ولأن الباحث هو فرداً
 من أفراد المجتمع السوداني الذي بدأ يتأثر نسيجه الاجتماعي سلباً بعوامل شتى
 أدت إلى ضعف وتهديد السلم الاجتماعي لذلك خطر في باله إمكانية توظيف القيم
 التربوية الإسلامية للمحافظة على هذا السلام الاجتماعي واستدامته ، ويمكن
 التعبير عن مشكلة الدراسة بالسؤال الرئيس التالي :

• ما دور القيم التربوية في تحقيق السلام الاجتماعي وتمتينه؟ وتتفرع منه
 الأسئلة التالية :

١. ما دور القيم التربوية الاعتقادية في تحقيق السلام الاجتماعي ؟

٢. ما دور القيم التربوية التعبدية في تحقيق السلام الاجتماعي ؟

٣. ما دور القيم التربوية الاجتماعية في تحقيق السلام الاجتماعي؟

أهداف الدراسة :

تهدف هذه الدراسة إلى معرفة الدور الذي يمكن أن تلعبه القيم التربوية
 الإسلامية (الإيمانية والاعتقادية والاجتماعية) في ترسيخ السلام الاجتماعي.
 بالإضافة إلى معرفة أمثل الطرق لتوظيف هذه القيم للوصول لتلك الغاية. ويمكن

تلخيص اهداف الدراسة في النقاط الآتية:

١. تهدف هذه الدراسة إلى معرفة الدور الذي تلعبه القيم التربوية بأنواعها المختلفة في ترسيخ السلام الاجتماعي.
٢. معرفة انسب الطرق التي يمكن بها توظيف هذه القيم التربوية في تحقيق السلام الاجتماعي.

أهمية الدراسة :

- يعتقد الباحث أن لهذه الدراسة أهمية و يمكن الاستفادة منها ويستطيع أن يعبر عن هذه الأهمية في النقاط التالية :
١. تعد هذه الدراسة محاولة إلى لفت نظر المجتمع لتوظيف إرث إسلامي موجود ومتداول لحل مشكلة تؤرق المجتمع السوداني وتهدد نسيجه الاجتماعي وأمنه كادت أن تكون مستعصية على الحل.
 ٢. قد يستفيد من هذه الدراسة القائلون على أمر التربية والتنشئة الاجتماعية في تقوية النسيج الاجتماعي وتمتينه.
 ٣. قد تفتح نتائجها الباب أمام دراسات أخرى أكثر عمقاً في هذا الموضوع.

حدود الدراسة :

١. حدود موضوعية : تتناول موضوع توظيف القيم التربوية الإسلامية في تحقيق السلام الاجتماعي.
٢. حدود زمانية : العام الدراسي ٢٠١٦ - ٢٠١٧ م.
٣. حدود مكانية : محلية مدني الكبرى ولاية الجزيرة السودانية ، وحدود بشرية معلمي الدراسات الإسلامية بالمدارس الثانوية.

مصطلحات الدراسة :

الدور : هي مجموعة الجهود التي تقوم بها جهة ما لتحقيق هدف محدد مسبقاً.
القيم : عبارة عن المعتقدات والميول والاتجاهات عند الفرد والجماعة والتي تنعكس على سلوكهم.

المبحث الثاني

الإطار النظري والدراسات السابقة

مفهوم القيم التربوية :

تعد القيم التربوية أحد أهم مرتكزات العمل التربوي ، بل هي أهم أهدافه ومكوناته. ويعتبر غرس القيم التربوية في نفوس الأجيال. خاصة في مراحل العمر المبكرة . الهدف الأساسي لكافة المؤسسات التربوية داخل المجتمع . فالتربية باعتبارها عملية إعداد للمواطن الصالح تعمل على تشكيل الشخصية الإنسانية ، تشكيلاً يقوم على أساس ما يسود المجتمع من تنظيمات سياسية ، واجتماعية ، واقتصادية ، لذا لا بد من أن يحدد الإطار الثقافي الذي يقيم عليه المجتمع أبعاد العملية التربوية واتجاهاتها، بحيث لا تخرج التربية عن هذا الإطار إلا تطويراً له، وتقدماً في عملية ريادته أخذه بيد المجتمع نحو مستوى أفضل وعلى هذا الأساس فإن القيم تحتل مركزاً أساسياً في توجيه العملية التربوية.

مفهوم القيم من الناحية اللغوية :

القيمة - قيمة الشيء : قدرة ، وقيمة المتاع : ثمنه وجمع (القيمة) : قيم. ويقال: ما لفلان قيمة: أي ماله ثباتٌ ودوامٌ على الأمر وأمر قيمٌ : أي مستقيمٌ، وكتابٌ قيمٌ : ذو قيمة. **(القيمة) - الأمانة القيمة :** المستقيمة المعتدلة ، وفي محكم التنزيل قال تعالى : ﴿قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِثْلَ مِثْلِ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام: ١٦١)^(١) ، والقيم في أصلها اللغوي جمع قيمة ، ومشتقته من الفعل قوم بمعنى الاستقامة والاعتدال^(٢) قال تعالى : ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة﴾ (البينة: ٥). وجاءت في القاموس المحيط بمعنى الثمن والاعتدال ((والقيمة)) بالكسر واحدة القيم وما ليس له قيمة إذا لم يدل على شيء (وقومت السلعة) ثمنتها وأسقمته : بمعنى ثمنتها

١- ابن منظور: لسان العرب، مكتبة تحقيق التراث، بيروت، ط٣، ١٩٩٣، ص٢٥٣.

٢- محمد عامر الجوهري : القيم التربوية ما لها وما عليها ، ط٣ ، ٢٠٠٥م ، دار الفلاح القاهرة ، ص٢١٢.

و(استقام) اعتدل وقومته عدلته فهو قويم ومستقيم^(١) ومما سبق من دلالات لمفهوم القيم التي تراوحت بين الاستقامة والاعتدال فإن ذلك يوحي بمدى اهميتها للفرد والمجتمع .

وقد وردت لفظة القيم في القرآن الكريم في مواضع عديدة وكلها لم تخرج عن المعنى اللغوي الذي اشرنا إليه، ففي الآية (٣٦) من سورة التوبة ﴿ذلك الدين القيم﴾ قال الشوكاني : هو الدين المستقيم^(٢) ، وفي سورة الكهف في قوله تعالى (قيماً لينذر بأساً شديداً من لدنه) قال الطبري في تفسيره (لقيماً) أي معتدلاً مستقيماً لا عوج فيه^(٣) . من خلال الرجوع لتفسير معنى القيم في القرآن الكريم نلمس الاتفاق مع المعنى اللغوي الذي لم يخرج عن الاستقامة والاعتدال .

القيم في الاصطلاح :

تعددت التعريفات التي تناولت القيم وذلك لما تتسم به القيم من عمق ثقافي ومعرفي خاضع لمعتقدات وثقافة الفرد والمجتمع ، وتناولها الكثير من العلماء بالبحث والتحليل، واختلف العلماء في تحليلهم وتعريفهم للقيم ، ويرجع هذا الاختلاف الى اختلاف التخصص وتعدد المجالات والمرجعيات الثقافية ، واختلاف الازمان والطبقات والحضارات ، ومن التعريفات التي اختارها الباحث لمفهوم القيم في الاصطلاح ما يلي :

اولاً: القيم عبارة عن معايير للحكم على سلوك الفرد في المواقف الحياتية بمجالات الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في إطار مبادئ الإسلام^(٤) .

ثانياً: القيم هي الأحكام والمبادئ التي يتعلمها الفرد من خلال عملية التنشئة الاجتماعية السليمة ، وتتبع الدين والعرف وفلسفة المجتمع تؤدي به الى السلوك السوي في المواقف المختلفة كما يستطيع التمييز من خلالها بين ما هو مقبول أو غير مقبول اجتماعياً .

١- محمد بن يعقوب الفيروزبادي : معجم القاموس المحيط ، ط٢٠٠٨ م ، دار المعارف ، بيروت ص٢١٢ .

٢- محمد بن علي الشوكاني : فتح القدير الجامع بين فني الدراية والرواية في علم التفسير ، ط٢٠٠٢ م ، مكتبة الرشد الرياض ص١٣٧ .

٣- ابن جرير الطبري ، مرجع سابق .

٤- أحمد إبراهيم الخطيب : مفاهيم أساسية في التربية ، ط٢٠٠١ م ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، عمان ، ص٧٠ .

ثالثاً: القيم تعني مجموعة المعايير، أو التصورات المعرفية، والوجدانية والسلوكية يختارها الإنسان بحرية وتفكر وتأمل ويجزم بها، وتشكل لديه منظومة من المعايير يحكم بها على الأشياء بالحسن أو القبح، بالقبول أو الرد ويصدر عنها سلوك منتظم يتميز بالثبات، والتكرار والاعتزاز.

رابعاً: القيم هي مجموعة من المعايير والأحكام والمبادئ الكامنة لدى الفرد، والتي تعمل على توجيه سلوكه وضبطه، وتنظيم علاقاته بالمجتمع، في جميع نواحي الحياة.

القيم التربوية في المنظور الإسلامي:

تشكل منظومة القيم التي جاء بها الإسلام منهاجاً متكاملًا متوازنًا للحياة ومن وحي هذه القيم تتبوأ ثقافة العدل والسلام مكانة رفيعة في المنظور الإسلامي للعلاقات الإنسانية فهي عنصر من عناصر تعاليمه ومعايير قيمه^(١). ولقد أجاز الإسلام كثيرًا من المبادئ والقيم التي كانت سائدة في المجتمع وحرّم بعضها مما أحدث التغيير في تفكير الناس ومعتقداتهم فقد جاء الرسول صلى الله عليه وسلم منفذا لما أوصى به الله عز وجل في كتابه الكريم بأسس ثابتة للتربية وفي مقدمتها الانسان المتصف بالقيم النبيلة. وقد كرم الله المسلمين بأن جعلهم خير الأمم واختار لهم الإسلام ديناً وهو دين اشتقت قيمه من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة فكلما حافظ المسلمون على قيمهم الدينية زاد ذلك في رقيه^(٢). ويعد نظام القيم جزء من النظام الذي وضعه الخالق سبحانه وتعالى للإنسان وذلك لان نظرة الإسلام للكون والانسان هي نظرة كلية شاملة لجميع نواحي الحياة وقد ركز هذا الشمول على توفير حياة سعيدة في مجتمع متكامل فوازن بين الحاجات المادية والاجتماعية والروحية ونظام القيم في الإسلام ليس جامدا بل يحتمل التغيير في نطاق الخطوط العامة للنظام الشامل، فقد وضع الإسلام أهدافاً عامة للمسلمين يسعون لتحقيقها في ظل نظام قيمي ودليل عمل اذا سلكوه وصلوا الى الكمال الذي يرجونه وعندما

١- ماجد زكي الزبيد: تعليم القيم وتعلمها، ط٣ ٢٠١٠م، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان ص١١٥.

٢- فيصل محمد خياط: القيم في عصر العولمة، ط٢، ٢٠٠٧م، مكتبة الملك فهد الوطنية بالرياض، .

حافظ المسلمون الأوائل على قيم الإسلام تمكنوا من إقامة حضارة إسلامية تقدمت على الحضارات العالمية. والقيم التربوية في المنظور الإسلامي: هي مجموعة من المثل العليا والغايات والمعتقدات والتشريعات والوسائل والضوابط والمعايير لسلوك الافراد والجماعات مصدرها الله عز وجل^(١).

والقيم الإسلامية: هي مجموعة الأنظمة والقوانين التي بينها الحق سبحانه وتعالى في كتابه العزيز وسنة رسوله الكريم اما الأمور التي لم يرد فيها نص شرعي فان قيمتها تكمن فيما تحققه من خير للناس والمجتمع بجانب الانسجام مع الدين الإسلامي وتعاليمه.

أهداف التربية في الإسلام :

تهدف التربية الإسلامية في المقام الأول إلى^(٢):

١/ إعداد الفرد المؤمن الذي يستطيع تحمل الرسالة الإلهية التي عجزت السماوات والأرض من حملها . وقد هيأ الله تعالى الإنسان واعدده وأوكل له مهمة واحدة طالبه بالقيام بها ، وهي عبادة الله تعالى حيث يقول المولي جل وعلا ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦). ليس هذا فحسب بل قد زود الخالق جل وعلا الإنسان بالآليات التي تساعد على أداء هذه الرسالة، ألا وهي العلم حيث قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: ٣١).

٢/ إعداد المجتمع المسلم المتراحم الذي تقوم فيه الروابط الأساسية على النمط الإسلامي عن طريق تقوية تلك الروابط والمحافظة عليها.

٣/ تقوية الروابط بين المسلمين ودعم تضامنهم وخدمة قضاياهم ، ويتم ذلك عن طريق ما تقوم به التربية الإسلامية من توحيد الأفكار، والمشارب، والاتجاهات، والقيم بين المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها .

أهمية القيم التربوية للفرد والمجتمع:

١- الزيود :مرجع سابق.

٢- فلسفة التربية عند أخوان الصفا، المركز العربي للصحافة، القاهرة.

١. القيم تحافظ على بقاء المجتمعات واستمرارها بقوة المجتمعات وضعفها لا يقاس بالقوة المادية فالمجتمع الذي تضعف فيه القيم السليمة ويركن الى القيم الفاسدة نهايته للفناء^(١).
٢. القيم تحفظ للمجتمع هويته وتميزه فالقيم تشكل المحور الرئيس لثقافة المجتمع وهوية المجتمع تتشكل وفقا لقيم أفراده والمجتمعات تتمايز عن بعضها بما تتبناه من أصول ثقافية فتظهر القيم كعلامة فارقة تميز المجتمعات عن بعضها وبالتالي فإن الحفاظ على هوية المجتمع تنبع من المحافظة على قيم أفرادها فإذا اهترت القيم كانت مؤشرا على ضعف الهوية التي تميز ذلك المجتمع^(٢).
٣. القيم تحفظ المجتمع من السلوكيات الاجتماعية والأخلاقية الفاسدة وذلك بوضع الحدود وترتيب العقوبات لمن يتعداها فالقيم تشكل حصنا راسخا من السلوكيات التي تحفظ المجتمع من الفساد وضرورة تساعد على وصف وتحديد جزاء ممن يخرج عن قيم المجتمع الأساسية.
٤. ايجاد نوع من التوازن والثبات في الحياة الاجتماعية ، تشكل القيم إطاراً عاماً للجماعة ونمطاً من انماط الرقابة الداخلية على حركاتها.

تصنيف القيم التربوية الإسلامية:

القيم التربوية الخلقية:

يمكن القول أن القيم وفق المنظور الإسلامي لها خصوصية نابعة من خصوصية الدين الإسلامي نفسه وهي مجموعة من المعايير تعبر عن الإيمان بمعتقدات راسخة مشتقة من مصدر ديني إسلامي تملئ على الفرد بشكل ثابت اختياره أو منهجه الديني وهي معنى جامع لأشتات العلم والفن المرتبط بتقوى الله^(٣) وأهم أنواع القيم هي القيم الخلقية وهي التي تعلي من قيم الحوار بكمال الخلق وتزكية النفس واستقامة السلوك ، فتربي المسلم على عمل الطاعات والتزام الأخلاق التي ترتقي به في الحياة الدنيا ، وتكسبه السعادة في الآخرة ، مثل الصدق والوفاء

١- سليمان عبد الرحمن الجلال : الوطنية ومتطلباتها في ضوء تعاليم الإسلام ، ط٤ ٢٠٠٤م ، القاهرة ، عالم الكتب ، ص١٢٧ .

٢- يعقوب أحمد الشهري : التربية والانتماء الوطني ، ط٢ ٢٠٠٥م ، دار الفكر ، الكويت ص٨٢ .

٣- نعمات أحمد فؤاد . من عبقرية الإسلام ط١ ، دار السحار . القاهرة - ص٤١ .

والأمانة . وتربي المسلم على ممارسة السلوك الذي يعبر عن الأخلاق الإسلامية وتقوده إلى التأسي بالرسول صلى الله عليه وسلم، الذي بعث مكملاً لمكارم الأخلاق وحث الناس عليها في أكثر من موضع (اتق الله حيثما كنت واتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن)^(١). كما تعمل القيم التربوية الإسلامية على تربية المسلم على الإخلاص وحسن المراقبة لله عز وجل فيعبد الله كأنه يراه ، وقد أكد القرآن الكريم على أن تذكية النفس الإنسانية هي الغاية من شتى التكاليف والتذكية المقصودة هنا هي تنقية المعدن الإنساني من كافة شوائبه وجعل الغرائز كلها تحت رقابة العقل المؤمن ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (الشمس: ٩-١٠)، وينعكس تحقيق القيم الأخلاقية إيجاباً على المجتمع ، حيث تسود الإلفة وتنتشر المحبة بين أفراد المجتمع كافة فضلاً عن سيادة الأمن والطمأنينة ، كما يأمّن المجتمع مخاطر الأمراض النفسية التي تعاني منها المجتمعات غير المسلمة . فضلاً عن أن التمسك بهذه القيم يسهم في انحسار الجريمة داخل المجتمع، ويشيع الأمن بين أفرادها ويعمل على توجيه النفقات التي تتطلبها مواجهة الجريمة إلى مشاريع تنموية يسعد بها الفرد في المجتمع. وتأتي القيم الاجتماعية في مستوى متقدم من الترتيب إذ إنها تهتم بتحديد القواعد التي تضبط السلوك الاجتماعي لدى الإنسان مما يسهم في استقرار الحياة الاجتماعية ويحقق الرخاء للأفراد نتيجة للالتزامهم بهذه النظم التي تشمل كل ما له علاقة بالمسلم من حيث أنشطته التي يمارسها فرداً في جماعة أو عضواً في المجتمع^(٢). فالضبط الاجتماعي لسلوك الإنسان المسلم يكون أكثر فاعلية حين ينبع من سلطة داخلية وليس نتيجة لرهبة من سلطة خارجية كالعرف والقانون . وتأتي أهمية التربية الاجتماعية الإسلامية لتوقظ في المسلم الانتماء لأمتة الإسلامية ولا تقتصر على أسرة أو نقابة أو حزب ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ وَأَحَدَةٌ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: ٩٢)، ولا تقف القيم الاجتماعية على هذا الحد بل تسعى إلى تضافر جهود الفرد مع جهود إخوانه في ثقة ويقيناً في أن يد الله مع الجماعة^(٣).

القيم التربوية الاعتقادية :

- ١- أخرجه الترمذي وقال حديث حسن- الجامع الصحيح لسنن الترمذي، محمد بن عيسى الترمذي.
- ٢- محمد حكيم باقر : القيم الروحية ودورها في المجتمع ط٢٠١٣م المطبعة الكاظمية ، بغداد ص ٥٢.
- ٣- محمد عبد السلام العجمي: أصول التربية الإسلامية منشورات جامعة السودان المفتوحة ٢٠٠٧م. ص ١٢١.

تحتل القيم الاعتقادية موقع الصدارة بين القيم التربوية المختلفة ، لأنها تستمد قيمتها من العقيدة الإسلامية وتمسك المسلم بها يعد المؤشر الرئيس والبوصلة التي يقاس بها سلوك المسلم ، لذا كان ترسيخ مثل هذه القيم والعناية بها تمثل مهمة تربوية أساسية لتحقيق التوازن النفسي والاجتماعي . وتأتي أهمية القيم الاعتقادية في كونها تربي المسلم على العبودية الخالصة لله سبحانه وتعالى بمعنى أنه يسعى لتحقيق الهدف الأسمى الذي من أجله خلق الإنسان ألا وهو العبودية الخالصة لله تعالى ، قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات: ٥٦) . مما يقود المسلم إلى محبة الله وطاعته والانقياد له والشعور بالأمن والطمأنينة لأنه يتوكل على الله وحده ويتبع الخطوات التي تقوده إلى تحقيق الهدف الذي عمل على تحقيقه مسبقاً واضعاً نصب عينه أن خزائن الله لا تنفذ ، وأن رزقه لن يفوته طالما مدبر الأمر كريم وأنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له ﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (التوبة: ٥١) ، والأهم من ذلك كله فإن القيم التربوية الاعتقادية تعمل على تعزيز قيمة المساواة والإخاء بين أفراد المجتمع ، فيقوم الفرد بواجبه تجاه المجتمع ويحصل على حقه كاملاً ، وأي اختلال في هذه المعادلة يقود بالضرورة إلى اختلال في توازن المجتمع ومن ثم يقود إلى الإخلال بميزان السلم الاجتماعي نتيجة لشعور الآخرين بالغبن والظلم الذي يقع عليهم نتيجة لذهاب نصيبهم إلى غيرهم من دون وجه حق . وتأتي علاقة القيم الاعتقادية بالسلم الاجتماعي في كون إن المسلم صاحب العقيدة الصحيحة يكون أبعد الناس من التغول على حقوق الآخرين ، ويكون أحرص إلى النجاة بنفسه من انتهاك حرمت الغير خصوصاً في جانب الأموال والدماء والأعراض . لذا فالاهتمام بهذا الجانب والتركيز عليه يعد وسيلة ناجحة للحفاظ على السلوك والأمن الاجتماعيين .

القيم التربوية التعبديّة :

اهتم النظام التربوي الإسلامي اهتماماً شديداً بالقيم التربوية التعبديّة باعتبارها الباعث الأساسي على الاستقامة والطاعة ، حيث تقوى الشعور بمراقبة الله تعالى حيث يصل العبد المؤمن إلى درجة الإحسان التي يصل فيها الفرد إلى

درجة (اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)^(١). كما تمثل القيم التعبديّة الجانب العملي للقيم الاعتقاديّة والمعمل الذي يتم فيه إدخال القيم الاعتقاديّة إلى التجريب والتطبيق العملي ، هذا التجريب ليس على مستوى الشعائر فقط بل يجب أن تمتد إلى كل مناحي الحياة لتشمل كل جوانبها الأخلاقيّة والاجتماعية فالإسلام لم ينتشر بالسيف كما يشيع خصومه بل بالتعامل بالحسنى ، فالصلاة كشعيرة لا فائدة منها إذا لم تنه صاحبها عن الفحشاء والمنكر ، لأنه من أهم مظاهر الصلاة كقيمة تربوية أن تربي صاحبها على الفضائل واجتناب الرذائل ﴿أَتْلِي مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ (المنجوت، ٤٥). كما أن الصلاة تعمل على تعويد المسلم على أهمية الوقت والاستفادة منه إلى أقصى حد ممكن فالشعوب التي قطعت شوطاً بعيداً في التقدم والرفقي لم تصل إلى هذه المكانة إلا باستثمارها للوقت ، فالعبادات جميعها ما هي إلا ميزان للمسلم يستخدمها لميزان حياته كلها ، فالصلاة ميزان لأعمال اليوم والزكاة ميزان للموسم والصيام ميزان للعام بينما الحج ميزان للعمر ، وكل هذه العبادات يحكمها ميقات زمني محدد .

مفهوم السلام الاجتماعي :

يعد الإسلام من أعظم المنح الربانية التي وهبها الله لعبادة وارتضاه لهم ديناً وشرعية ليحتكمون إليها . وأن أهم ما جاء به الإسلام هو تحقق السلام الاجتماعي من خلال حفظه ورعايته للمقاصد الخمسة . حفظ الدين ، وحفظ النفس وحفظ العقل والنسل وحفظ المال وهذه المقاصد هي أهم ما تنشده المجتمعات للحفاظ على كيانها والمتأمل في مجمل التشريعات الإسلامية يجدها تنتهي إلى هذه المقاصد الخمسة الجليّة و تصب فيها ، فهي لب الدين وقاعدته الأساسية الراسخة ، فمقصد حفظ الدين يهدف إلى حماية جانب التوحيد مما يفسده وحفظ الشريعة مما يعطلها بحيث تبقى معالم الدين الحق عقيدة وعبادة وفهماً قائمة بجمالها ونقائنها بلا شوائب أو ضبابية ، فيعيش المسلم سلام العقيدة الصافية الصادقة^(٢) . ووفقاً لهذا الفهم يمكن

١- رواه البخاري ومسلم- الجامع الصحيح ، ط١ ، ٢٠٠٢م ، دار بن كثير ، دمشق .

٢- أمجد أبو العلاء : Http// amgaddreabea.makloolong.com اغسطس ٢٠٠٨م .

تعريف السلام الاجتماعي بأنه (هو الأمان وحفظ الكرامة والعمل على وجود مصالح مشتركة بين الأفراد تقوم على احترام الذات واحترام الآخر وتحقيق العدل)^(١)، وهنا لا بد من الإشارة إلى أن تطبيق العدالة دائماً يمثل جسراً يوصل إلى السلام الحقيقي الذي ينشده الخلق جميعهم^(٢)، وقد نجح الإسلام في تكوين أمه إسلامية من أعراق واجناس مختلفة ومتعددة عبر التاريخ لأنه نجح في صهرها في بوتقة ثقافية واحدة تقوم على حقائق القرآن والسنة المطهرة وقواعد التوحيد، وذلك ما يفسر من الناحية العملية عدم احتكار مبادئ الإسلام من قبل شعب معين أو أرض معينة، فقد اعتنقه الناس من جميع القوميات في العالم وكلهم على يقين أن وحدة الأمة في وحدة دينها.

والمراقب لكل التفلتات والتوترات التي نعاني منها يجد أنها تنطلق من فرضية عدم تطبيق العدالة الاجتماعية على الكل لاعتبارات غير منطقية وهذا بدوره يقود إلى التوتر الأمني وانفراط عقد السلم الاجتماعي ومن هنا يبرز دور بعض القيم التربوية في تعزيز هذا السلام والمحافظة عليه كقيمة العدل وقيمة الأمن والحوار.

بعض القيم التربوية وعلاقتها بالسلام الاجتماعي: العدل كقيمة تربوية :

عرّف الباحثون العدالة بأنها (القواعد القائمة إلى جانب قواعد القانون الأصلي مؤسّسة على وحي العقل والنظر السليم وروح العدل الطبيعي بين الناس)^(٣). ويستمد العدل أهميته من كونه صفة من صفات الله تعالى، ويعد العدل أحد أهم القيم التربوية والإنسانية التي يقوم عليها الإسلام وأنه ورد في كثير من الآيات القرآنية ما يشير ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (النساء: ٥٨). وأشارت إليه السنة المطهرة في غير ما موضع كما في الحديث القدسي (يا عبادي إنني حرمت الظلم

١- عصمت محمود أحمد سلمان : حول التعايش الديني - دور الدين في تعزيز السلم الاجتماعي.

٢- محمد مجذوب محمد صالح : رؤية العالم في المفهوم الإسلامي، مركز الإسلام والعالم المعاصر، الخرطوم، ٢٠٠٨م ص ٨٣.

٣- حافظ الشيخ الزاكي : مجلة أفكار جديدة عدد ١٠ هيئة الأعمال الفكرية . الخرطوم ٢٠٠٤م ص ١٢٦.

على نفسي وجعلته بينكم محرماً^(١). ولقد دعا الإسلام إلى عدالة اجتماعية شاملة ترسيخاً لفكرة العدل كقيمة تربوية وتنمية لها كسلوك لأن العدل هو الأساس الذي يقوم عليه كل مجتمع صالح ومن هنا تظهر العلاقة الواضحة بين العدل كقيمة وبين استتباب السلام الاجتماعي ورسوخه إذ بدون العدل يكون السلم في خطر داهم يهدد وجوده وينسفه من الأساس لذا فالإسلام دعا إلى إعلان الأخوة بين أبناء المجتمع الإسلامي ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الحجرات: ١٠)، وعمل على الترغيب في كل ما يجمع القلوب ويدعم الوحدة الاجتماعية بين أفراد المجتمع.

خلاصة القول أن العدل كقيمة تربوية ضروري لاستمرار الإخاء المجتمعي واستدامته وبدونه ستختل القيم الفاضلة وتزول.

الحوار كقيمة تربوية وعلاقته بالسلام الاجتماعي:

يؤكد التربويون بأن الحوار من أهم أدوات التواصل الفكري والثقافي التي تتطلبها الحياة في المجتمع المعاصر لما له من أثر في تنمية قدرة الأفراد على التفكير والإبداع فالخلاف بين أفراد المجتمع سنة قائمة بين الناس إلى يوم قيام الساعة، ولكن بتوظيف الحوار كقيمة تربوية نستطيع أن نصل إلى قاسم مشترك بين المتخاصمين وتقريب وجهات النظر بينهم ما أمكن. فالحوار الهادي القائم على الإقناع يضبط السلوك ويوجهه إلى المسار الصحيح ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة بل أن الله تعالى نفسه قد حاور الملائكة عند خلق آدم كما ذكر القرآن الكريم في كثير من الآيات، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٣٠)، والغرض من كل ذلك هو أن ننتهج نحن البشر ذات الطريق. وهذا الأدب التربوي في الحوار صار منهجاً للصحابة والتابعين من بعدهم ولكي يكون الحوار مثمراً يوتي أكله لا بد أن يقوم على عدة مرتكزات أساسية أهمها أن يكون من غير شروط مسبقة يضعها أحد الطرفين أو

١- رواه مسلم- الجامع الصحيح لإمام المحدثين أبي الحسن مسلم، ط٢، مطبعة الحلبي، القاهرة.

كلاهما، كما يجب أن يكون هناك احترام متبادل وقبول بالآخر دون أي استعلاء أو انتقاص من قدر الطرف الآخر فإن توفرت هذه الشروط فمن المؤكد أن تكون نهاية الحوار ايجابية ويقود إلى تحقق السلام الاجتماعي المنشود وحينها يشعر كل فرد من أفراد المجتمع بقيمته ويدري أن له واجبات يجب أن يقوم بها مقابل الحقوق التي سوف يحصل عليها وبالتالي يكون المجتمع سليم ومعافى.

الدراسات السابقة :

هناك بعض الدراسات التي أجريت ولها علاقة بهذا الموضوع ومن المؤكد أن الباحث سيستفيد من هذه الدراسات لأنها تكشف له الطريق الذي يجب أن يسلكه في بحثه كما أنها تعمل على تجنبه التكرار الذي يؤدي إلى إهدار الوقت والجهد.

الدراسة الأولى :

دراسة (عادل حسن عبد الرحمن) ٢٠٠٥م^(١) :

هدفت هذه الدراسة إلى توضيح مفهوم وأهمية الوقت في الإسلام من خلال ما ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، كما هدفت إلى معرفة دور القيم التربوية في الفكر الإسلامي في إدارة الوقت واستغلاله .

استخدمت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي وتوصلت الدراسة إلى النتائج

التالية:

- ١ . يوجد مفهوم للقيم التربوية في الفكر الإسلامي وهو ما يمارسه الفرد ويتحلى به وينعكس على سلوكه في المجتمع.
- ٢ . هناك أهمية كبرى للوقت في الفكر التربوي الإسلامي لأن كل الشعائر في الدين الإسلامي مربوطة بالوقت.
- ٣ . توصلت الدراسة كذلك إلى وجود قيم عقلية تدعو إلى التفكير في هذا الكون.

الدراسة الثانية :

دراسة (الطيب أحمد عبد الصمد) ٢٠٠٥م^(٢) :

١ - عادل حسن عبد الرحمن : القيم التربوية لإدارة الوقت في حياة المسلم. المجلة التربوية - جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا عدد ٢٠٠٥م.

٢ - الطيب أحمد عبد الصمد : الأساليب النبوية لتنمية القيم الإيمانية لدى الشباب المسلم رسالة ماجستير غير منشورة - جامعة أم

هدفت هذه الدراسة إلى توضيح بعض أساليب التربية النبوية المؤدية إلى تنمية القيم الإيمانية لدى الشباب المسلم واستخدمت المنهج الاستنباطي. وتوصلت إلى النتائج التالية :

١. إن السنة النبوية هي أفضل الطرق وأقصرها لتنمية قدرات الشباب المسلم.
٢. إن تنمية القيم الإيمانية لدى الشباب المسلم ضرورة لبناء شخصية الفرد المسلم.
٣. تعتبر أساليب الحوار والقصة والإقناع أساليب هامة للتربية.

الدراسة الثالثة :

دراسة (ياسر أبو حسن أبو) ٢٠١١م^(١):

هدفت الدراسة إلى إلقاء الضوء على المنهج الإسلامي في رتق النسيج الاجتماعي من خلال المنظور الإسلامي كما هدفت إلى الوقوف على الطرق والوسائل التي عن طريقها يمكن أن نعمل على ترسيخ هذا السلام وتعمل على استدامته. استعرضت الدراسة مجموعة من الأدبيات التي اعتمدت عليها فيما بعد . وتوصلت إلى النتائج الآتية :

١. يملك النظام التربوي الإسلامي منهجاً محكماً لتحقيق السلام الاجتماعي ويعمل بطريقة تتفادى المشكلات قبل وقوعها.
٢. عمل المستشرقون جاهدين لإصاق تهمة الإرهاب بالإسلام حتى لا يتمدد وتنتشر وقد ساعدهم بعض الجهلة وأدعياء العلم من المسلمين في هذا المشروع.
٣. الإسلام لا يرضى لأتباعه أن يوصفوا بالغدر أو الخيانة، ولذلك يعمل على ترسيخ القيم الفاضلة لديهم حتى لا يقعوا في هذا الفخ الذي نصبه لهم الأعداء.

الدراسة الرابعة :

دراسة (عبد العاطي أحمد موسى وخالد رحمة الله صالح) ٢٠١٦م^(٢):

هدفت الدراسة إلى معرفة الدور الذي تقوم به كليات التربية في تقوية النسيج

القرى ٢٠٠٥م.

١- ياسر حسن أبو : المنهج الإسلامي في ترسيخ السلام الاجتماعي ، مجلة دراسات مجتمعية ، مركز دراسات المجتمع السودان عدد ٨ ديسمبر ٢٠١١م.

٢- عبد العاطي أحمد موسى وخالد رحمة الله دور كليات التربية في تمتين السلام الاجتماعي في السودان. ورقة علمية قدمت في ملتقى عملاء كليات التربية بالجامعات السودانية - ود مدني ٢٠١٦م.

الاجتماعي السوداني والوقوف على تجربة هذه الكليات مع منظمات المجتمع المدني الأخرى للوصول إلى هذه الغاية .

توصلت الدراسة إلى النتائج الآتية :

١ . لكليات التربية دور كبير في رتق النسيج الاجتماعي وذلك لما تحويه من شخصيات مؤهلة متمثلة في الأساتذة والطلاب.

٢ . نجاح المؤسسات التعليمية رهين بالدور الذي تلعبه في خدمة المجتمع من حولها.

تعقيب على الدراسات السابقة:

كل الدراسات التي أوردتها تتفق مع الدراسة الحالية على أهمية القيم التربوية في سلوك الإنسان سواء كان هذا السلوك فردي أم جماعي . كما أنها تتفق على الإسلام أنسب المصادر التي يجب أن تجعلها هذه القيم ومصدراً لها، وتختلف هذه الدراسات مع دراستي في بعض الجزئيات ، فبعضها تناول القيم بصورة عامة فمنها ما تناول قيمة الوقت فقط، دراسة (عادل) وأخرى تناولت القيم الإيمانية (دراسة الطيب) أما الدراستين الأخرتين فقد تناولت السلام الاجتماعي بصورة خاصة (دراسة عبد العاطي ، وأبو). استفادت دراستي من الدراسات السابقة في نواحي عديدة وتحديداً في كتابة الإطار النظري المتعلق بمفهوم القيم وخصوصاً القيم الإسلامية . وكذلك في جانب الاستبيان وتحديد محاوره وفقراته.

المبحث الثالث

إجراءات الدراسة الميدانية

يتناول الباحث في هذه الجزئية الإجراءات التي اتبعها في تنفيذ الدراسة الميدانية كوصف مجتمع الدراسة وعينتها ثم وصف الأداة التي استخدمها وهي الاستبانة والتأكد من صدقها وثباتها ، وأخيراً الأساليب الإحصائية التي اتبعها.

مجتمع الدراسة :

يتكون مجتمع هذه الدراسة من معلمي الدراسات الإسلامية بالمرحلة الثانوية محلية مدني الكبرى (٢٠١٦ - ٢٠١٧م) وقد بلغ عددهم بالولاية (١٨٠) معلم ومعلمة. وقد اعتبرهم الباحث هم عينة لهذه الدراسة لقلّة عددهم وامكانية الاطاحة بهم . وقد تم اختيار معلمي الدراسات الإسلامية لجملة من الأسباب الموضوعية أهمها انهم وثيقي الصلة بالحقل الدعوي والتربوي فغالبيتهم إما خطباء في المساجد (رجال) أو نساء يعملن في الحقل الدعوي ، وفي ما يلي وصف تفصيلي لعينة الدراسة :

الوحدة الإدارية	المدارس		عدد المعلمين الذكور	عدد المعلمات الاناث
	بنين	بنات		
شمال	٢	٢	١٠	٩
وسط	٥	٤	٢٠	١٨
شرق	٦	٤	٢٥	١٥
جنوب	٢	٣	٨	١٥
غرب	٤	٢	١٥	٩
حنتوب	٢	٢	٨	١٠
الشبارقة	٣	٢	١٠	٨
العدد الكلي	٢٤	١٩	٩٦	٨٤

جدول رقم (١) يوضح أفراد العينة موزعين على الوحدات الإدارية بمحلية مدني الكبرى^(١).

أداة الدراسة :

يود الباحث التعرف على دور القيم التربوية في الحفاظ على السلام الاجتماعي في محلية ومدني الكبرى ، باستخدام استبانة مقدمة إلى عينة الدراسة، حيث تعتبر الاستبانة الأداة الملائمة للحصول على المعلومات والبيانات والحقائق المرتبطة بواقع معين وتقدم في شكل عدد من الأسئلة يطلب الإجابة عنها من قبل

١- المصدر : وزارة التربية والتعليم ولاية الجزيرة - إدارة شؤون العاملين.

الأفراد المعنيين بموضوع الاستبانة^(١). وقد اتبع الباحث لإعداد هذه الاستبانة عدة خطوات وتمثلت في الآتي :

[أ] بناء الاستبانة :

وقد تم ذلك بناءً على ما توصل إليه الباحث من معلومات من خلال الأدبيات التربوية الواردة في الإطار النظري للدراسة ومقابلته لعدد من معلمي الدراسات الإسلامية في المرحلة الثانوية .

وفي محاولة الربط بين ما لدى الباحث من معلومات وما وجدته في المصادر ومحاولته بناء استبانة جيدة قام بصياغة استبانة من (٤٥) فقرة موزعة على (٣) محاور كل محور يحتوي على ١٥ فقرة . كما عرضت الاستبانة على بعض المحكمين الذين أبدوا بعض الملاحظات .

ثبات وصدق الاستبانة:

تم حساب ثابت للاستبانة عن طرق الاتساق الذاتي وهي طريقة الفاكروباخ والجدول الآتي يوضح قيم ثبات الدراسة المختلفة.

م	المحور	عدد البنود (العبارات)	الثبات
١	المحور الأول : القيم الإيمانية الاعتقادية	١٥	٠,٧٣٦٢
٢	المحور الثاني : القيم الإيمانية الخلقة	١٥	٠,٩٤٠١
٣	المحور الثالث : القيم الإيمانية التعبدية	١٥	٠,٩٤٩٤

جدول رقم(٢) يوضح ثبات وصدق الاستبانة

بلغ معامل الثبات للمحور الأول (٠,٧٣٦٢) وفي حين بلغ معامل ثبات المحور الثاني (٠,٩٤٠١) اما معامل المحور الثالث فقد بلغ (٠,٩٤٩٤) وهذا يدل على أن الاستبانة تتمتع بدرجة عالية من الثبات مما جعل الباحث مطمئناً إلى النتائج التي ستتوصل إليها الدراسة.

منهج الدراسة :

١- عبد الرحمن عدس عبيدات وكايد عبد الحق ، البحث العلمي - مفهومه - ادواته وأساليبه (همان ، دار الفكر للنشر والتوزيع ، ٢٠٠٧م ص ١٢١ .

اتبع الباحث المنهج الوصفي التحليلي في بحثه هذا ، وهو منهج يعتمد على تحليل النتائج المستخلصة من المعلومات والبيانات التي جمعها عن طريق المسح الميداني لمجتمع البحث^(١).

عرض وتفسير النتائج:

عرض نتيجة السؤال الأول الذي نصه : ما دور القيم التربوية الاعتقادية في ترسيخ السلام الاجتماعي؟

رقم	الفقرة إلى أي حد تسهم العبارات التالية في تطور النسيج الاجتماعي	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	معامل الارتباط	مستوى الدلالة
١	ترسيخ مفهوم الاستعانة بالله وان الناس أمامه سواسية	٤,٠٣	١,١٥٠	٠,٥٤١	دالة عند مستوى ١٠٠
٢	الثقة بالله رازقاً والقناعة بذلك	٤,١٧	١,١١٢	٠,٥٢٣	دالة عند مستوى ١٠٠
٣	موالاة المؤمن ومعاداة الكفار	٤,٠٨	١,٣٧٥	٠,٥٧٤	دالة عند مستوى ١٠٠
٤	الإيمان بالرسول والاعتداء بهم في أقوالهم وأفعالهم	٣,٨٢	١,١٢٠	٠,٣٣٤	دالة عند مستوى ٠,٠٥
٥	محبة الرسول (ص)	٣,٧٥	١,٤٣٧	٠,٣٧٧	دالة عند مستوى ٠,٠٥
٦	الإيمان بان الرسول بشر ولكنهم حجة علينا جميعاً	٤,١٨	١,٠٤٣	٠,٣٥٤	دالة عند مستوى ٠,٠٥
٧	دعوة الرسل قائمة على المحبة والسلام	٣,٤٧	١,٢٢٢	٠,٣٨٢	دالة عند مستوى ٠,٠٥
٨	الاعتقاد المطلق بوجود الملائكة	٣,١٥	١,٥١١	٠,٣١٧	دالة عند مستوى ٠,٠٥
٩	وجود ملكين يكتبان الحسنات والسيئات لا يقران	٣,٩٧	١,٨٧٩	٠,٣٢٥	دالة عند مستوى ٠,٠٥
١٠	الاعتقاد أن ما جاء في الكتب السماوية هو الحق	٤,٠٧	١,٩٢١	٠,٦٤٧	دالة عند مستوى ٠,٠١
١١	ضرورة الالتزام بالأركان التي جاءت في القرآن الكريم	٤,٣٧	١,١٠٠	٠,٥٩٤	دالة عند مستوى ٠,٠١
١٢	الإيمان بحياة البرزخ وأنه فيها نعيم وشقاء حسب عمل الإنسان	٣,٩٢	١,٢١٠	٠,٣٩٢	دالة عند مستوى ٠,٠٥
١٣	الإيمان بالجنة والنار وما فيهما	٤,٣٥	١,٩٩٧	٠,٥٣٤	دالة عند مستوى ٠,٠١
١٤	التصديق بقدرة الله وأن الأمر جميعه بيده	٤,٦٧	١,٥١٧	٠,٦٢٥	دالة عند مستوى ٠,٠١
١٥	التوكل على الله وأن ما أراده حادث وما لم يره لم يحدث	٤,٦٥	١,٢٠٠	٠,٦٣٦	دالة عند مستوى ٠,٠١

بالنظر إلى الجول رقم (١) العبارات (١١, ٢١٠, ١) نلاحظ أنها احرزت مستوى دلالة كبير وفقاً لمعامل ارتباطها، وهذا يشير بوضوح إلى دورها الكبير في ترسيخ مفهوم السلام الاجتماعي وعلاقتها القوية بهذا الموضوع ، لأن توفر هذا الحد من الايمان بالله والقناعة بالرزق والثقة بالله يقودان دون شك إلى تسليح الفرد ويكسبانه مناعة ضد قوى الشر التي تتربص به وبمجتمعه ، وذات الأمر ينطبق على العبارتين

١- رجاء أبو علام : منهج البحث التربوي ، مرجع سابق.

(١٥، ١٣) ، وذلك يرجع لخطورة داء الحسد على المجتمعات ووحدتها وتماسكها بل ويرجع إليه السبب الأساسي في أول جريمة قتل في التاريخ وهي مقتل احد ابني آدم على يد أخيه ، وليس بعيداً من هذا المعنى العبارة (١٥) التي تؤكد ذات المفهوم . ولو استعرضنا مسببات المشاكل التي تظهر بين الحين والآخر نجدها ترجع كلها إلى هذه الأسباب ، وهذا يفسر بوضوح ارتفاع التأكيد من قبل عينة الدراسة .

الإجابة عن السؤال الثاني الذي نصه : ما دور القيم التربوية التعبدية في

ترسيخ السلام الاجتماعي؟

م	الفقرات إلى أي حد تسهم العبارات التالية في تقوية النسيج الاجتماعي	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	معامل الارتباط	مستوى الدلالة
١	إقامة الصلاة لوقتها وفي جماعة تساهم في تحقيق السلام الاجتماعي	١.٥٤١	١.٢٤٣	٠.٥٣٢	دالة عند مستوى ٠.٠١
٢	الصلاة تنهى عن المنكرات وهذا يساهم في تحقيق السلام الاجتماعي	٣.١٢١	١.١٧٣	٠.٥١٤	دالة عند مستوى ٠.٠١
٣	أداء الصلاة تحمي صاحبها من الهلع والخوف	٣.٣١١	١.٢١٤	٠.٥٤٣	دالة عند مستوى ٠.٠١
٤	الزكاة تربي المسلم وجدانيا وتظهر قدراً من التكافل	٣.٧٣٠	١.٠١٥	٠.١٥٧	دالة عند مستوى ٠.٠٥
٥	تسهم الزكاة في القضاء على الفقر مما يؤدي إلى تحقيق السلام الاجتماعي	٤.٨٥	٠.٩٤٢	٠.٢١٢	دالة عند مستوى ٠.٠٥
٦	تعمل الزكاة على تحقيق التوازن الاقتصادي في المجتمع وبالتالي يحقق السلام	٣.٧٧	٠.٩٣٧	٠.٣٧٤	دالة عند مستوى ٠.٠٥
٧	تسهم الزكاة في إزالة الأحقاد التي هي أساس المشاكل في المجتمع	٤.٢٥	١.١٣٥	٠.٥٠٤	دالة عند مستوى ٠.٠١
٨	يعمل الصوم على تربية الفرد على مخالفة هوى نفسه وهو سبب الدمار الاجتماعي	٤.٤٠	١.٢٠١	٠.٤٣٢	دالة عند مستوى ٠.٠١
٩	الصوم وقاية للشباب من الرذائل التي تقود إلى دمار المجتمع	٤.٢٢	١.٥١٢	٠.٣٣٤	دالة عند مستوى ٠.٠٥
١٠	الحج يربي الفرد على التجرد والإخلاص	٣.٣٧	٠.٩٤٢	٠.١٧٢	غير دالة
١١	الحج يقود إلى ما يحقق السلام والمساواة بين الناس	٤.١٧	٠.٩٥٢	٠.١٥٠	غير دالة
١٢	يربي الصوم المسلم على الامتثال والطاعة	٤.٣٢	١.١١٣	٠.٣٢٤	دالة عند مستوى ٠.٠٥
١٣	يروض الصوم المسلم على الإحساس بالآخرين مما يقود إلى العدالة	٣.٧٦	١.٠٣٤	٠.٢١٧	دالة عند مستوى ٠.٠٥
١٤	يربي الحج المسلم على وحدة المصير والغاية	٣.٨٢	٠.٨٣٤	٠.١٣٢	غير دالة
١٥	العبادات بصفة عامة تعود المسلم على المسؤولية	٤.١٥	٠.٧٧٤	٠.١٧٥	غير دالة

بالقاء نظرة على الجدول رقم (٢) وخصوصاً العبارات رقم (٣، ٢، ١) نجد أنها تحققت بدرجة كبيرة ولسنا في حاجة لإجهااد انفسنا لنعرف السبب ، فالعبارات الثلاث تعبر عن شعيرة من أهم شعائر الإسلام ولا يخفى دورها الاجتماعي وفي توثيق عرى الإخاء بين أفراد المجتمع المسلم فوجود الناس مع بعضهم خمس مرات في اليوم الواحد وفي وجود الروحانيات العالية تضيء على هيأتهم بهجة ويجعل

منهم جسداً واحداً إذا اشتكى منه عضو أصابت الحمى باقي الجسد .
العبارة رقم (٥) بذات الجدول تشير إلى أهمية الزكاة كشعيرة دينية مهمة ودورها في تطيب خاطر الفقراء وجعل علاقتهم إيجابية تجاه الأغنياء. كما أنها تقود إلى خلق توازن اجتماعي لأن اختلال التوازن الاجتماعي من أكبر المهددات الأمنية الاجتماعية.
٣/ المحور الثالث:

عرض نتيجة السؤال الثالث الذي نصه: ما دور القيم التربوية الاجتماعية في ترسيخ السلام الاجتماعي؟

رقم	الفقرة إلى أي حد تسهم العبارات التالية في تقوية النسيج الاجتماعي	الحساب المتوسط	الانحراف المعياري	الارتباط معامل	الدالة مستوى
١	اهتمام الإسلام بالأسرة وتكوينها ويساهم في تعزيز السلام الاجتماعي	٤,٣٧	١,١٣٢	٠,٤٩٢	دالة عند مستوى ٠,٠١
٢	الاهتمام بالعمل الجماعي في الإسلام يساهم في تحقيق السلام الاجتماعي	٥,٢٢	١,٢٢٠	٠,٥١٧	دالة عند مستوى ٠,٠١
٣	إتباع الرهينة والانعزال عن الآخرين يهدم السلام الاجتماعي	٣,٧٧	١,١١٥	٠,٣٧٢	دالة عند مستوى ٠,٠١
٤	تأكيد الإسلام على مفهوم الانتماء الديني بعد الولاء لله يزيد الإخاء بين المسلمين.	٤,٥٠	٠,٩٩٢	٠,٤٢٢	دالة عند مستوى ٠,٠١
٥	اهتمام الإسلام وتأكيد على المسؤولية الفردية	٣,٥٠	١,١٠٠	٠,٥١٢	دالة عند مستوى ٠,٠١
٦	إقرار النظام التربوي الإسلامي في قاعدة كلكم لأدم وأدم خلق من تراب	٤,٢٢	١,٤٣٠	٠,٤٢٣	دالة عند مستوى ٠,٠١
٧	اعتماد القرآن والسنة مرجعية في حالة الاختلاف	٤,١٤	١,١٢٩	٠,١٧٢	غير دالة
٨	اعتبار القصاص واحداً من أساسيات الشريعة الإسلامية	٣,٦٤	٠,٩٤٢	٠,٢٧١	غير دالة
٩	وجود نظام التكافل الاجتماعي في المجتمع الإسلامي	٥,٣٥	٠,٩٩٧	٠,٤٧٠	دالة عند مستوى ٠,٠١
١٠	اعتراف النظام الإسلامي بالأعراف الحميدة التي سبقتها	٥,١٧	١,١٩٤	٠,٤٩٢	دالة عند مستوى ٠,٠١
١١	إسهام الزكاة في محاربة الفقر والعطالة	٤,٣٢	١,١٤٢	٠,٥٣١	دالة عند مستوى ٠,٠١
١٢	تأديب الخارجين على القانون وقطاع الطرق	٤,٧٢	١,١٣٢	٠,١٩٤	غير دالة
١٣	اعتماد النظام التربوي الإسلامي على الرقابة الذاتية وإحياء ضمير الفرد	٤,٥٥	٠,٩٩٢	٠,٢٠١	غير دالة
١٤	إشراك الأسرة والمدرسة والمسجد في عملية التربية والتنشئة الاجتماعية	٣,٧٢	١,٣٧٢	٠,٥١٠	دالة عند مستوى ٠,٠١
١٥	توظيف الموروث الشعبي خصوصاً الشعر، لمحاربة ظاهرة النهب وترويع الأمنين	٣,٩٠	١,١٢٣	٠,٠٣٢	دالة عند مستوى ٠,٠١

بالنظر للجدول رقم (٣) الفقرات (١، ١٤) نلاحظ بوضوح الأثر الإيماني لتكوين الأسرة الصالحة في خلق التوازن الاجتماعي الذي يقود إلى المحافظة للعلائق الاجتماعية مما يؤدي إلى المحافظة على النسيج الاجتماعي ، لأن الأسرة الصالحة قطعاً لا تنتج إلا أشخاصاً أسوياء يساهمون في بناء المجتمع ويعملون جاهدين إلى

المحافظة على اللحمة الاجتماعية ، ويقود هذا بلا شك إلى العمل الجماعي الذي هو عكس الانعزال والانكفاء على الذات ، ولو أعدنا النظر في الفقرات (٩ ، ١٠ ، ١١) تجدها أيضاً ذات دلالة معنوية ، وذلك لأن التكافل الاجتماعي يقود بالضرورة لجعل المجتمع بكافة طبقاته وألوانه أسرة واحدة مما يقلل من هذه الصراعات مهما كان شكلها ويقلل كذلك من فرص التنافس غير الشريف بين أفراد المجتمع الواحد .

أما العبارات (٧ ، ٨) ، فكانت ذات استجابة ضعيفة نسبياً ، وذلك لأنها تعكس الواقع المعاش حالياً في مناطق الحروب والنزاعات إذ أن الجهل وتفشي الأمية يقفان كأهم الأسباب التي تقود إلى الحروب والقتل والدمار ، لذلك على الدولة أن تسعى جاهدة لرفع الوعي الديني لدى تلك المجتمعات وتبصيرهم بحرمة الدماء والأموال والأعراض ، وبالرجوع إلى الجدول (٣) العبارة (١٥) نلاحظ أنها حصلت على أعلى درجة وهذا يقودنا إلى حقيقة مهمة وهي الدور الكبير الذي يلعبه الموروث الشعبي في توجيه السلوك الاجتماعي والديني خصوصاً في مجتمع شبه أمي ويضع لمثل هذه القيم أهمية كبرى .

النتائج والتوصيات

أولاً : النتائج :

- بناءً على ما ورد في البحث من تساؤلات فقد توصلت الدراسة إلى مجموعة من النتائج نحددها في الآتي :
- ١ . إن القيم التربوية تغلب دوراً هاماً ومؤثراً في الحفاظ على السلام الاجتماعي وتوطيد دعائمه ، إن امكن توظيفها على الوجه الأمثل .
 - ٢ . مفهوم السلام الاجتماعي يأتي في سياقات مختلفة وبمعانٍ عديدة كالتأمينية والحياة الطيبة وضمان الزرق المادي .
 - ٣ . تبدو أهمية السلام الاجتماعي متعاظمة ، إذ أنها به تتحقق سعادة الدارين .

ثانياً : التوصيات :

في ضوء النتائج التي توصل إليها البحث يمكن صياغة التوصيات الآتية :

١. ضرورة تفعيل الأجهزة الأمنية في البلاد الإسلامية بالوسائل الروحية مساهمة توفير الأمن للبلاد والعباد.
٢. تعميق المفاهيم العقدية التي تساعد في تحقيق الأمن النفسي في المناهج التربوية.
٣. تفعيل المؤسسات التربوية لكي تقوم بدورها في تحقيق السلام الاجتماعي خصوصا المسجد والمدرسة.

المصادر والمراجع

أولا : المصادر :

- ١/ القرآن الكريم
- ٢/ ابن منظور: لسان العرب، مكتبة تحقيق التراث، بيروت، ط٣، ١٩٩٣م.
- ٣/ الجامع الصحيح لسنن الترمذي، محمد بن عيسى الترمذي.
- ٤/ البخاري - الجامع الصحيح، ط١، ٢٠٠٢م، دار بن كثير، دمشق.
- ٥/ محمد بن يعقوب الفيروزبادي : معجم القاموس المحيط ، ط٣ ٢٠٠٨م ، دار المعارف ، بيروت
- ٦/ محمد بن علي الشوكاني : فتح القدير الجامع بين فني الدراية والرواية في علم التفسير ، ط٢ ٢٠٠٣م ، مكتبة الرشد الرياض

ثانياً : المراجع :

١. أحمد إبراهيم الخطيب : مفاهيم أساسية في التربية ، ط٢ ، ٢٠٠١م ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، عمان.
٢. المصدر : وزارة التربية والتعليم ولاية الجزيرة - إدارة شؤون العاملين.
٣. أمجد أبو العلا : [Http// amgaddreabea.makloulong.com](http://amgaddreabea.makloulong.com) اغسطس ٢٠٠٨م.
٤. دراسات مجتمعية ، مركز دراسات المجتمع السودان.
٥. سليمان عبد الرحمن الجلال : الوطنية ومتطلباتها في ضوء تعاليم الإسلام ، ط٤ ٢٠٠٤م ، القاهرة ، عالم الكتب.
٦. عبد الرحمن عدس عبيدات وكايد عبد الحق ، البحث العلمي - مفهومه - ادواته وأساليبه ٢٠٠٧م ، عمان ، دار الفكر للنشر والتوزيع .
٧. عبد العاطي أحمد موسى وخالد رحمة الله ، دور كليات التربية في تمتين

- السلام الاجتماعي في السودان. ورقة علمية قدمت في ملتقى عمداء كليات التربية بالجامعات السودانية ٢٠١٦م - ود مدني .
٨. فيصل محمد خياط : القيم في عصر العولمة ، ط٢ ، ٢٠٠٧م ، مكتبة الملك فهد الوطنية الرياض .
٩. ماجد زكي الزيود : تعليم القيم وتعلمها ، ط٣ ٢٠١٠م ، دار المسيرة للنشر والتوزيع ، عمان .
١٠. محمد حكيم باقر: القيم الروحية ودورها في المجتمع ، ط٢ ٢٠١٣م ، المطبعة الكاظمية ، بغداد .
١١. محمد عامر الجوهرى : القيم التربوية ما لها وما عليها ، ط٣ ، ٢٠٠٥م ، دار الفلاح القاهرة .
١٢. محمد عبد السلام العجمي (أصول التربية الإسلامية). منشورات جامعة السودان المفتوحة ٢٠٠٧م .
١٣. محمد مجذوب محمد صالح : رؤية العالم في المفهوم الإسلامي ، ٢٠٠٨م ، مركز الإسلام والعالم المعاصر ، الخرطوم .
١٤. نعمات أحمد فؤاد . من عبقرية الإسلام ط١ ، دار السحار . القاهرة .
١٥. ياسر حسن أبو : المنهج الاسلامي في ترسيخ السلام الاجتماعي عدد ٨ ديسمبر ٢٠١١م ، مجلة در على محمد الصاوي ، ٢٠١١م .
١٦. يعقوب أحمد الشهري : التربية والانتماء الوطني ، ط٢ ٢٠٠٥م ، دار الفكر ، الكويت
- المجلات والرسائل العلمية:**
١. الطيب أحمد عبد الصمد : الأساليب النبوية لتنمية القيم الإيمانية لدى الشباب المسلم ، ٢٠٠٥م رسالة ماجستير غير منشورة - جامعة أم القرى .
٢. حافظ الشيخ الزاكي : مجلة أفكار جديدة عدد ١٠ ٢٠٠٤م هيئة الأعمال الفكرية . الخرطوم .
٣. عادل حسن عبد الرحمن : القيم التربوية لإدارة الوقت في حياة المسلم عدد ٣ ٢٠٠٥م . المجلة التربوية - جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا .
٤. عصمت محمود أحمد سلمان : حول التعايش الديني ودور الدين في تعزيز السلام الاجتماعي .

مكونات المعرفة العلمية في المناهج السودانية واتجاهات طرق تدريسها بين الحداثة والتأصيل (المكون الرياضي أنموذجاً)

د. محمد طه أحمد المبارك^(١)

المستخلص

يهدف البحث إلى تحديد طبيعة أساليب تدريس مكونات المعرفة العلمية التي يتضمنها المنهج الدراسي السوداني وتحديد علاقتها بالحداثة والتأصيل واستخلاص النتائج التي تساهم في تزويد إنسان السودان بالخبرات العلمية الحديثة والقيم الإسلامية الثرة.

استخدم الباحث المنهج الوصفي التحليلي لأنه الأنسب لطبيعة هذا البحث خلص البحث إلى أن طرق تدريس المكون العلمي في المنهج الدراسي السوداني يحقق الاتي :

- نشر ثقافة الإسلام.

- توسيع قدرات المعلم التدريسية.

- تعليم تعلم المادة بنجاح.

أهم التوصيات :

- يوصي الباحث بضرورة أن تكتمل مكونات المعرفة العلمية في المنهج السوداني على الثقافات السودانية .

- يوصي بأهمية تحديث اتجاهات طرق تدريس مكونات المعرفة العلمية .

المبحث الأول

مقدمة

إن التغيير أحد سمات الحياة يحدث من خلال كل النشاطات البشرية يحدث في المحتويات المعرفية في المناهج فالمحتوى المعرفي العلمي في المنهج السوداني في

١- أستاذ مساعد، كلية التربية، جامعة القرآن الكريم وتأصيل العلوم.

تسارع متجدد لا يبقى علي وجه واحد يمر بتطورات متباينة تتغير في مضامينها ودلالاتها كل حين مما دفع الباحث للبحث في هذا الموضوع وذلك لمعرفة كمية التغير الناتج في المحتوى المعرفي للمنهج والوقوف علي كمية الجهد الذي يجب ان يبذل لعلاج ذلك التغير.

إن محتويات المعرفة العلمية قد تشمل الحقائق - المفاهيم - المبادئ - القوانين والنظريات وهي محتويات قد تربط بينها علاقات مشتركة فالرابط بين المفهوم هي الحقيقة وتصميم المفهوم يصبح مبدئاً وحقيقة وعندما يحتكم إلية الناس يصبح نظرية أما إذا اثبتت النظرية تصبح قانوناً، أن هذه الروابط تركز وتعتمد علي الآتي :

المعلم الفعال - المنهج - الطالب .

(إن المعلم الفعال يعتبر حجر الزاوية لهذه الركائز لأنه يعمل على :

- تحديث مادة دراسته
- تنمية نموه المهني
- امتلاك وسائل تدريس حديثة
- تطور قدرات طلابه في المجالات المختلفة
- ربط المكون العلمي في المنهج بمبادئ الإسلام مما يفتح باب الأمل للهداية والإيمان)١.

يقول تعالى : ﴿ مَا أَشْهَدُ تَهُمْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مَتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ (المعنف: ٥١).

مشكلة وأسئلة البحث :

مشكلة البحث تتمثل في أن المكون العلمي للمنهج الدراسي السوداني يحتاج إلي تعديل حتى يرتبط بالثقافات الإسلامية ويحتاج الي تعديل في اتجاهات طرائق تدريسه ليطور قدرات الطلاب ومعلميهم .

أما أسئلة البحث فقد انطلقت من المشكلة وحاولت الإجابة علي السؤال

التالي:

- إلى أي مدى يسهم تعديل طرق تدريس مكونات المعرفة العلمية في المنهج السوداني نحو الحداثة والتأصيل؟
- هل طرق تدريس مكونات المعرفة العلمية:
- تستخدم الوسائل التدريسية الحديثة؟
- هل تهدف إلى تطوير قدرات الطلاب؟
- هل تطور قدرات المعلمين؟
- هل ترتبط بالمفاهيم الإسلامية؟
- هل تستخدم شواهد من الآيات القرآنية؟

منهجية البحث:

استخدم الباحث منهجية محددة للوصول إلى الإجابة على السؤالين أعلاه. استخدم المنهج الوصفي التحليلي الذي يهتم بوصف الموضوع محل الدراسة ويهتم بتحليل جوانبه المختلفة التي تعبر عن أساليب تدريس المحتوى المعرفي في المنهج.

اتبع الباحث المنهج التأصيلي لمناقشة العلاقة بين المحتوى المعرفي في المنهج من خلال التحديث والتأصيل وثقافة الأمة السودانية من خلال منهج الإسلام.

أهداف البحث:

هدف البحث إلى الآتي:

١/ الوقوف على طرق تدريس محتويات المعرفة العلمية في ضوء... الحداثة والتأصيل بغرض استخلاص نتائج تسهم في إعداد إنسان السودان إعداداً كاملاً من جميع النواحي وفي مراحل نموه كلها إعداداً من خلال المبادئ والقيم الإسلامية وطرق التربية الحديثة.

٢/ تنفيذ أهداف أسلمة مكونات أساليب تدريس المعرفة العلمية كما جاءت في خطة (الفاروقي) التي تنص على الآتي:

- أ / (التمكين من العلوم الحديثة .
ب / التمكين من التراث الإسلامي .
ج / إثبات الصلة بين الإسلام ومختلف فروع مكونات المعرفة العلمية .
د / البحث عن وسائل تمكن من التألف المبدع بين التراث والمعارف المعاصرة.
هـ / وضع الفكر الإسلامي في المسار الذي يتيح له النموذج الإلهي)٢.

أهمية البحث:

- هذا البحث يساعد في معرفة مكونات المعرفة العلمية في المنهج السوداني
- يناقش البحث طرق واتجاهات تدريس المكونات المعرفية للمنهج.
- السوداني.
- يساعد هذا البحث في نمو المعارف والأنشطة الأكاديمية .

مصطلحات البحث:

١ / المعرفة :

(هي إدراك الشيء على ما هو عليه)٣.

٢ / المعرفة العلمية :

(هي التصور والتصديق، التصور يعني المعرفة والتصديق يعني اليقين)٤.

٣ / المعرفة العلمية:

(هي الجوانب المعرفية التي تنطوي عليها وجهة نظر الفرد وتشمل الحقائق والمفاهيم والتعميمات والقوانين والنظريات العلمية)٥.

٤ / التأصيل والحدثة :

التأصيل هو استناد إلى أصل ثابت وواضح فالأصل يكون على صورة دليل أو قاعدة . والدليل إما أن يكون من الشرع أو من العقل أو من الإجماع والقاعدة إما أن تكون من الفقه أو الكلام أو العرف .
الحدثة في هذا البحث تعني أن تستقل كل أمة بإسلوبها الخاص بها في

الحياة . أحياناً قد تأخذ الحداثة معناها من المعارف والفلسفات الغربية.
أما المنهج عرف بأنه تعديل سلوك الفرد نحو النمو الشامل وفق أهداف
محددة)٦.

هيكل البحث:

المبحث الاول : خطة البحث وتشمل :

- مقدمة.

- أسئلة البحث.

- أهداف البحث .

- مصطلحات البحث.

المبحث الثاني: الاطار النظري ويشتمل على :

- مقدمة (تعريف المعرفة).

- مطلب أول - محتوى المكون المعرفي .

- مطلب ثاني - مفهوم المحتوى المعرفي .

- مطلب ثالث - أهداف المحتوى المعرفي .

- مطلب رابع - مستويات المحتوى المعرفي .

المبحث الثالث:

- مطلب أول - طرائق تدريس المحتوى المعرفي .

- مطلب ثان - طرائق تدريس المحتوى الرياضي أنموذجاً للمكون المعرفي .

- مطلب ثالث - المعرفة ما بين الحداثة والتأصيل من خلال المكون المعرفي .

ختام البحث : يتكون من :

- نتائج

- خاتمة

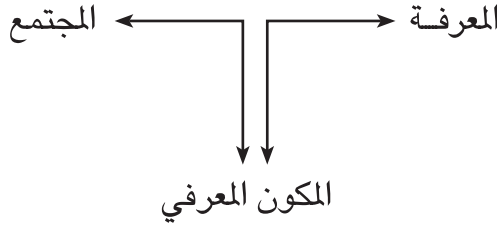
- مراجع ومصادر

- فهرس للهوامش وفهرس عام

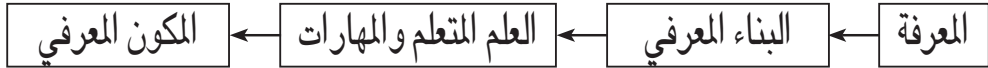
المبحث الأول

مقدمة (المكون المعرفي)

إذا كانت المعرفة عموماً تعرف بأنها التصور أو التصديق والمعرفة العلمية في مضمونها تعبر عن المجتمع في كلياته فالمكون المعرفي يتلخص في الشكل أدناه.



أما هيكل البناء المعرفي يكون على النحو التالي:



يقول الحرجالي (ص-١٨٣): (المعرفة تسهم بشكل مباشر في تشكيل المناخ الثقافي للإنسان وهي أساس فكر البشر تقوم عملياتها على: الإدراك الحسي - التذكر - التخيل - الاستقراء - الاستنتاج - الحكم والتفكير.

ولها مصدران رئيسيان اتفقت عليهما نظريتا الإسلام وعالم الغرب والمصدران هما الكون والوحي فالكون يرتبط بأمور غيبية وهذا ما يوافق الوحي كما أن الإنسان ليس محدوداً فليس العدم ما لا يعرفه الإنسان وليس الوجود ما عرفه.

إن مفهوم المعرفة أو العلم يعني إدراك الأشياء. المعرفة إدراك يسبقه جهل أما العلم فهو خلاف ذلك فالله تعالى عالماً وليس عارفاً. وقد عرّف المعاصرون المعرفة - بأنها كل اعتقاد جازم سواء طابق الواقع أم لم يوافقه وبهذا كانت المقولة - ان كل علم معرفة وليس كل معرفة علماً (٧).

المطلب الاول

محتوى المكون المعرفي في المنهج الدراسي

١- المحتوى من المنظور الخدمي :

(إن المحتوي يتكون من نفس المكونات التي حددها رالف تيلر (Ralf Tailer) في عام ١٩٤٩م وحددها في اربعة مكونات : أهداف - محتوى - أساليب - تقويم.

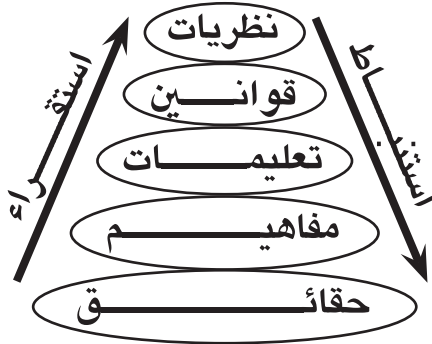
بعد ذلك توالت التعريفات في عام ١٩٦٣م اضاف برونر (BRUNER) مكونات جديدة للمعرفة العلمية تهتم بالبعد الزمني والبعد العقلي للعلم واطاف اسيود (Oswood) ومن بعدها ديلتون (DILTON) مسالتي الوسائل التعليمية والخبرات المضافة لتحصر الاضافات التعليمية في ثلاثة اطراف : المعلم - المتعلم - المنهج.

٢ / المحتوى من المنظور الإسلامي :

المحتوى من المنظور الإسلامي يعني النظر في جميع أنواع المعارف العلمية التي يجب أن يتعلمها الفرد أو الجماعة من المسلمين بحسب فائدتها ودرجة نفعها لديهم في الدنيا والآخرة.

٣ / المحتوى من منظور الحداثة :

المحدثون حددوا مكونات المعرفة العلمية بالحقائق والمفاهيم والتعميمات والقوانين والنظريات العلمية وحددوا مستوياتها بالشكل الهرمي أدناه



شكل يمثل البناء المعرفي لمكونات المعرفة العلمية

قاعدة الهرم تمثل الحقائق التي يمكن استخدامها من واقع المتغيرات القمة تمثلها النظريات العلمية ذات الطبيعة التجريبية. الشكل الهرمي في مضمونه يعتمد على علاقة صاعدة (استقراء) وعلاقة هابطة (استنباط).

٤ / المحتوى من خلال الخصائص :

مفهوم المكون المعرفي بالمنهج يتصف بالثبات والموضوعية والشمول وبالأمانة في العرض يكون بعيداً عن الذات لكنه مما يحتويه من حقائق وقوانين ونظريات تعتبر معارف نسبية في حدود الزمان والمكان للعلم ، فقد تظهر أدلة وشواهد وبراهين جديدة تدعو إلى إعادة النظر في صحة موضوعاتها)٨.

٥ / المحتوى من منظور العالم الغربي :

مفهوم المحتوى من المنظور الغربي هو عبارة عن نوع من المبادئ انطلقت منها النهضة الأوروبية وانتهت إليها وهي تتلخص في الآتي :

- الإيمان بالعالم الطبيعي على أنه العالم الوحيد الذي يسعد فيه الإنسان ويجد فيه مطالبه، ويلبي حاجاته المادية.
- الإيمان بالإنسان على أنه مركز الثقل في العالم وهو أساس التطور الاجتماعي وأساس الصراع.
- الإيمان بالعقل وهو الوسيلة الوحيدة التي تضمن السيطرة على العالم إن المعرفة عند أهل الغرب بشرية صرفه بعيدة عن الوحي محصورة في العالم المشاهد ومطبوعة بطابع الظنية.

المطلب الثاني

مفاهيم المكون المعرفي

١ / المفهوم الغربي :

إن مفهوم المكون المعرفي كما بلورته الفلسفة الغربية أصبح ينظر إليه من زاوية محدودة هي :

(المعرفة المصطنعة التي تم التوصل إليها بإتباع قواعد المنهج العلمي بصياغة في قوانين عامة للظواهر الفردية المتفرقة وهو علم يقوم على الاستقراء

ووضع الفروض فقد عرف العلم عند الغرب بأنه دراسة الواقع المحسوس إن العلم الأوربي الحديث محصور في الظواهر التي يمكن مشاهدتها بالحواس (ورد هذا المعنى في كتاب التأصيل الإسلامي لإبراهيم رجب خلال صفحات (١٥٠-١٥٩)).

٢/ المفهوم من منظور إسلامي :

اختلف المسلمون في معنى المفهوم من منظور إسلامي. قال بعضهم أن مفهوم مكونات المعرفة العلمية فرض على كل مسلم وقال العلماء منهم إنها هي العلم بالفقه وقال المفسرون أنها هي علم الكتاب والسنة.

قسم المسلمون العلوم المعرفية الى عدة أقسام منها: علوم ليست فرضاً وتنقسم إلى علوم شرعية وغير شرعية. العلوم التي ليست شرعية تنقسم الى ما هو محمود وإلى ما هو مذموم وإلى ما هو مباح والمذموم من العلوم كالسحر والمباح كالشعر)٩.

٣/ المفهوم من منظور علوم الرياضيات :

خصص التربويون مكونات معرفية خاصة بمادة الرياضيات تتكون من الآتي:

أ/ مفاهيم رياضية:

يقصد بها الأفكار الرياضية التي تحدد انتماء أو عدم انتماء عناصر معينة الى قيم محدده كأن يقال المربع مفهوم هندسي .

ب/ تعميمات رياضية:

هي جمل إخبارية تحدد العلاقة بين مفهومين أو أكثر وقد تشمل كذلك البديهيات .

ج/ الخوارزميات :

هي الأسلوب أو الطريقة لعمل ما أو هي مجموعة الخطوات التي تتبع للوصول الى الهدف المقصود .

د/ المسائل:

هي المواقف الجديدة التي يواجهها المتعلم المسلح بالعلم وبتجاربه وخبراته السابقة.

مفهوم علاقة معلم الرياضيات بالمكون المعرفي:

- معلم الرياضيات له علاقة مباشرة بمكونات المعرفة الرياضية حيث أن :
- يدرك طبيعتها وخواصها.
 - يطبق معارفه المكتسبة فيها في حل مشكلات الحياة العامة
 - يكتشف بنفسه أهدافها وخصائصها.
 - يتعرف على العلاقات بين موضوعاتها
 - ينمي مهارات طلابه من خلالها
 - يكتسب قدرات ممارسة التفكير المنطقي من مضمون موضوعاتها .

المطلب الثالث

الأهداف العامة للمكون المعرفي في المنهج

١ / الوصف: Describition:

المعرفة في الظواهر المختلفة دائماً تستخدم أوصافاً تناسب طبيعة الظاهرة التي تدرسها لتصل من خلالها إلى مجموعة من الحقائق تتضمن وصف الظاهرة

٢ / التفسير: Interpretation:

هي محاولة فهم الظواهر والأشياء ومعرفة أسباب حدوثها فإذا كان الوصف يحاول الإجابة على السؤال (كيف؟) فإن التفسير يساهم في الوصول إلى تعميمات علمية وتصورات نظرية تساهم في التنبؤ.

٣ / التنبؤ: Prediction:

لا يقف العلم عند حد وصف الظواهر الطبيعية والوصول إلى تعميمات علمية لها . لكنه يسعى إلى أكثر من ذلك وهو الوصول إلى تنبؤات صحيحة.

٤ / الضبط (التحكم) : Control :

الضبط يعني معايشة الظروف المحددة لظاهرة ما لكي تحقق وصفاً منضبطاً حيث أن الضبط غالباً ما يأتي بعد الدراسة (١٠).

تعقيب :

إن أهداف المكون المعرفي في المنهج السوداني يصف الظواهر المختلفة ويفسر وجودها ويتنبأ بحدوثها وهي أهداف عامة تصلح كأهداف لأي نظام تعليمي

في أي بقعة من العالم .
إن هذه الأهداف في انفصال واضح عن المرتكزات العقائدية لأهل السودان .
لا توجد علاقة واضحة بينها وبين ثقافة المجتمع السوداني المسلم مما جعلها تفتقد
إلى التخطيط التربوي السليم .

نلاحظ من هذه الدراسة أن عناصر المعرفة العلمية انطلقت من... أصحاب
مبادئ وأفكار غير إسلامية .

الأهداف تصف الظواهر في المنهج وتشير الى إمكانية التنبؤ بحدوثها
والتحكم فيها بينما أهداف التربية الإسلامية تأخذ الفرد المسلم كظاهرة... الظاهرة
بالمجتمع الإنساني كله تبدأ بأمر الدنيا وتنتهي بأمر الدنيا وتنتهي بأمر الآخرة في
أسلوب متكامل ومتناسق .

المطلب الرابع

مستويات المكون المعرفي

المستوى الأول : مستوى الحقائق العلمية (Scientific Fact)

يعرف بمستوى الوقائع ويقصد بالحقائق العلمية بالمعلومات التي يتم
التوصل إليها عن طريق الملاحظة المنظمة أو التجربة بعد تكرارها أو حدوثها تحت
ظروف وشروط متشابهة تقدم بها عدد من الأفراد أو الجماعات .

أنواع الحقائق :

هي نوعان: حقائق مطلقة (رئيسية) .

حقائق فرعية (غير مطلقة) .

الحقائق المطلقة : هي التي لا يتعلق وجودها أو عدم وجودها بمكان معين

أو ظرف معين أو فرضية معينة وهي تحدث تحت كل الظروف لا تعتمد وجودها على
حقائق أخرى .

الحقائق الفرعية (غير المطلقة) : هي تلك الحقائق التي يتوقف وجودها أو عدمه

بمكان معين أو ظرف أو فرضيات معينة . وهي لا تحدث إلا بحدوث تلك العوامل
المساعدة وفي الغالب تحدث بحدوث الحقائق المطلقة .

المستوى الثاني : المفاهيم العلمية (Scientific Concepts)

يعتبر المفهوم العلمي المستوى الثاني من مستويات المعرفة العلمية يأتي بعد الحقائق وهو يشتمل على عدة مواضيع يمكن تعريفه بأنه تصور عقلي لتحديد الصفات المشتركة بين مجموعة من الأشياء أو الظواهر لمادة ما يعطي المفهوم اسماً أو (كلمة) بالرغم من أن معنى المفهوم ليس معنى الكلمة بل معنى دلالاتها . تختلف المفاهيم في درجة تجريدها بعضها شديد التجريد وبعضها أقل تجريداً .
تنقسم المفاهيم الى ثلاثة أنواع :

١ / المفهوم العلمي الموحد - (الرابط).

٢ / المفهوم العلمي الغير موحد.

٣ / المفهوم العلائقي (يتضمن العلاقات).

المستوى الثالث : مستوى المبادئ العلمية

المبادئ العلمية هي مجموعة الحقائق والمفاهيم التي ترتبط مع بعضها البعض في علاقات تصف ظاهرة ما (كظاهرة تشابه المثلثات).

المستوى الرابع : مستوى القوانين العلمية (Scientific Laws)

القانون عبارة عن علاقة كمية بين مفهومين أو أكثر تصف ظاهرة معينة
($x^2+y^2=r^2$) معادلة دائرة .

المستوى الخامس : مستوى النظريات العلمية (Scientific Theories)

النظرية تعتبر قمة التجريد في البناء العلمي وهي تنبني على مجموعة من الحقائق والافتراضات (١١)

إن الحقائق والقوانين والنظريات لا يتعلق وجودها بمكان معين وقد تحدث تحت كل الظروف وقد لا تحدث وبعضها قد يكون صحيحاً في وقت ما وقد يثبت خطأه في وقت آخر وهذا الخلاف الرئيسي بين المعرفة العلمية والأحكام الإسلامية فالقران الذي تنشق قوانينه من حياة البشر يكون صحيحاً تحت كل الظروف والأزمان مادام من تقدير العزيز الجبار .

المبحث الثاني

أساليب تدريس المكون المعرفي

المطلب الأول

أساليب التدريس العامة من منظور إسلامي

مقدمة :

إن التدريس علم تطبيقي وليس مهنة روتينية . التدريس فن يظهر من خلاله المعلم قدراته الابتكارية والجمالية في طرائق تدريسه . (فطريقة التدريس هي كل ما يعلمه المعلم من خطوات متتالية ومرتبطة لطلابه بغرض تحقيق هدف تعليمي محدد) ١٢ .
وإن أهم عوامل نجاح العملية التدريسية هي :

١/ الأخذ بقواعد التدريس العامة كالترج من العملي إلى النظري وغير ذلك .

٢/ الأخذ بنظريات التعلم في التدريس كنظرية الثواب والعقاب مثلا .

٣/ تعلم المكون العلمي من المنهج بقصد الفهم والتطبيق (١٣) .

وإن أساليب التدريس أو القواعد العامة التدريسية من القرآن الكريم فقد أورد (أبوديالك - ١٩٩٥م) في كتابه تأصيل العلم أن القواعد العامة لطرائق التدريس تتكون من الآتي :

١/ مراعاة التدرج في العملية العلمية :

قال تعالى في تدرج تحريم الخمر ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (البقرة: ٢١٩) .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ (المائدة: ٩٠) .

٢/ التدرج من المعلوم إلى المجهول :

قال تعالى : ﴿وَقَالُوا إِن تَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ تَخْطِفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نَمُكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا مِمَّا يُجِبِي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (القصص: ٥٧) .

٣/ التدرج من البسيط إلى المركب :

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لِحَيِّ الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (فصلت: ٣٩).

٤/ التدرج من المحسوس إلى المعقول :

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثَقَالًا سُقِنَاهُ لِبَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نَخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الأعراف: ٥٧).

٥/ التخطيط للعملية التعليمية :

قال تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ • وَالْقَمَرَ قَدْ رَزَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ • لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (يس: ٣٨-٤٠).

٦/ إتقان المعلم للمتعلم تعلم جديد :

قال تعالى: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا • وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ (الكهف: ٦٧-٦٨).

٧/ استعمال الوسائل التعليمية كمصادر تعليم :

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَنْجَارٍ مَا نَفَدْتَ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (لقمان: ٢٧).

٨/ مواقع التكرار في مواقع جديدة :

قال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (الرحمن: ١٣) ذكرت ١٩ مره في السورة.

٩/ توفير الوقت اللازم في عملية التعلم :

قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفَصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي بُنِيتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الأحقاف: ١٥).

١٠ / مراعات الفروق الفردية بين المتعلمين :

قال تعالى : ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى • أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى • وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهِ يُزَكِّي • أَوْ يَذَكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى﴾ (عبس: ١-٤).

﴿لَا يَكْفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وَسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: ٢٨٦).

١١ / الحرص على التعلم بالعمل ما أمكن ذلك :

قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمُ تُوْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٦٠).

١٢ / توفير الاستعداد للتعلم :

قال تعالى : ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الأعراف: ٢٠٤).

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (ق: ٣٧).

١٣ / التوسع في التدريبات والتمرينات :

قال تعالى : ﴿وَكُنْتُمْ لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مُوعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَا خُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ (الأعراف: ١٤٥).

١٤ / استخدام التقويم الذاتي :

قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران: ١٣٥).

١٥ / تحقيق الانضباط لدى المعلمين أثناء تعليمهم طلابهم :

قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءٍ إِن تَبَدَّلَ لَكُمْ تَسْوُكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنزَلُ الْقُرْآنُ تَبَدَّلَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (المائدة: ١٠١).

﴿لَا تَحْرُكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (القيامة: ١٦).

١٦/ طرح الأسئلة التي تتطلب التفكير :

قال تعالى: ﴿الْهَمُّ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يَبْصُرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنظِرُونَ﴾ (الأعراف: ١٩٥).

١٧/ التحلي بالصبر على متابعة تعليم المتعلمين وحسن التعامل معهم :

قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ (التحل: ١٢٧).

١٨/ تنمية قدرة المعلم على الحسم واتخاذ القرار المناسب :

قال تعالى: ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَابِقُكَ بِأَوَّلٍ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ (الكهف: ٧٨).

١٩/ تقديس التعليم :

قال تعالى: ﴿أَمْنٌ هُوَ قَانِتٌ أَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةً رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (النزمل: ٩).

٢٠/ توفير الحرية في التعليم :

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ • وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكَلَامِنَا رَعْدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ٣٤-٣٥).

المطلب الثاني

أساليب تدريس المكون الرياضي (أمنونجا)

إن أساليب تدريس مادة الرياضيات هي نوع من تدريس الطلاب على أساليب التفكير السليم لأن المادة تحتاج إلى التفكير والى التعبير ووضوحه .

إن أكثر الأساليب استخداماً لتدريس الرياضيات هي طريقة حل المشكلات

التي تحتوي على عرض المشكلة أولاً ثم البحث عن حلول هذه المشكلة.

ومن أهم أساليب تدريس المحتوى لمادة الرياضيات الطرائق التالية :

١/ طريقة تدريس الحقائق العلمية:

هذه الطرائق تنقسم إلى قسمين :

أ/ طريقة الملاحظة .

ب/ طريقة التجريب

إن طريقة التجريب تستخدم إذا تعثر التعلم عن طريق الملاحظة ليكون التجريب بتعويض العدد من المجاهيل.

٢/ طريقة تدريس المفهوم:

يحدد المعلم مدلول المفهوم بشرط أن يناسب هذا المدلول مستوى الطلاب ثم يستخدم المفهوم بغرض تنمية مهارات الطلاب بعيداً عن الحفظ الآلي .

إن من أهم طرائق تدريس المفهوم العلمي الطرائق الآتية :

أ/ طريقة الاستقراء (Inducting) :

هي أن يقدم للطلاب مجموعة من الحقائق العلمية يتم بعد ذلك توضيح الترابط والعلاقات بينها . بهذا فقط يتحدد تكوين المفهوم العلمي.

ب/ طريقة الاستنباط (Deduction) :

من هذه الطريق يتم الوصول إلى الجزئيات من الكليات . فمثلاً يتعرف الطلاب على نوع المثلث بعد أن تعرض عليه نماذج من المثلثات .

عوامل مؤثرة في تعليم المفهوم العلمي:

توجد عدة عوامل تؤثر في تعليم المفهوم منها :

١/ تحديد الأمثلة :

كثرة الأسئلة والأمثلة عن المفهوم تشجع الطلاب على معرفة صفات المفهوم

٢/ نوع الأسئلة:

يقدم المعلم أسئلة لها علاقة مباشرة بموضوع الدرس ومعنى المفهوم .

٣/ خلفية الطالب :

المعرفة السابقة للطلاب لها علاقة وأهمية مباشرة في تعلم المفهوم.

٤/ الفروق الفردية :

على المعلم أن يقدم المفهوم الذي يناسب فوارق الطلبة العقلية والجسمية .
طرق تعلم النظرية العلمية:

يتم تعلم النظريات العلمية بالطرق الآتية :

أ/ يقدم المعلم القواعد الأساسية للنظرية العلمية .

ب/ ثم يقدم بعد ذلك البرهان الذي يؤكد صحة النظرية.

ج/ ثم يشرح تطور النظرية ويقدم نبذه عن نشأتها .

د/ يساعد الطلاب على تطبيق النظرية.

هذا ويجب أن تكون طريقة التدريس من خلال نشاط الطلاب . نشاط يعتمد

على خبراتهم السابقة مما يجعل من المعلم مرشداً وموجهاً نحو بناء النظرية.

المطلب الثالث

الحدائثة والتأصيل من خلال المكون المعرفي للمنهج

المكون العلمي في المنهج السوداني يجب أن يكون دائماً مبنياً علي أصل واضح وثابت مرتبطاً بثقافة السودان والمعارف الإسلامية مواكباً لحركة الزمن مجاله المفاهيم المعاصرة وقاعدته المعرفة العلمية والمفهوم الإسلامي .

التأصيل منهج أو طريقة في النظر تستند إلي أصل واضح وثابت أما الحدائثة بالمعني الخاص مفهوم أوربي من حيث المعني والدلالة ومن حيث المنشاء والتكوين إذا التأصيل ليس حدائثة بل ولكنة يرتبط بالعصر الحالي ولا ينفصل عن المكونات المعرفية للمنهج .

إن مفهوم الحدائثة والتأصيل في هذه الدراسة له بعد بالواقع وبالعصر الحالي الذي نعيش فيه مفهوم الحدائثة لا ينفصل عن المكون المعرفي في المنهج السوداني .
إن منهجية المكون المعرفي في المنهج السوداني بحاجة إلى التأصيل حتى نحافظ على ديننا وهويتنا .وبحاجة إلى الحدائثة أيضاً حتى تعبر عن رؤيتنا وحدنا ونواكب الزمن ونجاري تطور العلوم في العالم .

دور المعلم بين الحداثة والتأصيل :

التدريس كما يقول قيچ (Gage) عبارة عن نظام من الفعاليات يهدف إلى تقويم التعلم بينما التعليم هو الأساليب التي من خلالها يتغير سلوك المتعلم من خلال خبرات متجددة .

يقال أن تعليم الطلاب يتطلب تعليمهم (كيف يتعلمون) أو كيف يفكرون وما هو دور العلم الحديث.

إن التعليم عملية معقدة الملامح وفنية التطبيق فليكون المعلم منفذاً للعملية التعليمية فلا بد له من خبرات وتأصيل وحداثة ولا بد له من تأهيل وتدريب .

إن عملية تأصيل المكون العلمي في المنهج السوداني تتطلب من المعلم صياغة جديدة لمكونات تتم على ضوء المنهج الإسلامي من حيث المعلومة وربطها ببعضها البعض مما يدفع المكون المعرفي العلمي لتغيير القصور الإسلامي عند الطلاب .

إن تأصيل المكون المعرفي في المنهج الدراسي السوداني يعتبر رؤية منهجية معرفية شاملة تسعى للكشف عن العلاقة بين الوحي والكون .

إن تأصيل المكون المعرفي يمكن المواطن السوداني من الاهتمام بالموثوث الإسلامي . يمكنه بحيث يكون وثيق الصلة بالماضي ، مؤسساً لحضارة أصيلة يتصل حاضرها بماضيها دون أي محاولة للتقليد الأعمى لنماذج الأمم الأخرى .

إن الهدف الأساسي من تأصيل المكون المعرفي في المنهج هو تأسيس وبناء هوية لحماية الأمة السودانية من التبعية والذوبان في حضارات وثقافات الأمم الأخرى .

إذا كان الهدف من تأصيل المكون المعرفي في المنهج السوداني هو وضعه في إطار منهج ومفهوم الإسلام إذن يكون التأصيل هو عملية بناء على أساس الأصل وأن أصل المعرفة الوحي . قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء: ٨٥)، ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق: ٥).

النتائج

مكون المعرفة العلمية في المنهج السوداني يجب أن يتضمن الإيجابيات التالية:

- ١/ يحتوي التراث الإسلامي .
- ٢/ يصاغ بلغة مؤطرة بالآيات القرآنية .
- ٣/ يساهم مباشرة في نشر الثقافة الإسلامية.
- ٤/ يساعد في توسيع قدرات المعلم الإبداعية
- ٥/ يحتوى على وسائل لتعليم الطلاب
- ٦/ تكون الوسائل بأنشطة متنوعة لاستثارة تفكير الطالب.
- ٧/ وتكون الوسائل لاستثارة مهارات الطلاب المختلفة.

الختامة

يقال أن الأمة السودانية فقدت هويتها الحقيقية وابتعدت عن أصولها الثابتة وأيقنت أن التقدم فقط يوجد في الحضارة الغربية والديمقراطية الأمريكية وأن تجربة حصر الدين - كما يقولون - في روما وحصر الدعوة الدينية في شعار (دع الدين لأهل الدين ولنتجه صوب الواقعية (الجبري - ٢٠٠٥ م) ٣٥ بالرغم من هذا الخداع الذي لازم التوجهات السودانية حديثاً إلا أن إنسان السودان المسلم البسيط بطبعه يرى في الحداثة كفراً وإلحاداً فالأمة السودانية تعيش الدين الإسلامي في سلوكها اليومي على مستوى الأفراد والجماعات (٣٦) (من أفكار محمد عبده وحسن البنا).
أخيراً هذه الدراسة مجرد محاولة قام بها الباحث اعتماداً على معطيات محددة وتصور لما يمكن أن يكون عليه المكون المعرفي في المنهج السوداني والهدف الرئيسي من هذه الدراسة هو قيام نهضة سودانية على مبادئ الدين القيم .
قدمت الدراسة توصيات ونتائج واستنتاجات لا تعوض ولا تمثل بديلاً حقيقياً لتجربة المعرفة العلمية في المنهج بل هي عبارة عن خبرات تحتاج إلى قياس وإلى دراسة تتبعية لأن طبيعة المكون المعرفي في المنهج يحتاج إلى تجريب لإثبات فرضياتها .

المراجع

- ١- القران الكريم.
- ٢- السنة المطهرة.
- ٣- محمد عبد الرحيم - المعلم الفاضل والتدريس الفعال.
- ٤- نظةل حسن احمد - أصول تدريس الرياضيات.
- ٥- زائد الهويدي - استراتيجيات معلم الرياضيات الفعال.
- ٦- نبيل احمد عامر - دراسات في إعداد وتدريب المعلمين مكتبة الأنجلو - القاهرة - ط(١).
- ٧- يوسف قطامي وآخرون - تصميم التدريس - ط (٢) دار الفكر للطباعة ٢٠٠٢م.
- ٨- مجدي عزيز ابراهيم - الأصول التربوية لعملية التدريس - تربية المنصورة - القاهرة - ٢٠٠٠م.
- ٩- الفاروقي اسماعيل رامي - التوحيد مضامينه على الفكر والحياه - ٢٠١٠م.
- ١٠- محمد احمد يوسف شوقي - الاتجاهات الحديثة في تدريس الرياضيات.
- ١١- الجرجاني علي بن محمد علي - تحقيق الأنباري - ٢٠١٠م - ط (١).
- ١٢- محمد عبد القادر - طريقة تعلم اللغة العربية - ط (١).

فهرس الهوامش

- ١/ احمد سلامة - تطبيقات الرياضيات - ٢٠٠٤م - ص ٧٢.
- ٢/ الفاروقي رامي - التوحيد مضامينه على الفكر والحياة - ٢٠١٠م - ص ١٩.
- ٣/ لسان العرب - لابن منظور - ص ٦١٦.
- ٤/ زكريا بشير - العلم في القران - سلسلة - ص ٢.
- ٥/ احمد سلامة - تطبيقات الرياضيات - ٢٠٠٤م - ص ٦١.
- ٦/ الجرجاني علي بن محمد - تحقيق ابراهيم الأنباري - ط (١) - ص ١٢.

- ٧/ الجرجاني - مصادر سابقة ص ٢٨٣ .
- ٨/ محمد الخير بريمة - المعرفة بين الإسلامية والعلمانية - ورقة - ١٩٩٣ م.
- ٩/ نظلة حسن احمد - أصول تدريس الرياضيات - ١٩٩٣ م - ص ١٥ .
- ١٠/ المصدر السابق - ص ٢٠ .
- ١١/ المصدر السابق - ص ٢٠ .
- ١٢/ محمد عبدالقادر - طريقة تعلم اللغة العربية - ص ٩ .
- ١٣/ نظلة حسن احمد - أصول تدريس الرياضيات - ١٩٩٣ م - ص ٢٠ .

